M. I. Quandour

رواية
NOVEL

محي الدين قندور

أمير الحرب

الكتاب الثاني من ثلاثية بيبرس

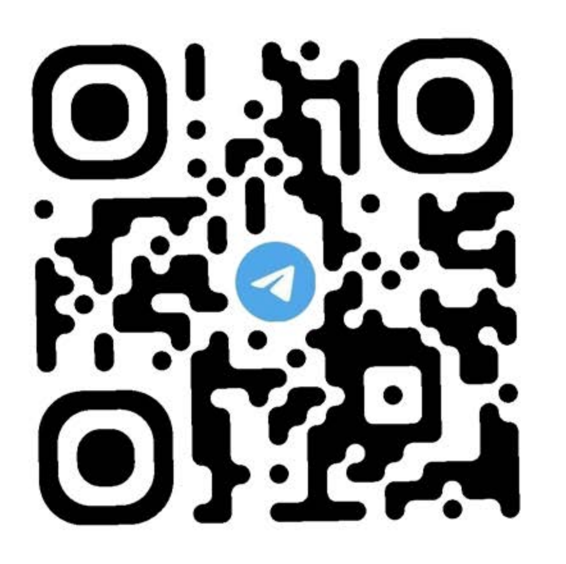
ثلاثية بيبرس II

قصة تاريخية



أمير الحرب

الكتاب الثاني من ثلاثية بيبرس



أمير الحرب... الكتاب الثاني من ثلاثية بيبرس/ رواية
محي الدين قندور / مؤلّف مقيم في بريطانيا
الطبعة الأولى، 2017



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 2190-1107
تلفاكس: 707892 1 00961 - 707891 1 00961
بيروت - لبنان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 4631229 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com

ترجمة: محمد أزوقة
تصميم الغلاف: محمود وزني / الأردنّ
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان

الترقيم الدولي: ISBN: 978-614-419-754-7

رواية
NOVEL

مكتبة | 1713

محي الدين قندور

أمير الحرب

الكتاب الثاني من ثلاثية بيبرس





المقدمة

في الكتاب الأول من ثلاثية بيبرس «بيبرس أول السلاطين الشراكسة» أعدنا الحياة إلى طفولته وخلفيته كطفل شركسي في السنوات الباكرة من القرن الثالث عشر . شاركنا كذلك في مأساة اختطافه عن ساحل البحر الأسود في القفقاس ورحلته البحرية الشاقة الخطرة ليتم بيعه في سوق العبودية بحلب ، سورية ، إلى أكاديمية الفرسان (الفروسية) لسيدها ايديكين .

شاهدنا كذلك تخرجه من مدرسة الفروسية ليتسلم منصب ضابط صغير السن في سلاح الفرسان البحري ضمن السلطنة الأيوبية .

يروي هذا الكتاب الثاني «أمير الحرب» صعوده في نهاية المطاف إلى السلطة ، ضمن السلسلة الهرمية التي ستعرف فيما بعد بسلطنة المماليك البحرية في مصر . يصف كذلك لقاءه المصيري مع رفيقه وكاتب سيرته الحياتية ، محي الدين بن عبد الظاهر (المعروف بعبد) ، والذي يوثق تاريخ بيبرس في كتابه الشهير «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» .

إن قدر بيبرس حافل بالمخاطر ، على الرغم من إنجازاته العظيمة في المعارك . فهل سيتمكن بيبرس من النجاة من جميع المؤامرات السياسية ويتغلب على أعدائه ضمن تركيبة الفرسان/المماليك حتى يتملك السلطة المطلقة؟

تصل مهمة بيبرس كأمير حرب إلى قمتها خلال معركة عين جالوت التاريخية ضد جحافل المغول ، والتي وقعت في وادي جزريل قرب بيسان في فلسطين الحديثة . يكتب المؤرخون أن هذه المعركة قد غيرت مسار التاريخ في المشرق وربما في العالم المتمدن كله . لقد شكلت الصراع العظيم الذي وضع نهاية لغزوات المغول باتجاه الغرب .

الفصل الأول
الثامن من شباط عام ١٢٥٠
قرية المنصورة، دلتا النيل، شمال مصر

عثر الشحاذ على مكان ليجلس فيه في الظلال ، قرب قمة المرتفع في طرف ميدان البلدة . الشارع الواقع خلفه فارغ وهو الروح الحية الوحيدة التي ما زالت تتحرك ضمن جدرانه ، نقطة بيضاء وبنية فوق الصفرة الرمادية للرمال . وزع ناظريه من هناك ، وقد لف منديله القديم حول رأسه ليحمي نفسه من الأشعة المنعكسة عن الجدران الطينية البيضاء ، يراقب الطريق المرتفعة المؤدية إلى البلدة ، وشبكة القنوات والحقول الممتدة على فراسخ حوله من الناحيتين ، ومع طريق واحدة ترتفع فوقها بشكل ممر ، مؤدية مع انحناءة واسعة إلى بوابة المدينة الرئيسة . بالطبع ، فإن البلدة : المنصورة ، فارغة الآن ، والبوابة مفتوحة . فقد هرب الجميع لدى اقتراب الغزاة ، مع انتقال الخبر من بيت إلى الآخر عبر شرفة المئذنة ، بأن البرابرة قد عثروا أخيراً على مخاضة لعبور النهر ، وسرعان ما سيهاجمون سكان البلدة القديمة المؤمنين .

لقد هربوا خارجين من البوابة الجنوبية ، حاملين ما تمكنوا من حمله ملفوفاً بين ذراعيهم : الأطفال ، الطعام ، وحتى بعض قطع الأثاث ، بدون أن ينظر أي منهم إلى المشرد المحني الظهر الذي كان يمشي إلى جانبهم بعرج واضح . تمكن من الوصول مع البقية حتى بلغ القوس الأخيرة ، لكن ساقيه بدا أنهما خذلتاه هناك ، فجلس مغطياً

وجهه الذي سفعته الشمس بالمنديل ، يراقب الرجال والنساء ، والأطفال يهرعون نحو ما اعتقدوه الأمان .

«لقد أصبحوا عبر النهر !» جاءت الصرخة . صحيح أن الأمر استغرق الغزاة شهوراً حتى عثروا على مخاضة في المكان المعروف باسم (البر الصغير)» .

وكان هناك جيش من رجال السلطان يقوم بمهاجمة الفرسان المسلحين تسليحاً ثقيلاً ومشاتهم في هذه اللحظة ، لكن الجميع أدرك أنه بمجرد عبور قوة الفرنجة الرئيسة للقناة ، لم يعد هناك أي أمل في احتوائهم .

قضى الشحاذ وقتاً طويلاً وهو جالس يراقب الناس أثناء فرارهم ويستمع إلى هذه التأكيدات ، ثم ، وبعد أن استعاد قوته ، عاود النهوض . لم يقدم له أي شخص يد المساعدة أو كلمة حانية . قرر الشحاذ ، وهو منحني القامة بحدة ، أن يتحرك عائداً إلى البلدة لينتظر المصير المحتوم .

لذلك جلس مسنداً ظهره إلى جوار المنزل ، وقد حل صمت غريب على الطرقات الضيقة غير المعبدة ، بينما تهادت الأنسام على الأرائك والمقاعد في الداخل ، والتي خلت من الضيوف والرواد لينعشوها بالمحادثة . مع بدء انتقال النهار إلى أشد ساعاته حرارة ، ارتكى الشحاذ برأسه إلى الجدار خلفه وتابع النظر إلى الطريق ، ليحظى بإغفاءة قبل قدوم العاصفة .

***

على مبعدة مجرد ميلين من هذه البقعة المريحة ، انفجر مشهد لمذبحة هائلة . فقد انطلق الفرسان صعوداً ونزولاً عبر خطوط الخيام

الناحلة وهم يضربون بسيوفهم ظهور الجنود المشاة المنسحبين ويضحكون أثناء هجومهم بالجملة على الفرسان المجهزين بشكل سيء، بينما تنطح رؤوس جيادهم المدرعة خيول الأعداء العديمي الحظ إلى سيقانهم الخلفية، ثم يطعنون عيون الخيالة بسيوفهم.

لقد كانت المعركة، إذا صحّت تسميتها كذلك، سريعة. فقد تم إرشاد الفرنجة إلى المخاضة من قبل شخص عربي محلي، والذي كان ينوء بثقل الذهب الذي تمت رشوته به، وبعدها فقد عبروا القناة قبيل الفجر وأنزلوا برجال السلطان الذين مازالوا نائمين، انتقاماً رهيباً، القوة نفسها التي ما فتئت تضايقهم لأشهر. شكل سفك دماء أولئك الذين عذبوهم بخطط جبانة لكل ذلك الوقت الطويل، تنفيساً رائعاً، فقد دأب أولئك على إطلاق السهام على معسكر الفرنجة، وحتى أطلقوا عليهم صواريخ نيران إغريقية، طالما أرعبت الخيول والرجال بالمقدار. فهذا عقاب إلهي وقد قرر رجال الجيش المقدس للملك لويس التاسع أن يتلذذوا بكل لحظة منه.

استدعاهم قادتهم في هذه الآونة إلى الانتظام، ليعيدوا التجمع في وسط ما كان معسكر جيش السلطان الأيوبي. كانت قطع صدور الدروع وعباءات الفرسان منثرة بلون الدم القرمزي، ودروع السيقان مغطاة حتى الركب بالدماء وقطع اللحم المنثورة.

صدرت صرخة عارمة من الجهة القصية للطابور، حيث كانت مجموعة من الرجال تخرج من الخيمة الكبرى، حاملين مابدا مثل قارب فضي فوق رؤوسهم، بوجود ثلاثة رجال فرنسيين ضخام الأجسام على كل جهة. كان ذلك مغطس حمام.

تدفقت المياه من الطرفين وتقافز رأس من حافة إلى الأخرى أثناء

حمل الجنود له في هيئة استعراض ، وهم يتغنون بنشيد زحف فرنسي أثناء مسيرهم . كان الرجل في داخل حوض الاستحمام ميتاً ، والماء الذي يندلق إلى الأرض قد اصطبغ بالحمرة من دمائه .

هناك سيف ناتئ من جرح مفتوح في صدره ، حيث تم طعنه . كان معروفاً أثناء حياته باسم فخر الدين ، وزير السلطان المتوفى حديثاً الصالح أيوب ، وأحد المقاتلين الأكثر تميزاً بين مقاتلي الإسلام في عصره . أثناء شبابه ، أنعم عليه الامبراطور فريدريك ، حاكم الامبراطورية الرومانية المقدسة بلقب فارس ، وهو شرف متفرد وربما الوحيد على رجل مولود خارج الإيمان المسيحي .

والآن ، لدى مماته ، فقد تم تجريده من الكرامة التي طالما حملها ومنحت له على حياة كاملة من الشجاعة والتقوى والإخلاص غير المتأرجح ، حرفياً .

تبختر الجنود المنشدون باتجاه قادتهم ، بدون إغفال ولو كلمة واحدة من أنشودتهم الفجة ، ثم رفعوا الحوض عن اكتافهم بمجهود وألقوا بالجثة العارية لفخر الدين على التراب عند حوافر الخيل .

ألقى الرجال الراكبون : روبرت ، كونت ارتوا ، الأخ الأصغر للملك الفرنسي ، السير ويليام لونجسپي ، غليوم دي سوناك ، زعيم وقائد الفرسان المعبديين ، والفونس كونت پواتييه والأخ الثاني للملك الفرنسي ، ألقوا بنظرات تعبر عن مشاعر متعددة تجاه المنظر المحزن .

قال غليوم «هذا نصر عظيم . لقد دخل السلطان الفتي اللعبة لتوه ، وهاهو قد خسر يده اليمنى سلفاً» .

«الحمد والشكر للرب» قال لونجسپي .

«مجرد كافر آخر» . قال روبرت كونت ارتوا وتنشق بازدراء

«سنحرق عشاً كاملاً منهم في القاهرة ونعمل على بتر رجلي السلطان أيضاً» .

قال لونجسپي «إذا كان رجلاً نبيلاً ، ينبغي علينا أن نغطيه» .

«ونحضره لإجراء دفن مسيحي؟» قال ارتوا ساخراً «لا أظن ذلك . دعوه يحترق إلى جانب بقية المتوحشين الآخرين . ينبغي علينا أن نطارد البقية» .

«لقد قضت أوامر الملك بالبقاء في مكاننا» قال المعبدي .

«لا يستطيع الملك أن يرى أن هذا خط قتال مائع متحرك» قال ارتوا بازدراء ، وهو يقرب حصانه إلى حصان غليوم المعبدي «لقد كانت أوامر أخي تقضي بتأمين القوات داخل معسكر المسلمين . وكما يمكنك أن ترى» وأشار إلى الحقول المحيطة بالمنصورة ، حيث ما زال أعضاء جيش فخر الدين المهزومين يجرون هاربين «أن أغلبية تلك القوات تلتجىء داخل البلدة . لن نكون قد هزمناهم حتى نستولي على البلدة» .

«يجب أن ننتظر حتى يكون الملك قد أحضر جنوده المشاة لدعم الخيالة» ، أصرَّ غليوم كونت سوناك «من الجنون التحرك داخل منطقة غير مسيطر عليها حيت تعلم بوجود قوات إسلامية خفيفة بمجرد فرساننا الثقيلة . يحتمل أن لديهم رماة سهام خيالة ، مقاليع ، إسقاطات ، خنادق مخفية . . .»

قال ارتوا «أنت تقلق مثل امرأة ، يا دي سوناك . لقد بدأت أعتقد أن السبب في عدم تمكنك أنت ومعبدييك من دفع هذا الجمع من الكفار إلى البحر هو تهورك أنت شخصياً» .

انتفض غليوم مغضباً «لقد تجاوزت حدودك ، يا كونت ارتوا . لن أقبل بأن يتم تناول شرفي كفارس ، ولا شرف نظامي بهذه التعابير» .

ضحك ارتوا هازئاً «حقاً لا؟ تعال إذن وقاتل معي . أثبت معدنك المعبدي إلى جانب فرساننا المحليين ولنرسل هؤلاء الحيوانات إلى الجحيم» .

لم يقل غليوم شيئاً لكنه جمع سيور حصانه وسحب سيفه . هزَّ ارتوا رأسه برضى «إن الرب معنا هذا اليوم ، أيها الأخ المعبدي . دعنا نريه أننا قادرون على القتال من أجله تماماً كما فعل هو من أجلنا» .

«إن الرب قد شاء» قال ألفونس كونت پواتييه وهو ينظر إلى كونت ارتوا ، شقيقه الأصغر .

«الرب قد شاء» صاح لونجسپي .

التفت ارتوا إلى خادمه «إجمع الرجال وأخبرهم بأننا سنتحرك خارجين . سنقوم باحتلال البلدة» . هو من العائلة الملكية ، الشقيق الأصغر للملك ويتولى القيادة بحكم مولده . كان بوسع الفونس كونت پواتييه ، الأخ الأكبر سناً ، أن يخالفه ، لكنه لم يفعل .

انطلقوا نازلين في الدرب ، تتزايد ثقتهم بأنفسهم مع كل خطوة لحوافر خيلهم المحذية . فقد بدأ التخطيط للحملة منذ سنين ، ومع كل تلك الصلوات وكل أعمال الخير باسم الرب ، فقد تمكنوا من تجميع ما اعتقدوا أنه أعظم جيش ليسوع المسيح منذ أيام الحملات الأولى إلى الشرق في أيام أوربان الثاني والقديس جودفري .

لقد تم قضاء ثلاث سنوات كاملة في تكديس كميات هائلة من الطعام والنبيذ على جزيرة قبرص ؛ لتموين الرجال والمطايا التابعين للحملة ، بحيث نمت جبال كاملة من التربة حينما تبرعمت الذرة ونبتت على التلال . تم تستيف براميل النبيذ على ارتفاعات وأعماق هائلة بحيث ظهرت من البعد وكأنها زرائب بدل مجرد مستودعات

تموين . ساهمت كل مدينة في فرنسا بالأموال لتخليص الأراضي المقدسة ، وعندما حان الوقت أخيراً ورست قواتهم على السواحل المصرية ، قاد الملك بنفسه الهجوم خلف الراية الملكية . هربت القوات التي أرسلها فخر الدين للتصدي لدى رؤية أسطولهم وسفن الإنزال ، وهكذا احتلوا بلدة دمياط العظيمة . انطلقت قصائد التآسي على هذه الخسارة الأليمة عبر جزيرة العرب ومصر وسورية ، لكن القتال لم يكن قد انتهى .

فقد أعاد فخر الدين تجميع قواته واستخدمها لإنهاك الفرنسيين الجالسين حالياً داخل أسوار دمياط ينتظرون وصول المزيد من التعزيزات . لشدة مفاجأتهم بالسهولة التي استولوا فيها على البلدة ، لم يعودوا في الحقيقة واثقين مما ينبغي عليهم فعله تالياً . فقد أنهت الهجمات الليلية صبرهم وأرهقت أعصابهم ، وعندما اتخذ القرار في النهاية للتحرك باتجاه القاهرة ، فقد تابع فخر الدين كل تحركاتهم وأغلق كل مخاضة ومعبر لمئات الأميال في كل اتجاه . من بداية إلهية ، فقد تباطأت حملة المقاتلين المقدسين لتحرير القدس انطلاقاً من مصر ، معقل القوة الإسلامية في الإقليم ، توقفت كلياً . تغير كل ذلك في هذا الصباح ، والآن وبعد انتصارهم الأخير ، فقد كان الرب مع فرسان فرنسا وحلفائهم المعبدين ، وهكذا هدرت الطريق إلى المنصورة بصوت حوافر ألف حصان قتالي قوي ، زهرة الرجال المقاتلين لفرنسا ومملكة القدس .

الفصل الثاني

من بلدة المنصورة ، على المرتفع الذي أغفى فيه الشحاذ ، ظهرت سحابة الغبار التي أثارها جيش الفرنجة فوق المنحنى في الطريق مثل نقطة بنية . شاهدتها عينا الشحاذ المسبلتان وارتفع رأسه قليلاً . راقبها وهي تزداد حجماً ، مع اقتراب الفرسان . لابد وأن سرعتهم كانت جديرة بالإعجاب ، لأنهم قطعوا نصف المسافة بين أول ظهور لهم وبوابة البلدة الرئيسة بسرعة هائلة . أمامهم ، في الحفر وشواطئ الأقنية ، شاهد الشحاذ الأشكال الراكضة لرجال النبيل فخر الدين ، على مسافة بعيدة في الوادي ، بحيث بدوا له مثل نملات صغيرة ، وقد تخلصوا من دروعهم ، وبقيت قطع المعدن الصغيرة التي لم يتخلوا عنها ، مثل أقفال أحزمتهم ، تنعكس عنها أشعة الشمس مثل بروق صغيرة .

مع وجود مسافة بين الفرسان المطاردين والانحناء في الطريق ، استطاع الشحاذ أن يرى أنهم لوحدهم بدون طوابير من الرجال المشاة أو أي دعم يسير خلفهم . راقب سحابة الغبار لبضع لحظات أخرى ، غير قادر على رؤية أية تفاصيل عن مظهر القوة القادمة فيما عدا الرؤوس المتباهية والسيقان الأمامية للمطايا في المقدمة ، والخوذة المربعة التي تغطي كامل وجه الفارس . ومع ذلك لم تظهر أية قوات على الدرب . لقد كان الفرسان لوحدهم ، وقد بدت قوتهم مثل إعصار متوحد لعيني الشحاذ ، يلف حول البلدة وجاهز لأن يلقي بنفسه على الأسوار .

نهض الشحاذ بعد أن تصلب جسمه من طول الرقاد ، تناول المنديل وأنزله عن رأسه . رفع ذراعيه في الهواء والمنديل يطوحه النسيم نحو السماء وألقى برأسه إلى الوراء ، وقد وصل إلى مسافة بضع مئات من الأذرع من حيث وقف .

نخز ارتوا مطيته اللاهثة لتسرع أكثر وأشار بسيفه إلى الأمام . «ها هي البوابة ! ألم أقل لكم إن عدم مطاردة عدونا ستكون مسألة شريرة؟ انظروا أيها الرجال ، لقد تركوها مفتوحة !»

انطلق خلفه هتاف وزادت المجموعة المتقدمة سرعتها مرة أخرى «لأجل الرب ! ولأجل الملك لويس!» هدر ارتوا وردد رجاله هتافه «لأجل الملك !»

«بوزيان ! بوزيان» أجابت سرية المعبديين «كونوا نبلاء . كونوا ماجدين»

وصلت دماء ارتوا حد الفوران واقترب من الهذيان حينما رأى عدم وجود مجرد حارس واحد حول البوابة . خفض رأسه نحو رقبة حصانه وتهيأ ليركب إلى ميدان البلدة مباشرة ليزرع فيها راياته . أدار رأسه باتجاه اليمين ، حيث يركب حامل راياته پيير إلى جانبه ، بيرق عائلة ارتوا القديم مرفوع عالياً في ذراعه اليمنى . ابتسم ارتوا وفتح فمه ليتكلم حينما طار شيء في مدى إبصاره من زاوية عينه وضرب پيير في وسط رقبته . في لحظة ، سقط حامل الراية إلى الخلف على سرجه وغاب ، بحيث سقطت الراية في التراب . لم يتوفر لارتوا وقت سوى ليرفع عينيه ويرى ما ظهر وكأنه رجل في ثياب شحاذ يقف على مرتفع فوق البوابة ، ممسكاً بقوس ونشاب قبل أن يتمكن من رؤية أي شيء آخر ، عبر من المدخل ووجد نفسه في عتمة البلدة .

مشوا عبر الطرقات ، مطرقعين وزاعقين بالأوامر القاضية بالتحقق من القطاعات الخلفية وعلى الجوانب . استمروا عبر متاهة الأزقة الضيقة ، ولم يشاهدوا أو يسمعوا أي شيء حي فيما عدا أصوات رفاقهم وحيواناتهم .

ركب لونجسبي إلى جانب ارتوا «يبدو أنهم أخلوا هذه البلدة أيضاً ، يا مولاي» .

نفض ارتوا رأسه «هناك حامل قوس فوق هناك على الاستحكامات في مكان ما . يحتمل وجود المزيد من المقاومين العنيدين في هذه الجهات أيضاً» . التفت إلى أحد الخدم «إحرص على أن تتم العناية ببيير وأرسل قوة إلى فوق هذه الدرجات أيضاً . أي رجل يتم العثور عليه يحمل سلاحاً يجب قتله» .

التفت عائداً إلى لونجسبي «لنحاول العثور على ما يمكن اعتباره قاضياً أو دار بلدية في هذه الزريبة ونجعل احتلالنا رسمياً» . رفع صوته باتجاه الخادم المبتعد «وأخبر الملك بأننا قد استولينا على المنصورة !» .

اخترقوا متعمقين في المستوطنة ، ومع ذلك لم يتحرك شيء . كل بيت وبناء مقفل وشبابيكه مسدودة . لم يكن هناك محليون فضوليون يبحلقون من النوافذ أو من خلف الأبواب . لم يظهر أي رئيس بلدية ليقدم لهم مفاتيح البلدة .

«لقد أصابهم الشلل من الرعب إلى درجة أن كل ما فكروا فيه هو الجري» . قال لونجسبي :

«هكذا يبدو» قال ارتوا ، وهو يحدق ويراقب المرتفعات لئلا يظهر رامٍ قناص آخر .

اقترب خادم آخر وأعلن أن الفونس كونت بواتييه يهنئهم على

احتلال البلدة ، وأنه سينسحب الآن ليعود إلى الانضمام للملك .

«إنه يخاف من غضب شقيقنا الأكبر» قال ارتوا للنوجسپي واستمر في البحث على الطوابق العليا لبيوت البلدة .

«لابد وأن ليس لهم حاجة لرايات الأعداء في قاعاتهم» .

«آه ، فعلاً يا لونجسپي» خفض ارتوا عينيه نحو الشارع أمامه «حسناً ، دعونا نرى ما لدى هذه البلدة لتقدمه» .

ابتعد اللوردان متجهين نحو ما افترضا إنه اتجاه مركز البلدة ، متبوعين بطابور طويل من رجالهما ، وقد غمرهم الغبار في هذه الآونة ، بالإضافة إلى الدماء من معركتهم السابقة ، وجاء خلفهم المعبديون أيضاً ، وغليوم دي سوناك ومساعدوه ، يركبون بوجوه عابسة على رأس الطابور . جاءت الساحة ضيقة بقدر توقعاتهم عندما وصلوا إليها بعد بضع دقائق . حتى المسجد ومئذنته التي لم يزد ارتفاعها على عشرين قدماً ، لم تكن تستحق زريبة تعيسة .

بدت البلدة للفرنجة مثل مركز تعبوي بني مغبر على الطريق إلى مكان أفضل .

لو كانت في فرنسا ، لما كانت تصلح لشيء غير مكان لجعل خيولهم تتبول في طرقاتها وشرب النبيذ المحلي من قربة جلدية . صار الكل منهم ، وقد أصبحوا يعدون بمئات الفرسان ، يتلفتون حواليهم في فضول . لقد حضروا إلى هنا لمطاردة آخر رجال العدو ، لكنهم ليسوا موجودين حتى يمكن العثور عليهم . أصبح الأمر مزعجاً . تآلفت عينا لونجسپي مع الظلال ، فلاحظ أن الأبنية في غالبيتها من طابقين ، وهو أمر نادر الحدوث في إنجلترا ، البلاد التي قدم منها .

مال إلى الأمام فوق زوايا سرجه وانتظر . استمر ارتوا في التلفت

حواليه وكأنه يتوقع قدوم موفد خارجاً من أحد الأبنية ، يحمل وثيقة استسلام والمفتاح لخزينة البلدة في أية لحظة . في النهاية ، وعندما أدرك أن عيون القوة كلها مسلطة عليه ، نادى على أقرب نقيب وأمره بالبدء في تفتيش البلدة ، بينما تقوم قوات أخرى بالتحرك لتأمين المخارج في الجهة القصية .

«سوف نتمركز هنا وننتظر قدوم الملك» قال وهو يبذل أقصى جهوده ليبدو مرحاً .

«نتمركز ونحفر الخنادق بماذا؟» قال دي سوناك «ليس لدينا أي أدوات ولا جنود مشاة للسيطرة على البوابات وتشغيلها» .

«ما مدى صعوبة أن تترجل عن حصانك وتدير المقبض؟» أجابه ارتوا بعصبية ، فقد بدأ يشعر بضيق شديد من المعبدي الصارم . فكر فيه على أنه ضعيف ، وكأنه قسيس ما .

تلفت دي سوناك حوله على تشكيلة اللوردات والفرسان الملتفين حولهم . وسخون ومضمخون بالدماء ولكن رغم ذلك ، لم يكن بالإمكان إخفاء رقي دروعهم ومعاطفهم . حتى خيولهم كانت ترتدي دروعاً وحماية أفضل من أغلبية الجنود العاميين المحيطين بهم .

«لماذا لا تأمر بعضاً رجالاتك المتميزين بأن يترجلوا ويتناولوا مجرفة ما ، أيها الكونت ارتوا؟» قال دي سوناك ، مع ابتسامة واضحة رغم أسنانه المصطكة :

«أنا على ثقة من أنهم سوف يطيعونك ويلبون حاجاتك» .

ضاقت عينا ارتوا وفتح فمه ليعاود الكلام ، لكنه أوقف نفسه ، نفض رأسه وعاود تفحص ساحة المنصورة الصغيرة بكل تفاصيلها .

كان النقيب الذي تلقى الأمر قد باشر بجمع عدد من الفرسان

العاديين مثله ؛ للاضطلاع بمهمة تفتيش الأبنية وأصبحوا على وشك التحرك ، حين أجبرتهم الضوضاء الصادرة عن أصوات من جهة البوابة التي عبروها لتوهم ، على التلفت باتجاهها .

«ماذا هذا؟» سأل ارتوا «ما الذي يحدث؟»

بدأ الخبر يتواتر وصولاً بين صفوف الرجال من الشارع إلى الساحة ، فركب النقيب باتجاه الطريق و تشاور للحظة مع بعض الرجال هناك ، ثم عاد أدراجه .

قال «لقد تم إقفال البوابة !»

«البوابة؟ أنا لم أصدر أمراً بذلك . من الذي أغلقها؟» نظر ارتوا إلى لونجسپي ودي سوناك ثم أدار فرسه وهم بالتوجه إلى هناك لاستطلاع الأمر بنفسه .

قال النقيب «لا يا سيدي ، لم يكن ذلك الفعل صادراً عنا» .

«إذاً ، من فعل ذلك ، أيها الرجل؟» توقف ارتوا ليحدق فيه .

«لا أعرف يا سيدي» قال الضابط المرتبك .

سحب لوجسپي سيفه «إنهم لا يضعون مصلحتنا في قلوبهم ، أيها الكونت ارتوا» .

قال ذلك واستدار نحو رجاله . «إلى السلاح!» ، قام الخيالة الإنجليز والجاسكون باتباع أمره وسرعان ما تبعهم دي سوناك والمعبديون . بسبب كونهم محشورين في الساحة والشوارع خلفهما ، لم يكن لديهم مجال للذهاب إلى أي مكان ولا أن يفعلوا أي شيء سوى البقاء حيث هم بكل الأحوال ، وقد أخذت خيولهم الحربية الضخمة تضرب الأرض بحوافرها في نفاد صبر . في تلك الأثناء ، تصاعد حجم الضوضاء عند البوابة ، مصحوبة ليس فقط بصيحات الحرب بل أيضاً

بصوت وقع الفولاذ على الفولاذ الذي لا يمكن الخطأ بشأنه .

زأر دي سوناك «هذا كمين !»

التفت إليه ارتوا «غير ممكن يا دي سوناك . كما قلت ، فأنت تقلق مثل -» تخافت صوته حين لمح حركة على السطح خلف رأس المعبدي . لم يتأكد في البداية ، فزاد من تحديقه وتركيزه ، لكن قبل أن يتوفر له الوقت ليصرخ بتحذير ، تعرضوا للهجوم .

ظهرت من كل باب وشباك ، وجوه سمراء متوشحة بالعمائم ، وكل واحد منهم يحمل قوساً ونشاباً ، وأطلقوا وابلاً من السهام بصمت مطبق على ظهور الفرسان والمعبديين المجتمعين ، الذين مازالوا مشتتين بالاستماع إلى أصوات المعركة الآتية من الجهة المعاكسة . وحده ارتوا ، الرجل الذي قادهم إلى ذلك المكان ، برغم كل النصائح والأوامر ، شاهدهم قادمين فجاءت صرخته المخنوقة «رماة سهام!» متأخرة كثيراً .

سقط عشرون قبل أن يدرك الفرنجة ما يجري ، وأخذت الجياد ، التي ذعرت من القذائف التي انغرزت في مؤخراتها ، ترفع قوائمها الأمامية وتجري بكل اتجاه ، ولم يعد فرسانها قادرين على السيطرة عليها فألقي بهم إلى الأرض تحتهم .

صرخ دي سوناك «أيها المعبديون ، اثبتوا في مواقعكم ! ردوا على العدوان !» تبع القساوسة المقاتلون المدربون جيداً أوامر سيدهم وشكلوا مربعاً ، ومد كل واحد يده إلى القوس الصغير الذي يحتفظ به في سرجه وأخذوا يسددون باتجاه مطلقي السهام من المرتفعات التي فوقهم .

أجفل رجال ارتوا جراء الهجوم ، حتى إن بعضهم حاول أن يتراجع نزولاً في الشارع حيث بات واضحاً وجود كمين منصوب لهم ، لكن

العقول الراجحة غلبت عليهم وبدأوا يصلحون مواقعهم .

«أيها الفرسان الفرنجة ! انضموا إليّ !» رفع ارتوا سيفه وانطلق يعدو متقدماً . كان يمكن لهجومه أن يكون أكثر فعالية لو لم يعيقه صغر حجم الساحة خاصة وأن المنفذين قد تم سدهما . لم يحرز في هجومه تقدماً أكثر من عشرة ياردات ، لكن على الأقل ، فقد أعاد رجاله تنظيم صفهم .

سأل دي سوناك «من أين هم قادمون؟»

رد عليه المعبدي «وهل ذلك يشكل فرقاً؟ إنهم موجودون هنا ويريدون أن يقاتلوا . ذلك يكفي» .

في تلك اللحظة ، صعدت صرخة جادة من الناحية القصية للبلدة .

«ما ذلك؟» قال ارتوا ، وعيناه تتقافزان على سطوح الأبنية حيث انهمك رماة السهام في النهوض وإطلاق السهام ثم الركوع للاستعداد ، يمطرون الفرسان ومن خلفهم في الطريق .

«فرسان» قال دي سوناك «إنها صرخة الفرسان البحريين» .

لم يتسع الوقت لقول المزيد ، لأن موجة من الفرسان ظهرت من الناحية البعيدة للساحة الصغيرة واتجهت مباشرة نحو خطوط الفرنجة .

بسبب ذهولهم من الهجوم الجوي من رماة السهام وصدمة الهجوم عند مدخل البلدة ، فقد أبدى الفرسان الفرنجة دفاعاً رمزياً قبل أن يبدأوا في التراجع . امتطى الفرسان البحريون جياداً مدرعة تماماً مثل جياد أعدائهم ، وجاءت دروعهم ، رغم أنها أخف وزناً من مثيلاتها الغربية ، قوية بما يكفي لصد طعنات الرماح القصيرة «الجريد» للفرسان المحاصرين . عمل المجال المحدد لمصلحة الأسلوب الإسلامي في القتال

وجيادهم العربية سريعة الحركة ، بوجود السيوف المعقوفة تحوم فوق رؤوس المهاجمين وتنزل على الرقاب غير المحصنة لفرسان الفرنجة وخيولهم . في أعقاب الهجوم من جنود الصاعقة الأماميين ، ظهر فصيل من جنود المشاة ، كل منهم مسلح برمح طويل وأخذوا يطعنون الفرسان الذين لم يتوقفوا عن محاولة التراجع بطريقة يائسة . أسقطت دزينة منهم عن جيادها وسقطوا على الأرض الجافة الصلبة للساحة برنين معدني ، حيث رقدوا مطعونين ، غير قادرين على حمل أنفسهم بسبب الوزن الهائل لدروعهم الواقية وثقل جنود العدو المشاة الذين يدوسونهم .

زعق ارتوا «شكلوا صفاً ، شكلوا صفاً ، عليكم اللعنة !» . همز حصانه إلى الأمام ، محاطاً بمساعديه الفرسان ، لكنه لم يتمكن من الابتعاد واضطر إلى الاكتفاء بمجرد سد الثغرات في صف الفرنجة القتالي بحجم وقوة مطيته . أصبح الفرنجة وحلفاؤهم المعبديون في وسط حصار ضاغط كبير ، غير قادرين على التحرك قدماً بسبب الأعداد التي بدا أن لا نهاية لها من الفرسان المسلمين الذين اندفعوا من جانب البلدة الجنوبي ، بالإضافة إلى المشاة الداعمين لهم ، بينما في الخلف ، كانت بقية رفاقهم محشورين في الشارع المؤدي إلى بوابة الدخول ، يقاتلون بكل قواهم للوصول إلى البوابات الثقيلة ومحاولة فتحها مرة أخرى . ظهر رجال من على الأسطح وبدأوا يلقون بالحجارة الضخمة على رؤوس الفرنجة ويمطرونهم بالمزيد من السهام في وسط كتلتهم . رد الفرنجة على الرماية من أقواسهم ، وأسقطوا عدداً من المهاجمين ، لكن أعدادهم ومعدلات رمايتهم كانت متدنية بحيث عجزت عن منافسه أقواس فرسان المسلمين الذين باتوا يطلقون ستة أو

سبعة سهام مقابل كل سهم يتمكن الفارس الفرنجي المحشور أن يطلقه بسبب قفازاته المعدنية الخرقاء .

«ادفعوا للأمام !» صاح لونجسپي فوق الزعقات والصرخات «قاتلوهم أو تموتوا!»

أدرك أولئك المحيطون به أنه على حق وبدأوا يلتفون حول رايته ، محاولين أن يندفعوا إلى الأمام لإيجاد مساحة ما يمكنهم فيها من تشكيل صف والقيام بهجوم ، ولثانية قصيرة ، بدا وكأن الفرسان المسلمون قد أخذوا يترددون ، برغم تصميمهم الجاد .

صاح ارتوا «عليكم بهم ! هيًّا ! لأجل الرب والملك لويس !»

عند ذكر اسم مليكهم ، جدد الفرسان جهودهم مرة أخرى ، يطوحون بسيوفهم الطويلة بعنف ضد رماح المشاة ، وباذلين أقصى جهودهم لصد خيول المهاجمين العربية الناحلة .

زعق ارتوا «الآن انتصرنا عليهم ! الآن انتصرنا عليهم» وبدا أنه على حق . فقد ظهر أن خط الفرسان المسلمين قد فرغ من أشخاص جدد ليلقي بهم في المعمعة ، وبدا كأنهم قد أخذوا ينكمشون أمام خط الفرنجة الأعرض .

صاح دي سوناك «بوزيان!» وقد تخضب رداؤه الأبيض بالدم الأحمر إلى درجة أنه كاد يمتزج ويتوحد مع لون الصليب الأحمر المرسوم على صدره . ألقى فصيل من المعبديين بثقلهم خلف الاندفاع الفرنسي ، وللمرة الأولى شعر أولئك الموجودون في مقدمة خط القتال بالفرسان المسلمين يتخذون خطوة إلى الوراء . صعد هتاف هائل من الفرنجة وألقوا بأنفسهم على عدوهم مرة أخرى ، يجرحون ويطوحون ، متجاهلين الجروح في وجوههم وأذرعهم وسيقانهم .

ركلوا الرجال والوجوه التي تحاول أن تحاصرهم وتطرحهم أرضاً ، ومع ذلك فقد أقدم المزيد من رفاقهم بضرب ظهور أولئك الفلاحين الذين تواقحوا لدرجة أنهم فكروا في مهاجمة فارس من مملكة فرنسا .

في تلك اللحظة ، عندما أصبحوا على وشك دفع فرسان المسلمين من الساحة والاختراق ، انفجر صراخ آخر خلفهم ، عند مدخل البلدة . مر الهتاف فوق الفرنجة والمعبديين مثل موجة باردة أو دفقة من الماء البارد حد التجمد . استدار العديد منهم ، رغماً عن إرادتهم ، عن العدو أمامهم ، لينظروا ويشاهدوا ما يحدث في المؤخرة .

أخذ الفرنجة الذين يقاتلون الآن في الشارع المؤدي إلى الساحة يتراجعون نحو المجال المفتوح حيث كان رفاقهم محشورين أصلاً ويحاولون أن يجبروا العدو على الخروج من الجهة الأخرى . وصل إلى أسماعهم صوت آخر جديد من هذه البقعة غير المرئية على بعد بضع مئات من الياردات ، غناء وصل إلى آذانهم من خلال شبك التنفس في خوذتهم الحديدية وتردد صداه حول رؤوسهم وكأنهم يسمعونه في قاعة هائلة أو داخل كاتدرائية .

«بيبرس ! بيبرس ! بيبرس !»

أصبح الرجال في المؤخرة بحالة اندحار كلي حالياً ، يطردون خيلهم إلى داخل الساحة حيث يستطيعون ، لكن الأكثرية بدأوا يترجلون عن جيادهم ويركضون . سنحت لارتوا ولونجسبي ثانية مختصرة ليتبادلا نظرة حزينة جدية قبل أن يستجمع الفرسان المسلمون جرعة أخرى من الحماسة لدى سماعهم الهتاف من الجانب البعيد ، ويهاجموهم مرة أخرى . رغم أن الترجل يشكل الإذلال الأسوأ بالنسبة للفارس ، فقد أدرك معظمهم أنه لم يعد هناك مجال لا للتقدم ولا

للتراجع على خيولهم ، ولذلك ترجلوا ، وهم يضربون بسيوفهم رجال المسلمين حاملي الرماح ثم اتجهوا إلى الأبنية المحيطة بالساحة ، يدفعون الأبواب بأكتافهم ويندفعون إلى الداخل ، بحثاً عن أي شيء يريحهم أو حتى يعدهم بالأمان . راقب ارتوا أحد الرجال ، فارس عرفه طيلة حياته ، يتخلى عن القطع الأثقل وزناً مثل الخوذة وصفيحة الصدر ، يرسم إشارة الصليب ثم يؤدي ركضاً متمايلاً ليحتمي بأحد البيوت ثم يتجه إلى الدرجات الموجودة خلف الأبواب الموصدة مباشرة . نظر ارتوا إلى الأرض لثانية ثم قام بالعمل نفسه .

تجاوز القتال الدائر في الساحة حد اليأس بالنسبة للفرنجة في هذه الآونة وكذلك بالنسبة للمعبديين ، بينما قام الفرسان المسلمون ، الذين أدركوا أن لهم اليد العليا في المعركة ، بتعزيز هجماتهم بصرخات أقرب إلى الزغاريد وحتى الشعارات المقدسة . دب الذعر في فرسان الفرنجة ، ولكن حتى في ذلك الموقف الخطير ، ظلوا أقوياء ، واستمرت ضرباتهم العنيفة تصيب ما يقارب العدد نفسه من جنود العدو مثلما يصيبهم ويطرحهم بدورهم .

لكن نقطة ضعفهم الأكثر تأثيراً بكل الأحوال ، ظلت ثقل دروعهم ، ووجد أولئك الذين أهملوا التخلص من الصفائح الثقيلة الموجودة حول جذوعهم ، إما بسبب الخوف أو النسيان ، أنهم في وضع ضعف قاتل في اللحظة التي تعثَّر أحدهم فيها أو تم دفعه ليسقط على الأرض من قبل عدو مهاجم . تم القضاء على العديد من هؤلاء بواسطة خنجر دفع من خلال فتحة الإبصار في خوذتهم ، بحيث كان آخر ما شاهده أولئك التعساء في الدنيا هو رأس الخنجر الرفيع بحجم الدبوس لهذا السلاح الشرير . إلى جانب هتافات الحرب وطرقعات الفولاذ ، ملأ

الأجواء صهيل الخيول الجريحة ونواح العديد من الجرحى .

في البيوت العلوية ، انهمك أولئك الذين حالفهم الحظ إلى درجة النجاة من القتل في الساحة ، في تحصين أنفسهم داخل الغرف المهجورة والمستودعات التي عثروا عليها .

وصل ارتوا والفارس الذي لاحقه إلى غرفة ضيقة ، هي عبارة عن مربع مفتوح من أعلاه عند السقف لإدخال النور وسرير مغرق في الصغر ملتصق بالجدار .

«أغلق الباب!» صرخ ارتوا . أخذ يدور مهتاجاً في أرجاء الغرفة ، وكأنه يحاول أن يخترق زوايا الزنزانة التي وجد نفسه بداخلها .

«سيصلون هنا عما قريب ، يا مولاي» . قال الفارس ، لكنه نفذ الأمر الصادر إليه .

«إليك ، استعمل هذه» ألقى إليه ارتوا بكرسي صغير بثلاث أرجل ، والذي حاول الفارس بغير نجاح أن يحشره خلف الباب كنوع من أدوات الإغلاق . على أية حال ، لم يكن هناك ما يمكن تعليقه به ليسد الباب ، لذلك تركه الرجل على حدة ووقف ضاغطاً الباب بكتفه .

«هل يمكنك أن تتسلق ، يا مولاي؟» قال وهو يومئ برأسه إلى فتحة الإنارة .

«أتسلق إلى أين؟» ردّ عليه ارتوا بعصبية «لقد اكملوا محاصرتنا . إن فرصتنا الوحيدة في النجاة هي الانتظار لرؤية ما إذا كان الملك يستطيع أن يرسل تعزيزات» .

نظر الفارس ، المدعو پيير من بايو ، إلى الباب ، وتذكر المذبحة التي كان قد هرب منها لتوه .

لم يكن واثقاً مطلقاً من أنهم سيتمكنون من الصمود أكثر من الساعة القادمة . لن تتطلب مطاردتهم الكثير من المسلحين إلى داخل البناية بمجرد أن ينتهوا من رفاقهم على الأرض .

قال «إذاً ينبغي علينا أن نصلي» .

حدجه ارتوا بنظرة احتقار وضرب الأرض بقدمه . كان سيف الكونت مغروساً في الأرضية ، فأدار المقبض الفخم بحيث أخرج النصل قطعاً وانسجه من صفائح الأرضية .

بدأوا يدقون على الباب بقوة ، وصار ارتوا يتجول في دائرة ، وهو يصفق رأسه براحته ، بينما استمر پيير من بايو يدفع بكل ثقله وقوته ضد اللوح الرقيق لإبقائهم خارجاً .

قال «لا فائدة ترجى يا مولاي . أرجوك ، حباً بالرب . تسلق وانج بحياتك نحو السلامة» .

خفض ارتوا جسمه إلى القرفصاء «لقد خسرنا كل شيء . لا أمل هناك» . شفط أنفه ، ثم مسحه . «دعهم يدخلون» . قال ذلك وقد اكتسب صوته قوة جديدة . «دعنا نواجه قدرنا كما يشاء الرب» .

اخترق نصل بلطة الباب فوق رأس پيير مباشرة «لا يسعك أن تستسلم يا مولاي . أنت شقيق الملك ! أرجوك أن تنتهز هذه الفرصة الوحيدة وتذهب» . قفز إلى الخلف بينما اخترقت البلطة الباب مرة أخرى ، تحت ذراعه هذه المرة . لم يتوفر له من الوقت أكثر من إسناد المدخل المتهاوي للحظة قبل أن يندفع الرجال من الخارج داخلين وأفقدوه توازنه . استنتج من صرخاتهم الرهيبة أن عددهم كبير جداً .

«وكيف سأواجه شقيقي بعد أن قدت جيشه إلى حتفه ، ضد قطيع من الكلاب الشرسة المتوحشة؟» نهض ارتوا ورفع سيفه . حدجه

بيير بنظرة يائسة . جاءت ضربة هائلة على الباب بحيث كادت تقذفه إلى الجهة المقابلة من الغرفة ، لكنه تمكن من الصمود . كان لديهم كبش خشبي أو مطرقة ثقيلة .

«لن يعمد لويس إلى الفرار بعد أن يجلب فرسانه إلى مثل هذه الكارثة ، وأنا لن أهرب بدوري» . ذهب كل الغرور التافه السابق لدى ارتوا ، وحل محله تصميم مشوب بالندم . «سوف أتبادل الأمكنة معك يا بيير . أو بإمكانك أن تختار إنهاء الأمر هنا ، معي» .

سحب بيير نفساً عميقاً . جاءت ضربة عنيفة أخرى على الباب . قال «هي إرادة الرب» .

طأطأ ارتوا برأسه «هي إرادة الرب» .

سحب بيير سيفه وقفز إلى الخلف مبتعداً عن الباب ، في اللحظة نفسها التي دفع فيها الرجال في الخارج بالكبش الخشبي على الباب مرة أخرى . ألقى العمود الخشبي السميك بالباب إلى الخلف ، لانعدام المقاومة ، وكادت فصالاته أن تنخلع ، واندفع الرجال بالاستمرارية إلى وسط الغرفة . اخترق السيفان الرجلين الراكضين في المقدمة من قبل ارتوا وبيير ، أصيب الأول في صدره والثاني في بطنه . تدحرج هذا على الأرض وأمسك بأمعائه ، وهو يئن من عذابه . توفر للاثنين الآخرين وقت كافٍ للإلمام بما يجري وألقيا بالكبش الخشبي ، لكن لم يتوفر لهما الوقت للوصول إلى سلاح أو الابتعاد عن السيفين . اتبع ارتوا الضربة الأولى ولوح بسيفه ليفتح رقبة الرجل بسحبة قوية ، بينما قضى بيير على الآخر بضربة على كتفه غير المحمي بدرع . تقاطر الجنود المصريون إلى داخل الغرفة ، رأوا أن الطريق مفتوحة وقفزوا من فوق جثث رفاقهم . لم يتوفر لارتوا وبيير المجال لرفع سيفيهما مرة أخرى قبل

أن يتكاثر الناس عليهما ويطرحوهما بفيض من طعنات السيوف والخناجر. مع حلول وقت سحب جثتيهما إلى الخارج، جعل أثر الدماء على الدرجات المنظر يبدو وكأنها قد تم طلاؤها باللون الأحمر.

في الساحة، بذل دي سوناك ومن تبقى من المعبديين جهودهم للتراجع ببطء خارجين من الساحة ليدخلوا في الشارع الخلفي.

«مساحة، نحن بحاجة إلى مساحة!» صرخ دي سوناك على أقرب رجل إليه. «أعطونا مجرد ياردة وسوف نهاجم من خلالها!»

استدار المعبدي، وهو زاهد صغير السن، كان قد انضم إلى التنظيم حديثاً، لينفذ أمر قائده، ليرى فارساً مسلماً شاباً بعينين ثائرتين، ينقض مسرعاً ويدفع برمحه في وجه دي سوناك. ندت عن المعبدي صرخة هي مزيج من الغضب والرعب فطوح بسيفه نحو رقبة الفارس، فأصاب الشريان وأسقطه من فوره.

«يا مولاي؟»

غطى دي سوناك عينه اليسرى بقفازه لكن الرجل استطاع أن يرى الدماء تنسكب نزولاً من بين أصابعه.

«من أنت؟» سأل دي سوناك بصوت ضعيف.

«أنا مارتين، وأنا أصلاً من أورليان. لقد تحادثنا من قبل يا مولاي».

«مارتين من أورليان» قال دي سوناك، وسحب شهيقاً حاداً من خلال أنفه بصعوبة. «يجب علينا أن نخرج من هذه الساحة ونعود أدراجنا إلى جيش الملك. إذا لم نفعل ذلك فسوف يموت التنظيم المعبدي معنا هذا اليوم».

أنزل يده وحدق في وجه مارتين. كان الجرح في عينه عميقاً

واسعاً ، فلم يتمكن المعبدي الشاب أن يوقف نفسه من القفز لمجرد رؤيته . فقد اختفى البؤبؤ والبياض كلياً وتدفقت دماء دي سوناك وماؤه من الثقب العكر نزولاً على خده وإلى داخل لحيته . «لن نسمح بموت التنظيم المعبدي هذا اليوم» . قال دي سوناك .

تلفت مارتين حواليه ورأى أن عددهم أصبح أقل من عشرين شخصاً . لقد وصل عدد الناس الذين دخلوا راكبين إلى البلدة معه إلى المئات ، لكنهم صاروا راقدين على الأرض أمواتاً أو أنهم اختفوا . لم تبق إلا حفنة من الرجال الشجعان تقاتل الحشد . قاتل الفرسان المسلمون بكفاءة واقتدار عنيفين ، بأسلوب أشبه بمثال للتصميم والنظام المعبدي . لكنه لم يسمح لنفسه بتدنيس إيمانه ونذره كفارس أو يخيب آمال الرجل المصاب بجرح بليغ أمامه .

«سوف نقاتل يا مولاي» .

هزَّ دي سوناك رأسه ببطء ، الأمر الذي شكَّل جهداً كبيراً له . صاح مرة أخرى :

«أيها المعبديون ! هلموا معي!» جددوا جهودهم للانطلاق خارجين والعودة إلى الخارج في مربع من الفرسان ، تماماً مثلما تملي عليهم تدريباتهم ، بينما قاتل الفرنجة الباقون على قيد الحياة في معارك إفرادية بدون أن يدعموا رفاقهم فتمت محاصرتهم بسهولة وطرحهم على الأرض .

***

خارج البلدة وإلى جهة الجنوب ، تماسك الخط المصري وتصالب وتناقصت أعداد الرجال الفارين من كارثة الصباح إلى أعداد قليلة مرهقة . لم يعد يظهر من البرية إلا رجل أو اثنان بدلاً من سرايا كاملة ،

يستجدون الماء ويبحثون عن بقعة من الظلال ليرتاحوا فيها .

اقتعد سيف الدين قطز ، قائد الفرسان البحريين وصاحب المركز الثاني بعد فخر الدين نفسه ، صهوة حصانه العربي الرائع ، يراقب المشهد .

الآن وقد توفي القائد الأكثر احتراماً ، فإن توجيه دفة المجهود الحربي قد أصبح بيد قطز بالضرورة ، وبات هو يبذل أقصى جهوده ليخفي شعوره المتنامي بالدمار الذي لازمه وهو يراقب بقية جيش الأمير تتقاطر تجر أذيالها إلى داخل المعسكر .

تركزت أفكاره على الطريقة التي سيخبر فيها السلطان الجديد ، الذي وصل إلى مصر لتوه قادماً من سورية ، بأنه يواجه خياراً مكشوفاً ما بين التراجع إلى الجنوب ، لأن الفرنجة سوف يحتلون القاهرة الآن حتماً ، أو عودة وارتداد كامل باتجاه سورية ، ومحاولة تخليص اتفاق ما مع الملك الفرنسي ، الذي سوف يسيطر على أغنى البلدان في المشرق . لم يكن ذلك خياراً على الإطلاق . وضع قطز يده على مقبض سيفه ونظر إلى الشمال ، وكأنه يتوقع أن تنفجر العاصفة الفرنجية مثل غيمة ماطرة على السماء الزرقاء والنهار القائظ .

«ما هي أوامركم ، يا صاحب السيادة؟» لم يكن الضابط قد تعدى سنوات مراهقته كثيراً ، تماماً مثلما كان قطز في تلك السن حينما تخرج من أكاديمية الفرسان في حلب . **الطباق** ، ولم يحمل وجه الفتى أياً من القلق الذي زرعه عقد السنوات المنصرم في وجه قطز .

قال قطز «أمرهم بأن يبقوا أحياء» .

«سيدي؟»

«لقد سمعتني . قل لهم أن يخرجوا أنفسهم من الطريق ويعودوا

إلى أقرب ملجأ متوفر» .

«نعم سيدي»

«أريد من بقية القوات التي نجت أن تهدم المعسكر وتتهيأ للمسير فور صدور الأمر» .

«نعم يا سيدي»

«سيقاتل أولئك الذين يبقون هنا حتى آخر رجل بينهم . يجب أن لا يسمح للكفار بأن يركبوا باتجاه القاهرة بدون مقاومة» .

«أمرك سيدي»

نظر باتجاه صوت خيال قادم ويقترب . كان الرجل وسخ الثياب ، مبهور الأنفاس ، يقطر التعرق من كل مسام وجهه الذي سوَّده التعرض للطقس .

انتفض الغبار من شاربه لدى أدائه التحية . نظر الضابط الذي كان لتوه يتلقى أوامر المسير من قطز ، إلى القادم الجديد شزراً ، وكأنما المزيد من الأنباء السيئة سيمزق بقية السيطرة المتبقية لديه على أعصابه ، فينهار لدى سماعه لها .

فكر قطز «ما هي الكارثة الأكبر في يوم مثل هذا؟ لقد مات فخر الدين . ما الذي يمكن أن يتفوق على ذلك؟»

قال الرجل «أيها **الأتابك** قطز» كبادرة اعتراف برتبة الرجل الجديدة كقائد عام ، وهو يلهث بقدر لهاث حصانه .

نظر قطز إلى الضابط الأول وأشار إلى الخيال بنفاد صبر «أسقه الماء ، الآن» .

تناول الضابط قربة الماء خاصته بعجالة وناولها . شرب الرجل جرعة طويلة وهزَّ رأسه امتناناً .

قال «المنصورة» .

«هل أقدموا على إحراقها؟»

نظر إليه الخيَّال متسائلاً ، ثم نفض رأسه «كلا يا صاحب السعادة . إنهم يقاتلون» .

«ماذا . من هو الذي يقاتل؟ هل هم الفرنجة بين أنفسهم؟»

كلا يا سيدي . إنهم إخواننا البحريون . لقد قاموا بمحاصرة فرسان الفرنجة في داخل البلدة . إنها مذبحة . لقد تراجعوا إلى البيوت وتركوا مطاياهم خلفهم . تمكنت قلة من المعبديين من الفرار ، ولكن قلة قليلة . لقد مات المئات» .

«المئات؟ من فرسان الفرنجة؟» هذه أخبار في منتهى الأهمية والخطورة ؛ لأن الفرنجة لا يساوون شيئاً بدون قواتهم الراكبة .

«هل ما زالوا يقاتلون؟»

«لقد كانوا يقاتلون لدى مغادرتي ، لكن المسألة منتهية . لقد ضرب الملك الفرنسي معسكره على بعد حوالي مرحله قرب القنوات . لقد هلك أفضل رجاله ولم يبق لديه سوى الفضلات . يحتمل أن يكون القتال قد توقف بحلول هذا الوقت . إن مركزك بعيد في المؤخرة لدرجة أنه استغرقني وقت طويل حتى وجدتك» .

انطبق فم قطز بشدة على هذا النقد الذكي المموه . «من هو الذي أصدر الأمر لهذا الهجوم؟»

تناول الخيال جرعة أخرى وابتسم «بيبرس ، يا صاحب السعادة . من غيره؟»

اقترب قطز من البلدة من جهة الجنوب بصحبة فرسان مرافقين على جانبيه وخطوط رؤية واضحة من الطرقات كافة . كان هناك فرسان

في الجهة القصية من البلدة، حول البوابة ويخرجون إلى الحقول خلف حدود البلدة. لم يتحركوا باتجاه قطز وقواته أثناء اقترابه منهم ببطء. عندما وصلوا إلى مسافة مئتي ياردة، أصبح من السهولة بمكان رؤية أن الرجال الذين يحرسون البلدة هم رفاق السلاح. انهكتهم المعارك، لكنهم فرسان بحريون شراكسة بما لا يحتمل الخطأ. انطلق نداء من برج المراقبة الجنوبي إلى ساحة البلدة خلفه. مشى قطز بجواده متقدماً، متبوعاً برجاله.

ظهر عند البوابة شكل رجل يعرج، في ثوب بسيط كان حتماً أبيض سابقاً، وغطاء رأس، ومشى باتجاه القوة القادمة. راقبه قطز ورجاله وقد تملكتهم الحيرة. فقد كان هناك عامل غير حقيقي حول مسار الأحداث لذلك اليوم، وكان هذا مجرد تطور آخر لا يخضع للمنطق. راقب الرجال الذين يحرسون البلدة مشية الشحاذ أمامهم بدون أي تعليق.

أوقف قطز حصانه أمام الشكل الشبحي وانحنى إلى الأمام، واضعاً يداً على وركه والأخرى على سروع الحصان. توقف رجاله على مسافة خلفه.

«أين هو قائدكم؟» صاح على الحرس تحته. لم يأته أي جواب. زمجر بازدراء ثم أعاد النظر إلى الشحاذ.

«وماذا يفترض فيَّ أن أجعل منك؟ تكلم! أم أنك فقدت ذكاءك إلى جانب كبريائك وهيئتك؟»

«لقد شهدت الكثير من المعدن هذا اليوم، يا سيدي». جاء صوت الشحاذ عالياً مشروخاً، مثل صوت امرأة عجوز. تراجع قطز إلى الخلف في ذعر حين برزت يد سريعة من تحت الأثواب وألصقت نفسها، مثل

الملزمة ، فوق ركبته مباشرة . ضرب بيده على القبضة ، لكنه لم يتمكن من تخليص نفسه .

«لكن كل المعدن في هذه البلدة قد اخترق قلوب الكافرين» . تغير الصوت إلى النغمات الرنانة العميقة لصوت رجولي . نظر قطز إلى الرأس المغطى ثم إلى الذراع الممسكة به ، والتي أدرك لتوه لمن تعود هذه الذراع المشعرة ، ذات العضلات القوية الضخمة ، والمعصم الغليظ والأصابع القوية . انفتحت عيناه على اتساعهما .

استخدم الشحاذ ذراعه الأخرى ليلقي بالثوب إلى الخلف ، ولدى رؤية الوجه الضاحك ، انفجر جميع الرجال ، بمن فيهم رجال قطز وكل أولئك الموجودين في البلدة ، في عاصفة من الضحك .

«بيبرس» قال قطز وسط ضحكة .

«قطز» أجابه بيبرس ، رافعاً صوته بما يكفي ليسمعه الجميع «نحن منتصرون . لقد انهار المعبديون وقد أسرنا أعداداً من الرايات الفرنجية والفرسان بحيث لم تعد المنصورة تتسع لهم» .

«وماذا عن الملك؟»

فقد وجه بيبرس قليلاً من بريقه «إنه مختبئ قرب النهر . على ما يبدو ، فإن الكونت ارتوا ولونجسبي ، بالإضافة إلى دي سوناك ، دخلوا البلدة بدون أن ينتظروا دعمه . وقد قيل لنا إن ذلك حدث خلافاً لأوامره . استغل أبناؤنا طمع أولئك وقاموا بعزلهم» . استدار إلى رجاله الذين يراقبون من الأسوار والبوابة .

«ثم قمنا بالقضاء عليهم ، أليس ذلك صحيحاً أيها الشباب؟» هتف فيهم . هتفوا باسمه المرة تلو الأخرى «بيبرس ! بيبرس ! بيبرس !» وانضم رجال قطز إلى الهتاف ، الأمر الذي أثار حفيظة قطز .

«لقد تمكن دي سوناك من الإفلات مع عشرة من رجاله . جثة ارتوا ممددة إلى جانب بضع مئات أخرى من رجال الملك . لقد أخبرنا الاثنان اللذان سمحنا لهما بالعيش أنهما شاركا في استعراض جثمان الأمير في حوضه قبل أن يدنسوها على الأرض . عارية» .

اتخذ وجه بيبرس تعبيراً عنيفاً يعرفه قطز تمام المعرفة ، وأدرك أن عليه أن يخشاه . «لقد أكرمنا شقيق الملك بمعاملة مشابهة وقد أرسلت خبراً بأننا ننوي أن نسدد لهما بالعملة نفسها» .

«ماذا؟»

«سوف أفعل الشيء نفسه بقادتهم» .

«كلا» خفض قطز صوته بحيث لا يسمع ما يقال سوى هو وبيبرس «لن تقام أي عمليات انتقام أو إعدامات حتى يصل السلطان» .

رفض بيبرس لكن قطز استمر يحدق في عينيه وقال له إِن المسألة غير خاضعة للنقاش .

«هل تعرف مقدار قيمة الملك؟»

«أنا أعرف قيمة الخوف يا قطز . إذا لم يخشانا هؤلاء الناس فهم لن يتركونا بسلام» .

«إن السلطان هو صاحب القرار في مصير أعدائه ، يا بيبرس . لا تفترض أنك ستقوم بالتفكير نيابة عنه . إن ذلك منوط بإرادة الله وحده» .

أحسَّ الرجال على الجهتين مقدار الخلاف الصادر عن الرجلين حتى لو أنهم لم يفهموا بالضبط ما كان يقال .

«كما تقول يا قطز . نحن جميعاً تحت سلطة السلطان الجديد .

حالياً» . رجع إلى الوراء ورفع صوته في صرخة احتفالية . «ليحضر إخوتنا ويشاركونا في انتصار الفرسان البحريين هذا اليوم ، وبعدها سنطارد هؤلاء الغزاة إلى داخل البحر !»

صدر هتاف عظيم آخر واصطحب بيبرس قطز وبقية رجاله إلى داخل البلدة لمشاهدة القتلى والمشاركة في مجد الانتصار .

الفصل الثالث
بغداد

«سواء جاء التشويش من قبل الفيلسوف أو من الحديث ، يجب دائماً تفسيره وتحليله» .

تململ محي الدين بن عبد الظاهر على وسادته . «ولكن يا سيدي ، أليست الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى قد ترك لنا بعض المسائل الغامضة حتى نحلها بأنفسنا ، أم أنها تكشفت لنا وينبغي علينا أن نفهمها؟»

«إنها الشيء نفسه يا عبد «قال عازر» إذا لم تستطع أن تفهم شيئاً ما ، فهو بطبيعته غموض بالنسبة إليك» . أثار هذا القول جولة من الضحك من العلماء الآخرين ، فأحسَّ عبد بخديه وقد التهبا» .

«أقصد أنه أليست الحقيقة هي أن الله قد وهبنا متاهة من المسائل المختلفة» استمر في القول «والتي يعود إلينا أن نتوصل إلى مقاصد الحق سبحانه وتعالى» .

أغمض الرجل العجوز عينيه وابتسم «أستطيع أن أفهم ما يحاول الفتى عبد أن يتوصل إليه» . جاء صوته لطيفاً وعالياً ، برغم احتوائه على الخشونة التي تأتي مع التقدم في العمر . «وهو مصيب في نواح عديدة . يجب علينا جميعاً أن نعثر على خضوعنا لإرادة الله بأنفسنا . يجب أن نذهب نحن إليه تعالى . أليس ذلك هو ما قصدته ، أيها الشاب؟»

«أعتقد ذلك» قال عبد .

«لكنه يتحدث عن الفضول المجرد» . استطرد عازر «مسألة يقول الغزالي أنها لن تؤدي إلا إلى الاضطراب» .

«ذلك صحيح» قال المدرس .

«إذاً من المؤكد أنه إذا كان أسلوب عبد يؤدي إلى الاضطراب الذي تحذرنا منه يا سيدي ، ينبغي التخلي عن الأبحاث . سيقرر الله تعالى وسيكشف كل شيء للمؤمنين الصادقين» . عقد عازر ذراعيه ، مسروراً من نفسه .

«ولكنني قلت أيضاً إنه ينبغي علينا أن نتوجه إلى الله ونسعى إليه ، وليس إلى الوجهة الأخرى . كيف سيتوصل الشخص إلى الكشف بدون الاستكشاف؟»

عبس عازر .

«يا عبد الفتي . لقد أسأت فهم ما قصدت إليه . ينبغي فك الاضطراب ، ولكن لا يمكن عمل ذلك بدون بعض الجهد من ناحيتنا . لذلك تم انشاء قصر الحكمة من قبل الخلفاء الأوائل الصادقين خلال القرون الأولى التي تلت تنزيل الله لنعمته على أتباع محمد صلعم . كان هناك الكثير مما يجب عمله في حينها ، وهنالك الكثير مما يجب عمله الآن . قد تبدو هذه الأمور الغريبة متعبة لنا عندما يكون إيماننا بالحقيقة صحيحاً ، ولكن يجب علينا أن نكون يقظين دائماً ، وأهم من كل شيء ، كما أخبرنا الغزالي . . .»

«يجب أن نتحلى بالصبر» أنهى عبد .

«بالضبط ، أيها الفتى عبد» .

«ولكن يا سيدي ، أليست المسألة أننا قدمت لنا اليوم حقيقة

بسيطة؟ العالم مكوَّن من النور والظلام ، ويترتب علينا أن نختار أحدهما أو الآخر . هذه الاستفسارات ، الاستكشافات ، الفضول ، مهما أردت أن تسميها ، العائدة لعبد ، أليست هي التي ستقودنا إلى الظلام وبعيداً عن النور؟»

«النور والظلام» قال عبد متفكهاً «مثل المانيشيين والزوروا ستريين» .

حدجه عازر بنظرة استياء ، وشعر أن مجموعة من الدارسين بكاملها قد توترت من حوله . ابتسم عبد داخلياً . فقد عرف أن ذلك سيكون كافياً لإسكات عازر .

كانوا جميعاً متمددين على كامل أرضية مكتب سيدي ، يصغون بتركيز شديد .

قال عازر «لا أريد أن أتكلم خارج حدودي» بعد هنيهة «كل ما أهدف إليه هو حماية الإيمان وسمعة هذه الدار» .

«بالطبع» قال الرجل العجوز «أنت تلميذ مجتهد ، أيها الشاب عازر . تخيل الآن أنك موجود في غرفة مظلمة . هيَّا ، أغمض عينيك» .

بعد تردد قصير ، قام عازر بما أمر به . نهض الإمام وتحرك مبتعداً لوهلة ثم عاود وهو يحمل باكورته التي تساعده في المشي . وضعها على الأرض أمام عازر ووقف .

«الآن ، لقد وضعت أمامك مشعلاً وصوانة لكي تقوم بإضاءة طريقك خارج الغرفة المعتمة . قم بإضاءة المشعل بدون أن تفتح عنينك» .

بدأ عازر يتحسس بيديه أمامه وهو مكب على يديه وركبتيه وسط

الكثير من الضحك المكتوم . بعد التلمس ، قبض بيده على العصا القصيرة وجلس إلى الخلف ، باحثاً عن الطرف لإشعالها . أدرك بسرعة أنه ليس ممسكاً بمشعل على الإطلاق ، ففتح عينيه وسط ضحك زملائه ، يحدق في العصا أمامه .

«أشكرك يا عازر . الحقيقة هي أن المعرفة تأتي من امتداد الأيدي في الظلام ورؤية الأشياء على حقيقتها فعلياً . لقد كشف الحق عن نفسه إلينا من خلال النبوة ، ذلك صحيح . ولكن يجب علينا أن نظل متيقظين دائماً ونحرص على أن لا نقع في الإغراء . وإلا فسنكون رجلاً أعمى يمسك بعصا المشي ويعتقد أنه قد عثر على مشعل ، وهو يتحسس في العتمة» .

ضحك جميع الدارسين ، وصفق معلمهم بيديه وفركهما ببعضهما ، وهي إشارة غير محكية بأن مناقشاتهم قد انتهت لذلك اليوم . نهض عازر على قدميه وتلفت باحثاً عن مكان يضع فيه العصا . مدَّ الرجل العجوز يده إلى الأمام .

«سوف أسترد هذه منك يا عازر ، أشكرك» .

وضع عازر العصا بين يديه وأحنى رأسه قائلاً «إنه لشرف لي أن أكون قد حظيت بإمساك عصا ابن دقيق العيد» .

برقت عينا الرجل العجوز سروراً «سوف أراك في الغد ، يا عازر» .

كان الآخرون قد غادروا بحلول هذا الوقت ، لكن عبد توانى . انتظر ابن دقيق حتى انصرفوا جميعهم ثم مشى عائداً إلى طاولة مكتبه . الجدار خلفه مليء حتى آخره بالمخطوطات ، والكتب واللفائف . انتظر حتى انصرف آخر التلاميذ ثم استدار قائلاً :

«أترى يا عبد ، حتى عازر لا يخلو من روح الطرافة» .

«حتى إذا كان ذلك الإحساس بالطرافة ينطوي على الزيف وعدم الإخلاص لك؟»

«حتى ولو . ذلك يظهر أنه مازال هناك أمل» .

«أنا لا أحبه» .

«أعرف ذلك» .

«وهو لا يحبني بدوره» .

«أعرف ذلك أيضاً . لكنه غافل عن أسباب عدم محبته لك . أنت تمتلك ما يريده هو . حتى لو كان لا يعرف ذلك شخصياً» .

«لا أعتقد أن ذلك هو الوضع ، سيدي» .

«هو كذلك . قم بمسايرة هذا الرجل العجوز» عاد ابن دقيق إلى الجلوس خلف مكتبه بحرص ، وهو يعيد تنظيم الأوراق وريشات الكتابة بيدين راعشتين .

«هل تسمح لي بإحضار ماء الورد لك ، يا سيدي؟»

«يمكنك أن تحضر لي بعض النبيذ» أشار بيده «تلك الخزانة الصغيرة هناك . القريبة من الأرضية» .

اتجه عبد إليها ثم ركع «أعرفها أيها السيد» .

«لماذا تأخرت اليوم يا عبد؟ أنت حتماً لست هنا لتساعدني في ملاحظاتي؟»

«ما كنت لأتجرأ على ذلك ، أيها السيد» .

«أنت ما كنت لتتواقح ، لكنك مساعد ذو قيمة عالية . في يوم ما ، سوف تملأ كتبك الرفوف الشبيهة بهذه» .

أحضر له عبد الإبريق «اتركه هنا واحضر لنفسك قدحاً» .

نفذ ما قيل له . تلذذ عبد بجرعة طويلة من نبيذ المدرس الممتاز

المصنوع من العنب ، ثم وضع القدح أمامه .

«هل ستزور الخليفة هذا اليوم؟»

«آه ، هذا هو إذاً» قال ابن دقيق مبتسماً «وأنا اعتقدت أنك موجود هنا لتستمتع بدردشة صباحية مع أستاذك العجوز» .

«يجب أن يتم تنبيهه ليرى أن المسار الذي نمشي عليه سوف يأخذنا إلى هوة سحيقة ، مليئة بالنيران» .

رفع ابن دقيق حاجبيه في دهشة «في ذلك شيء من المبالغة ، ألا تعتقد ذلك يا عبد؟ مثل ذلك الكلام المباشر سيؤدي إلى منعك من دخول البلاط لو أنك تنطق به ويسمعك مسؤول ما ، ناهيك عن الخليفة أو الوزير الأول» .

«لن يبقى هناك بلاط لهم ، إذا لم يصغوا ، أيها السيد» .

«وستكون تلك خيانة ، لو أنني سمعتها بالشكل الصحيح . ولكنني لم أسمعها» .

هزَّ ابن دقيق رأسه باتجاه الجدران «هل أخبرتك عن ثقوب الفئران التي وجدتها بين كتبي؟»

«لقد أخبرتني أيها السيد» .

«إذاً يجب أن تمارس الحيطة في الأمكنة التي تترك فيها طعامك وشرابك في هذه الغرفة . وإلا فإنك لن تعرف ما الذي يمكن أن يدخل في فمك . أو يخرج منه» .

«نعم ، أيها السيد» .

بالطبع فإن ابن دقيق كان يشير إلى ثقوب التصنت واستراق النظر ، والتي كان قد عثر عليها ، محفورة خلف رفوفه . كان قد أخبر عبد في مرة سابقة : في مكتبة بغداد العظيمة ، لا يتكلم المرء لأن

الكلام يقاطع القراء ، بل لأن هنالك شخصاً ما يسترق السمع دائماً» .

«أيها السيد ، لقد تحدثت إلى الناس البسطاء الذين ينامون في الأسواق وعند عتبات الأبواب . إن خان المغول وجيشه موجودون هنا ، إنهم يعبرون الأنهار براحتهم ، مع آلاف الجياد ورجال مدفعية صينيون . لديهم الفرنجة - الأرمن ، الملك الجورجي - يركب زاحفاً معهم . إذا لم يقبل الخليفة بشروطهم ، فإن بغداد ستتعرض لخطر الإبادة» .

«يا عبد» جاء صوت ابن دقيق استرضائياً ، وكأنه يحاول تهدئة روع طفل ما .

«لدى الخليفة عشرون ألف فارس . آلاف الرجال لتحصين الأسوار . إن عدد سكان بغداد نفسها يبلغ المليون أو ربما أكثر . إنها أكبر وأعظم مدينة في العالم» .

«كانت كذلك فيما مضى» قال عبد «لكن الأمور تغيرت . إن الأسوار تتهاوى . انحسرت الأنهار بحيث أصبح يمكن الخوض عبرها الآن» .

«وماذا عن العشرين ألف فارس» .

«هل تظن أن الخان لا يستطيع أن يستدعي ثلاثة أضعاف ذلك العدد أو أكثر؟»

«لقد طمأن الوزير البلاط بأن دول الإسلام كافة سوف تجيء لنجدة المدينة في حال تعرضها لهجوم . إن بغداد هي قلب الإسلام» .

«لكنهم سبق وأن هاجموا ، أيها السيد . هذا هو ما يهرب منه الناس الذين ينامون في الشوارع . هنالك غزاة في كل أنحاء الجزيرة . إنهم يقومون بإغلاق القنوات ، ويحرقون المحاصيل . لقد استولوا على قلعة الأموت من الحشاشين . مؤكد أن الاستيلاء على حصن فوق قمة جبل مثل ذلك هو تحدٍ مساوٍ لاحتلال بغداد؟»

«أنت لست رجلاً عسكرياً يا عبد . وقد كان جنودنا منغمسين في تلك الحملة . لقد أكد الوزير للبلاط . . .»

«ولكن ماذا لو كان مخطئاً يا سيدي؟»

عبس ابن دقيق بحدة «أنا لم أسمع ذلك أيضاً يا عبد . أعتقد أنك تكلمت بشكل غير صحيح . ما الذي كنت تقصد أن تقوله؟»

«أقصد أننا يجب أن نصغي إلى ما يقوله لنا الناس الريفيون أيها السيد . إن الحرب قادمة . يجب على الخليفة أن يعاود دفع الجزية ويخضع للخان» .

«يخضع؟ إن الخليفة هو التجسيد الحي لإيماننا . ذلك أمر لا يمكن حتى التفكير فيه» .

«وكذلك لم يكن التفكير وارداً في دمار سمرقند . لكنها دمرت إلى درجة حتى أن يد الله ما كانت ستسبب دماراً أكثر» .

«يا عبد ، لقد تجاوزت حدك ونسيت نفسك . اذهب إلى بيتك . قم ببعض العمل . ثم عد إلى هنا وسوف آخذك إلى حفل الاستقبال هذه الليلة حتى تستطيع أن ترى بنفسك . ليس هناك ما يستدعي القلق بشأنه . يمكنك أن تستمتع بالموسيقى والطعام ، وربما حتى تقابل الوزير نفسه . مع أنني أوصيك بأن لا تكرر أياً مما قلته لي هنا اليوم» .

أصيب عبد بصدمة «ذلك شرف لي يا سيدي . سأتشرف بذلك - أقصد -» .

رفع ابن دقيق يده «أعرف ما تقصده . لا تخبر أحداً من زملائك ، وبالأخص عازر» .

«حاضر أيها السيد» .

«سيكون الأمر أكثر إمتاعاً بكثير إذا اكتشفوا العملية بأنفسهم» .

الفصل الرابع
مصر

ركع دي سوناك المعبدي أمام الملك . لم يجرؤ على رفع عينيه باتجاه الوجه الذي عرف أنه سيكون ممتقعاً خالياً من أي لون ، والعينان جاحظتان مثل البصل . عينه الواحدة المدمرة مغطاة برقعة سوداء .

«لم نسمع من خادمنا الطيب دي سوناك» . جاء الصوت هادئاً ، لكنه مرتفع ، مثل زعقة مخنوقة قريبة من الهستيريا . ضم دي سوناك أصابع اليد التي تسنده على الأرضية على شكل قبضة وشعر بكل عضلة في جسمه تتقلص . . *آه يا يسوع . . الرب . إحمني* .

«هناك الكثير من الأموات ، يا صاحب الجلالة» . ماذا يمكنه أن يقول غير ذلك؟ انشغلت عينه بقطرة من التعرق ، محمرة بالدماء وقد سقطت من درعه على الغبار أمامه . «إنهم الفرسان البحريون يا مولاي . لقد طاردنا العناصر المنسحبة من قوة فخر الدين . لقد كانوا بانتظارنا» .

«لقد طاردتموهم مخالفين أوامرنا !» حملت الزعقة مقداراً من الغضب والعنف لدرجة أن دي سوناك تراجع وكأنه قد تم ضربه فعلياً .

«لقد تم إعلامك من قبل رسلنا أنه يجب عليك أن لا تمضي إلى الأمام بدون حضورنا ، أليس ذلك صحيحاً؟»

«هو كذلك يا صاحب الجلالة» .

«ماذا؟ ما الذي قلته؟ قف منتصباً على قدميك وخاطبني!»

نهض دي سوناك واقفاً وأدار عينيه في أرجاء خيمة الملك الخاصة . لم يتوفر الوقت لمد السجادة الفخمة والمطرزات كما كانوا يفعلون في كل ليلة عندما تعسكر الحاشية الملكية ، لذلك فقد كانت الخيمة تؤدي وظيفة صالون عملياتي ، أحسَّ بالمشاعر المختلطة في أنحاء المجال المغلق . نظر رجال الملك إليه بدرجة من الغضب بحيث أنه لم يعد لديه شك في أنهم كانوا سيحزون عنقه لدى أقل بادرة من مليكهم . كان هذا الغضب ممزوجاً بالإدراك الراسخ بأن قضيتهم خاسرة ، وأنه سرعان ما ستتم محاصرة قواتهم المتبقية وعزلها كلياً . لن يصمدوا طويلاً بعد أشهر من القتال الضاري والحصار ، بغض النظر عن درجة إيمان وصلابة رجالهم .

«لقد دخلنا البلدة بانتظام يا مولاي . قاد الكونت ارتوا ولونجسپي الطابور . كنا نحن في الوسط ، بينما كان شقيقك الفونس في المؤخرة» .

استدار الملك نحو شقيقه بنظرة غاضبة «هل سمحت أنت لهذا الأمر بالحدوث؟ هل سمحت لشقيقك الأصغر منك أن يخالف أوامري؟ هل عصيت تعليماتي؟ وسمحت لهؤلاء - الرجال بأن يعصوا الملك؟»

حاول ألفونس بأن يدافع عن نفسه «المسألة هي كما قال دي سوناك . لقد دخلنا بنظام محكم . بدت البلدة مهجورة فيما عدا وجود الكلاب الهاربين وذيولهم بين أرجلهم . لقد بدا موضوع احتلال البلدة والاحتفاظ بها لحين قدومك بصحبة الجيش مسألة سهلة . لقد كان موقفاً يمكن الدفاع عنه» .

«كنتم في موقف يسهل الدفاع عنه !» استعاد لويس موقف

الضابط القائد مرة أخرى . «ذلك هو السبب الذي من أجله أمرتكم بالتوقف وانتظار التعزيزات !»

ألقى ألفونس بعينيه إلى الأرض وقبل بتعنيف الملك على الفور . أدرك دي سوناك أنه على وشك أن يذرف الدموع .

«لقد كان هذا من عمل ارتوا» قال الأمير «لقد أقنع دي سوناك متحدياً حتى تبعه . إن جلالتكم تعلم كيف يتصرف بخشونة مبالغ فيها» .

«ولماذا لم توقفه أنت؟» قرَّب الملك وجهه إلى مسافة بوصة واحدة من وجه أخيه ، وصاح فيه كما قد يفعل رقيب مع جندي متدرب «لقد كنت أنت تحمل الرتبة الأعلى ! أنت الأمير الأكبر سناً ! كان يفترض فيك أن تحرص على اتباع تعليماتي وقراراتي ! ومع ذلك سمحت لشقيق أصغر منك أن يقود المسيرة لأنه أرهبك» . أشار الملك إلى الصحراء «هنالك الآن أكثر من ألف من خيرة جنودي يجري التنكيل بهم من قبل الكفار نتيجة لغطرستك ! جيش الرب ! لقد أرقت دم السيد المسيح !» .

تهدج صوت لويس عند هذه العبارة وانهار على ركبتيه وقد شبك يديه إلى جبينه .

«آه يا إلهي ، يا إلهي ، يا إلهي !» بدأت الدموع تسح نزولاً على خدي الفونس الآن .

«إنه خطأي ، كل شيء هو خطأي» كان الملك يبكي .

أخذ كل الرجال الحاضرين يبكون عند هذا المشهد المؤلم «كلا يا مولاي ، لا ، لا ، لا !»

أنزل الملك يديه إلى الأرض واستمر في البكاء ، بينما رجاله

يبكون ويصرِّفون بأسنانهم على حزنه . في النهاية ، وبعد ما بدا وكأنه انتظار لا نهاية له ، تحامل لويس على نفسه ومسح وجهه . نهض واقفاً وسحب نفساً متهدجاً . قال «يا أخي دي سوناك» والكلمات تتقطع داخل حلقه «كم عدد الرجال الذين تمكنوا من الفرار من هذا الكمين؟»

«لقد هربت مع أقل من عشرين من رجالي . أعتقد أن عدداً قليلاً آخر من الفرسان الفرنجة تمكنوا من الخروج قبل أن يتم إغلاق البوابة الخلفية من قبل الأعداء» .

«وهل هلكت بقية القوة؟»

«أعتقد ذلك ، يا صاحب الجلالة» .

«في هذه الحالة يجب علينا أن ننسحب إلى دمياط ونعيد تقييم خياراتنا هناك . إن التقدم لم يعد وارداً ونحن لا نقدر على الاحتفاظ بموقعنا هنا إلى ما لا نهاية في غياب فرساننا» .

نظر لويس باتجاه قواده عند المدخل «تأكدوا من تنفيذ ذلك» . انحنى الوحول القلقون بحدة ثم انسحبوا .

«قل لي ، أيها الأخ دي سوناك . من الذي قاد القوة التي أوقعتكم في الكمين؟»

«قائد من الفرسان اسمه بيبرس ، يا مولاي . إنه مقاتل ذو سمعة هائلة» .

«أنا لا أعرف هذا الاسم» .

«إنه من البحريين . لقد قاتلنا في لافوربي قبل عشر سنوات ، ومنذ ذلك الحين وهو يقود عصبة من الفرسان المنهمكين في الإغارة بشكل دائم مستمر ، عندما سمعت المسلمين يغنون باسمه ، لم

يفاجئني الوضع . مثل هذا الهجوم يحمل جميع أفكاره وخططه» .
«هل هو من العرب؟»
«كلا يا صاحب الجلالة . إنه شركسي من الشمال . كما هو حال بعض من رجاله . إنه عملاق ذو شعر أحمر ، وقد اختطف من عائلته وأحضر إلى جيوش السلطان . إنه حالياً لا يعرف أي نمط حياة غير حياة الجندي» .
«شعره أحمر؟» لو لم يكن الملك يشعر أنه في الدرك الأسفل من معنوياته ،لوجد الأمر مسلياً «يبدو وكأن المسيحية قد خسرت مقاتلاً أحمر الشعر» .
هزَّ دي سوناك رأسه موافقاً .
«وما الذي سيفعله بيبرس هذا الآن ، أيها الأخ دي سوناك؟»
«سوف يجمع شمل رجاله ويلاحقنا بلا هوادة . سوف يضايقنا في كل خطوة من طريق العودة إلى دمياط ويحاول أن يحاصرنا مرة أخرى لينهي العمل الذي بدأه هذا اليوم» .
«إذاً ليس هناك من وقت لإضاعته . اهدم المعسكر ودعنا نجهز أنفسنا للقتال إلى خارج هذا المكان الملعون» .

***

«عدد الأموات كثير جداً» عاين قطز الساحة حيث تكومت جثث الرجال والجياد حتى كاد ارتفاعها يصل إلى ارتفاع المباني نفسها . «ألم تأخذوا منهم أسرى؟»
«ولا واحد» قال بيبرس ، وهو يركل بقدمه المقبض المكسور لسيف في الرمال .
أبقى قطز كوفيته على فمه وركع ليتفحص الوجوه ، التي مازالت

محتفظة بما يشبه الحيوية بأعين زرقاء وأفواه مفتوحة . بحلول الغسق ، ستصبح الرائحة عفنة . عاد إلى النهوض والتفت إلى بيبرس ، وهو يخطو بحرص من فوق بركة من البراز .

«هل تمكن دي سوناك من الفرار؟»

«لقد خرج عبر البوابة التي أغلقناها ، إذا أمكنك أن تصدق ذلك» . قال بيبرس «لقد احتفظ برباطة جأشه عندما كان الآخرون يزعقون طالبين أمهاتهم أو ربهم . كما نجا معه عدد قليل من فرسان المعبد . إنهم يقاتلون كرجل واحد ، حسب ما وصل إلى علمنا» .

هزَّ قطز رأسه «إنهم يفعلون ذلك تماماً . هل تنوي مطاردتهم؟»

جاء دور بيبرس ليهز رأسه «في جماعات صغيرة ، جماعات اصطياد . لم أكن أنوي التحرك في إثرهم بقوة كبيرة وأرتكب الخطأ نفسه الذي وقعوا هم فيه» .

«ذلك أمر ينطوي على الحكمة» استدار قطز دورة كاملة حتى يستوعب المنظر مرة أخرى . «سيصل السلطان مع هبوط الليل . ما هو أسرع وقت يتمكن فيه الملك الفرنسي من التحرك مبتعداً؟»

«لن يتمكن من التحرك بسرعة مطلقاً . بوسعنا أن نحتفظ بالقسم الأكبر من قواتنا هنا للانضمام إلى قوات السلطان ، ثم نرسل المزيد من جماعات التصيد لمضايقتهم . هذا –» أشار بيبرس بإصبعه إلى أكوام الجثث «هؤلاء هم فرسانهم . سيكونون مضطرين للسير . سوف تعيق قلة من رماة السهام تحركهم إلى ما يشبه الزحف ، بينما يسبقهم بضعة من فرساننا ليحرقوا الجسور أو يغلقوا المخاضات ، وستقوم الطبيعة الأرضية بالباقي . سيظل الملك في الوسط وسوف نتمكن من أسره في الوقت الذي يلائمنا» .

أحسَّ قطز بقامته تطول وتتسامى ، لسماعه الأخبار الطيبة . «هذا تحول نادر في مسار الأحداث يا بيبرس . لقد كسبت الحرب» .

نفض بيبرس كتفيه ، وقد أحسَّ بتردد مفاجئ في قبول مثل هذا الشرف . «لقد كانت تلك إرادة الله . أنا - نحن - مجرد أدوات مسخرة له» .

«ذلك صحيح . سوف يكافؤك السلطان ويغدق عليك بالألقاب والنساء والأملاك . ستصبح ضمن الدائرة الداخلية لمستشاريه» .

«سوف أرضى وأقتنع بحصاني ورجالي والمساحة الكافية لمهاجمة أعداء الإسلام» .

«حسناً ، فكر في المساحة التي ستعطى لك عندما يصبح جيش السلطان تحت قيادتك» .

«أنت الذي سيقود جيش السلطان يا قطز . سأظل أنا مجرد مساعد لك» .

ابتسم قطز «كما كان الوضع على الدوام ، يا بيبرس» .

بادله بيبرس الابتسام «كما تقول ياقطز» استدار ورفع ذراعه في إشارة ترحيبية باتجاه بوابة البلدة «هل ترغب في مقابلة ارتوا؟»

كانت الجثة قد جردت من ملابسها عدا الداخلية . إذ يحق للرجال الذين صرعوه مع الفارس الذي كان إلى جانبه ، أن يطالبوا بدروعه وأسلحته وأية نقود كان يحملها على شخصه . تعلق القميص الطويل فوق الوجه المهشم لأن جثة الرجل الذي كان فيما مضى كونت ارتوا معلقة وهي مقلوبة رأساً على عقب بطريقة بشعة فوق مدخل البلدة الشمالي . ذراعاه مسبلتان والكفان مفتوحان إلى الأمام ، كما لو أن الكونت كان يرجو الرحمة حتى في مماته . تعلق الرجل الإنجليزي ،

لونجسبي إلى جانبه .

«لقد هرب راكضاً وصعد داخل أحد البيوت وحاول أن يحصن نفسه في الداخل» .

كان بيبرس ينظر إلى الجثة وقد ارتسم على محياه تعبير غارق في التفكير . «ومع ذلك فقد عثرنا عليه . إلى جانب كل الآخرين» .

«أرى أنكم فعلتم ذلك» قال قطز .

«أتمنى لو نتمكن من تعليق شقيقه الملك هناك أيضاً» .

«لقد قلت لك يا بيبرس . ذلك قرار يتخذه السلطان بنفسه . إتبع ما أقوله وسوف ترى القيادة والمجد يفوقان حتى أحلامك» .

التفت بيبرس «هل أنت متأكد من مدى أحلامي يا قطز؟»

«الأمر الذي أنا واثق منه هو أن هؤلاء الرجال ماتوا لأنهم لم يطيعوا كلمات ملكهم ، والآن فإن قضيتهم قد انتهى أمرها» .

«لقد انتهت قضيتهم لأن إيمانهم ليس نقياً» .

«لقد ماتوا لأنهم سمحوا لشهوتهم إلى الدماء أن تستولي على تفكيرهم ، وكان لديك الذكاء والجرأة لتستغل ذلك ضدهم . لا تسمح لخصيتيك أن تتحكما في عقلك يا بيبرس . وإلا فسوف تجد نفسك معلقاً بالمقلوب فوق بوابة في يوم ما . لن يحميك صدق إيمانك من سيف جنونك» .

ابتسم بيبرس «أنت حكيم اليوم يا قطز . لو لم تكن ترتدي معطف الإخوة الفرسان ، لاعتقدتك أحد الصوفيين» .

«انتظر حتى يسمع سلطاننا أن قائده المظفر قد ارتدى معطف أحد الشحاذين قبل معركته الأروع . ذلك ما سيلفت الأنظار إليك ، ولن تعود بحاجة إلى خدمات أي متصوف» .

مرت عدة أيام قبل أن تظهر سحابة الغبار الدالة على ما لا يمكن أن تثيره سوى المجموعة الملكية فوق السبخات إلى الجنوب ، واستعد بيبرس مع بقية قواد البحريين للترحيب بسلطانهم الجديد . طرد الشاب حصانه بصحبة مجرد خمسين رجل ، مباشرة نحو مجموعة الاستقبال وصفوف المشاة ثم الفرسان خلفهم ، قبل أن يوجه حصانه بطريقة غير متوقعة إلى ناحية ويركب جيئة وذهاباً أمام طوابير الجنود الصامتين . راقبه بيبرس الواقف إلى يسار آيبك وقطز إلى يمينه بأعصاب باردة واهتمام فاتر . الملك المعظم غياث الدين توران شاه أصغر منه سناً ، فهو ما زال في أوائل عشرينيات عمره ، لكه يربي لحية طويلة غارقة في السواد ، مربوطة بأشرطة ذهبية لتشكل جديلة واحدة ، معلّقة على صدره . لاحظ أن السلطان الجديد يتمتع بذراعين مفتولي العضلات ، ولكنها ليست عضلات رجال معتادين على التعامل بالأسلحة أو القيام بالأعباء الثقيلة الأخرى المتعلقة بالحرب . إن عضلاته من الصنف الرياضي ، الصيد والپولو ، وليس الحياة والموت اللذين هما الحقيقة اليومية للرجال الواقفين خلفه . حوَّل بيبرس عينيه عن الملك المتأنق إلى المرأة التي افترض أنها حالياً الملكة الوالدة ، شجرة الدر .

لقد كانت هي التي أنقذت الدولة حينما بدا أن كل شيء يوشك أن يضيع . فقد راقب بشيء من الذهول بينما قامت هي تتهيأ لموت زوجها وتجري الاستعدادات ، بحيث أنه عندما تحين النهاية لن يحدث أي اضطراب في المجهود الحربي المتردي أصلاً .

لقد ثار غضب زوجها ، الملك الصالح أيوب ، الحفيد المباشر لصلاح الدين على خسارة دمياط للغزاة الفرنجة إلى درجة أن غضبه كلفه ما تبقى من صحته الضعيفة . فقد أبطأت حركته أصابته بالسعال الدائم

والإرهاق الذي لا ينتهي وبدلت هيئة الرجل الممتلئ حيوية الذي كان عليه . راقبه بيبرس بينما كان يجاهد ويكافح حتى لركوب حصانه في بعض الصباحات أثناء زحفهم إلى الشمال لمجابهة الملك الفرنجي العظيم . وأخيراً ، عندما وصل إلى مسافة بضعة أميال قليلة إلى الجنوب من عدوه اللدود ، فقد ارتد إلى فراشه ولم ينهض عنه بعد ذلك أبداً .

في الوقت الذي وقف فيه رجال البلاط في صمت متجمد ، وكأنهم تماثيل خرساء ، فقد كانت الملكة ، شجرة الدر ، هي التي ناولت السلطان مجموعة من الصفحات الفارغة وجعلته يوقع عليها واحدة تلو الأخرى . وافق السلطان الصالح أيوب وبريق الفرح يلتمع في عينيه ، إذ أدرك ما تقوم به محبوبته . بعد ذلك ، وعندما دنا أجله وبدأت النسوة يجهزن جثمانه للدفن ، فقد استمرت شجرة الدر في استدعاء الأطباء وإحضارهم إلى خيمته كل يوم ، وأجبرت كل رجل في الدائرة الملكية على أن يلتزم الصمت ، مهددة إياهم بأشنع طرق القتل . في كل يوم ، كان الأطباء والمستشارون يغادرون مع صفحة جديدة من الأوامر والقرارات الموقعة بيد الملك في إشارة إلى الأحداث التي وقعت في اليوم السابق . لم يكن يفترض في الجيش والشعب أن يعلما بأن السلطان قد مات قبل أن يصل خلفه من الشرق . وهكذا حدث أن قاتل جيش الأيوبيين بوجود رجل ميت على رأسه .

راقب بيبرس كل هذه المناورات بالإعجاب في البداية وبعد ذلك بعقلية التعلم . فقد تعلم من زمن سابق بعيد أن السلطة لا تأتي نتيجة ارتداء تاج ما ، ولا تأتي مع دعاء المؤذن . فهي لا تأتي أحياناً نتيجة قيادة الجيش . ففي نهاية الأمر ، ألا يزال ملك فرنسا يقود جيشاً ، على

الرغم من أنه مجرد كلياً من السلطة في الوقت الحاضر؟

لقد تعلم أن السلطة ، كثيراً ما تجيء نتيجة الملاحظة والإدراك الحسِّي ؛ إذا آمن الناس أنك قوي فأنت وقتها قوي . تعلم ذلك وقرأه حتى أنه كتبه بنفسه . وصل الأمر به أنه تلاعب بالفكرة عندما كان ضابطاً صغير السن ، متخرجاً لتوه من الطباق (الأكاديمية) وبحاجة إلى إثبات قدراته . لكنه لم ير أحداً مطلقاً يطبق ذلك الدرس بمهارة أكثر من شجرة الدر .

لقد كانت ملكة بكل ما في الكلمة من معنى . ربما تكون في أربعينيات عمرها حالياً ، رغم أن جمالها الأسمر لم يكن قد تراجع أو خفت مطلقاً ؛ لأن الواقع ، فكر بيبرس ، فإن السنوات تليق بها ، كما يحدث أحياناً أكثر مع الرجال . كانت جالسة على حمالة بعيدة قليلاً عن مكان وقوفه ، أمامه وأمام الآخرين لتمييز منصبها الملكي . كانت ترتدي النقاب أمام الخاصة والعامة ، محاطة برفيقاتها ومساعداتها اللاتي يرتدين الحجاب نفسه ، لكنه قادر على أن يتذكر ملامح وجهها وتفاصيله بكل دقة منذ الليالي التي راقبها أثناءها وهي تصدر الأوامر للرجال في أعلى المناصب لضمان تنفيذ رغبات زوجها . أصبح كل هذا أكثر مدعاة للإعجاب لأن وريث العرش ، ، توران شاه ، الرجل نفسه الذي يستعرض الآن أمام رجال والده لم يكن ابنها حتى ، بل هو نتيجة زواج والده الأول . بالنسبة لبيبرس ، فإن مثل هذا الإخلاص يمثل كل شيء . بدونه ، ليست هناك دولة تساوي الدفاع عنها والقتال من أجلها .

انتهى استعراض تقديم السلطان الجديد ، فسحب عنان جواده وأوقفه أمام رجال البلاط العظام . ركب آيبك إلى الأمام ليقدم التحية

الرسمية ثم بدأ يقود السلطان إلى حيث تنتظر شجرة الدر. حرّك فارس الدين أقطاي، القائد الاسمي لجميع الفرسان البحريين، والذي ركب من مصر ليعثر على السلطان الجديد ويخبره عن وفاة أبيه، حرّك حصانه إلى الأمام وخلف حصان توران شاه. فكر بيبرس أن الرجل لا يخفي نواياه، التقط النظرة التي تبودلت بين آيبك وأقطاي في تلك اللحظة، مازال هناك الكثير من الدم الفاسد بينهما.

قال توران شاه «لا تستعجل يا آيبك. لقد كنت الشخص الذي يتذوق طعام والدي، فهل أنت متعجل إلى هذه الدرجة الآن لتأكل من طبقي أيضاً؟» جاء صوته متراخياً ممطوطاً لكنه جاء مرتفعاً بما يكفي لأن يسمعه رجال العامة، كما جاءت الضحكة المنطلقة من مجموعته خلفه. أصبحوا قريبين الآن بحيث تمكن بيبرس من تفحصهم عن كثب. لم يتأثر بمنظرهم. كانت حاشيته المرافقة مجموعة مختلطة مما ظهر وكأنهم سوريون، يحتمل من أبناء الجزيرة في شمال ما بين النهرين، وأفريقيين سود البشرة، وهي مجموعة مختلفة بدرجة ظاهرة عن الفرسان القفقاسيين في معظمهم. لم يكن نسبهم وأصولهم العنصر الذي استفز بيبرس، بكل الأحوال، بل هو لباسهم وتصرفاتهم. فعلى الرغم من هيئتهم المشبعة بالغرور ووجوههم الساخرة، فقد رأى جميع مشاهد ودلائل رجال البلاط الواهنين في شخصياتهم.

شاهد الخواتم الضخمة على الأصابع السمينة والأظافر المقلمة المطلية جالسة على أكفهم الناعمة. اعتقدوا أنهم بارتداء قمصان حريرية خفيفة منسدلة فوق لباس ركوبهم، يستطيعون أن يخفوا كروشهم الهائلة. أحسّ بيبرس أن هذه المجموعة لن تنسجم بشكل

طيب مع مجموعته ، وبذل أقصى جهوده لابتلاع هذه المشاعر حتى لا تظهر على وجهه هو ؛ لأن توران شاه هو السلطان الجديد الشرعي في نهاية المطاف . أخذ آيبك ينقل نظرة من توران شاه إلى الملكة وعائداً ، غير متأكد أبداً مما يجب أن يفعله .

استطرد السلطان قائلاً «إنني أرغب في مقابلة أبطال النيل . أين هم القادة البحريون؟»

رفع آيبك يده باتجاه قطز وبيبرس ، اللذين ترجلا وركعا على ركبتيهما أمام السلطان الفتي .

«مولاي ، اسمح لي أن أقدم سيف الدين قطز وبيبرس البندقداري . لقد توليا قيادة قواتنا بعد هجوم الفرنجة والاغتيال الجبان لفخر الدين . لقد قام قطز بتثبيت صفوفنا وتجميع قواتنا ، بينما نصب بيبرس كميناً للفرسان في البلدة الواقعة خلفنا» .

«إذاً أنت الذي نحن مدينون بنصرنا له ، يا بيبرس» .

لاحظ بيبرس من طرف عينه ، أصابع قطز وهي ترتعش في الرمل .

«انهض ، أنت والد فتوحاتنا» قال السلطان .

نفذ بيبرس ما أمر به . جاءت قامته في مثل طول السلطان ، الذي امتلك أطرافاً ارستقراطية طويلة ، ولكن بيبرس امتلك صدراً أعرض ، وكتفين وذراعين أقوى ، وهو ما ورثه عن والده ، الحداد . رأى أن عيني توران شاه تفحصانه كما لو أنه يقيِّم مجموعة من الأفراس . ذهبت نظرة السلطان من شعره الأحمر إلى وجهه واستقرت على العلامة التي تخط عبر عينه اليمنى . ظهرت العين لدى النظرة الأولى وكأنها عمياء ، ولكن بالتفحص القريب وضح أن العلامة هي إعتام لعدسة

العين ، سحابة متطاولة على البؤبؤ . جاءت مغايرة تماماً لعينه الأخرى ، التي هي سوداء غامقة مع دائرة حمراء حول البؤبؤ . لم يتراجع بيبرس أو يذوي تحت تحديق الملك : فهو لم يكن قد شاهد شخصاً مغتراً بنفسه من قبل ، لكنه بذل أفضل ما لديه لأن يخفي شعوره بالضيق .

لم يستطع أن يمنع عينيه من أن تتوسعا من الدهشة حينما بدا وكأن توران شاه قد ارتعش قليلاً ، حيث انتفضت ذراعه ورأسه باتجاه اليسار . لم يكن قد سمع بأي من هذا عندما كان الرجال يتكلمون عن نجل السلطان . ربما يكون ذلك هو السبب الذي من أجله تم إرساله بعيداً عن مصر إلى الأطراف القصية للسلطنة .

أحسَّ لحظتها بقرصة صغيرة من الإشفاق على الشاب المتعالي ؛ لأنه عرف كيف يكون الوضع لدى الأشخاص الذين يستمتعون بالإشارة إلى مثل هذه الحركات والسخرية منها . إذا كان توران شاه لديه أي إدراك بأن هذا الشذوذ ملحوظ ، فهو لم يظهر أية إشارة على ذلك .

«إن شهرتك تتعاظم يا بيبرس . لقد وصل اسمك إليَّ في الجزيرة من قبل ، حتى إنني سمعت الفرس يتحدثون عنك ، والآن سوف يتحدثون عن قوتك في الجانب القصي من الدنيا في أرض الفرنجة وما وراءها» .

«إنني أخدم الله والدولة ، يا صاحب الجلالة» . أحنى بيبرس رأسه «إنها إرادة الله في أن تتوسع الخلافة عبر جميع البلاد التي يسكن فيها أتباع القرآن الكريم ، وأنا سوف أقاتل لتخليص هذه الأرض المسلمة المقدسة من الذين لا يؤمنون» .

هزَّ توران شاه رأسه «نحن لا نستطيع أن نتحمل التهديدات لسلطتنا – ذلك أمر مؤكد . هل أنت من رجالات آيبك؟» .

«لقد تم إلحاق بيبرس بجماعتي بعد الهزيمة العظمى للفرنجة في لافوربي . قبل ذلك كان ملحقاً بجماعة النبيل ايديكين البندقداري» .

«لقد عرفته» قال توران شاه «كانت لديه مدرسة في حلب ، مثل أكاديمية فروسية ، ألم تكن كذلك؟»

«نعم يامولاي» قال بيبرس .

«حسناً ، يجب عليك أن تخبرني عنه على العشاء هذه الليلة» . استدار السلطان وركب مبتعداً بدون أي كلمة أخرى ، متخذاً طريقه إلى حيث تواجدت مجموعة والدته ، بينما نخز آيبك حصانه للحاق به وهو ينظر إلى الخلف معتذراً . انحنى بيبرس حتى تم انصراف الموكب الملكي ثم التفت بينما كان قطز يهم برفع نفسه عن الأرض .

«أبو الفتوحات؟» قال قطز مبتسماً متفكهاً .

رفع بيبرس كفيه إلى السماء . «إن حاكمنا في منتهى الحكمة ونفاذ البصيرة» .

«هل كانت تلك دعوة لمشاركته في مائدته؟» عاد قطز إلى الجلوس في السرج ، تلفت بيبرس حواليه . كان توران شاه يتبادل مع والدته تحيات رسمية .

«أظن ذلك . أنا متأكد من أنه قصد كلينا» .

نفض قطز رأسه «أنت تطريني يا بيبرس ، وهذا ليس من طبيعتك بشكل خاص» .

«ما كنت لأطريك ، لمجرد أن تتحول كلماتي المعسولة إلى الزيف لاحقاً» . قال بيبرس ساخراً .

«ما الذي تعتقده يا تيكا؟» سأل صديقه القديم الذي كان ممتطياً حصانه في المؤخرة .

«هاه ، اممم» قال تيكا . نظر إليه قطز بتعبير محتار ثم عاود النظر إلى بيبرس .

«إن تيكا رجل مقل في الكلام . وأنت تعرف ذلك» . قال قطز «ولكنني أراهن بنقودي يا تيكا ، وأعتقد بأنك مصيب» .

نظر العملاق إلى بيبرس باعتدال «هاه» هو كل ما قاله مرة أخرى .

«هل رأيته وهو يقفز؟ ما الذي تعتقد أنه يعاني منه؟»

تقبَّل بيبرس أعنة جواده من تيكا وألقى بساقه من فوق السرج «لا أعرف . لم يذكر أحد من قبل أبداً أنه ينتفض بذلك الشكل» .

«ينتفض الرجال أحياناً بعد أن يصابوا بضربات أثناء المعركة . لقد رأيتهم بنفسك وهم يمشون بطريقة مضحكة» .

«يحدث أحياناً بعد أن يصابوا بضربات أثناء المعركة . لقد رأيتهم بنفسك وهم يمشون بطريقة مضحكة» .

«يحدث أحياناً أن تتسبب ضربة من سيف في قطع أعصاب ، ولا تعود إلى الالتحام بعد ذلك . لا أعتقد أن ذلك هو ما يعاني منه . أعتقد أنه قد ولد بهذه الحالة» .

«ولكن كيف يحدث أننا لم نسمع عن حالته أبداً؟»

«هنالك الكثير مما لا نعرفه يا قطز . حتى فيما يتعلق بأولئك الأقرب إلينا . هل رأيت أن أقطاي قد عاد؟»

«أرى ذلك» خفض قطز صوته حتى لا يسمعه أحد غير بيبرس . «سوف يقتل أحدهما الآخر ، هو وآيبك ، أنا على ثقة من ذلك . إنها مجرد قضية من يدخل النصل في الآخر أولاً» .

«هل الوضع على تلك الدرجة من السوء؟» أحسَّ بيبرس بالقلق . «لقد كانا حليفين وقد أنقذ أحدهما حياة الآخر سابقاً» .

«لقد اختلفت الأوضاع حالياً . هنالك عالم كامل ينبغي احتلاله» .

«لقد كان موجوداً من قبل» .

«لكنهما لم يكونا على هذا القرب من السلطة بحيث يمكنهما مجرد تخيل الشعور بكونهما على تلك الدرجة من القرب ، ناهيك عن الإمساك بها بيديهما . انظر كيف يتنازعان على من الذي يحق له الإمساك بحصان الملك» .

قال بيبرس «حسناً ، إذا كانت هذه هي طريقة سير الأمور ، فهناك حل واحد لاغير» .

رآه قطز يضع يده على مقبض سيفه وفهم ما يرمي إليه .

«إن أقطاي هو من إخوتنا الفرسان» .

«وآيبك هو بمثابة والدنا . لن أسمح بأن يجري تهديده» .

«أنا معك ، يا أخي» .

«وأنا معك يا قطز» .

ما حدث لاحقاً هو أن أقطاي زار كليهما بعد انتهاء استقبال السلطان ، وأخبرهما أن توران شاه يتوقع وجود كليهما إلى مائدته في ذلك المساء .

«لقد كانت مهمتك في إعادة السلطان الشاب إلى هنا صعبة ، أيها النبيل أقطاي» .

قال بيبرس «كنا سنواجه عملاً شاقاً لو أنها لم تنجح» .

«ومع ذلك فما زال من واجبي تحقيق هزيمة الملك الفرنجي» أجاب الرجل الأكبر سناً .

أحنى بيبرس رأسه ، كاعتراف بمنزلة الرجل الأكبر سناً الأسمى

«لقد قامت قواتنا بمحاصرته . ليس له أي مهرب» .

أصرَّ أقطاي «لكن ستقع معركة . وهو خطر كان السلطان سيتجنبه لو تم القضاء على الملك في وقت القضاء نفسه على فرسانه» .

«مع الأسف ، فإن الظروف قد حكمت بأن ذلك كان مستحيلاً في حينه» . قال قطز .

«لقد جاء نصر بيبرس عظيماً ، لو أخذنا الهزيمة التي ألحقها بنا المعبديون والفرنجة في ذلك الصباح ، في اعتبارنا» .

«كما تقول يا قطز» ألقى بنظرة على قميصيهما ودرعي الزرد المغبرين لهما . «ارتديا شيئاً لائقاً هذه الليلة . لا أريد لرجالي أن يظهروا مثل القنافذ في حضرة السلطان» .

همَّ بيبرس بالرد ، لكن قطز وضع يداً مانعة على ظهره . استدار أقطاي وخرج من الخيمة مسرعاً .

«شيئاً لائقاً؟ هل يعرف أننا كنا نقاتل غزواً يخطط له أعداؤنا منذ أربع سنوات؟»

انفجر بيبرس غاضباً .

صب قطز كوباً من النبيذ من الطاولة «خذ هذا . لا تهتم لما يقول . إنه يطمئن نفسه . هو يعرف أننا رجال آيبك ، وأننا رجلا اللحظة الحالية . بعد أن تنتهي مراسم جنازة السلطان العجوز ، يريد أن يتحكم في السيطرة على القوات البحرية بدرجة كاملة» .

شرب بيبرس وهزَّ رأسه «أنت على حق ، ولكن رغم ذلك . . .»

«الصبر يا بيبرس . كل شيء سيتم في وقته المناسب . يجب أن نستمر في مراقبته وننتظر أن يقوم بحركته ، قبل أن نقوم بحركتنا» .

الفصل الخامس
بغداد

غادر عبد المبنى العظيم بمعنويات أعلى من تلك التي قدم فيها، لكنه استمر في تقليب الأحداث والأفكار داخل رأسه أثناء سيره وسط الحشود في المدينة الدائرية، فوق الجسر وخارجاً إلى سوق العشار، الأسواق الأربع القريبة من مسكنه. عبر قناة السراة ودخل سوق الهيثم، توقف واشترى لوازم وجبة غدائه، مثلما كانت قد علمته. بدا وكأن الباعة المنادين والنساء المتصايحات يمرون من حوله، وكأنهم مياه يخوض عبرها. لم يستطع حتى أن يأتي بما يكفي من الاهتمام ليعجب بملامح الفتيات الصغيرات السن اللاتي كن يثرثرن أثناء عملهن، كما كان يفعل في العادة، رغم أنه كان يستطيع دائماً أن يأتي بابتسامة إلى علياء، الفتاة صاحبة حوض الشواء، والذي تقوم فيه بشواء أسياخ صغيرة ملأى بقطع لحم الخروف المعدة بالفلفل، المهروسة لدرجة أنها تذوب في الفم فور تذوق عبد لقطعة منها.

اتخذ طريقه إلى غرفته، حاملاً مشترياته بيده، مستمتعاً بفكرة الليمون الذي عصرته علياء فوق لحم الخروف حتى تجعل النكهة والطعم أكثر بروزاً.

تظاهرت أنها لم تره عندما دخل من الباب، وأبقت ظهرها له، رافعة قدميها فوق الكرسي الثاني إلى جانب طاولة الطعام المستديرة الصغيرة. تم نسيان كل الأفكار عن الجيوش المتقدمة والكوارث. وضع

كيس القنب على الطاولة وأمسك بها بقوة من تحت ذراعيها ، حول خصرها وصدرها في الثوب الفضفاض الذي لامس قمة ذراعيه .

قالت «هل كلمته؟»

«نعم» أجابها ، وقد دفن وجهه في الشعر الأسود الطويل عند أسفل رقبتها . تنشق بعمق وسحبها نحوه بقوة «لقد تمت دعوتي إلى القصر هذه الليلة . سيكون الخليفة والوزير هناك» .

«وهل سيتكلم معهما في ذلك الوقت؟»

«أظن ذلك» قال ذلك وسحب نفساً آخر . حاول أن يسحبها واقفة نحوه ، لكنها نهضت ، ابتعدت عنه وأشاحت بوجهها عنه . عيناها خضراوان مخططتان بخطوط بيضوية من الكوبالت الأزرق ، خلافاً لكل شيء شاهده من قبل مطلقاً ، إلا على الفناجين الصينية التي أحضرها لها ، والتي تعتز بها بدرجة قريبة من احترامه لكتبه .

«الوضع شديد التعقيد . هنالك بروتوكولات عديدة ينبغي اتباعها . لا يستطيع المرء أن يتفوه بالكلام في وجه الخليفة ببساطة . هنالك لغة محددة في البلاط» .

«هل أخبرته بما سيحصل للنساء عندما يصل المغول؟ هل أخبرته بما سمعته من هؤلاء المشردين التعساء حول التابير؟»

«حبيبتي ، الحديث عن مثل هذه الأشياء أمر خطير عندما يقول الوزير نفسه إِنه يوجد ما نخشاه . أرجوك سوف أتأكد من أنه يفهم» .

تحرك نحوها مرة أخرى ، لكنها ابتعدت عنه «أنا أعتقد أنه يفهم» قال لها «لأن الإمام ابن دقيق رجل متعلم وحكيم» .

«رجل حكيم ومتعلم يقضي أيامه بين كتب كتبها رجال ماتوا منذ زمن بعيد . إنه لا يعرف الناس كما أعرفهم ، كما تعرفهم . ولا حتى

الخليفة أو الوزير يعرفان . لا يتم اخبارهما إلا بما يرغبان في سماعه . يجب عليك أن تفعل شيئاً يا عبد» .

اصطنع تعبيراً وسطاً في مكان ما بين المغرور والشقي «إنني مجرد دارس مسكين ، يا حبيبتي . . .»

«توقف عن إطلاق ذلك الاسم عليَّ» .

«لكنها الحقيقة !» ابتسم «تعالي هنا . أنت تعرفين أنك حبيبتي ، ألا تعرفين؟»

«كلا ، لست كذلك . بل أنا مجرد خادمتك» .

تناولت حبة ملفوف صغيرة من الكيس على الطاولة وألقت بها عليه . تجنبها عبد بطريقة مسرحية فسقطت على الأرض خلفه وقفزت . «ليس بالخضار ، يا عزيزتي» . قال لها .

«هل سأكون حبيبة إلى تلك الدرجة عندما يحملني فرسان المغول بعيداً؟ ماذا سأكون في حينها؟»

«لدى الخليفة جيش من عشرين ألف فارس لحماية المدينة . . .»

«وهل تعتقد أنت أن الخان لا يستطيع أن يرسل خمسة أضعاف ذلك العدد لمساعدة أخيه؟»

«يا صفية ، إن بغداد هي قلب الإسلام . سيأتي كل العالم لنجدتها إذا هوجمت» . آلمه أن يكرر ذلك القول ، لكنه لم يستطع أن يفكر في شيء أفضل لتهدئة خاطرها .

ندت عنها تنهيدة عميقة ولوحت له ليبتعد . لحق بها ، أمسك بها مرة أخرى وقبلها في مؤخرة عنقها . استسلمت له وهي تتنهد فمشى نصف مشية ، ودفعها نصف دفعة عبر الغرفة ، وهو يحرك قدميه بتناغم مع خطواتها حتى بدا الوضع وكأنهما يؤديان رقصة عجيبة .

لاحقاً، اضطجع على سريره وهو يحدق في السقف فوقه . كانت صفية قد أشعلت النار في الموقد الصغير وانشغلت في سلق الخضار التي اشتراها لتجعل منها حساءً . ارتعش برغم الدفء الذي أشاعته الظهيرة ، ونهض ليعيد ارتداء ثوبه .

«أنت تعرف أنني على حق ، أليس كذلك؟» خاطبته عبر الغرفة .

قال «بالطبع ، لكنني لست أكذب حين أقول إنه ليس بوسعي عمل أي شيء . كل ما هو ضمن قدراتي فعله هو التحدث إلى المدرس . إن الخليفة يستمع له ، لكن حتى هو ليس على ذلك القدر من السلطة بحيث يتمكن من تغيير قناعات الرجل . السلطة بيد الوزير وهو مصمم على أنه لا يوجد أي خطر» .

«يا له من غبي» .

«احترسي في المكان الذي تقولين فيه ذلك» .

«ستحترق هذه المدينة . استمع إلى ما أقوله ، يا عبد . بغض النظر عن درجة الأمان التي تعتقد أن حياتك ستتمتع بها ، فإنها يمكن أن تؤخذ منك بدون إنذار ولو للحظة . أنا أعرف» .

حك رأسه ونظر إليها عبر الغرفة «هل ذلك هو ما حدث لك؟»

«ماذا؟»

«هل احترقت مدينتك؟»

«ذلك لا يهم . أنا لست مهمة» . حرَّكت الحساء بمغرفة خشبية كبيرة . «لقد مضت قرابة السنة وأنا أستمع إليك ، وأنت لا تتوقف عن الكلام عن عظمة هذه المدينة ومدى أهميتها . مدى أهمية مخزونها من المعرفة وروعة مبانيها . كل هذه الأشياء ستزول ما لم يكن هناك عمل يتخذ» .

«إنها لم تعد على درجة العظمة التي كانت عليها ، لكنها ستصبح عظيمة لاحقاً . سيضيف رجال عظماء مثل ابن دقيق وكتبه إلى عظمة بغداد والإسلام» .

«وكتبك أنت أيضاً؟»

«سأكتفي بتدوين التاريخ . فمهمتي هي أن أكتب ما حدث بالضبط بحيث يعرف الناس الذين يجيئون بعدنا لماذا هي الأمور على ما هي عليه» .

«إذاً ينبغي عليك أن تكتب ما قلته بأحرف كبيرة وتعرضه على الوزير هذه الليلة . ربما أنه سيرى بعض المنطق وقتها» .

«ربما» قال وهو ينهض .

ألقت بقصعة في اتجاهه صارخة «هاك ، تناول حساءك» .

***

تهاجم الموسيقى والفخامة الأحاسيس بمجرد أن يدخل الشخص عبر الممرات ذات الأقواس لقصر الخليفة . الجدران ممتلئة بالخدم المرتدين الملابس الملونة والحرس المسلحين برماح احتفالية ، بينما سارع نبلاء بغداد جيئة وذهاباً والتقوا فيما بينهم في مجموعات صغيرة . تهادت الموسيقى التي تعزفها فرقة صغيرة في شرفة هي حجيرة داخل الجدار لتتساقط فوق رؤوسهم مثل ضباب خفيف ، وقد جاءت طرقات الزجاج مثل نمط وإيقاع . رغم أن المساء مال إلى البرودة ، إلا أن الضيوف حضروا متلفعين جيداً بالفراء ، ولذلك لم يعترض أحد . لم تشكل الأنسام التي تهب من نهر دجلة أي إزعاج .

وقف عبد ، نحيلاً طويل القامة ، مرتدياً أفضل أثوابه ، وهو لباس متواضع بالمقارنة مع الملابس الراقية التي ارتداها الناس من حوله ، لكن

تفصيل ثوبه والوشاح البرتقالي الملتف على خصره أبرزه كدارس ورجل متعلم، لذلك لم يجد أية صعوبة في إخفاء كبريائه الطبيعي أثناء ارتدائه للوشاح. الطبقة الراقية والنخبة للمجتمع البغدادي معروفة عبر المشرق وأبعد بغرورهم. أعطى اسمه بشيء من الثقة بالنفس، إلى كبير الخدم عند مدخل الضيوف، ونظر اليه الرجل من أعلى إلى أسفل شخصه.

«لقد ترك الإمام ابن دقيق معي ملاحظة بأنه سيكون سعيداً بصحبتك». أشار الرجل «إنه موجود في شرفة الحديقة الشرقية. إلى يمينك».

«أشكرك». قال عبد.

قوَّس الخادم رقبته حتى تبدو وكأنه ينظر إليه متعالياً وأحنى رأسه قليلاً وبسرعة.

ارتسمت على وجه عبد ابتسامة خبث وهو يمشي مبتعداً في الاتجاه الذي أشار إليه.

ترك عينيه تقعان على النساء الحاضرات، فالخليفة رجل متسامح في مسألة وجود الجنسين واختلاطهما في حفلاته المسائية، وأخذ يستمتع بالنظرات المرتسمة على وجوههن والطريقة التي تبرز فيها الجواهر المتنوعة والملابس التي يرتدينها، ملامحهن. انجذب تحديقه إلى مضيفة جميلة تتحدث إلى أحد ضباط حرس الوزير. رفعت عينيها إلى عيني رجل بتعبير ينم عن صبر عطوف، وكأنها تسحب القصص من أحد الأطفال. استمر الضابط يروي قصته غافلاً عما حوله، بينما كان عبد يقترب. تفحص قامة المرأة للحظة، بينما سرح عقله إلى أبعد من الرداء الطويل الذي ترتديه ويصل إلى الأرض.

«بالنسبة للسفر» تكلم الضابط بالنبرة المتعالية لشخص مقتنع كلياً بأن كل ما يقوله يعبر عن الحقيقة التي يستحيل تحديها أو مناقضتها. «إن هوادج الجمال اليمنية هي الأرقى. في حال وجدت نفسك بحاجة للسفر حتى ولو إلى البصرة، فهي ما أوصي به».

هزت المرأة رأسها.

«في الحقيقة، لدي تاجر هنا تماماً في المدينة وهو مستعد بدون شك لأن يذهب إلى بيتك ليحضر لك بعضاً من بضاعته».

اتسعت عينا المرأة مندهشة «هل يحضر هوادجه إليّ؟»

«بالطبع» قال الرجل، مسروراً. «سوف أرافقه بالطبع. يجب الحفاظ على اللياقة».

«طبعاً» قالت المرأة، بجدية.

أثناء مرور عبد، التقت عيناها بعينيه وابتسمت. رد عليها بنصف ابتسامة واستمر في مسيره.

وقف ابن دقيق حيث توقع وجوده، أمام بابين عريضين مفتوحين يؤديان إلى شرفة صغيرة وصف من الدرجات تحتها، يؤدي إلى الحديقة. شكّل القصر مكاناً جذاباً بسبب جمال حدائقه. في الحقيقة، فإن بغداد كانت مكونة من حدائق ومتنزهات، حتى إن بعضها كان مفتوحاً للناس العاديين. لكن حدائق الخليفة ظلت شيئاً مختلفاً، فقد امتلأت بالأزهار والأشجار التي جلبت من أمكنة متفرقة ومتباعدة مثل لبنان وباكتريا. أصيب عبد بالذهول في المرة الأولى التي أتيحت له فيها ميزة التمشي في الحديقة؛ ليعثر على صف من زهرات التوليب الطوراني باللونين الأصفر والأرجواني معششه تحت مظلة شجرة سرو ضخمة.

سحب نفساً عميقاً لدى وصوله إلى الباب وكوفئ بالعطر اللطيف الفائح من صريمة الجدي والوردية الخلنجية .

«هل رأيت ما تتحمله زينب الرائعة الساحرة من اهتمامات عبد الحكيم بمجاملتها المعتادة؟»

قال ابن دقيق وهو ينضم إلى المجموعة . أحيط العالم بمجموعة صغيرة من الأكاديميين والمسؤولين في المدينة والإدارة ، الذين بدوا كلهم سعداء لتواجدهم مرة أخرى بصحبة أغزر الرجال علماً في المدينة .

ألقى عبد بنظرة حوله ثم عاود النظر خلفه «لقد سمعتهما يبحثان في أفضل الأمكنة لشراء هودج بعير في طريقي . نعم ، أمور مهمة بلا شك ، بالنسبة لأولئك الذين يعانون من حالة عصبية أو ألم الظهر» .

«أو البواسير» قال أحد الرجال الآخرين . ضحك الجميع واستغل ابن دقيق الفرصة لينحني إلى الأمام ويتحدث إلى عبد .

«هل تذكر حديثنا في وقت سابق؟»

انهار تعبير المرح عن وجه عبد وأحسَّ بالتوتر .

«آه ، لا أريدك أن تبدو على تلك الدرجة من الشحوب يا ولدي» .

ربت ابن دقيق على ذراعه بخفة . «أنا أدرك الحكمة فيما تقوله ، لكن يبدو أن الأحداث قد تجاوزتك . إن مندوب الخان موجود هنا في هذه الليلة» .

تلفت عبد حواليه ، ولم يشاهد سوى العرب «هنا؟»

هزَّ ابن دقيق رأسه «يبدو أنهم سوف يستمعون إلى الموسيقى أيضاً . تقول الشائعة -» نظر حوله للتأكد من عدم تصنت أي من الآخرين عليه وخفض الصوت أكثر من السابق . «تقول الشائعة إن الوزير لم يكن لديه أي علم مسبق مطلقاً . فقد حضر خادم الرجل قبل

بضع ساعات وأخبر رئيس موظفي الخليفة بأن موفداً من قبل القائد هولاكو سيحضر حفل استقبال هذه الأمسية» .

«وهل تم السماح بذلك؟»

«حسناً ، ما الذي بوسعهم أن يفعلوه؟ فقد تأخر الوقت على إرسال خبر إلى كل ضيف مدعو بأن حفل الاستقبال قد تم إلغاؤه . وسوف يعتبر منعه من الدخول خرقاً فاضحاً لأصول الضيافة . . . كلا . سيحضر الموفد إلى هنا الليلة . وأكثر الاحتمالات هو أنه موجود حالياً» .

«أولم يكن هناك أي تفسير آخر؟ ما الذي ينوي فعله؟»

رفع ابن دقيق قامته وقال بصوت فيه استرخاء «كيف لي أن أعرف؟ لا يبدو أن أحداً آخر يعرف . على أية حال ، مارس الحيطة والحذر ، أيها الشاب» .

«من الفرسان المغول؟»

«من عازر . يخبرني واحد من طلابي الذي يحب أن يحظى بالحظوة لدى سيده ، على أمل الحصول على مكافآت أعظم ، بأن منافسك لم يكن سعيداً لكونك أفحمته صباح هذا اليوم» .

«أنت الذي أذللته ! لقد جعلته يحبو على الأرض بتلك الطريقة المهينة !»

رفع ابن دقيق يديه وأبدى إشارة اعتراض . «كل ما أستطيع عمله لكم أنتم الشباب هو أن أريكم الطريق ؛ لأن اتخاذ المسار الصحيح أمر منوط بكم» .

أطلق عبد شتيمة هامسة . لكنه وجد أنه من المستحيل عليه أن يغضب من الرجل العجوز .

«وهكذا تحقق من أنك تختار مسارك بعناية هذه الليلة» استمر ابن دقيق بقوله «لأنك إذا مشيت في المسار الخاطئ، فأنت معرَّض لأن تتلقى صفعة على مؤخرة رأسك».

أخرج عبد تنهيدة طويلة.

ظهر عازر على الدرجات السفلى، وكأنه قد خطط لهذا الظهور، وهو يقود مجموعة من الشباب الذين يرتدون مثله، آخر وأغلى أنماط الحرائر. اختط لنفسه مساراً من بين كبراء مجموعة ابن دقيق واتجه نحو عبد مباشرة.

«هل أنت مستمتع بالحفلة يا عازر؟» سأله ابن دقيق.

مال عازر مقترباً من عبد، رغم أنه كان الأقصر قامة من الرجل الآخر، وابتسم بغرور.

قال «سوف أستمتع بما هو بعد الحفلة أكثر يا سيدي. أليس ذلك صحيحاً يا عبد؟»

حدَّق فيه عبد بدون أن ترمش عيناه. اتسعت ابتسامة عازر أكثر وهزَّ رأسه.

استطاع عبد أن يشم رائحة العطر النفاذة الآتية منه.

«يكفي ذلك» قال ابن دقيق، وقد وقف بينهما «يا عازر، إن عمك موجود في القاعة مع الحكام الآخرين وقد أرسل مستخدمه إلى هنا عدة مرات، باحثاً عنك. أعتقد أنه يستحسن بك أن تذهب وتعلن عن قدومك».

أدى عازر انحناءة صغيرة «كما تقول، أيها السيد. يمكن لهذا الأمر أن يؤجل».

استدار ومشى باضطراب من خلال الموظفين القريبين، ولحقه

أتباعه وهم يهمسون بالشتائم لعبد أثناء انصرافهم .

«أنا لا أعرف ما هي مشكلة الشباب هذه الأيام . . .» التفت ابن دقيق إلى الشخص الواقف إلى يمينه ، وهو محاسب في القصر ، تقبع على صدره أوسمة أكثر من معظم القادة العسكريين . «فقد كنت ماراً بسوق العطارين قبل مجرد بضعة أيام . . .»

ضحك عبد قليلاً لنفسه وهزَّ رأسه «هل قلت عمه؟»

«ماذا؟» سأل ابن دقيق .

«هل هو موجود هنا فعلاً؟»

«بالطبع . في آخر القاعة . لكنه حتماً لم يرسل أي شخص باحثاً عن عازر . أنا واثق من أنه لا يرغب في التعامل معه بأكثر مما نرغب نحن» .

عاد عبد إلى الضحك وتلفت حواليه باحثاً عن أي نوع من المرطبات .

صدرت ضجة وهمهمة من الطرف القصي للقاعة الفسيحة في الجهة التي مشى فيها عازر ، وبدأ الناس يتفرقون ويتحركون نحو الجدران ، مفسحين الطريق . جاء طابور من الرجال في أثواب حمراء وزرقاء ، وعلى رؤوسهم طواقي مستديرة وعريضة مطوقة بالفراء ومشوا بخطى سريعة حازمة بين البغداديين المجتمعين ، كل ثلاثة أشخاص في صف . مع اقترابهم ، وقد ظهروا بقامات أطول برأس كامل من أي شخص آخر في الغرفة ، لاحظ عبد أن الطواقي التي يعتمرونها مزودة بشريطين عريضين يمكن طيهما إلى الأعلى من أمام ، ما يمنحهم مظهراً مربعاً عند النظر إليهم عن قرب . منحهم هذا ، بالإضافة إلى ضخامة أكتاف الرجال وقوتها الواضحة ، مظهراً مخيفاً . تضاعف هذا بالملامح

الشرقية للرجال، أنوف مفلطحة تحت عيون مغماة، وهو مظهر غريب بالنسبة للعرب والفرس المدهوشين بأعين مفتوحة على اتساعها، المتواجدين في بلاط الخليفة. الأمر الذي استغربه عبد بكل الأحوال كان مشيتهم الغريبة، حيث كانوا يقيمون بأداء قفزة صغيرة أو حجلة بعد كل ثلاث أو أربع خطوات، كأنما هم بحاجة إلى إعادة تعديل سيقانهم إلى خطوة انطلاق منظمة في كل مرة. هذه المشية بالسيقان المقوسة هي نتيجة لقضاء وقت في السرج أكثر من الوقت المقضي في السير على أرجلهم، تماماً منذ الوقت الذي كانوا فيه أطفالاً صغاراً، وعلى الرغم من أن المنظر كان سيبدو طريفاً للملاحظ غير العارف، إلا أن عبد أدرك أنها إشارة إلى قوتهم الرهيبة كمقاتلين فرسان، وهكذا فهو لم يبتسم مثل بعض الأغبياء المحيطين به بمجرد مرور الوفد من أمامهم.

هؤلاء رجال جادون ولم يرسل وجودهم في قصر الخليفة هذه الليلة رسالة طيبة إلى الساهرين الذين تواجدوا هناك لمجرد الضحك والشرب. لاحظ أن زوج السيدة زينب قرقين قد عاود الظهور إلى جانبها ووضع يداً مطمئنة على أسفل ظهرها.

التفت عبد إلى يمينه ورأى مجموعة الخليفة تظهر وتقترب، انحنى ظهر الخليفة المستعصم بالله، والذي كان في حوالي طول قامة عبد نفسه، بفعل العمر، وجاء الوزير الأعظم ابن العلقمي، خلفه، بالإضافة إلى مستخدمي البلاط والمستشارين الكثر. توقفت المجموعتان على مسافة قريبة من عبد وابن دقيق. تقدم الوزير الأعظم إلى الأمام.

«انظروا إلى الخليفة الحقيقي للنبي، ندعو...» باشر بالقول لكن أحد المغول في المقدمة رفع ذراعه «توقف» قال بالعربية «لقد قال القائد العظيم بايجو إن هذه الليلة ليست مناسبة للرسميات المرهقة وقوائم

الأسماء . يرسل حاكم العالم مونجكي خاجان تحياته ، كما يفعل ممثله في هذا الجزء من الإمبراطورية ، شقيقه هولاكو خان . نحن موجودون هنا في هذه الليلة لنحتفل في أعياد هذه الأمسية باستعراض لسيطرة امبراطوريتنا على العناصر الأربعة : الأرض ، النار ، الهواء والماء» .

انطلقت همهمة عبر الحشد . وقف القائد بايجو بوجه جامد كالصخر خلال كلمة الموفد ، يحدق في الخليفة مباشرة . مال الوزير باتجاه المستعصم وتشارك الاثنان في تبادل كلمات عاجلة ، قبل أن يعود الوزير إلى نصب قامته ومخاطبة الموفد المغولي .

«لقد كنا قد خططنا لأمسية موسيقية ، ولكنني على ثقة من . . .»

قوطع هذه المرة من قبل القائد بايجو نفسه ، الذي بدأ يتكلم بلغته . ونبرة خفيضة خشنة بدت وكأنها خارجة من قاع معدته .

تكلم للحظات ثم قام الموفد بالترجمة .

«يقول القائد بايجو إن برنامج تسليته قد تم إعداده وإن خدمه سيعملون سلفاً على تحضير الأدوات واللوازم الضرورية» . أشار إلى البابين المزدوجين خلف عبد ، واعتقد الدارس للحظة أن الرجل يشير إليه . لكنه استدار ونظر إلى داخل الحديقة ليشاهد عصبة من الرجال ينقلون الصناديق إلى أمكنة قريبة من ضوء مشاعل الحديقة . كان هؤلاء ببشرات أفتح لوناً من رجال مجموعة القائد وكذلك بأجسام أقل ضخامة .

«بالطبع» أجاب الوزير بدماثة دبلوماسية .

قال القائد شيئاً آخر فاستطرد الموفد قائلاً «أمرني القائد العظيم بايجو أن أخبركم أن هؤلاء الرجال الذين ترونهم أمامكم الآن قادمون من أرض الهان ، وأن أجدادهم خدموا أباطرة الصين منذ فجر الزمان ،

قبل أن توجد دولتكم وقبل خروج شعبكم من الصحراء . إن الصين بلاد تحتوي على سكان أكثر منكم بكثير وأقوى من بلادكم بكثير ، ويتمتع شعبها بقدرات إبداعية لا يمكن لعلمائكم إلا أن يحلموا بها . انظروا الآن كيف يخدم رجال أقوى بلاد على وجه الأرض رغبة الخاجان لتسليتنا» .

تقدم الموفد خطوة إلى الأمام وتكلم في وجه الخليفة مباشرة «يكرر القائد عرضه لكم ويذكركم بأنه الهدية الأسخى التي ستحصلون عليها من قبلنا . يجب عليكم أن تستأنفوا دفعاتكم للجزية وتسلموا مدنكم إلينا على الفور . لن يكون هناك أي تفاوض ، لن تكون هناك أي محادثات . افعلوا ما تؤمرون به وسوف تنجوا بحياتكم . تحدوا كلام الخاجان وسوف تحترقون مثل الآخرين» .

مع هذا الكلام ، استدار الوفد المغولي وعاد كل أفراده أدراجهم خارجين ، بدون أن يلتفتوا إلى اليمين أو اليسار ، رافعين رؤوسهم عالياً . ساد صمت مفعم بالصدمة بين مجموعة الخليفة والضيوف المحيطين بهم . لم يستطع أحد أن يصدق تماماً أن يكلم أي شخص ، ولا حتى موفد المغول ، السبط الحقيقي للرسول بمثل هذه الطريقة .

ظهر على الخليفة نفسه قدر من الاضطراب .

بات الوزير ابن العلقمي يرتجف بدوره ، ولكن من شدة الغضب . «يا للوقاحة ! هل رأيت أبداً –» .

قوطع للمرة الثالثة بصرخة حادة رهيبة ثم انفجار وكأنه من مدفع ، آتياً من اتجاه الحديقة .

سقط أناس على ركبهم وغطوا رؤوسهم . أحال بريق من النور القاعة كلها إلى اللون الأحمر الهلالي ، ثم تحول كل شيء إلى السواد

للحظة . أدرك عبد أنه راقد متكوراً على شكل كرة وقد غطى أذنيه بيديه . كان ابن دقيق واقفاً فوقه . انشغل الرجل العجوز في مراقبة الألعاب النارية عابساً ، بينما تنساب النيران إلى السماء خارجة من الصناديق التي انهمك الرجال الصينيون في تعبئتها قبل لحظات . نظر إلى أسفل باتجاه عبد ثم عاود النظر إلى الشرارات الملتفة وانفجارات أخرى لتتوزع على شكل قطرات عديدة من الدمع ، تتساقط ببطء بينما انطلق المزيد من القذائف في إثرها . استند عبد جالساً وراقب . فكر لنفسه بأنه لولا وجود الخطورة في المحتوى ، لكان هذا هو المنظر الأجمل والأروع الذي شاهده على الإطلاق .

«انهض يا عبد ، وانظر إلى الرسالة التي يتم إرسالها إلى شعبنا» قال ابن دقيق .

«ألا تملؤك الدهشة؟»

أجابه قائلاً «فقط بأسوأ أنواع الدهشة المرعبة» . تلفت حواليه ورأى أن كل شخص آخر ، الخليفة والوزير ، زينب وزوجها ، وكل نبلاء بغداد ينظرون إلى نيران الخاجان وكأنهم يشاهدون رؤيا إلهية ، أو يراقبون عرضاً يقدم حول مصيرهم . شاهد عبد وجوهاً قلقة ، أعيناً دامعة ، وأجبر كل انفجار المجموعة على أن ترتعش قليلاً وكل عين تغمض للحظة ، والأفواه تتلوى . بات الوضع وكأنهم يتلقون ضربة مع كل شمعة جديدة تنطلق وتعلو في الهواء .

الفصل السادس
مصر

جلسوا متحلقين حول الطاولة المستطيلة الهائلة ، بعد أن جرى نفض الغبار عنهم وتلميع درعهم الزرد من قبل صغار الضباط ، ليتناولوا وجبة العشاء ، وسط خيمة توران شاه .

على الرغم من الترحيب الدافئ عند دخولهم ، فقد جلسوا على الجانب الأيسر ، بعيدين عن السلطان الجالس على رأس الطاولة . كان آيبك أقرب ، بين القادمين الجدد الذين وصلوا مع السلطان في ذلك اليوم . جلس أقطاي على يمين المائدة ، ولكن كان بعض من مجموعات السلطان الجديدة يجلسون أبعد منه . تفحص كل من بيبرس وقطز هذا الوضع وتفهموه ، ثم تبادلا نظرة عارفة .

وصل الطبق الأول ، ودار الكثير من الشرب وتبادل التحيات . تولى توران شاه الحديث في كل الأوقات ، مبيناً الرعشة نفسها التي لاحظها بيبرس في وقت مبكر من ذلك اليوم عدة مرات . لم يعلق أحد عليها أو يظهر أي رد فعل .

«لقد قيل لي إن أمي ، والتي ليست والدتي الحقيقة ، قد قامت بعمل رائع في حماية مصالحنا» . قال توران شاه مخاطباً آيبك .

عاود بيبرس بإلقاء نظرة جانبية باتجاه قطز . تنحنح آيبك . بات محجوباً عن بيبرس ببقية المدعوين بسبب جلوسه إلى الخلف قليلاً ، لكن كان بوسعه أن يراقب أقطاي ودائرة السلطان الداخلية بدقة .

«لقد عملت والدتك على ضمان أن لا يتلقى المجهود الحربي ضربة قاتلة نتيجة لوفاة والدكم المحزنة ، وهو مليكنا الذي أحببناه بشدة» . قال آيبك .

«لقد عملتما معاً أنت وهي بدرجة متقاربة جداً ، أليس كذلك؟» ارتسمت على محيا توران شاه ابتسامة غريبة .

«إنني أخدم العائلة المالكة بكل طريقة أقدر عليها ، يا صاحب الجلالة . إن سيفي موهوب لكم ، ولها» .

«ليست لي حاجة بأية سيوف قمت بتقديمها إلى زوجة أبي» . قال توران شاه وانفجر جميع أصدقائه المثقلين بالجواهر في ضحكة ساخرة . راقب أقطاي الأحاديث المتبادلة بوجه جامد كالصخر . تجرأ بيبرس بالانحناء إلى الأمام ليلقي نظرة على آيبك . كان الرجل جالساً وكتفاه منحنيتان وقد خفض رأسه . لم يقل أكثر من «نعم يا صاحب الجلالة» .

عاد الخدم للظهور ليأخذوا أطباق المكسرات والتين والبلح ، وانحنت فتاة جميلة ، ذات ردفين عريضين فوق كتفي بيبرس وقطز لإعادة ملء كأسيهما .

على الرغم من الجو غير المريح ، لم يستطع قطز أن يقاوم إلقاء نظرة على امتداد فستانها .

أطالت عيناه التحديق بحيث إنه عندما رفع رأسه كان بيبرس والفتاة يبتسمان له ، بينما استمرت الفتاة تحمل إبريق النبيذ ذي الرقبة الطويلة بين أصابعها الدقيقة .

«أظن أن ذلك سيكون كل ما نريده ، يا عزيزتي» . قال بيبرس ، وانصرفت الفتاة وهي ما تزال ترسم ابتسامة عالقة . راقبها قطز أثناء

انصرافها . بانت تنورتها شبه شفافة تحت نور حوض الفحم الثري . حدج بيبرس قطز نظرة متسائلة . رفع الرجل يديه «ماذا؟ إنني بحاجة إلى إلهاء مقبول» .

سحب بيبرس جرعة طويلة مع نظرة سرور وسأل «ماهو الخطأ؟ كلما أسرعت في الشرب ، كلما جاءت عودتها أسرع» .

أخرج قطز ضحكة أشبه بالنهيق وأوقف نفسه على الفور . حدّق أقطاي في كليهما عبر المائدة فغطس كلاهما في كرسييهما ، وأبقيا عينيهما منكستين .

«ما هذا؟» هتف توران شاه من مكانه «هل يقوم كلا بطليّ بالإسترخاء بعد معركتهما؟ وأعتقد أنكما تفعلان خيراً . اسمحا لي أن أخبركما» . تلفت حواليه في المرافقين المحيطين به «إنني مضطر إلى شكر هذين البطلين اللذين لا يعرفان الخوف . لقد تركا المعركة النهائية لسلطانهما الجديد ، حيث سنقوم بإفناء هؤلاء الغزاة الكافرين ونعيد هذه البلاد إلى حالتها المقدسة . سوف نطهرها بواسطة الدم المسيحي ، ألن نفعل ذلك ، إيه يا بيبرس؟»

رفع بيبرس رأسه وقد فوجئ بأنه مخاطب فقال «سيكون ذلك شرفاً لنا يا مولاي . إن البحريين واقفون على أهبة الاستعداد للهجوم النهائي» . قابل عيني أقطاي للحظة ، لكنه عاود النظر باتجاه السلطان مسرعاً .

«ذلك هو الرجل الذي يتكلم كمقاتل . ما الذي قلته لكم؟ هذا أبو فتوحاتنا؟» انتفض توران شاه بعد أن قال هذا ، ولم يستطع بيبرس أن يغالب شعوره بأنه رغم موافقته على كل ما قاله السلطان الجديد ، إلا أن السلطان لم يكن صادقاً أو مخلصاً كلياً أو حتى يصدق ما يقوله

حقيقة ، لا يحتاج المقاتلون الحقيقيون إلى التبجح بما فعلوه أو بما سيفعلونه ، هذا ما جال بذهنه . فقد علّمه ايديكين ذلك منذ زمن طويل ، وكان ذلك درساً لن ينساه أبداً .

قال بيبرس «كل الشكر لك يا صاحب الجلالة» .

«دعونا نأمل أن نجد متسعاً للبحريين بعد أن ننتهي من هذه الحرب» .

اضطر بيبرس مرة أخرى إلى إخفاء دهشته . فالحرب ليست موشكة على الانتهاء . حتى بعد هزيمة لويس ، ستكون هناك دول الصلبيين المنتشرة على الساحل ، والمغول الذين يقتربون أكثر فأكثر من بلاد الإسلام مع كل يوم يمر . لقد قال التجار بوجود مئات الآلاف منهم . لقد تم تدمير مدن وأمم بكاملها في الهند والصين ، كما تم تدمير المدن في بلاد الفرنجة والروس . حتماً أن توران شاه لديه علم بذلك؟

انشغلت بقية الوجبة بأحاديث توران شاه المتواصلة عن الكيفية التي سيحكم فيها ، بعد أن يفرغ من تدمير جيش الفرنجة ، وكيف سيرغم أعداءه في دمشق وحلب على دفع ثمن عداوتهم .

***

«ماذا تعتقد الذي قصده حينما قال إن شجرة الدر هي أمه التي ليست والدته؟»

سأل بيبرس حينما عاد هو وقطز إلى خيمته .

جلس قطز على كرسي معسكر ودفع بساقيه إلى الأمام «حسناً ، هي ليست والدته ، أليس كذلك؟ لذلك أفترض أنه كان يتكلم بطريقة حرفية» .

«لقد أنقذت جيشه من الانهيار . لولا جهودها وجهود آيبك ،

لكان اليوم يختبىء خلف صخرة في صحراء سيناء» .

«آه» ابتسم قطز «هي وآيبك . هل غفلت عن ذلك التبادل الكلامي القصير؟»

«بالطبع لأ » حلَّ بيبرس عقدة حزام سيفه وألقى به فوق سريره .

«هل تعتقد أن ذلك الكلب العجوز كان يقوم بعمل لا يفترض فيه القيام به؟»

«ابقِ صوتك خفيضاً . بالطبع لا . لا يمكن أن يفعل ذلك أبداً » .

«يبدو وكأن السلطان يعتقد ذلك . إذا لم يفعل ، فهو ربما يتمنى لو فعل ؛ لأن ذلك لن يشكل فارقاً حسب الظروف الحالية» .

«ما الذي تقصده؟»

«أقصد أنه إذا كان السلطان يتهمك جهاراً أو مباشرة بارتكاب الزنا مع زوجة أبيه ، وقتها ربما يجدر بك أن تقلق» .

«ليس هناك إثبات» .

«كيف تعرف ذلك؟ والأهم من ذلك ، ماذا يهم؟ لا يحتاج السلطان إلى إثبات ، وإذا كان يرغب ، فهو سيصنع الإثبات . ينبغي على آيبك أن يهرب» .

نفض بيبرس رأسه «كلا . لأنه سيبدو مذنباً وقتها . سوف يعيدون رأسه إلى هنا داخل غطاء وسادة» .

«أنا واثق من أن القاتل سوف يحترم رتبته» .

جلس بيبرس واضعاً رأسه بين يديه .

قال قطز «إذا كان رأس آيبك سيكون مصيره القطع ، سيأتي دورنا بعده» .

«أو ربما يتم الطلب منا أن ننفذ ذلك» قال بيبرس وهو يرفع رأسه .

«لقد أقسمنا هذا اليوم بأنني لن نسمح بمقتله» .

نظر إليه بيبرس «ولكن إذا جاء الأمر من السلطان؟ آه !» انتفض واقفاً «لا أستطيع أن أفكر . يا تيكا!»

دس العملاق رأسه عبر الباب «ارسل في طلب قلاوون» قال بيبرس «وأبق عينيك على الخارج» هزَّ رأسه دلالة على التفهم ، أعادها إليه تيكا ثم انصرف .

«ماذا كان ذلك؟» سأل قطز .

«ماذا؟»

«تلك الغمزة الصغيرة التي منحته إياها» .

«لا شيء . بل شيء ما . سوف ترى» .

راقب قطز بينما ذهب بيبرس إلى الرف وصب لكل منهما المزيد من النبيذ الممزوج بالماء . فقد ظل يعاني من ظمأ لا يمكن إرواؤه طيلة ذلك النهار .

سارع قلاوون إلى دخول الخيمة لاحقاً ، وأشار إليه بيبرس أن يتخذ كرسياً ويجلس لكنه رفض . تقبل كوباً من النبيذ المخفف «ما هو خبر زعيم الجواسيس الأخير؟» سأل قطز .

«لقد تمكنا من حصرهم في مكان على بعد بضعة أميال إلى الشمال من المكان الذي عسكروا فيه بالأمس . علمنا من أولئك الذين أسرناهم بالأمس أن الملك الفرنجي سيقدم شروطاً في الغد . في الوقت نفسه ، فإن سفنهم تنزل النهر قادمة من دمياط لتعيد تموينهم» .

«ولكن هل نحن جاهزون لهذا العمل؟»

«لقد قيل لي أن سفنهم جاهزة للتحرك بمجرد ظهورهم . سوف نحاصرها تماماً كما فعلنا مع الجيش» .

قال بيبرس «لقد قال السلطان هذه الليلة إنه سوف يقود الهجوم النهائي» .

فكر قلاوون «هل قال متى؟»

سأله قطز «وهل ذلك يهم؟»

«إن بضعة أيام ستجعلهم أضعف» قال قلاوون «إذا أسرنا هذه السفن كما قال النقباء إن بوسعهم فعل ذلك ، فسوف نتمكن من تعريضهم للمجاعة» .

قال قطز «ولكنهم مهزومون أصلاً» .

قال بيبرس «إن قوتهم ما تزال تشكل من خمسة إلى عشرة آلاف رجل . يصبح الحيوان في أقصى درجات خطورته عندما يحاصر ويجرح» .

طأطأ قلاوون «سيحدث ذلك عندما تهاجمهم في مقتل . ليس هناك من خيار آخر» .

«هل تصدق ذلك؟ لويس يطلب شروطاً» .

«وماذا إذا كان الأمر ينطوي على خدعة؟ هذا الملك قائد محنك . لقد خذله رجاله . إذا كان تقياً بقدر ما يقولون عنه ، فسوف يتظاهر بأنه ليست لديه كبرياء ، لأنهم ينظرون إليها كخطيئة . لكن انتبه إلى ما أقوله ، سوف تتأذى كبرياؤه . سيرغب في إنقاذ ماء وجهه» .

نفض قطز رأسه «أنا لا أرى الأمر على هذه الشاكلة» .

قال بيبرس «دعونا نرى ما يفعلونه بالسفن غداً . كيف هي أوضاع الرجال؟» موجهاً السؤال إلى قلاوون .

«إنهم كما تركتهم ، رغم أنه حدث لدينا المزيد من الوفيات نتيجة للجراح التي أصيبوا بها أثناء القتال في البلدة . أولئك الذين يستطيعون

أن يسيروا رغم جراحهم وأولئك الذين تركوا بدون أن يلمسهم أحد لا يشعرون بشيء سوى الفخر والرغبة في إنهاء المهمة . لو أننا نطلب منهم أن يهاجموا في الغد ، فهم سيهاجمون المعسكر مثل الشياطين» قال موجهاً كلامه إلى قطز على شكل مواساة .

«ممتاز ، استمروا في مضايقة العدو ، أي مجموعة استطلاع أو أي محاولة إفلات ، أطبقوا عليها ودمروها . اعرضوا الجثث حيث يمكن للآخرين أن يروها» .

هزَّ قلاوون رأسه . عاد تيكا إلى الظهور عند المدخل . رفع بيبرس رأسه باتجاهه «آه ، جيد ، أدخل» .

دخل تيكا بصحبة شكل لشخص صغير الحجم مغطى بدثار رأس وما بدا مثل بطانية . قاد الغريب إلى وسط الأرضية ثم دق على كتفه وتراجع إلى الخلف . نزل غطاء الرأس ببطء ليكشف عن شعر أسود طويل ثم عينين أنثويتين متقدمتين . تلفتت الفتاة حواليها ، ثم أزاحت غطاء الرأس كلياً ونظرت إلى بيبرس بتعبير مضطرب قلق .

صاح قطز «هذه فتاة النبيذ ! من خيمة السلطان» .

تشنجت الفتاة مبتعدة عنه لشدة خوفها ، فلوَّح بيبرس بيده «لقد قلت لك أن تبقي صوتك منخفضاً !»

بدا على قطز الضيق من هذا الكلام ولكنه لم يقل أي شيء .

«لا تخافي يا مارا . إني أثق بهؤلاء الرجال كما قد أثق بأخوتي . في الواقع ، هم إخوتي» .

بدا على الفتاة قليل من الطمأنينة على هذا القول ، لكن بات واضحاً أنها مازالت مرتعبة من الرجال الأربعة الضخام الذين لم يتوقفوا عن التحديق فيها بطريقة متعمدة .

قال بيبرس بصوت لطيف «أرجوك يا مارا ، اجلسي . أحضر لها كوباً من الماء يا تيكا» .

جلست الفتاة على الكرسي الخفيض الذي وضعه بيبرس في وسط الخيمة ووزعت نظراتها عليهم مرة أخرى . خرج تيكا ليحضر بعض الماء المناسب للشرب . خفضت مارا رأسها ولوت يديها وسط حرجها .

«قولي لنا يا مارا . ماذا يفعل السلطان الآن؟ نحن في غاية القلق عليه ، لأن هذا مكان خطير والجيش المسيحي قريب من هنا» .

رفعت رأسها واتسعت عيناها عند ذكر الجيش الفرنجي «لقد بقي بصحبة رفاقه ، الأفريقيين والرجال القادمين من أرض الفرات» .

«ما الذي يتحدثون عنه؟»

«لا أفهم الكثير مما يقولونه . . .» قالت «لقد أفرغوا جرة كبيرة كاملة من الخمر . غير مخلوط بالماء» . ثم أجفلت ، وكانها أدركت أنها تقول شيئاً لا يفترض فيها أن تقوله .

«لا تقلقي يا مارا . حتى نحن نشرب بعض النبيذ المخفف بالماء ، هل رأيت؟ والسلطان يعرف القانون أفضل من أي واحد منا» .

«إنه من يجسد القانون» . قال قلاوون .

«نعم» قال بيبرس ، وهو يتلفت ليحدجه بنظرة غاضبة خارج مدى رؤية مارا .

«إنه رجل عظيم . ألم تفهمي أي شيء مما قالوه يا مارا؟»

«لقد تحدثوا عن الكيفية التي سينفقون فيها أموال الفدية . لا أعرف أي فدية يقصدون . وقالوا إِن الوقت يقترب لحدوث غربلة . حتى إِنني لا أعرف ما هي الغربلة» .

هزَّ بيبرس رأسه ونظر إلى الآخرين «هل قالوا شيئاً آخر؟»

نفضت مارا رأسها إيجاباً وزمت فمها بحدة .

«هيا يا مارا . انظري ، ها قد عاد تيكا مع قدح الماء لك . تناولي جرعة وأخبرينا . كما قلت ، نحن فقط قلقون على السلطان ونريد أن نبقيه في أمان» .

تناولت مارا القدح ولامست شفتيها به «عندما غادرت قبل بضع دقائق ، كان السلطان يتجول في أرجاء الخيمة الملكية . كان يحمل في يده سيفاً» .

اندفع بيبرس إلى الأمام في جلسته «هل قلت سيفاً؟»

«كان يلوِّح به فوق رؤوس رجاله وهم يطأطئون رؤوسهم ويضحكون ، لكنني عرفت أنهم لم يكونوا مستمتعين بما يفعله» .

«هل كان يرعبهم بطريقة متعمدة؟»

نفضت الفتاة رأسها للمرة الثانية «كلا ، ليس هم . لقد كان يترنح ويسقط . فقد أكثر من تناول الشراب . كان يقطع رؤوس الشموع ويقول «هذا ما سأفعله للفرسان البحريين» .

أطلق كل من قطز وقلاوون لهاثاً .

قفزت الفتاة مرة أخرى مذعورة ، لكن بيبرس أفرد لها ذراعه وتكلم بهدوء ليخفف من روعها .

«لا تخشي شيئاً يا مارا . لن يعرف أحد أنك كنت موجودة هنا . الآن ، سوف يحافظ تيكا على سلامتك ويسير معك إلى خيمتك . هل أنت مضطرة إلى خدمة السلطان ورجاله في هذه الليلة؟»

«لا أعتقد ذلك» قالت «كان الظلام حالكاً حينما غادرت ، وقد أحضروا فرقة من الفتيات الراقصات . لقد قالوا إِنهم لم يعودوا بحاجة إلى الخدم العاديين» .

عاد بيبرس إلى الابتسام في وجهها ودس في يدها بقطعة نقد كبيرة «سوف أزورك فيما بعد» . قال لها «وسوف نعمل على ضمان سلامتك في جميع الأوقات . توقعي حضور تيكا دائماً . سيبقى قريباً من مساكن الخدم في الغد . إذا سمعت أي شيء آخر وتعتقدين أنه سيساعد السلطان ، طأطئي له برأسك . سوف نقوم نحن بالباقي» .

نظرت الفتاة إلى يدها التي تحمل قطعة النقد وتكاد تملأ كفها . كانت ثقيلة «كيف سأعرف الشيء الذي يقدر على مساعدة السلطان؟»

«ستعرفين» قال قلاوون .

ابتسم لها بيبرس للمرة الأخيرة ثم أشار إلى تيكا . وقف العملاق عند رأس الفتاة فنهضت ولحقته خارجة .

«ستقع الحرب لا محالة» قال قطز بعد أن خرجت .

ركبوا في اليوم التالي بصحبة مجموعة السلطان لمعاينة معسكر الفرنجة والخطوط المصرية المحيطة به . ركب السلطان وبقية الحاشية الملكية أمام الفرسان ، تحت حراسة رجال حمايته . ركب بيبرس وقطز وقلاوون في الصف الثاني للبحريين خلف آيبك وأقطاي الذي بدا في غاية العبوس والانزعاج .

جاءت خلف هؤلاء الخمسة قوة مؤلفة من مئتي فارس بحري جرى انتقاؤهم من وحدتي بيبرس وقطز للعمل كحراس شخصيين ملكيين . اتخذ بيبرس احتياطاً إضافياً بإرسال عدة فرسان يسبقونهم على الجانبين وفي المقدمة لاستكشاف أي خطر محتمل ، على الرغم من ورود خبر مفاده أن السلطان ليس سعيداً بما رأى فيه تدخلاً على أحقيته في القيادة ، ربما بسبب مبالغته في الشراب الليلة الفائتة .

«أرجو أن تبلغ السلطان بأننا قمنا بهذه الاحتياطات لكي نضمن عدم الالتقاء بأي مجموعات استطلاع فرنجية تبحث عن الطعام . ففي نهاية الأمر ، يصبح الرجال الجائعون سريعي الغضب» . بات على الرسول التشكك ، لكن أقطاي نظر من فوق كتفه وانتهره «إفعل ما يقوله ، عليك اللعنة ! لقد قضى هؤلاء الرجال أسابيع طويلة وهم يقاتلون في هذا القطاع ويعرفونه أفضل من أي واحد من أسيادك الذين هم فوقك . لا تهمني الألقاب التي خلعت على الشياطين ذوي البشرات السوداء» .

ركب المراسل مبتعداً ولم يعودوا يسمعون المزيد عن الكشافة .

«كان يجب عليك أن تذكره بأن الإفريقي خصي أيضاً» . قال قلاوون ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة هائلة . «ذلك كفيل بأن يدفعه إلى سلخ جلد الرجل في مكانه» .

قال قطز «لقد تمت ترقية خصي ليصبح أعلى رتبة من فارس الدين أقطاي . ناهيك عن ذكر ذلك الآخر الذي أصبح سيد المسكن الملكي» .

رفع بيبرس عينيه باتجاه آيبك . هو يعرف أن الرجل الأكبر سناً ظل يتوق إلى ذلك المنصب منذ وفاة السلطان العجوز ، وربما حتى قبل ذلك ، لأنه ظل مدافعاً صلباً عن العائلة الملكية ، والملكة ، شجرة الدر ، بدرجة خاصة . والآن ، فقد عيَّن توران شاه اثنين من خصيانه قادة للحرس الملكي والمسكن الملكي . لقد جاءت هذه التعيينات كصفعة في وجه قادة البحريين ، خاصة وأن الواحد منهم قد وضع نفسه في موقع مخاطرة جسيمة عندما ركب من شمال مصر إلى الجزيرة ليستعيد الملك الشاب ، بينما قام الآخر بحماية مصالح الأمير الصغير نفسه مع

جيش والده . لو وصل الخبر إلى القاهرة أو حتى صغار الضباط بأن السلطان العجوز قد توفي قبل أن يتمكن توران شاه من تسلم التاج ؛ لكانت الحرب الأهلية واقعاً يكاد يكون محتوماً . الواقع هو ، فإن آيبك وأقطاي هما اللذان منعا حدوث هذا ، بينما حفظ بيبرس وقطز خط الجبهة حتى إنهما قاما بهجوم معاكس عندما اخترق الفرنجة خطوط فخر الدين . بات بيبرس على ثقة من أن العداوة القديمة بين آيبك وأقطاي سرعان ما سيتم نسيانها . لكن في البداية هناك مسألة ما ينبغي عملها حيال الملك الفرنجي وجيشه الذي ينكمش بسرعة .

سأل قطز «هل أخبرتهما بما قالته الفتاة الخادمة ليلة أمس؟»

«كلا . إن مجرد سماع مثل هذه الأخبار يعتبر خيانة وسوف يتم إعدامنا جميعاً . لن يسمح أقطاي وآيبك بالمخاطرة في السماح لأي شخص أن ينشر تلك القصة بدون أن يعاقب» .

قال قلاوون «حتى لو حدث أنها صحيحة؟»

رد عليه بيبرس بلهجة تقريرية «على الأخص إذا كانت صحيحة» .

أصر قطز على التساؤل «ولكن ما الذي ينبغي علينا فعله تجاه هذا الوضع؟»

قال بيبرس «سنحتفظ بالسر في قلوبنا وننتظر» .

«ننتظر إلى متى؟»

«ننتظر حتى نعرف بأنه سيثبت كونه مفيداً لنا . نحن جميعاً شهود على شهادة تلك الفتاة . إذا اختفت ، فإن لدينا شهادة ثلاثة من الإخوة الفرسان على ما قالته . لكننا لا نستطيع أن نباشر في الإجراء . يجب أن يفعل ذلك آيبك أو أقطاي ، أو الأكثر احتمالاً في رأيي ، أن

يقوم بالعمل كلاهما سوية» .

«وماذا إذا لم يباشرا بأي إجراء؟ ماذا يحدث وقتها؟ لقد كان السلطان يتجول حاملاً سيفه في الليلة الماضية . ما الذي سيوقفه من الدخول إلى خيمنا وقطع رؤوسنا تماماً كما فعل مع شموعه؟»

«لا شيء» قال بيبرس .

استطرد قطز «وما الذي قصدته بقولها عن الفدية؟»

«أعتقد أن السلطان ينوي أن يقبض على الملك لويس حياً . فكما قلت لي يا قطز ، إنه ذو قيمة عالية . يبدو أن السلطان يتفق معك» .

قال قطز «سيحصلون على ثروة مقابله» .

قال قلاوون «بقيمة العهد الفرنجي كله . لقد سمعت من رحالة اندلسيين أن مملكة الفرنجة تبلغ حجم مصر ، وأنها قابلة للزراعة بدرجة كاملة» .

سأل بيبرس «ولكن ماذا عن تجارتهم؟»

«ما الذي تقصده؟»

«هل لديهم موانئ عظيمة كما لدينا الإسكندرية مثلاً؟ سوف يضطرون إلى بيع الكثير من صوف الأغنام والقمح لتجميع الثمن الذي سيطلبه توران شاه مقابل ملكهم» .

«سوف يفعلون ذلك يا بيبرس . ليس لديهم أي خيار آخر» .

«كلا ، بالطبع ليس لديهم . لكن سعري لأولئك الذين سيقومون بغزو بلاد الأمة هو الموت والموت وحده . هل كان لويس سيبقي على حياة أي واحد منا لو كان الموقف معكوساً؟»

لم يجب أحد . استمروا في الركوب حتى تمكنوا من رؤية أولى مفارز الطوارئ لجيش السلطان . أصبح بوسعهم رؤية المجموعة الكبيرة

من الفرسان البحريين التي نظموها لتكون في استقبالهم على الأرض المستوية . صدر الأمر لكل رجل من غير المكلفين بمهمة التصدي للفرنجة ليقف في الطابور لاستقبال السلطان الجديد الذاهب إلى الجبهة . قدموا التحية البحرية التقليدية لدى اقتراب المجموعة الملكية منهم ، رافعين أسلحتهم في الهواء وهم يهتفون بأقصى قدرات رئاتهم . جاءت هتافاتهم خليطاً من المدائح الدينية والشعارات التي تمجد مليكهم ، المتحدر من صلاح الدين صاحب الجلالة الأفخم ، وأنجاله الميامين .

رأى بيبرس وقد اقترب الآن أكثر من مقدمة المجموعة لدى دنوهم من الخط الأمامي ، أن توران شاه يبدو وكأنه يرتجف من الضجيج الذي خلقه البحريون ، ولاحظ ارتجاف السلطان بتلك الرعشة المألوفة مرة أخرى . بات يتساءل عن عدد الرجال الذين لاحظوها أيضاً .

تألق الجنود والضباط البحريون نتيجة انتشائهم من نصرهم وثقتهم بأنهم الآن الجهة التي تسيطر على الحرب ضد الفرنجة ، قادهم رقباؤهم في توجيه التحيات للسلطان ووالدته ، رغم أنها لم تكن موجودة وأنه قال إِنها ليست والدته ، ثم حيّوا قادتهم : أقطاي وآيبك وقطز وبيبرس .

توقف السلطان وأشار إلى مجموعتهم للتقدم والانضمام إلى مجموعته . بدا وكأنه قد تعافى من صدمته الأولى نتيجة حجم هتافاتهم . «إنهم يبدون وكأنهم في طريقهم إلى احتفال زفاف !» قال هاتفاً «هل خضتم معركة قبل مجرد بضعة أيام ماضية فعلاً؟»

اكتفى أقطاي وآيبك بحني رأسيهما ، بينما استدار توران شاه لينظر إلى صفوف الفرسان مرة أخرى . خاطبهم بصوت عالٍ .

«عندما تنتهي الحرب ضد الكفار نهائياً ، وعندما نختتم معاركنا

النهائية ، وقتها سأقوم بمكافأة قوات والدي البحرية بجميع الأوسمة التي يستحقونها !» رفع توران شاه ذراعيه على اتساعهما إلى فوق وزادت هتافات الجنود .

«سيقوم بتزويق القاهرة بأعضائنا هو ما يقصده» همس قطز . التفت بيبرس إليه ونفض رأسه قائلاً «إمسك لسانك . سنتمكن من التحدث بعد كسب المعركة . بالنسبة للآن ، نحن في وسط صراع ، حتى لو لم يكن ذلك الصراع مكشوفاً» .

صمت قطز وراقب حركات السلطان التمثيلية بوجه محتقن . خفف بيبرس من ملامحه بمجهود عندما مال باتجاهه «إن رجاله يراقبون كل شيء نفعله . لا تمنحه سبباً ليقوم بخطواته أبكر مما يجب» .

«لن يجرؤ على ذلك» .

«سيفعل . وسيقوم آيبك وأقطاي بالتضحية بك للحفاظ على البحريين إذا استطاعا .إضحك كما لو أنني أخبرتك بالنكتة الأكثر طرافة التي سمعتها في حياتك وصفق له» .

ابتلع قطز ريقه ثم انفجر في ضحكة صاخبة ، وهو يدق على كتف بيبرس . ثم صفق مثل الآخرين تكريماً للسلطان .

«هل هذا أفضل؟» سأل من خلال أسنانه المقفلة .

قال بيبرس «أفضل بكثير» .

الفصل السابع
مصر

«هل ذاك هو الخط الفرنجي؟»

كانوا ينظرون عبر أكثر من مئة ياردة من التربة المغبرة المستوية ، إلى ما ظهر مثل سياج خشبي ومنصتين مرتفعتين ، مثل النمط الذي قد يشيده أب لطفل ما على شجرة كبيت للعب . جاء المنظر كسيفاً مغبراً عبر ضبابية شمس منتصف النهار الزاحف . لم تختلف الصفوف المصرية كثيراً ، رغم أن مفارزهم الأمامية وأسوارهم مشيدة من خشب أكثر صلابة وقد حفرت أمام كل منها حفرة عميقة ملئت بالماء ، بحيث خبأ الطين الوسخ الأوتاد المسمومة قممها بشكل أفضل ، وهي القادرة على اصطياد قدم أي مهاجم أحمق أو سيء الحظ بما يكفي لأن يقفز داخل الحفرة ، أو أي جزء من جسمه .

«من الصعوبة بمكان رؤية كل شيء من هذه النقطة يا مولاي . لا توجد أرض مرتفعة ، كما ترى . قد لا يبدو المنظر مهيباً ، لكننا نعتقد أنه مازال لديهم قوة تزيد على عشرة آلاف ضمن ذلك المخيم» .

نظر توران شاه إلى قلاوون وكأنه لا يصدقه .

«لا يمكن أن تزيد المسافة عن مئة خطوة عبر المكان . هل يوجد عشرة آلاف منهم داخل ذلك المكان . هل قاموا بحفر خنادق؟»

نفض قلاوون رأسه «كلا يا مولاي . لم يتوفر لهم الوقت . بعد أن طاردناهم إلى الخلف عبر مخاضة البر الصغير ، تمكنوا من التجمع هنا ،

مع وجود النهر إلى جانبهم كما ترى ، ثم قام رماة أقواسهم بإطلاق صليات على فرساننا حتى تمكن المهندسون من إقامة ذلك السياج الذي تراه هناك» .

«ماذا عن التموين؟»

«مازالوا يرسلون لهم قوارب من دمياط ، لكن الريح في صالحنا ولذلك نقوم بالاستيلاء عليها بمجرد إطلاقهم لها . لقد استولينا على قرابة خمسين قارباً بالأمس وفوقهم ثلاثون أول من أمس» .

هزَّ توران شاه رأسه وانتفض «مثير للإعجاب . كيف هي معنوياتهم؟»

«هم يدركون أن اللعبة قد انتهت يا مولاي ، وأن المعركة في صالحنا» . قال آيبك .

«لقد تم إرسال وفود هذا الصباح تعرض مبادلة دمياط بالقدس . بشرط أن يغادروا مصر ولا يعودوا إليها أبداً» .

أثار هذا القول جولة من الضحك من جميع الحاضرين .

قال توران شاه «على الأقل ، لديهم روح النكتة» .

«لديهم مرض أيضاً ، الحمى ، لقد انتشرت بقوة في معسكرهم يا مولاي» . نظر آيبك باتجاه الرايات التي تبدو مرهقة حيث تدلت من دفاعات الفرنجة . «خلال أسبوع ، أو ربما إثنين ، سيقومون بالاستسلام بدون قتال . ليس لديهم أمل طالما هو حصار النهر صامد» .

«وماذا إذا مات الملك الفرنجي أيها السيد آيبك؟ هل تعتقد أنني سأسمح لملك زميل أن يتوفى بميتة جبانة معيبة ، حتى لو أنه مسيحي؟ يفرض علينا الشرف أن نقاتل وسوف يثبت الله سبحانه وتعالى أحقية قضيتنا» .

«يا مولاي ، صاحب الجلالة» . قال آيبك ، واستطاع بيبرس أن يشعر بتغيير المزاج يتنزل على كامل المجموعة المشكلة من الفرسان ورجال البلاط الملكيين . «بوسعنا أن نحفظ أرواح رجالنا ونكسب النصر في الوقت نفسه . من واجب الملك الفرنجي أن ينقذ حياته ، أليس كذلك؟»

«كلا أيها السيد آيبك ، ليس الأمر هكذا . هو قرارنا ما إذا كان سيعيش أو يموت» .

اتخذ صوت توران شاه نبرة جليدية هادئة واثقة ، مثل مشروب مثلج مخلوط بالسم في يوم حار «نحن نختار أن نهاجم ، وهذا ما سيحدث» .

قال آيبك «نعم يا مولاي» .

«ومن هو الذي جلب هؤلاء الموفدون الفرنجة شروطهم إليه بالضبط؟» حوّل توران شاه نظرته إلى الفرسان .

قال آيبك «لقد جاءوا إليَّ يا مولاي . بصفتي رئيساً للمسكن الملكي» .

قال توران شاه «صفتك السابقة ، يشغل هذا المنصب الآن معمر ، فهل أنا بحاجة إلى تذكيرك؟» أومأ السلطان برأسه باتجاه الإفريقي الفارع الطول . «وكذلك فإن ليبور هو قائد الحرس الملكي . أنت وفارس الدين أقطاي ، موجودان هنا بصفتكما ضابطين بحريين وكبادرة للتذكير بوالدي . لا شيء أكثر من ذلك» .

«نعم ، يا مولاي» . انحنى آيبك بحدة في سرجه .

استدار توران إلى المخصيين وقد شعر بالرضى «يا معمر ويا ليبور ، ستقودا هجوماً على ذلك المعسكر بحلول هذا الوقت من الغد . أريد أن

يتم العثور على الملك الفرنسي وأسره حياً . سوف يتم إحضاره إلى خيمتي حيث سأعامله كملك زميل آذاني بدرجة جدية . قوما بأسر أولئك الذين يساوون أي شيء وعاملوهم بشكل جيد ثم اذبحوا الآخرين . سوف يدعمكم البحريون بأي وسيلة تجدونها ملائمة» .

تم اتخاذ قرار الهجوم لصباح اليوم التالي ، بعد منتصف الليل ببضع ساعات حين يبلغ الليل أشد سواد له ، ويكون مدافعو الفرنجة في أقصى درجات إرهاقهم .

أمر قادة السلطان الوحدات البحرية بالتقدم على رأس القوة وإعطاء الانطباع والمظهر القائل بأنهم يشنون مجرد غارة أو اشتباك ، الأمر الذي سيغطي على القوة الرئيسة المسلحة بأكباش الخشب والكلابات على مسافة خلف الطابور . كان ذلك هو القسم الأشد خطورة من الهجوم ، لكنه الشيء الذي تربى الفرسان وتدربوا على أدائه ، لذلك تلقى الضباط الأوامر بمشاعر مختلطة .

قال قطز «إنهم يحاولون أن يبيدونا . يجبروننا على النزف حتى الموت بإرسالنا حتى نتلقى صدمة الدفاع الفرنجي . بعد ذلك سوف يندس غلمانهم من الخلف على سلالم ويحصلون على كل المجد . لن يمنعهم شيء من الإجهاز علينا بينما نحن ما نزال ننزف بعد ذلك» .

فيما عدا لهجته الغريبة إلى حد ما ، وجد بيبرس الاختلاف معه صعباً ، فيما عدا أنه قال «سيكون الإذلال الأشد لو أنهم حركونا إلى الطابور بدلاً من المقدمة . إن البحريين يقودون الطابور» .

«وهكذا فعل المعبديون وانظر إلى ما فعلته أنت بهم» .

***

تناولوا وجبة فخمة واستسلموا للنوم أمام النار في المساء الباكر ،

قبل أن يحضر قلاوون ويهز بيبرس بلطف حتى أوقظه .

قال «إنهم يصطفون» .

فرك بيبرس عينيه ونهض جالساً . لدى سماعه الهمس ، نهض قطز بدوره . ارتديا ملابسهما بسرعة ، مع الدروع وأحزمة السيوف ، بدون أي شيء معدني مثل العقد والمهاميز التي يمكن أن تلمع أو تطرقع ، وأحضرا رماحهما الطويلة إلى خارج باب الخيمة ، حيث وقف تيكا خافراً .

أشار قطز إلى رقيبه ليجمع رجاله بينما ذهب قلاوون لتشكيل وحدات بيبرس القفقاسية . تشكل هؤلاء من الشراكسة مثله وتشكيلة من الجورجيين والأبخاز والأوسيتيين .

قال بيبرس «دعونا نرى كيف يتم تنظيم هذا الهجوم» .

تحركوا راجلين عبر المعسكر ، حيث هرع الرجال جيئة وذهاباً ، حاملين الأسلحة والمعدات .

فحَّ فيهم بيبرس «ابقوا أصواتكم منخفضة !» لكن كان هناك عدد كبير جداً من الرجال الذين يصيحون بالأوامر بحيث أصبح من العبث محاولة أي شيء . أضيئت مشاعل هائلة عند مقدمة التحصين ، قريباً من المكان الذي استعرضوا فيه مواقع خطوط الفرنجة بصحبة السلطان في وقت أبكر ، أضاءت كل موقع وأنارت الطوابير الطويلة من رجال المشاة أثناء انسيابهم عبر البوابة الرئيسة ، واصطفافهم على الجانب القصي من الحفرة .

سأل بيبرس «ما الذي يفعلونه؟ بوسع الفرنجة أن يروا كل شيء !»

«وأن يسمعوا كل شيء» قال قطز .

وقفا وراقبا ، وهما يهزان رأسيهما أسى بينما استمر الاستعراض ،

الجيش الذي تمكنا من إيصاله إلى تنظيم معين بعد موت فخر الدين، كان يعود الآن ليصبح مجموعة من الرعاع مرة أخرى.

قال قطز «إن الرجال يبذلون أقصى جهودهم ويقدمون أفضل ما لديهم، لكن أين هم الضباط في كل هذا؟ سيقوم الفرنجة بإبادة الصف الأول بمجرد أن يصلوا إلى مدى رمايتهم».

قال بيبرس «لا أعتقد أنهم يهتمون» ونظر خلفه. بدأ البحريون، بوجوههم التي سوَّدها الرماد من نيران طهيهم، يتحركون خروجاً، وقد غطوا خيولهم بأقمشة خيش سوداء لإخفاء اللمعان وطمس ضجيج طرقعة دروعهم.

مشى أقطاي وآيبك على رأسهم.

«ما هذه المهزلة؟» قال أقطاي عندما قابله بيبرس وقطز.

أدى بيبرس التحية «إنني أوصي بأن نقوم بهجوم متحلق يا صاحب السعادة. نتحرك إلى خارج المنطقة المضاءة إلى جهة الغرب ثم نلتف من الخلف حتى نأخذ صفوفهم بدرجة من الغفلة».

«أوافق يا بيبرس. الهجوم من الظلام أفضل من الهجوم أمام ضوء تمرين راقص». رفع رأسه لينظر إلى المصابيح اللاهبة على التحصينات المصرية وهزَّ رأسه وهو يتمتم «أمر لا يمكن تصديقه».

أجروا التشكيل: وقف بيبرس مع حرسه الشركسي على اليسار في طابورين، وقطز على اليمين مصحوباً برجاله من خلفه. كالعادة، اصطف تيكا، ذراع بيبرس اليمنى منذ أيامهما كصبية في الطباق، خلفه مباشرة، حاملاً بلطة هائلة مقوسة في يده. أنقذ ذلك السلاح حياة بيبرس أكثر من مرة، حينما استعر أوار المعركة أكثر مما يحتمله، واندفع بحصانه بطريقة فوضوية إلى وسط الأعداء. كان في العادة

يلمح ضبابة حمراء وينظر باتجاهها ليكتشف أنها رذاذ دموي من رقبة مفتوحة لأحد المهاجمين ، وسلاح تيكا ينسحب مثل يد ملاك حارس ، إلى الخلف .

جاء قلاوون خلف تيكا ثم بقية القفقاسيين ، الرجال الذين جاؤوا من الشمال مثل بيبرس . تم القبض على معظمهم وهم في أوج بواكير شبابهم وإحضارهم إلى ديار الأيوبيين ، وهو مهرب من بديل أكثر سوءاً بكثير وهو الخدمة في صفوف المغول ، حيث لن يعرفوا هناك سوى الوحشية ، ولكن جرى تعليمهم ليس فقط نظام المعسكرات في خدمة السلطان ، بل أيضاً الجمال الخالد للإسلام . حررهم الخضوع لله تعالى من الهموم الوضعية للحياة الدنيوية ، بينما علمتهم الصلاة وعلمهم الصيام التركيز والثبات والجلد .

بالإضافة إلى صعوبات تدريبهم العسكري والروح الرفاقية مع زملائهم المرشحين ، فإن الرجال الذين يتخرجون كانوا يحصلون على هدايا الانتماء إلى أرقى الوحدات في البلاد ويصبحون أقوياء ذوي منعة فعلية ، أنداداً للمعبدين المسيحيين في النواحي كافة ، والذين سيطرت قواتهم على بلدان المشرق وحكمته بدون توقف لأكثر من قرن من الزمان .

تحرك البحريون بدقة فردية صامتة خارجين من البوابة ، متجاهلين الفوضى والضجيج الذي أقامه الجيش النظامي لدى خروجه من المعسكر ، ولم يتلفتوا يمنة ولا يسرة . أحيط آيبك وأقطاي ، والدا الوحدة التي أسسها والد توران شاه حينما جعل البحريين حرسه الشخصي ، أحيطا بحماية كافية في وسط طابورهم ، والتف حولهما الجنود والمتمرسون القدماء الذين شكلوا نواة القوة البحرية قبل حتى أن

يتحسس بيبرس وقطز سيفيهما للمرة الأولى .

عرف كل رجل في المجموعة ماهية دوره المحدد بدقة ، وعندما تدعو الحاجة إلى إجراء تغييرات في طريقهم أو خطفهم : استخدم المراسلون الذين يركبون من أول الطابور إلى آخره إشارات باليد . لن تكون هناك أي اتصالات يمكن سماعها حتى يتم الالتحام في المعركة .

ركبوا خارجين إلى الريف ، مبتعدين في الظلام حيث لا يمكن رؤيتهم ولا سماعهم حتى يحين وقت هجومهم . تلقى الجيش النظامي تحت القيادة الإفريقية الجديدة أوامر بعدم الهجوم إلا بعد أن يشن البحريون هجومهم . بعد ذلك سيتحركون مغادرين الأرض المنبسطة حيث رقدوا على بطونهم ، ويقومون بتسلق أسوار المعسكر الفرنجي لبقر بطن أي شخص يعثرون عليه في الداخل .

مشت الجياد لمسافة حوالي الميل حتى وصلت إلى مجرى رافد من القناة الأكبر حجماً في الشمال ، والتي يحتلها الفرنجة ، ثم انحرفت عائدة لتواجه الهدف الذي ستتم مهاجمته .

كان المِعسكر الفرنجي إلى يسارهم يتلألأ بأنوار بضعة مشاعل حول حصنهم الدفاعي ، لكن المعسكر المصري ظل يومض مثل بلدة صغيرة . كان بوسع البحريين أن يشاهدوا من موقعهم المميَّز ، الجنود الاحتياط وهم يخرجون من الاستحكامات ويصطفون لمتابعة القوة الرئيسة التي انطلقت أثناء خروجهم . وصل جنود الصف الأمامي إلى منطقة ما في الأرض الحرام بين المعسكرين في هذه الآونة . لم يعرف البحريون ما إذا كان هؤلاء قد اشتبكوا في الظلام ؛ لأن ذلك لم يشكل أهمية بالنسبة لمجموعتي الاشتباك أن تصطدم إحداهما بالأخرى في التراب . وقتها ستخرج الخناجر والهراوات وستحاول كل مجموعة أن

تقتل الأخرى وتنهيها بإثارة أقل مستوى ممكن من الضجة .

أثناء مراقبتهم وتعرفهم على الأرض قبل الانطلاق مرة أخرى ، مال قطز باتجاه بيبرس :

«لقد شاهدونا أثناء مغادرتنا وسوف يراقبوننا ويتوقعوا قدومنا الآن» .

«دعهم يراقبوا . حتى دعهم يرونا قادمين . ذلك هو ما نريده» .

«إن البحريين هم الصاعقة التي تنبئ عن قدوم العاصفة» . تلفتا حولهما ورأيا أن أقطاي وآيبك قد ركبا إلى المقدمة خلفهما . «ونحن البرق الذي يضرب قبل هطول المطر» .

كان الذي تكلم هو أقطاي وأخذ يتمعن فيهما . «لقد غبت عن الاشتباك الأخير مع الغزاة . لكنني أحمد الله على أنني هنا لكي أقاتل معكما ، أخويَّ» .

وضع كل من بيبرس وقطز والرجال الآخرين الأصغر سناً أيديهم على قلوبهم وأحنوا رؤوسهم احتراماً للرجل الأكبر سناً . «دعونا نوضح للسلطان الجديد لماذا اختار والده المبارك النبيل البحريين حرساً شخصياً له وجنود صاعقة ، يا أخي» . قال آيبك . شبك هو وأقطاي ذراعيهما ثم رفع قطز يده مشيراً إلى التحرك إلى الأمام . أخرج بيبرس قوسه من السرج .

دفعوا بالجياد إلى هذاب خفيف وسرعان ما اتخذوا نمطاً رتيباً فوق الأرض غير المستوية . كان الصوت الوحيد المسموع خلافاً لأنفاس الجياد هو أصوات الحشرات الليلية والسحالي التي أزعجوها من طقوسها الليلية المعتادة . سرعان ما وصلوا إلى مسافة ألف ياردة عن المعسكر الفرنجي . لم تكن هناك أية إشارة على أن أياً من الحراس

الواقفين على المنصات المرفوعة قد لاحظ وصولهم ، فقد نجحت معداتهم الليلية وطريق الالتفاف الطويلة في خداعهم . لم تكن هناك أي صرخات أو تحذيرات .

نظر بيبرس إلى الأرض المتوسطة ولم يشاهد أي إشارة على وجود الجنود المصريين .

ذلك أمر جيد . سيتحرك جنود الاحتياط خلفهم في هذا الوقت ، زاحفين كما فعلت الوحدات المتقدمة لتجنب انكشاف وجودها .

رغم أن المطايا قد أحست مسبقاً بالإثارة المتصاعدة لدى الرجال وزادت من سرعتها ، رفع قطز ذراعه مرة أخرى ليزيد السرعة . سحب بيبرس أعنة جواده ، الخصي الفتي ، ليمنعه من الانطلاق في طراد بأقصى سرعته . لأن الاحتفاظ بنشاط وقوة الجياد وهم يهذبون براحتهم حتى يتوفر للهجمة الابتدائية القدر الأوفى من القوة والمفاجأة الممكنتين . أصبحوا الآن على بعد أقل من خمسمئة ياردة عن ما بدا وكأنه مركز الموقع الفرنجي ، والذي ما زال غارقاً في العتمة ، وعلى ما يظهر ، غير ملحوظ من قبل الحراس . زمَّ بيبرس عينيه باحثاً عن علائم على الحياة ، فرأى ما يشبه الخوذ مختبئة تحت منصة الخط الفرنجي . توترت كتفاه وذراعاه ورفع قوسه الصغير . ثلاثمئة ياردة ثم مئتان : الإشارة من قطز لزيادة السرعة . تحركت الجياد إلى الهذاب السريع . بدأت مئات الحوافر تضرب الأرض . ومع ذلك لا صرخة تنبيه من قبل المدافعين . مئة ياردة . خمسون . لابد وأنهم انكشفوا الآن حتماً ، ولكن بعد ما بدا مثل توقف مؤلم متعب ، أطلق قطز صرخة الحرب البحرية وانطلقوا بأقصى سرعة طراد .

كانت الصرخات المدوية للمقاتلين ، أثناء الياردات الأخيرة

القليلة ، ستبدو وكأنها شيطانية وهي آتية من خلفهم لكل من لا يتكلم اللغة العربية أو الشركسية .

شاهد بيبرس حركة ، أشكالاً تركض جيئة وذهاباً عبر ما كان بالضرورة ممشى خلف السياج الفرنجي المهيأ . وصل الصف الأمامي من الفرسان إلى مسافة عشر ياردات من الاستحكام وأطلقوا قذائفهم . ألقى قطز وتيكا رمحيهما ، بينما أطلق بيبرس وقلاوون سهامهما . صوَّب بيبرس على ما رآه مثل رأس جندي يتحرك ثم ركب في دائرة ليفسح المجال لأولئك القادمين من خلفه . أعاد تلقيم القوس وهو ممسك بالعنان بين أسنانه ، استدار وهم بالهجوم مرة ثانية . شاهد أحصنة تتقافز بدون فرسانها وعنصرين بحريين ملقين على الأرض ، لكنه حين وصل إلى مسافة ملائمة للإطلاق اكتشف أنه ليس لديه أي هدف . ابطأ من سرعة حصانه وجرى به على طول السياج ، منتظراً أن يقدم عدو نفسه . عاد أدراجه مرة أخرى ووصل إلى جانب قطز .

«أين هم؟»

نفض قطز رأسه إنكاراً .

كان خط المدافعين فارغاً . جاء صوت المزيد من صرخات الحرب وطرقعات الدروع من مكان آخر في الجهة الأخرى من الخط الفرنجي . الهجوم الرئيس .

«هل تظن أنهم أدركوا الخطة؟ إنهم يستعملون أعدادهم للدفاع من الكلابات ، صح؟» سأل قطز . وصل أقطاي وآيبك راكبين ووقف تيكا وقلاوون على بعد بضع أقدام ، منتظرين الأوامر ، مثل بقية أفراد اللـواء .

«حسناً ، إذا كان الوضع كذلك ، فسوف يتسبب بهزيمتهم» ، قال

بيبرس «هل تسمحان لي؟»

سأل الرجلين الأعلى مرتبة . هزَّ آيبك وأقطاي رأسيهما موافقين .

صاح بيبرس «تسلقوا الجدار ! احتلوا المعسكر»

استجاب الرجال بمزيد من الصرخات ، وهم ينقلون الرسالة نزولاً في الصفوف ومتحركين باتجاه الحصن الفرنجي مرة أخرى . وقف الرجال فوق ظهور جيادهم ، فتمكنوا من سحب أنفسهم من فوق السياج وعلى المنصة خلفه . قفز بيبرس بالتناغم مع تيكا ونزل على الأرض راكعاً ليرى أن الخوذات التي لاحظها مصفوفة على ألواح الخشب هي مجرد خوذات . خوذ فارغة بدون جنود يرتدونها ، ولكنها موضوعة بحيث يعرف أي شخص يحدق من على مسافة خارج الحصن أن هنالك صفوفاً من الجنود مقرفصين وحاضرين للدفاع عن الجدار إذا دعت الضرورة .

غرقت بقية الحصن في الصمت والعتمة ، فيما عدا بضع خيام ونيران معسكر متفرقة .

التفت بيبرس إلى يمينه ليشاهد رجال الجيش النظامي يتدفقون من فوق السور ويركضون عبر المعسكر . قفز هو وتيكا وقادا بقية البحريين ببطء ، مشهرين أسلحتهم ؛ لأنه لم تكن لديهم فكرة عما ينتظرهم في الأمام .

شاهد المزيد من الجثث ، اثنان مخترقان من رميات الجريد وقلة مصابة بالسهام . لكن لم يبدُ أنه بقي أحد من المدافعين . في الواقع ، فإن المعسكر بكامله ، إذ إنهم مشوا قرابة مئة خطوة في داخله حتى اللحظة ، بدا أنه فارغ . دار قلاوون بصحبة تيكا حول واحدة من الخيام المرقعة ورفع غطاء مدخلها حتى يدفع الرجل الأضخم رأسه في

داخلها . عاد تيكا وهو ينفض رأسه مستغرباً . لا أحد هناك .

صاح قلاوون مخاطباً الآخرين خلفه «لقد ذهبوا . لقد ارتحلوا خارجين» .

كان ذلك صحيحاً . النيران والخيام ، صفوف الخوذات ، كلها خدعة المقصود بها إظهار الوضع وكأن الجيش الفرنجي مازال معسكراً . نشبت بضع اشتباكات متفرقة هنا وهناك ضد الصامدين ، الرجال الذين بات الآن واضحاً أنهم تطوعوا للبقاء في المعسكر والإبقاء على الواجهة . لم يزد عدد المتبقين حالياً على عشرين ، لكنهم استمروا في مهاجمة الفرسان والمصريين المتقدمين بسيوفهم المرفوعة ، كآخر مهمة انتحارية تضمن لهم الالتقاء بخالقهم .

اقترب بيبرس من أقطاي الذي وقف ينقف الأرض المليئة بالقاذورات بسيفه ، قال :

«يا بيبرس ، أحضر الرجال وتفقدوا جميع الخيام . سيكون هناك جرحى متروكين . وانظر ما إذا كان أيٌّ منهم يحمل رتبة رفيعة» .

«حاضر يا صاحب السعادة» .

«بعد ذلك جهز الجياد . أنت وقطز وتابعيكما قلاوون وتيكا . ليأخذ كل منكم مطيتين جديدتين وما يكفي من التموين لركوب يومين» .

«وهل أحضر جياداً جديدة لك أيضاً ، يا صاحب السعادة؟»

نظر أقطاي بعيداً إلى فتحة كبيرة تم تحطيمها في الحصن الفرنجي . دخل توران شاه ممتطياً حصاناً فحلاً أبيض هائلاً ، متبوعاً بحاشيته . قال «كلا يا ابني ، لأن السلطان سيرغب بالاحتفاظ بي وبأبيك قريبين منه بعد هذه المعركة» .

الفصل الثامن
بغداد

«أعتقد أن الحفلة قد انتهت» قال ابن دقيق «تعال معي» .

تبعه عبد خارجاً وتسلق صاعداً إلى مؤخرة عربة معلمه . ازدحم الآخرون بحيث ملأوا ساحة القصر للانصراف بدورهم .

«إلى البيت» قال ابن دقيق للحوذي فانطلقوا خلال الشوارع مارين بالبيوت المعتمة . لم يتكلما حتى أصبحا داخل المكتب الخاص في بيت ابن دقيق . رغم أنه أصغر حجماً من غرفته في الكلية ، إلا أن ترتيبه جاء مشابهاً في أكثر التفاصيل ، وامتلأ بالكتب من الأرضية وحتى السقف .

«خلف تلك الكومة إلى اليسار ، تحت آنية الياسمين» ، جلس ابن دقيق وتنهد لمدة طويلة .

«هل تخفي نبيذك حتى في بيتك؟» قال عبد ، وهو يمد يده ليتناول الإبريق وكوبين من البورسلان .

«أنت لم تقابل مدبرة منزلي ، أليس كذلك؟»

«لقد قابلتها . زاپارنا امرأة طيبة . ألم تمض في خدمتك عقوداً طويلة؟»

«نعم ، هذا صحيح . وتعتقد الآن أن صحتي هي شأن يخصها . ليتنا نعود إلى الزمن الذي كانت فيه قد ترملت حديثاً وكنت شاباً قوي البنية في الخمسين من عمري . إن ستاً وعشرين سنة ، تمر بسرعة

شديدة لمن هو في سني ، يا عبد» .

«كما تقول . يبدو لي وكأنك يجب أن تستمع إلى ما لديها لتقوله لك» .

«قد يحدث ذلك . لكن هذه الليلة نحن بحاجة إلى البحث في أمر مستقبلك» .

تناول عبد جرعة من قدحه «حقاً؟»

«أنت مضطر إلى أن تغادر . الآن» .

«ماذا؟»

«هيًّا يا عبد . أنت لست على تلك الدرجة من الغباء بحيث لا تستطيع أن تفهم ما أقوله . غادر هذه المدينة الليلة . اذهب بعيداً إلى الشرق وانج بنفسك» .

«أيها السيد ، أعرف أن ما رأيناه في القصر هذه الليلة أمر صادم ، ولكن حتماً ، ألن يكون هذا مبالغة في رد الفعل ، وتصرفاً ينم عن الجبن كذلك؟»

تساءل عما سيفكر فيه كتَّابه وزملاؤه اللغويون من هكذا تصرف .

«لا تفكر ولو للحظة واحدة في رأي عازر وأولئك الأغبياء من حلقتك في شخصك . إذا بقوا ، فهم سيموتون قبل انقضاء وقت طويل ، ولن يكون ذلك ذا أهمية . كلا يا عبد . إنني أفضِّل أن ترحل عن هذا المكان ، ولسوف تتغيب لمدة كافية بحيث أن الإبادة القادمة ستكون قد أحرقت نفسها ولم تعد مؤثرة عندما يحين الوقت الذي تفكر فيه مجرد تفكير بالعودة إلى هذا المكان» .

«سيدي ، هذا كثير جداً . إلى أين يمكن أن أذهب؟ لقد حلمت منذ الوقت الذي كنت فيه صبياً بالكتابة والدراسة في هذه المدينة . لا

يمكنني أن أغادر الآن . لا يزال هنالك الكثير مما ينبغي عمله» .

«يمكنك أن تشتري ريشة وصفائح في أي مدينة في المشرق ، وربما حتى أبعد من ذلك» .

تقدم الرجل المسن إلى الأمام في جلسته «سوف تكتب يا عبد ، لا يساورنك أي شك في ذلك . وأنا أعتقد أنك ستكتب شيئاً يدوم حتى الأبدية إلى جانب الأساتذة العظماء . لكنك لن تفعل ذلك هنا . سرعان ما ستختفي هذه المدينة ، بغداد» .

«الكتب أيها السيد . تحتوي بغداد على أعظم المكتبات في العالم ، وأغزر العلماء علماً . إنها مركز العالم وقد ظلت كذلك منذ قيام وتأسيس الخلافة» .

بان الألم على محيا الرجل العجوز «أنت محق . ستكون هذه خسارة جسيمة . لم يشاهد العالم كنزاً مثل هذا أبداً . كل المؤلفات منذ أوائل الإغريق وحتى عبقرية علمائنا العرب . . .» تخافت صوته للحظة ثم نفض نفسه ليستعيد تسلسل الأفكار التي يتعمدها . «لن يسود السلام الآن يا عبد . ليس في هذه الليلة . إن الوضع هو كما قلت لك . لن يتخلى الوزير عن السلطة ولذلك فقد أخبر الخليفة أنه توجد قوات كافية لصد أي جيش مغولي . لا توجد مثل هكذا قوات» . سحب نفساً عميقاً «لا يستطيع الخليفة الآن أن يذعن لمطالب الخان بكل الأحوال ؛ لأنه إذا فعل فسوف يفقد احترام الطبقة الحاكمة وسكان المدينة . هل سيرضى بعقد السلام بعد أن تمت إهانته في عقر داره؟ مع معرفة القاصي والداني بالشروط المذلة لذلك السلام؟ هذا مستحيل» .

«وهكذا فسوف نقاتل» .

«أنت لن تقاتل . أنت سوف تختبئ في بيتك أو في الأكاديمية ،

وسوف تصلي لكي يتم الابقاء على حياتك . لكن ذلك لن يحصل . لا يتم الابقاء على حياة أحد بعد أن ترفض طلبات الخان . سوف يبنون جبلاً من جثث حيوانات المدينة ثم يضعوننا فوقها . ثم يقومون بإشعال النار في كل شيء» .

ذكّره خطاب الرجل العجوز بالفتاة . فقال «لا يمكنني أن أتخلى عنها» .

«من هي؟»

«مدبرة بيتي ، صفيَّة» .

«آه» رسم ابن دقيق ابتسامة عارفة . «أنا لست بحاجة لأكون حاذقاً أو حتى ذكياً لأخمن ما الذي يجري هناك» . عقد أصابعه بشكل هرمي . «وهل تعرف أنه ليس بوسعك أن تتزوجها؟»

«أعرف ذلك» .

«لأن كليتنا في غاية الحزم حول أمور مثل هذه ؛ لأن الشخص لا يبدأ بتأسيس عائلته مستعيناً بخدم المنزل» .

«أعرف يا سيدي» .

«كلا . سيتم العثور على زوجة لك . بالطبع ، فتاة ذات خلفية مناسبة لخلفيتك . . . .»

أنزل يده على طاولة مكتبه وطرق بأصابعه «يمكنك أن تتزوجها ، لكنك ستظل كاتباً عمومياً لبقية أيام حياتك . تمسح أحذية أناس مثل عازر ليسمح لك بتعبئة عقود وشهادات الزواج لزبائنه . سيقتل هذا جميع فرصك في التقدم بدرجة مطلقة» .

«أعرف يا سيدي . لم أفترض أبداً أن أقوم بعمل مثل ذلك معها» .

رفع ابن دقيق أحد حاجبيه «لماذا؟ أليست جميلة أو مغرية؟»

«هي كذلك» . سمح لنفسه بابتسامة «إنها جذابة - جداً . لكن لديَّ ما يكفي من المنطق لأن أعرف أن مثل هذا الشيء ليس ممكناً» .

«يا له من أمر مؤسف . هذه هي الحياة التي أعطيت لنا ، ومن نحن حتى نناقش في إرادة الله؟»

«كما تقول ، أيها السيد» .

عقد ابن دقيق ذراعيه «ينبغي عليك أن تأخذها معك . إن صديقي نصير رجل غني جداً في دمشق . سيتوفر لديه غرفة من أجلك في بيته وعمل لخادمتك . سيكون أمراً سهلاً » .

«دمشق . . . إنها بعيدة» .

نظر إليه ابن دقيق بحزم .

خفض عبد رأسه «لن تذهب» .

«ماذا تقصد بقولك لن تذهب» جلس الرجل العجوز إلى الأمام «هل هي متزوجة؟»

«كلا يا سيدي . على الأقل ، لا أعتقد ذلك . ربما تكون قد تزوجت في السابق . . . لا أعرف عنها سوى أقل القليل ، إذا كان لابد من قول الحقيقة . إنها تبقى معي في غرفتي لبعض الوقت فقط . لا أعرف إلى أين تذهب في الأوقات الأخرى» .

تنهد ابن دقيق «هل فكرت في احتمال أن تكون . . .؟»

«أن يوجد شخص آخر؟ بالطبع» . هبط عبد جالساً في كرسي قريب . «إنها . . . أنا لا أطري نفسي بحيث إنني الرجل الوحيد الذي لاحظ مقدار جمالها . فأنا لست غنياً ولا وسيماً» .

«كلا ، أنت لست كذلك» . هزَّ ابن دقيق رأسه «لماذا تعتقد أنها انجذبت إليك؟»

«لقد كنت بحاجة إلى مدبرة منزل ، وقد أرسلتها إليَّ صاحبة البناية» .

«هل تدفع لها نقوداً ؟»

«القليل . فأنا أدفع أجرتها في نهاية المطاف . لكنها لا تقبل أن تتقاضى أكثر من المعدل المعتاد» .

نقر ابن دقيق عى مكتبه مرة أخرى «وماذا عن ملابسها؟ ما الذي ترتديه؟»

رفع عبد رأسه «لماذا قد يؤثر ذلك يا سيدي؟» ثم تذكر نفسه «اعتذاراتي . فأنا لم أخبر أحداً عنها حتى الآن» .

«الطبع . كذلك أنت ليس لديك أي أصدقاء ، فيما عدا كتبك وأنا» .

ابتسم عبد وهز رأسه قليلاً «إنها ترتدي ملابس جيدة» .

«هل تقوم بالعناية ببيت رجل آخر؟ أنا لا أقصد التقليل من الاحترام لها ، يا عبد ، ولكن المرأة لا يمكنها أن ترتدي ملابس فاخرة من دفعات تقدمها أنت وحدك . أنا أعرف لأنني الشخص الذي يدفع لك» .

عبس عبد ، حيث رأى الموقف مثلما يراه ابن دقيق . اختار كلماته بعناية «لقد قالت مرات عديدة إنها لن تغادر المدينة ، لكنها لم تقدم لي سبباً . حتى إنني عرضت عليها أن أقترض مالاً لأعطيها حتى تتمكن من المغادرة . لم تقبل أن تأخذ المال . تقوم بدلاً من ذلك بتحريضي لفعل المزيد من أجل إيقاف الحرب القادمة» .

«إذاً ، فقد فعلت ما تقدر عليه يا عبد . وأنت لم تكن قادراً على منع الحرب أكثر مما كنت ستقدر على منع القمر من اللمعان . أخبرها

بأنك أجريت ترتيبات للمغادرة في المرة القادمة التي تراها فيها . لا أعرف ما إذا كان ذلك سيكون هذه الليلة أو في وقت آخر . على أية حال ، يجب أن تغادر المدينة بحلول صباح الغد» . فكر ابن دقيق للحظة «أنت لست مهماً بدرجة كافية لأن يوقفك أحد ، ولا أنت ثري بما يكفي لأن يهتم أي شخص بنهبك» .

«أشكرك أيها السيد» .

«أخبر فتاتك أنه ينبغي عليها أن تجيء لمقابلتي بعد رحيلك . قل لها إنني بحاجة إلى خادمة إذا كنت تعتقد أن ذلك سيسهل الأمر . سوف أضمن أن يتم الاعتناء بها إذا حدث الأسوأ وترفض الذهاب معك» .

نهض عبد واقفاً «أقدم لك أعمق تشكراتي يا سيدي» .

لوَّح ابن دقيق بيده وتناول قدحه قائلاً «أنهِ شرابك» .

الفصل التاسع
مصر

«هل لديك ما تقوله عن نفسك؟»

احتوى صوت توران شاه على صفة متعالية، رنانة أضافت إلى الألم الذي يدعيه صفة أكثر إساءة وتجريحاً. نظر إلى الأسفل باتجاه آيبك وأقطاي، اللذان بقيا بدون مطيتيهما، من صهوة حصانه وعبس.

«يا مولاي، لم يكن هناك أي اتصال من القطاع الشمالي إلى الجنوبي. كان يجب علينا أن نضع كشافة يراقبون التحركات على الجانب البعيد من الفرنجة، وكذلك تحت عند خط المياه لضمان أن يكون مثل ذلك الانسحاب مستحيلاً، أو على الأقل لا يشكل مفاجأة كاملة كما حصل». نظر أقطاي إلى الأعلى باتجاه معمر ليبور لدى انتهائه من الكلام.

«ولماذا لم نفعل ذلك؟»

«مولاي؟»

«لماذا لم يكن لدينا كشافة وقوة محاصرة لضمان أن لا يتمكن لويس من الفرار؟»

استدار أقطاي نحو السلطان وخاطبه مباشرة، ما شكَّل مخالفة لبروتوكول البلاط، والذي كان يمكن أن يعاقب بالموت في الماضي. «لقد صدر لنا الأمر بالهجوم بكامل قواتنا على الجهة الشرقية من المعسكر الفرنجي. كامل قواتنا. لقد أخبرت رئيسي ديوانك الملكي

وحرسك بأن ذلك سوف يعني ترك القطاعات الشمالية غير محروسة ، ولكن قيل لي إن ذلك ليس من اختصاصي ولا يعنيني» .

بان الغضب على توران شاه . وقد تم نسيان كل ادعاء بالهدوء في وجه الصعوبات :

«ولماذا لم يخبرني أي منكما - أنت أيضاً يا آيبك ! كنتم ستخبرون والدي ، ألم تكونا ستفعلان ذلك؟»

«كنا سنفعل يا مولاي» قال آيبك «ولكن جلالتك أوضحت لنا بأننا الآن نؤدي دوراً خاضعاً لمستشاريك الجدد . وفي هذه الحالة ، فإن تجاهل سلسلة القيادة كان سيشكل جريمة خاضعة للعقاب . لقد أطعنا أوامرك . ذلك هو كل ما استطعنا فعله» .

«هل تعتقد أنني لا أعرف ما الذي يفعله كلاكما؟»

اقترب بيبرس والآخرون من المجموعة راجلين وهم يسحبون جيادهم الجديدة خلفهم . شكل الحرس المصريون دائرة بين الضابطين البحريين وكأنما يحرسونهما من الهروب . دفع بيبرس بطريقه بخشونة عبر الخط واتخذ مكانه خلف آيبك وأقطاي . جاء تيكا خلفه مباشرة . تظاهر توران شاه بأنه لم يشهد ذلك التصرف .

صاح توران شاه «لقد طرحت عليك سؤالاً !» . مع انغلاق فمه ، ارتجف ، وبدا كأن كامل جسمه ينفتل داخل السرج .

قال أقطاي «أنا لا أفهم ما ترمي إليه يا مولاي» .

«أنت تسعى إلى التآمر عليَّ ، اليس كذلك؟»

خفض الرجلان رأسيهما .

«كلا ، لا تتظاهر بالخجل . أنتما من رجال والدي ومازلتما تشهران سيفيكما لأجله ولأجل والدتي التي هي ليست والدتي . أنتما تسعيان

إلى رؤيتي مهاناً والآن قد نجحتما» .

نفض آيبك رأسه «كلا ، يا مولاي . . .»

«لا تكذب عليَّ !» زعق السلطان وارتجف مرة أخرى . رفع رأسه ورأى بيبرس .

«وهكذا . إن رجالك موجودون هنا . سوف تعثرون على هذا الملك الذي يتجرأ على غزو مملكتي وسوف تحضرونه إليَّ . أرسلهم الآن ! وأنتما أيها السيدان ستبقيان هنا معي . أرى الآن أن هناك الكثير مما يجب أن أتعلمه منكما» .

التفت أقطاي إلى بيبرس ومنحه ابتسامة ساخرة صغيرة وكأنه يقول له لقد أخبرتك بأن هذا سوف يحدث «أعثر على الملك يا بيبرس . أعده إلى هنا ليواجه عدالة مولانا السلطان» .

أدى بيبرس التحية ولامس قلبه «يا صاحب السعادة» .

تراجع خارجاً من حشد الحراس ، بينما ظل قطز يراقب خروجه بتركيز . طأطأ له برأسه وركبوا جميعاً ، بمن فيهم تيكا وقلاوون . آخر ما سمعوه من كلمات هو صراخ توران شاه قائلاً «أريد أن تتم مطاردة كل هذا الجيش مثل الكلاب !»

***

سرعان ما تقدمت مجموعة بيبرس وقطز الصغيرة على الجسم الرئيس لقوة المطاردة البحرية والمصرية . انتشرت كتائب كاملة على مدى الريف مثل كلاب الصيد ، يقضون على البطيئين والجرحى ، والذين ارتحل معظمهم داخل تشكيلة العربات التي تجرها الخيول وتلك التي تجر باليد . اشتعلت اشتباكات على مستوى صغير في كل مكان حولهم ، لكن لم يتوفر لهم الوقت للتوقف ، كما كان قسم منهم يرغب

في التوقف والانضمام إلى الاشتباكات . فقد كانت مهمتهم هي الجائزة الأكبر ، الجائزة الكبرى . حتى إنهم تجاوزوا العبَّارات النهرية الفرنجية ، والتي امتلأت عن آخرها بالناس المرعوبين والذين في النزع الأخير ، رغم أن شاغلي العبَّارات كانوا يشعرون بالإنفراج لكونهم وجدوا طريقة للخروج من الفوضى بدون الوقوع في أسر الأعداء .

تم نشر رجال مسلحين بالأقواس والرماح الطويلة على مدى حواف العبَّارات وهم يطلقون على أي شيء اقترب منهم ، حينما كانت السفن تعبر أمكنة وممرات ضيقة .

فهم لن يكفوا حتى يعثروا على طريدتهم . بعد الطراد الأولي لمحاولة تعويض بعض من المسافة التي تمكنت بعض الوحدات الفرنجية الأسرع من طيها أثناء فرارهم الابتدائي ، ثم توقفوا وبدلوا ليركبوا الجياد النشيطة ، ويمنحوا المطايا المرهقة الفرصة لاستعادة قواها .

«الأرجح أن يكون الملك مرتحلاً مع مجموعة صغيرة ، أمام الجسم الرئيس للجيش بمسافة طويلة ، وسيكون متخفياً» . قال قطز وهم يطردون جيادهم «سيكون لديهم طعوم متنكرون بملابسه . كيف سنتمكن من التفريق بين أحدهم والآخر ، وكيف سنخترق حراس المؤخرة؟»

لن يكون هذا الملك في حالة هروب . على الأقل ليس بدون رجاله . لقد قاد الهجوم عندما نزل الفرنجة على اليابسة عند الشاطئ المقابل لدمياط . سوف يبقى معهم الآن» .

«في هذه الحالة سيتصرف بطيش وحماقة . إذا كان لديه أي إحساس بالعظمة ، فسيكون داخل أسوار دمياط في هذا الوقت ، يقوم بتخزين المؤن وينتظر قدوم جيش آخر من الغرب» .

«ليس هذا لويس» قال قلاوون «إن بيبرس على حق . إن الملك

معروف بكونه تقياً حتى بين قساوسة الفرنجة . إنه ليس موجوداً هنا ليحقق المجد . إنه يعتقد بأنه أداة للرب» .

استدار قطز ، وقد ارتسم الاحتقار بشكل واضح على ملامحه الوسيمة «ألم يتخلَّ ربهم يسوع المسيح عن أتباعه خلفه في أعظم ساعة خطر أحاقت به؟»

«لقد تركهم خلفه ليواجه قدره» . قال قلاوون «ذلك شأن مختلف . لكن لويس شيء مختلف كلياً . نحن نعرف ذلك مما أخبرنا به الجنود الذين أسرناهم من جيشه» .

«هي كلمات كفار قذرين . ولا تساوي الهواء الساخن الذي يتفوه به . إذا كان لويس هذا يريد أن يعيش مثل مخلصه ، فهو سيهلك قبل مرور وقت طويل» .

«ولكن –»

«لا أريد سماع المزيد منك أيها الأحمق ! إلا إذا أردت أن تشعر بظاهر يدي على خدك!»

«أكمل يا قلاوون» قال بيبرس ، ما سبَّب نظرة غاضبة من قطز . اكتفى بيبرس بالابتسام .

تنحنح قلاوون «لا يريد لويس أن يشابه يسوع المسيح . حسناً ، هو يريد ذلك ، لكنه لا يرى نفسه على أنه يسوع المسيح» .

«كلا؟ من يريد أن يكون إذاً؟»

«يريد أن يكون الرجل الذي حمل صليب المسيح» .

ابتسم بيبرس ورفع يديه إلى أعلى .

لعق قطز شفتيه ونفخ مغتاظاً .

قال بيبرس «وهكذا فهو مازال مع الجيش الرئيس . إنهم صليبه ،

أليس ذلك صحيحاً يا قلاوون؟»

«أظن ذلك» .

«تظن ذلك؟» قال قطز ، لكن بيبرس تجاهله .

«وهكذا نركب حول القتال بأفضل ما يمكننا ، نستمر إلى الشرق من النهر ، ثم نسأل السكان المحليين ما إذا رأوا ملكاً يمر بهم» .

«وهل سيخبروننا؟»

«سيفعلون . فقد شاهدوا لتوهم الجيش الفرنجي هارباً مبتعداً وملكهم في وسطهم ونحن قادمون خلفهم . إن الأمر في مصلحتهم حتى لو كانوا لا يحبوننا نحن البحريون» .

انطلقت صرخات وضجة من مكان بعيد إلى يمينهم وشاهدوا حشداً من جنود المشاة مطاردين على ظهور الخيل من جماعة بدت في نور الصباح الباكر أنها فرسان بحريون مثلهم .

قال بيبرس «لقد اقتربنا . دعونا ننزل هذا المنحدر بمجرد أن نصل هذا الصف الصغير ونعثر على النهر . عندما نعرف أين موقعه نستطيع أن نرجع صاعدين إلى الأرض الصلبة ونعاود التحرك» .

«وماذا إذا كان هناك فرنجة مختبئون تحت؟» سأل قطز .

رد عليه بيبرس «ساعتها سيكون ذلك من سوء حظهم» .

«وماذا إذا كان الملك لويس مختبئاً في قارب؟»

«وقتها الأفضل لنا أن نتعلم التجديف» .

«صحيح ، أيها الرئيس» .

«كنت سأستمتع بهذا الأمر أكثر يا قطز ، لولا معرفتي بأن حياة كل من آيبك وأقطاي متوقفة عليه» .

***

لم يجرؤ أحد على دخول خيمة السلطان لساعات . حتى الحراس وقفوا في الخارج ينقلون وزنهم من رجل إلى الأخرى وينظرون إلى الخلف كل هنيهة ، باتجاه الباب الذي كانت تخرج منه الزعقات والصراخ . كانت تتخلل هذه الانفجارات بين الفينة والأخرى ، ضحكات من النوع المجنون الوحشي ، وبدا في مناسبتين وكأن المجموعة بكاملها في الداخل قد استسلمت للهستيريا . تذكر الخفراء ، لكونهم من الجنوب ، السودان وحتى الحبشة ، احتفالات العربدة الباخوسية التي كانت الساحرات يؤدينها في قراهم قبل أن يساقوا إلى الخدمة لدى السلطان الأيوبي المتميز . في كل مرة خرجت فيها زعقة من الداخل ، كانوا يتوجسون ويشدون على رماحهم الاحتفالية أكثر قليلاً ، وكل واحد منهم يرمق الآخر بنظرة ليمنحه مجرد تطمين صغير ؛ لأنه من الأفضل أن يعاني الشخص مع آخر بدلاً من أن يعاني لوحده .

الروح الوحيدة التي سمح لها بالدخول منذ أن التجأ السلطان مع أقرب مستشاريه هي المرأة التي تخدمهم ، والتي أبقوها منشغلة بإعادة ملء أباريق النبيذ في رحلات دائمة جيئة وذهاباً من وإلى المطبخ الملكي السفري . كان هذا عبارة عن عربة سفر مزوقة ، كبيرة بما يكفي لتتسع لأربعة رجال ضخام الأجسام ومعبأة من أرضيتها الخشبية المطلية اللماعة إلى سقفها المطلي ببهارات الطهي ، الأعشاب ، الزيوت ، والفواكه المحفوظة ، بينما عملت عربة خلفها كمخبز متحرك ليتم تجهيز خبز الملك كل يوم ، سواء رغب فيه أم لا .

كان يتم توريد اللحوم والخضار والفواكه الطازجة يومياً من قبل وحدات مراسلين تسافر من الجنوب ، مع أن السلطان كان لديه الخيار من أفضل الذبائح والمنتجات التي تحضرها وحدات التموين التي تجوب

المناطق المحلية وتتمكن من إحضارها .

سرت شائعات بين موظفي التموين أن السلاطين السابقين كانوا ذوي أذواق بسيطة ، حتى إنهم كانوا يستمتعون بأكل السمك الذي تم اصطياده من أقرب نهر ، مقلياً بالزيت في مقلاة بسيطة مع قليل من البصل ، لكن أحداً لم يستطع أن يتذكر مثل هكذا حاكم ، على الأقل ضمن الذاكرة الحية . وهكذا صار يحدث كل ليلة ، يحضر الحراس موقدة نيران هائلة ويقوم الطهاة بتحمير اللحم المخصص للسلطان ، المنقوع بالبهارات إلى درجة الكمال المليء بالعصير ، إلى درجة أن الأفواه كانت تسيل باللعاب من على بعد أميال في كل اتجاه . بالطبع ، اضطر الجنود العاديون إلى تدبير أمورهم بأطعمة أقل فخامة ، ولكن على الأقل ليس هناك أحد يعاني من الجوع في هذه الحملة .

فقد كان الفرنجة كرماء ولطفاء إلى درجة أنهم تركوا خلفهم جبلاً من المؤن في المعسكر الشبحي الذي أخلوه بكل رشاقة وخفة في اليوم المنصرم وحده .

قامت مارا على خدمة السلطان العجوز ، على الأقل إلى أن انهار نتيجة المرض المهلك الذي استهلكه في النهاية ، رغم أنها ظلت تشك في أنه عجوز إلى درجة أنه كان سيموت في وقت قريب بكل الأحوال . بالنسبة لها ، فإن أي شخص فوق سن العشرين مقدر له أن يأخذه الله قريباً . لقد عرفت السلطان العجوز بدرجة قريبة : لم يكن قد أعارها أقل قدر من الاهتمام خلال الأشهر القليلة التي خدمت فيها ، حينما كان قادراً على مثل تلك الأمور . انطلقت شائعات عديدة بين العبيد والخدم الأحرار أنه كان يمتلك عيناً ويداً جوالة على الفتيات الخادمات أثناء شبابه وحتى لدى بلوغه منتصف العمر ، لكنها لم

تشهد ذلك مطلقاً . بدلاً من ذلك ، فقد بدا بارداً ومتحجراً ، يجلس ويصغي إلى التقارير الليلية ممسكاً بكوبه ليعاد ملؤه مرة كل ساعة ، ولا ينطق بكلمة إلا لتوبيخ جليسه على سهو ما أو تفاصيل تم إغفالها . لاحظت أنه لم ينسَ أي نقص في المعلومات ، وكانت لديه ذاكرة للتفاصيل تصيب أي رجل في نصف عمره بالخجل .

السلطان الجديد الشاب مختلف كلياً . إضافة إلى عربة المؤن ، المخبز ، والشواية الملكية ، كان قد ورث مخزن النبيذ الملكي ، وكان يقوم برحلات استكشافية في محتوياته جاءت صادمة لها فعلياً . لم تكن تعتقد أن رجلاً واحداً قادر على أن يستهلك هذا المقدار ، سواء كان طعاماً أو حتى ماء . ظلت تعجب : أين يضع كل ذلك؟ ثم فكرت في الليلة التي ترنح فيها خارجاً من المدخل الخلفي للخيمة الملكية وتقيأ فوق الرمال ، أو الليلة التي من الواضح أنه نهض فيها من فراشه وتبول على جميع أوراقه الموجودة على طاولة مكتبه . ومع ذلك ، فكرت أن هذا شيء غريب . مخيف بعض الشيء أيضاً ، إذا كانت صريحة وصادقة مع نفسها . تكلمت بقية الفتيات الأخريات اللاتي يعملن في الخيمة الملكية بشكل مكشوف ، على الأقل في همسات بعضهن لبعض في وقت متأخر من الليل ، حول كم سيكون الرقاد مع السلطان الشاب رائعاً . على الرغم من استهلاكه غير العادي ، فقد ظل توران شاه شاباً مفعماً بالحيوية ، قوياً وصلباً مثل قطعة من خشب الأرز البيزنطي المعالج ، بوجه مفعم بالجمال شبه الأنثوي ، بحيث كانت الفتيات صغار السن يقهقهن ويتنهدن لمجرد التفكير في الموضوع . كن يتحدثن عن الفوائد التي تأتي من كون الواحدة عشيقة ، حتى المحظية للسلطان ، ويخبر بعضهن بعضاً بشيء من الإطالة عن التقنيات التي

سوف يستعملنها لاستمالة جسده ، لو أعطين الفرصة ، وأنهن على ثقة من أن عقله سيلحق جسده .

كان يتم نسيان الرجفة التي يقوم بها مرات عديدة بدرجة شبه كاملة في هذه الأوقات ، رغم أنها سببت الكثير من الفضول عندما لوحظت للمرة الأولى وجعلت الفتيات يتساءلن كيف ستؤثر على أداء السلطان عندما يحين الوقت الملائم .

لم تكن لدى مارا أي من هذه الأفكار أو التوقعات ؛ لأن الشد واللمسات السرية التي تتلقاها الفتيات الخادمات من الحراس الشباب المثارين والضباط كبار السن السمان ذوي الألقاب ، ليس من المحتمل أن تتوقف لو أنهن منحن أنفسهن للسلطان بشكل سري ، هكذا فكرت ، ورغم أنه كانت هناك فرصة ضئيلة أن يصبح مكان في الحريم يشكل الجائزة إذا تصرفت الفتاة بنبل خاص أو حتى تم النظر إليها بقليل من العطف ، ويا لها من حياة ستكون تلك بوجود مجرد نساء عجائز أو مسنات للصحبة . لا شك في أنه سينتهي بها المطاف في خدمتهن كما هي تقوم على خدمة رجال البلاط حالياً ، ولذلك فلماذا الاهتمام؟

على أية حال ، فلم تفكر الفتيات في نوع المرأة التي قد يرغب فيها السلطان؟ هل يجب عليها أن تتصرف بأسلوب خانع بريء ، أو يجب عليها أن تكون أكثر ثقة وتأكيداً ، وتظهر شخصيتها؟ مؤكد أن السلطان ، القادر على الحصول على أي امرأة في الدنيا ، سيكون قد أصابه الملل من الفتيات اللاتي ليست لديهن أفكارهن وطريقة تفكيرهن الخاصة بهن؟

عادت أفكارها مرة أخرى ، كما ظلت تعود بشكل متزايد في

الأيام الفائتة إلى البحري الشاب ، بيبرس . لقد أرعبها في البداية ، هو وذلك الوحش الذي يتلصص خلفه في كل مكان . إن العلامة على عينه مثيرة للدهشة واضطرت إلى إبعاد تحديقها عن العلامة لئلا يلاحظ تحديقها . لكن عندما يتكلم ، فإن صوته كان يغير رأيها خلال ثوانٍ . لم يكن كما توقعته على الإطلاق . كان لطيفاً عطوفاً ، لكنه لم يكن ضعيفاً أو زلق اللسان . بل كان قوياً ، لكنه لم يكن مستقوياً أو خشناً قليل الذوق . هو قائد متحكم ، لكنه ليس متعجرفاً أو مغروراً . في تلك المرة الأولى التي أخبرها فيها عن شخصه وسألها عن اسمها ، أجابته وابتسم ثم قال إنه سعيد بكونه قد قابلها . وبعدها مشى هو والوحش مبتعدين بينما هي تنظر وراءهم .

رقدت في تلك الليلة على حصيرتها إلى جانب الفتيات الأخريات ، وعادت أفكارها إليه المرة تلو الأخرى . لم يكن قد قال أكثر من مرحباً ، لكنها أحسَّت بالإثارة ، وكأنها قد اكتشفت لتوها كنزاً جديداً ، واكتسب نهارها وميضاً من حولها ، لم يكن موجوداً من قبل . شاهدته وهو يتمشى في أرجاء المعسكر للأيام التالية بعد اللقاء ، لكنه لم يكلمها بعد ذلك ، إلا ليرسل لها نظرة ، تلتقي بعينها فيبتسم . ثم عندما اندلعت حمى الأخبار في المعسكر عن كون الفرنجة قد انطلقوا من صمودهم ، تم إرسالها لتحضر الماء ، فوجدته هناك ، واقفاً أمامها عند البئر . كان الوقت مبكراً جداً فلم يوجد أحد آخر غيرهما ، وهي المرة التي لاحظت فيها مثل هذا الحدث في المعسكر المحتشد . حيَّاها بدفء وسألها عن أحوالها . أخبرته أنها بخير حال ولكنها تخاف من الأخبار المنتشرة بأن الخيالة الفرنجة قادمون باتجاههم ، وأنهم سرعان ما يدبكون على كل الأرض التي يقفان عليها في ذلك الوقت .

«تقول الفتيات إنهم وحيواناتهم مصنوعون جميعاً من المعدن، وإنه ما من شيء يقدر على قطعهم أو تكسيرهم». قالت ذلك وأحسَّت بالحمق الفوري.

ابتسم بيبرس ولكن ليس بالطريقة الساحرة التي توقعتها «إنهم يرتدون الدروع، ذلك صحيح» قال لها «ولكن كذلك نحن، وهناك طرق لإيقافهم. لست بحاجة إلى الخوف».

قيل لها لمرات عديدة في حياتها إنه لاداعي لأن تخاف. ولكن كانت تلك هي المرة الأولى التي صدقتها فيها بحق. فقد كان هناك شيء ما يتعلق بهذا الرجل يختلف عن أي شيء واجهته من قبل على الإطلاق.

قال «يتحتم عليَّ أن أذهب إلى القتال عما قريب». انطلقت في كيانها دفقة من الهلع، أدت إلى الاضطراب لاحقاً «لكنني سأعود لأخدم السلطان الجديد عندما يصل. فهل ستقابلينني في حينها؟ سوف أرغب في رؤيتك».

«بالطبع» قالت، ثم أضافت «ولكن كيف تعرف أنك ستعود؟»

عاد إلى الابتسام «سوف أعود. ثم ستقابلينني وتحدثينني عن الأشياء التي ترينها، أليس كذلك؟»

«أشياء مثل ماذا؟» سألت، رغم وجود صوت يقول لها إنها مستعدة لأن تفعل أي شيء يطلبه منها هذا الرجل. ولكن ليس بدون سؤال.

«أشياء سوف تساعدني في خدمة السلطان وإنقاذ البلاد من الفرنجة. لدينا عدد كبير من الأعداء، يجيئون راكبين الخيول أحياناً وهم يرتدون الحديد، وفي أحيان أخرى يرتدون معطفاً راقياً ويهمسون بكلمات عذبة لا يقصدونها. السلطان طيب مع مثل هؤلاء الناس

بدرجة زائدة ، ولكن يجب أن نعرف من هم للإبقاء على سلامته . ذلك هو ما تريدينه أنت ، أليس كذلك؟»

قالت «بالطبع» .

قال لها «لقد عرفت أنك تحسين بالشعور نفسه حينما رأيتك» . نهض عن سياج البئر الذي كان جالساً عليه . «سوف أرسل في طلبك فور عودتي» .

«قالت سوف أصلي من أجلك ، والسلطان طبعاً» أنَّبت نفسها على تكرار العبارة المرة تلو الأخرى .

تناول يدها . أحسَّت بجسمها يتصالب .

«سوف أظل أفكر فيك ، يا عزيزتي مارا» . ثم رفع يدها إلى شفتيه وضغطها ، بلطف ، بين أصابعه . راقبته مسحورة . أودع في عينيها نظرة أخيرة ، ثم انصرف .

جرة النبيذ ثقيلة ، لكنها أصبحت معتادة على حمل مثل هذه الأثقال . عاد بيبرس ثم غاب مرة أخرى . ذهب تنفيذاً لأمر السلطان ليطارد الملك الذي عبر المحيط ليعيث الفوضى في أرض مصر . تخيلت المجد الذي سيكون من نصيبه عندما يعيد الفرنجي مقيداً بالسلاسل ويلقي به عند قدمي البلاط . هل ستظل له حاجة بها وقتها؟ لم ترغب في إطالة التفكير بهذه المسألة كثيراً . فالأفضل هو أن تتذكر المرات التي أرسل بها في طلبها خلال الوقت القصير الذي عاد فيه من المعركة ، حتى في الليلة التي أحضرها فيها إلى خيمته وكان الرجال الآخرون موجودين . أما في المناسبات الأخرى فقد بقيا مجرد كليهما . حتى تيكا لم يزعجهما . لم يكتف بيبرس بسؤالها عن السلطان والرجال الذين بصحبته ، بل سألها عن شخصها والحياة التي نعمت

بها قبل دخولها الخدمة . كانت مترددة في البداية لأن تخبره عن أمها وأشقائها ، القرية التي نشأت فيها ، لكنه أصغى إليها بدرجة من الاهتمام بحيث وجدت نفسها تخبره المزيد ثم المزيد .

أما في هذه الليلة ، وبوجوده خارجاً في البرية ، معرضاً نفسه للخطر المميت ، فقد رغبت في تذكر كل كلمة وكل إشارة سمعتها من السلطان وحلقته الداخلية ، حتى تخبر بيبرس ، **بيبرسها** . . . حينما يعود مكللاً بالنصر .

«أكثر ، أكثر ، أكثر !» غنى الرجال أثناء دخولها الغرفة الداخلية الخاصة . لن يتعود أنفها على الروائح الذكورية المعلقة في الهواء . لقد أكلوا وشربوا وأكثروا منذ عودتهم من ميدان المعركة ، وامتلأت أرضية خيمة السلطان في هذه الآونة بعظام الحيوانات والأطباق نصف المأكولة ، بينما استمر احتراق البخور في الزاوية ، ما أضاف وزاد في الجو الضاغط . كان هناك جسدان مطروحان فوق إحدى الطاولات ، وآخرون على ظهورهم في الكراسي . انطلقت يدٌ وأطبقت على فخذها ، لكن السلطان رفع ذراعه ونادى «هيه ، هيه ، أنت هناك ! أترك الخادمة بحالها ! لديها وظيفة أكثر أهمية من التمرغ والدحرجة معك ، أليس كذلك يا عزيزتي؟»

قال ذلك بينما أطلق سراحها ووصلت إليه على رأس الطاولة .

«نعم يا صاحب الجلالة» جاء ردها .

«هل سمعتم ذلك؟ هذه خادمة تعرف واجبها !»

بلغ السلطان حداً من السكر لم يدرك معه أنه يصرخ . بدأت عيناه تدوران في محجريهما وأخذ رأسه يتدحرج إلى الأمام والخلف مع خروج كلماته .

«لماذا لا أحصل على الشيء نفسه من قادتي؟ لقد عرفتم جميعاً كيفية التعامل مع رجال العصابات والقراصنة في الجزيرة . أقدم لكم حرباً حقيقية لتخوضوها فماذا يحصل؟ إنها كارثة . أصبح مجبراً على إرسال البحريين لتنظيف الفوضى التي خلقتموها !»

تجاسرت على النظر في وجوه رجال توران شاه فرأت الغضب في الأعين الوحشية .

أدركت أن هؤلاء الرجال يكرهون السلطان . لا يجعل الشراب الرجال يبدون على هذه الشاكلة .

استطرد توران شاه «البحريون أنفسهم ، الذين هم رجال والدي . الذين يعتقدون أنهم يشكلون قوة منفصلة عن السلطان ! الذين يظنون أنهم يحكمون بدلاً مني !» ألقى بقدح ذهبي عن الطاولة إلى الجدار ، حيث سقط محدثاً صوتاً رقيقاً على السجادة الثقيلة . لاحقه بعينيه وقد ارتسم على وجهه تعبير للحظة وكأنه توقع أن يحدث لحركته تأثير أعمق . أشار بإصبعه إلى ليبور ، رئيس حرسه الخاص «لن يكون هناك المزيد من الأخطاء . بمجرد إنهاء هذه العملية مع الفرنجة ، فسوف أحكم مصر وسورية وبلاد العرب بدون أية معارضة . لن توجد أية قوة في هذه البلدان تعارض ذلك الحكم . لن يكونوا قادرين على ذلك ! هل تسمعني؟»

هزَّ ليبور رأسه «إنني أسمعك ، يا مولاي» .

«لن توجد خلافة غير تلك التي أعلن أنها الخلافة الصحيحة . سيصبح عرشي هو الحاكم لكل المسلمين في كل مكان ، هل هذا مفهوم؟»

استمرت مارا في الوقوف هناك حاملة الإبريق بين ذراعيها . بدأت

ترتعش من جراء ثقله .

«هو كذلك يا مولاي» قال معمر، رئيس المسكن الملكي .

«إذاً احـرص على أن يتم تنفـيـذ أوامـري !» زعق توران شـاه وانتفض . قفزت مارا إلى الوراء مذعورة . وتذكر أنها واقفة هناك «صبِّي النبـيـذ ، عليك اللعنة ! بوسع هؤلاء أن يشـربوا حـتى ولو أنهم لا يصلحون لأي شيء آخر ، أليس ذلك صحيحاً؟»

أعاد الرجال النظر اليه بوجوم .

«لقد قلت أليس ذلك صحيحاً؟»

رفعوا كؤوسهم وأقداحهم باتجاهه .

«نخب السلطان» قال معمر .

«نخب السلطان» جاء صوت ليبور مثل الصدى .

مال توران شاه إلى الأمام وتكلم بصوت خفيض ، مشحون بالسم والشجب «نفذوا ما آمركم بفعله ، وإلا فسوف أعيِّن رجالاً قادرين على الفعل في مراكزكم» .

غـادرت مـارا وهي تكاد تجـري بعـد أن فـرغت الجـرة . لا بد وأن شخصاً ما قد أطلق نكتة لإضفاء البهجة على المزاج العام ، لأنها حين خرجت واصطدمت بأحد الحراس في الخارج ، انطلقت عاصفة من الضحك لاحقتها عبر الباب المفتوح .

الفصل العاشر
مصر

مسح بيبرس وجهه ثم فرك يده على بنطاله . خفق الجرح مثل النبض كما هو شأنه دائماً في اللحظات الأولى ثم تصالب لينتظر حتى يزول الألم من جديد ، مثل تدفق سائل حارق أو سفعة قضيب توسيم ، فقد تعلم منذ زمن بعيد أن السيطرة على الألم ممكنة في معظم الحالات ، من قبل العقل . فالمسألة ببساطة تنحصر في الإطباق بقوة على أي شيء متوفر ، مثل سروع حصانه في هذه الحالة ، والانتظار . فقد خلق الله الجسم للقيام بالباقي . سرعان ما سيشعر بدفقة ثم يندفع لبعض الوقت حتى يأتي الانهيار .

لم يكن قد شاهد الفرنجي . الاحتمال هو أن الفرنجي لم يشاهده إلا قبل لحظة قبل أن يلوح بالبلطة . كان يركب وسط بعض القصبات الطويلة ، اصطدم حصانه بشيء ما وعندما قطعا مقدار قدم واحدة ، لوَّح الجندي بحركة قوسية عريضة وحزَّ عبر ساق بيبرس اليمنى ، فوق الركبة مباشرة ، لم يكن ذلك الجزء من جسمه قد حظي منه بأي اهتمام خاص من قبل أبداً ، لكنه أصبح واعياً له الآن . لم يتسن له الوقت حتى ليضرب مدافعاً ، لكن الحصان قفز إلى الأمام ، مندفعاً إلى الحفرة مرة أخرى .

تلفت حواليه باحثاً عن الآخرين وسمع جلبة أصوات على مسافة . سحب نفساً عميقاً ثم حرك الساق ، محاولاً أن يتفهم مقدار

الدمار . ما زال قادراً على الإحساس ببطن الحصان بقدمه ، إذاً ذلك أمر جيد . التفت ونظر إلى أسفل ، خنق الأنين . لقد كان هذا جرحاً ، جرحاً سيئاً ، تماماً على الخط الواصل بين الركبة وأعلى الساق . جاء المزيد من الصرخات داخل العشب الطويل . كانوا يتقاتلون قرب النهر . لقد تمكنوا حتى الآن من التفوق أو الإبقاء على مسافتهم من الأعداد المتزايدة للفرنجة باطراد ، ولم يتجنبوا سوى بضعة سهام ، لا أكثر .

فكر بيبرس بسرعة ثم سحب الكوفية عن رأسه . لفها بيديه ثم ربطها فوق الجرح ، متجاهلاً الرعشة في يديه ، والتي سببها انطلاق موجة جديدة من الألم . أغمض عينيه بقوة وأمسك بطرفي الكوفية في قبضتيه بقوة حتى زال الألم مرة أخرى .عندما رفض الألم أن يزول كلياً ، أجبر نفسه على ربط العقدة ثم دفع بمقبض خنجر **القاما** المغمد بين الساق والضمادة ثم لواها . بعد أن اطمأن إلى وجود العقدة في مكانها ، حلّ قوسه وركب عائداً عبر القصب . من خلال قوة الإرادة ، نفى الشعور السائل الذي سيطر عليه وحاول أن يجهز نفسه للقتال القادم . ضربت القصبات وجهه أثناء مروره وشخطت بشرته .

سحبته حركة من فوق النبات فرأى قلاوون ، مستمراً في امتطاء جواده ويتحرك إلى الأمام والخلف ، وكأنه مربوط إلى جذر شجرة ويحاول أن يتحرر . اقترب أكثر قليلاً فشاهد بيبرس بياض سترة العدو ، واحدة في الأمام وأخرى خلف الفرس ، وهما يلوحان بسيفيهما في الهواء ويطبقان على الحيوان . كان قلاوون يضرب بسيفه لكنه لم يستطع أن يقترب من الرجل أمامه ليسجل ضربته . ضرب بيبرس بالسروع على رقبة الحصان وانطلق إلى الأمام . نظر الفرنجي الواقف خلف قلاوون باتجاه صوت الحوافر فأطلق بيبرس السهم ليصيبه في

صدره ، مخترقاً الدرع الزرد الخفيف الذي يرتديه الرجل بحيث استقر في القلب مباشرة وعلى الفور .

أجبر الصوت الذي أحدثه السهم الفرنجي الآخر على التلفت ، ما منح قلاوون الفسحة التي يحتاج إليها . جعل حصانه يقف على قائمتيه الخلفيتين وألقى بالفرنجي إلى الأرض ثم كرر الحركة بينما كان الفرنجي ملقى على الأرض . داسه الحصان مرة أخرى باختياره فتوقف الرجل عن الحركة .

قال قلاوون «لقد كانا يريدان الحصان» .

«هل هناك المزيد منهم؟»

استرد قلاوون أنفاسه ونظر إلى بيبرس في هذه اللحظة وشاهد الضمادة .

«ساقك . . .»

«أين هم الآخرون؟»

«لا أعرف» .

أغمضت عينا بيبرس ، لكنه أجبرهما على التفتيح ، ثم بلع ريقه «دعنا نعثر عليهم» .

قاد قلاوون الطريق عبر القصب . لقم بيبرس سهماً آخر في القوس ثم سحب الخيط إلى الوراء بأقصى جهد له . كان الأربعة منهم راكبين في صف واحد إلى جانب ضفة القناة المرفوعة حينما اصطدم بيبرس بالفرنجي المسلح بالبلطة . لم تكن لديه أي فكرة عما حدث بعد أن قفز حصانه .

لاحقاً للعراك الذي هاجم فيه حصانه وداس ، أعادهما قلاوون إلى البقعة التي انفصلا فيها عن بعضهما في المقام الأول . لم يكن هنا من

أثر لأي من قطز أو تيكا، أو المطايا البديلة التي اشتروها، والتي فقدت حينما قفز حصاناهما. في الواقع، لم تكن هناك أية ممرات حديثة عبر الأعشاب فيما عدا الممر الذي أحدثه بيبرس والممر الذي اتبعه كلاهما لتوهما.

لم يكن هناك أي أثر للفرنجي الذي يحمل البلطة، أيضاً.

«ماذا تعتقد؟» سأل قلاوون، رافعاً رقبته إلى حيث الضفة لينظر إلى مياه القناة.

قال بيبرس «لقد ركبا مباشرة على الدرب التي كنا نتبعها. سوف نستمر في المسير».

«وماذا لو أن الفرنجة أسروهما؟»

وقتها سنكون قد خسرناهما. على الأقل إلى أن نعترض طريقهما مرة أخرى».

«كيف هي حالتك؟»

عبس بيبرس ونفض رأسه «إنه لا شيء».

«هل يمكنك أن تمشي؟»

«وهل أنا بحاجة للمشي».

نظر قلاوون إلى الفتحتين في العشب الطويل مرة إضافية «هل تعتقد أن لديهما الجياد؟»

«لنأمل في ذلك. وإلا فإن الاحتمال هو أننا لن نغادر هذا المكان أحياء».

بدأ الغسق يحل في هذه الآونة، واتخذت الأرض من حولهما منظراً خاضعاً مخيفاً من بعد إشراقة النهار. امتزجت الألوان الكئيبة للمنطقة مع معنويات بيبرس بدرجة كلية، لأنه بات غارقاً في التعرق

والشحوب . عندما نظر قلاوون إلى الخلف باتجاهه ، رأى أن عينه المعلمة أشبه بلؤلؤة باهتة ، وهو تحول هائل عن كثافتها وحدّتها المفعمة بالحيوية .

تابعا ضفة القناة لبعض الوقت ، متوترين ويتوقعان أن يندفع المزيد من الأعداء من بين الأعشاب في أية لحظة .

«تناول شيئاً من الطعام ، يا بيبرس . توجد بعض قطع البسكويت والتمر . بضع بيضات . كل منها حتى تعيد إليك بعض القوة» .

«لاحقاً» قال بيبرس «عندما نتأكد من أننا قادرون على الدفاع عن نفسينا» .

ركب بجانبه لفترة أخرى «ولا تتكلم إلاإذا اضطررت إلى الكلام» .

لم تستمر الضفة والحقول ذات الأعشاب الطويلة إلى الأبد ، واستطاع قلاوون أن يرى فتحة في التغطية على بعد حوالي ميل أمامهما ، حيث عبرت القناة في حقل مفتوح من الناحيتين . احتوى ذلك الموقع والموقع المغطى الذي تواجدا فيه حالياً صعوبات متنوعة متوالية ، لكنه عرف أنه ، إذا كان بيبرس واثقاً من معرفته بأنهما سيتعرضان لكمين آخر ، فسوف يأكل شيئاً يعوض به الدماء التي فقدها وربما حتى يسمح لقلاوون أن يلقي نظرة على الجرح . سحب معطفه أقرب إلى كتفيه قليلاً وجلس مسترخياً لينتظر حتى يصلا إلى الفتحة . أبقى عينه على اليسار طيلة الوقت ، آملاً أن يكون الفرنجي الذي سيهاجمهما غبياً إلى درجة أن يهجم من الأمام ، بدلاً من الانتظار حتى يمرا ثم يهاجم من الخلف .

ولكن تبين عدم وجود أي فرنجة ، وأحسّ قلاوون بالامتنان لذلك

بينما مشى الحصانان مارين بآخر الأعشاب المهيمنة ووصلا إلى المجال المفتوح . ألقى نظرة باتجاه الأفق المحاذي للحقول المستوية المعشبة ، المنقطة بأشجار قصيرة وشجيرات تستعمل كعلامات حدود بين الحقول ، باحثاً عن أي علامة على الحياة ، لكن لم يكن هناك أي شيء .

«إذا كانا لا يزالان يمتلكان الجياد» قال من فوق كتفه «فهما إما لا يزالان داخل تلك المتاهة وراءنا ، أو أنهما انطلقا بعيداً إلى الأمام» سحب نفساً عميقاً ، سعيداً لأنه قد غادر الشعور بالخوف من المكان المغلق لضفة القناة خلفه .

«تبدو هذه القناة وكأنها منطقة مفتوحة حالياً» .

قال بيبرس «إنها تؤدي إلى دمياط» .

نظر إليه قلاوون «تناول شيئاً من الطعام ثم بعض الشراب . سوف أعتني بساقك» .

«إن الكوفية تقوم بعملها خير قيام» .

«إذاً سأقوم بغسل الجرح . إذا ساء وضعها فلن ننجح على الإطلاق» .

لم يظهر بيبرس أي رد فعل يشير إلى أنه سمع .

«وسيكون مصير القوة البحرية إلى الهلاك» . قال قلاوون .

اكتفى بيبرس بالزمجرة .

«خذ هذه» أدخل قلاوون يده داخل خرجه وأخرج بعض قطع البسكوت .

«تناول هذا واسمح لمعدتك أن تستقر» ترجل عن فرسه وذهب ليتفحص الجرح . أخذ بيبرس الطعام المقدم وراقبه وهو ينحني ليحدق في الجرح .

«إنها شريحة عميقة» قال قلاوون بإعجاب شخص محترف «ماذا تظن أنه قال عندما انتهيت فوقه بتلك الطريقة؟»

مضغ بيبرس متمهلاً «من الذي يهتم؟ فقد نادى كل رجل رأيته يموت على خالقه، أو عشيقته، أو أمه. لا يشكل ذلك أي فارق».

عاد قلاوون إلى حصانه وأنزل قربة النبيذ ثم سحب منديلاً من الخرج «هل تظن أن الفرنجة يفكرون بالطريقة نفسها؟»

هزَّ بيبرس رأسه، وقد ارتدت إليه قوته بفضل الطعام «إنهم. آآه» تلوى عندما صب قلاوون النبيذ داخل الجرح.

«جيد» قال قلاوون «إجعل الغضب يمنحك المزيد من القوة كذلك».

تناول بيبرس الغاضب قضمة أخرى من البسكوت «حاذر من أن لا تستثير غضبي إلى درجة التهور».

وضع قلاوون المنديل على الجرح الذي بدأ يلتئم ورفع رأسه «ستكون على ما يرام، طالما بقيت على صهوة جوادك، ولم تضع على ساقك أي ثقل. إذا فعلت، فسوف ينفتح مرة أخرى وفي أفضل الأحوال، ستنزف حتى الموت».

«في أفضل الحالات؟»

«في أسوأ الحالات ستفقد الساق، ولكن في تلك الحالة ربما تعلمك أن تبقى على حصانك، ولذلك لن تكون خسارة كاملة».

«ألم تقل لي قبل قليل إن لديك بعض البيض؟»

بعد تناول الطعام والنبيذ، ظل بيبرس ضعيفاً بعض الشيء، لكنه أفضل بكثير مما كان عليه. امتدت حقول العشب باتجاه الغرب إلى أبعد ما يستطيع رؤيته، وقد حصرتها الشمس الغاربة بضوء أصفر

باهت تحت لونها البرتقالي الناري .

قال «لا يسعنا أن نضيع الوقت ونحن نمشط هذه الحقول باحثين عنهما . ولا يمكننا أن نخيم في العراء المفتوح لهذه الليلة ، صح؟»

«هل نعود إلى القصب؟»

«كلا ، بل سنستمر في التقدم ونعثر على شيء ما» . أجابه بيبرس .

«سيحل الظلام عما قريب . فهل سنظل نتحرك قدماً بينما لا نقدر على رؤية ما هو أمام وجهينا مباشرة؟»

«سيؤدي القمر ذلك العمل من أجلنا . نحن بحاجة إلى حصن . مجرد بعض الأرض العالية مع المأوى» .

«هنا؟» أصبح بوسع قلاوون أن يرى التلال والجبل بعيداً عن خط الأفق ، لكنهما سيضطران إلى الركوب طيلة الليل واليوم التالي بطوله حتى يبلغاها . «نحن في وسط سهل فيضاني» .

«سيكون هناك شيء ما . أنا أعرف هذه البلاد» .

«ليس هذا المكان بالذات . أنت لا تعرفه» .

«صحيح ، ولكنني أعرف ما ينبغي توقعه» . لوَّح بيبرس بيده أثناء كلامه .

تحركا مبتعدين مرة أخرى ، وقد اقترب بيبرس من استعادة كامل قوته وطاقاته .

مرا عن عبَّارة ، مهجورة مع قفل على سطح المياه فوقهما ، كمؤشر على أن هذه المنطقة تعج بالحياة في العادة ، لكن الخوف من جيش الفرنجة قد عرَّاها من سكانها .

قال بيبرس «لابد من وجود حارس لبوابة القناة» .

«ألا تعتقد أن رجال العبارة قادرون على تشغيلها بأنفسهم؟» .

«هم قادرون على تشغيلها ، لكنهم لا يقدرون على صيانتها . يتم عمل ذلك بواسطة شخص موظف من قبل الدولة» .

«لم أكن أعرف أنك تبدي كل ذلك الاهتمام في طرق تشغيل وإدارة الطرق المائية» .

«لقد علمني السيد آيبك أنه يفترض في البحريين أن يحموا الدولة . حتى تحمي شيئاً ما بالطريقة المناسبة ، ينبغي عليك أن تفهم طريقة عمله . يفترض في رئيس الجواسيس الحاذق أن يفهم هذا» .

«وماذا عن السلطان؟»

«السلطان هو التجسيد الكامل للدولة ، وهكذا فإن شخصه مقدس» .

«ولكن ما علاقة هذا بالقنوات؟»

«يقوم السلطان بصيانة القنوات للإبقاء على حركة الدولة . وهكذا فنحن أيضاً نقوم بحمايتها» .

«وهكذا ، فهل أنت واثق من أنه سيوجد حارس للأقفال قريباً من هنا؟»

«كلا ، يجب أن يتواجد ، لكن الإحتمال الأقوى هو أنه انصرف . أومات . قد يكون بيته ما يزال سليماً» .

بعد مسيرة طويلة في حقل مليء بالأعشاب العالية ، وجدوه هناك ، بيت مغرق في الصغر ، ليس أكبر من كوخ بكثير ، مقام على مسافة قصيرة من القناة ومحشور بين حقول المحاصيل العالية . لم يكن هناك شيء في الداخل فيما عدا بقايا أثاث محطم ومحترق جزئياً ومخلفات وجبات تناولها جنود جائعون أثناء تحركهم .

سأل قلاوون «هل تعتقد أنهما مرا من خلال هذا المكان في طريق عودتهما؟»

«ليست هناك طريقة لمعرفة ذلك» قال بيبرس .

الحديقة الخلفية في الحالة نفسها . كل الخضار ذات الجذور قد تم اقتلاعها وأية فواكه على الأشجار قد تم قطافها ، وكذلك جرت بعثرة الجذوع والأغصان غير المحظوظة في الجهات كافة ، بحيث تركت وكأنها قد تعرضت لكارثة الفيضان .

«هناك» أشار بيبرس إلى كومة من فضلات الطعام والحديقة التي تشكلت فوق ما بدا مثل خندق تصريف لحين قدوم الفيضان ، وقد نمت خلفه أيضاً صفوف من الأعشاب الطويلة النحيلة ، غير المنضبطة .

سأل قلاوون «ولكن ماذا عن الخيول؟»

«سوف يتسع لهما البيت ، أليس كذلك؟»

«بالكاد» .

«إذا أدخلهما إلى هناك . قم أنت بأول نوبة خفارة . محقق أن يمر شخص ما من هذا الاتجاه ، وعندما يأتي ماراً ، فسوف نرغب في التكلم إليه . سواء كان عدواً أو صديقاً» .

نفذ قلاوون ما أمر به وعاد إلى الخندق ليجد بيبرس وقد اختبأ خلف كومة المخلفات وتحت الأعشاب . وقد عقد ذراعيه وأغمض عينيه . نزل قلاوون إلى جانبه وجهز نفسه لينتظر ما يمكن أن يجيء .

البيت مرئي بالكاد في ضوء الهلال النحيل ، فاقترب الرجل منه من الناحية الأمامية بمنتهى البطء . تلفت يمنة ويسرة ، انحنى إلى الأمام قليلاً ليحاول أن يقلل من احتمالية أن يتم اكتشاف بنيته ، وهي الأضخم بمرتين من بنية أي رجل عادي أثناء ذهابه إلى الباب . ألقى

بنظرة متلصصة في داخل الباب فرأى الجوادين ، اللذين صهلا بعصبية لدى ظهور الغريب خلفهما ، ثم مشى عائداً ودار خلف المبنى ثم حوله حتى انتهى به المطاف عند الباب الأمامي مرة أخرى . عندما اطمأن إلى عدم وجود أي شخص في البيت أو حوله ، بدأ يختار طريقه فوق الحديقة الخلفية ورقعة الخضار باتجاه الحفرة في الأرض عند الطرف .

كان زميله ومواطنه يمشي بحرص عبر الحقل في الجهة المقابلة ، وقد اتخذ كلاهما طريقهما نحو الوجهة نفسها للالتقاء في الوسط ، وقد قضت خطتهما بالإمساك بأي شخص يحتمل أن يفر من جهة أو الأخرى ، نظر الرجل الثاني إلى أسفل الخندق ورأى قلاوون جالساً بلا حراك . غارقاً في النوم . سار الرجل القادم من الأمام نحوه وأشار إلى أسفل باتجاه شكل قلاوون النائم . تأمله الرجل الأول للحظة ، وكأنه يحاول التوصل إلى حل ما أو ينتظر حدوث شيء ما . ثم أشار إلى الحصان ورفع إصبعين . هزَّ الرجل الثاني رأسه وأدار إصبعه بدائرة في الهواء . لم يكد الرجل الأول يهز رأسه بالموافقة حينما ضربه شيء ما على جبينه مباشرة ، وطرحه مثل برج يتهاوى . حاول الرجل الثاني أن يستدير لكن لسعة القوس والسهم على مؤخرة رقبته أجبرته على التوقف في مكانه . رفع كلتا يديه .

قفز قلاوون على قدميه واتجه نحوهما ، مشهراً خنجراً معقوفاً ضخماً في يده . توقف عند الرجل الغائب عن الوعي ثم نظر إلى الآخر بدوره ، بينما ظل الخنجر يحوم فوق المتلصص لئلا يتحرك .

قال بيبرس «فعلاً يا قطز . يجب أن لا تشعر بالغضب تجاه هذا الأمر . أقصد ، أعرف أنه حتماً محرج بدرجة رهيبة ، ولكن مع ذلك . فلا أنا ولا قلاوون يمكن أن يقل احترامنا لك» .

أنزل قطز يديه ببطء وحرص «أنا أصدق ذلك . اخفض القوس» .

«أنت سجيني يا قطز . يجب أن تطلب ، ولا تأمر . بلطف وكياسة» .

«اخفض القوس» حاول قطز أن يلطف من صوته . لم يجرؤ على التحرك لأنه يعرف أن بيبرس يبقي الزناد الموجود على آلية الإطلاق خفيضاً إلى درجة أن هبة صغيرة من الريح يمكن أن تحركه لينطلق .

«هممم . . .» استمتع بيبرس باللحظة «أعتقد أن ذلك سيكفي» أبعد السلاح عن رقبة قطز وسحب الزناد . وضع قطز كفه على بشرته وتحسس الثقب الصغير على شكل جرح ؛ لأن مجرد لمسة من السهم كانت كافية لاستجرار الدماء .

«كيف حاله؟» سأل بيبرس قلاوون .

«إنه حي» أعاد قلاوون خنجره إلى غمده ونفض ذراع تيكا . تحرك العملاق وأصدر أنيناً .

«حسناً إذاً» قال بيبرس «ها نحن هنا سوية مرة أخرى . هل لديكم الجياد؟»

«على مسافة قصيرة خلفنا . هل علمتم أنه نحن؟»

«لم أعرف إلا حين اشتممت رائحة عطرك قبل لحظة . لسوء الحظ فإن تيكا لا يستخدم عطر المسك» .

«وهكذا فإنني سعيد لأنني أستخدمه» .

كان تيكا قد نهض إلى وضعية جلوس وأخذ يفرك رأسه حيث ضربه بيبرس بالحجر .

سأل قطز «منذ متى وأنتما موجودان هنا؟»

«بضع ساعات . لم يمر من هنا أحد غيركما . وماذا عنكما؟»

«لا شيء . أعتقد أن الجيوش قد عبرت النهر ونحن موجودون على الضفة الخطأ . هل سنحت لك فرصة للتكلم مع هذين الخائنين بين الأعشاب؟»

نفض بيبرس رأسه نفياً «لا شيء» رفع قوسه «ثم إنهما لم يكونا يستخدمان عطر المسك بدورهما» .

«إذاً هل ننتظر؟ حتى انبلاج الفجر مثلاً؟»

«أفترض ذلك» قفز بيبرس عائداً إلى الخندق ولكنه ندم على الفور لأن القفزة أطلقت موجة من الألم في ساقه من جديد .

سأل قطز «هل أنت مجروح؟»

«مجرد شخط» .

«ما مدى سوء الإصابة؟»

قال بيبرس «ليس بدرجة سوء تمنعني من القبض عليك يا قطز . كان في وضع أسوأ من قبل وهو الآن أفضل . سوف يتحسن أكثر عندما تشرق الشمس . آسف بالنسبة للحجر يا تيكا» .

أصدر تيكا زمجرة خفيضة وسحب يده عن جبينه لتفحص وجود أي دماء . لم يكن هناك شيء ، لكنه حاز على ورم هائل بلون وردي في الصباح ، فوق عينيه مباشرة والى جانب خط الشعر .

«مليء بالألوان» علّق قلاوون حينما تسلق خارجاً من حفرة الثعلب التي شكلت ملاذهم خلال ساعات الظلام . عاد قطز مع الجياد ، وبعد أن سحب الجوادين اللذين قضيا الليلة في البيت المهجور ، استأنفوا الانطلاق .

ابقوا الحيوانات تسير بسرعة ثابتة في هذا الوقت ، فقد وجب تعويض الوقت والعثور على أرض مرتفعة .

«بوجود خيول نشطة ، أو حتى سفينة ، يحتمل أن يكون الملك قد وصل إلى دمياط سلفاً» . قال قلاوون .

قال بيبرس «في هذه الحالة سندخل إلى المدينة ونسحبه خارجها بأنفسنا» .

عندما وصلت الشمس إلى منتصف مسافتها في السماء ، بدأت القناة تلتف واختفت الحقول المقسمة إلى حصص على يسارهم لتتحول إلى امتداد عريض من الأرض المغطاة بالأعشاب الخشنة .

أشار بيبرس إلى ما ظهر مثل خط من التلال الجليدية أمامهم مباشرة . استمرت القناة تتدفق في الالتفاف بعيداً عنهم إلى الناحية الأخرى .

قال «هناك»

«إنها بعيدة جداً ومنخفضة أكثر مما يناسب» . قال قطز «إذا أردنا أن نخيم عليها فهي مثالية ، ولكن ألا يجدر بنا أن نستمر في الركوب؟»

«ليس عندما لا نعرف إلى أين نحن متجهون . لم يسلك الفرنجة الطريق الذكية . إنهم يتحركون باتجاه دمياط بخط مستقيم بمحاذاة النهر . إنهم لا يراوغون ويتركون الملك ينسل مبتعداً ، وإلا لكنا رأينا أعداداً أكبر منهم ، من القلة الذين رأيناهم بالأمس» .

قال قطز «إذاً سنعبر القناة عند الساحل ونطاردهم بكل الأحوال؟»

قال قلاوون «سيكون الساحل مليئاً بالفرنجة» .

«سوف نتسلق تلك التلال ، بوسعنا أن نرى التفاف القناة باتجاه الساحل . إذا عبرناها سوف نتمكن من رؤية البندولة» حرَّك بيبرس إصبعه من اتجاه التلال أمامه وأشار إلى القناة التي استمروا في اتباعها

«والبندولة على مسافة ركوب قصيرة من الروافد إلى الشرق» .

أكمل قلاوون الفكرة «وسوف نشاهد كم يوجد منهم في الساحل» .

«إذا وجد منهم أي شخص على الإطلاق» . قال بيبرس .

حدث الأمر كما توقعه . بمجرد نزولهم عن سلسلة التلال الصغيرة الجليدية الشكل رأوا أن الأرض الواقعة إلى الشرق منهم خالية من أي حركة ، بينما أظهر ركوب قصير على طول المنحدرات الخفيضة بأنه وجدت جماعات من الخيالة داخل بلدة الساحل وما حولها .

«دعونا ننتظر ونرى ما سيحدث» نظر بيبرس إلى البلدة لوهلة ثم ترجل . «دعونا نترك الجياد تحصل على قليل من الرعي بينما نحن نلقي نظرة» .

«ماذا عن ساقك؟»

«أستطيع أن أتدبر أمري» .

سأل قلاوون «هل تعتقد باحتمال أن نخوض في مواجهة قتالية؟»

كان بيبرس قد أخرج مطرة الماء - وبعض الخبز اليابس من أكياس خرجه . جلس براحة إلى جانب التلة وقد مدد ساقيه أمامه ثم قطع قطعة من القشرة . «أظن ذلك ، فالمكان أكثر سكوناً مما ينبغي . تماماً مثل النسائم التي تسبق هبوب العاصفة» .

وبكل تأكيد ، بينما جلسوا يراقبون الحركات البطيئة والعفوية للفرنجة وحلفائهم في القرية المفتوحة وغير المسورة ، ظهرت سحابة من الغبار على مسافة إلى الجنوب .

قال بيبرس «هاهم قادمون . كم من الوقت سيمضي قبل أن يروهم؟»

«في وقت كاف حتى نهرب منهم» . قال قطز «ولكنهم لا يبدو أنهم سوف يسهلون الأمور على أنفسهم» .

«كلا ، لا يبدو ذلك» .

خرج الفرسان من غيمة الغبار وأصبحوا الآن على مدى ميلين من البلدة ، يركبون على الضفة البعيدة من القناة ، والتي كانت المجموعة تتبعها .

سأل قلاوون «هل هم من أبنائنا؟»

«كلا ، هم من البدو» زمَّ بيبرس عينيه ليحدق «غنيمة سهلة بالنسبة لهم . سوف يخلون البلدة بدون أن يكلفونا أي شيء ما عدا خسارة غنيمة صغيرة» .

«من هو الذي سيكتشفهم أولاً؟»

أشار بيبرس «أولئك الموجودون على الجسر . بدون شك» .

بمجرد أن أشار ، وضع الحراس الكسالى على الجسر الذي يعبر إلى البيلامون على الساحل ، أيديهم على أعينهم ووقفوا بعد أن كانوا متكئين على الجسر ، لينظروا إلى الجماعة المغيرة القادمة نحوهم وقد اقتربت . انسلخ أحدهم عن المجموعة وركض نازلاً إلى البلدة فوصل إلى الجماعة الرئيسة في الناحية البعيدة من الطريق ، الأقرب من المكان الذي جلس فيه بيبرس والآخرون . ابتسم الجميع على الإيماءات الخالية من الكلمات من الإشارات اليدوية والحركات التي كان الحارس المتحمس يؤديها ليخبر الشخص الذي ثبت أنه القائد الفرنجي ، وبعدها هب الرجال في كل الجهات وامتطوا جيادهم ثم نخزوها عبر الجسر وانطلقو باتجاه الشمال .

مع وصول البدو إلى البلدة ، لم يعد هناك أي فرنجة أو حتى أحد

من سكان البلدة يمكن رؤيته .

«تلك هي إشارتنا» قال بيبرس . نهضوا ، استعادوا خيولهم ثم انطلقوا راكبين إلى داخل البلدة ، وقد أبرزوا خاتمهم الملكي للشيخ البدوي الذي حصلوا بموجبه على التصريح بالدخول عبر البلدة بحرية ومن فوق الجسر . انهمك رجال القبائل في التفتيش على السلع والصناديق التي خلفها الفرنجة وراءهم فلم يلاحقوهم مرة أخرى . جعلت الآثار والغبار الذي أثاره الفرنجة مسألة ملاحقتهم أكثر سهولة ، وبحلول أواخر العصر ، أصبح بوسع المجموعة تشمم رائحة الدماء والتيقن من أنهم يتجهون الآن في الاتجاه الصحيح .

كانوا الآن ذاهبين إلى الغرب ، عائدين نحو النيل ، حيث يتلوى رافده الشرقي في طريقه نحو دمياط والبحر الأبيض المتوسط . اتضحت فائدة الجياد الإضافية ، حيث قام البحريون بالتبديل من أحدها إلى الآخر في كل مرة أجبر فيها الفرنجة على الإبطاء لإراحة مطاياهم . خلافاً للناس الذين يطاردونهم ، فهم سيكونون نشيطين ومهيئين لأي مطاردة أو حتى عراك إذا دعت الحاجة إليه عندما يحين الوقت . خلقت خطوتهم الثابتة والمسافة التي يقدرون على الاحتفاظ بها ، حيث يتباطأون ويبتعدون في الأرض المنبسطة ويسرعون عندما تختفي خطوط الرؤية ، خلقت الفترات الدقيقة لهم بحيث لا يمكن رؤيتهم ، وأيضاً ما يكفي من المسافة بحيث لا يصبح الفرنجة خارج مدى الرؤية أو المدى .

«هل تعتقد أنهم يعرفون أين يحتمل أن يلتقي الجيش بهم؟» سأل قلاوون .

قال بيبرس «لا أعتقد أن الجيش نفسه يعرف . هنالك الآلاف منهم يتراجعون في الوقت نفسه في السفن ، على أقدامهم ، وعلى

الجيـــاد القليلة التي بقـيت لديهم مـثل هؤلاء الرجـال أمـامنا . العربات . . .»

وافـقه قطز «إنهم يتـعرضـون للمـضايقـة . إن قـادتنا يعـرفون كـيف يطاردون ، حـتى لو أنهـم لا يعـرفـون كـيف يخططون» . اتخـذت الجـياد بضع خطوات أخرى . «باستثناء الحاضرين طبعاً» .قال مضيفاً .

قال بيبرس «لديهم استراتيجية ، وهي ذات جدوى ، حتى لو أنها غير مشرفة» .

«ينبغي علينا أن نقتل الرأس حتى نهلك الجسد من الجوع» .

فكر بيـبرس في هذه المقولة «عندما يموت الملك ، يأخـذ ملك آخـر مكانه ، وهذا يبعث برسالة قوية . يجب على الملك الجديد أن ينتـقم لموت أبيه . سوف يقومون ببناء أسطول آخر وجيش آخر ويعودون إلى هنا بعد بضع سنوات . ربما يمكن اقناع هذا الملك بالخطأ في أساليبه» .

«وهل تعتقد أنت بذلك؟» سأل قطز .

«كلا . ولكننا سوف نمنحه الفرصة» .

أصـبح بوسـعـهم رؤية النهـر . صـفـوف وصـفـوف من الرجـال السائرين ، عشرات الجياد ، وسفن على مدى الأفق ، وكلهم متجهون إلى الشـمـال للهـروب من المد القـادم لجيش السلطان وعـصاباته التي تخوض الاشتباكات الصغيرة وتقوم بالغزوات ، مثل البدو الذين رأوهم صباح ذلك اليوم . شاهدوا من على بعد حوالي ميل أمامهم ، السرية التي لاحقوها تندمج ببطء في الجسم الرئيس للجيش المضيف .

توقـفوا وأخذوا يسـيرون بجيـادهم في خط مـواز للطابور الفـرنجي . بدت القـوارب بحـالة جـيـدة ، بينمـا ظهـر أن المشـاة يسـيرون بشـكل منتظم ، رغم أنه كان من المستحيل تقدير الحالة التي يتمتع بها الرجال

من تلك المسافة . لو أن أياً منهم لاحظ الفرسان الأربعة الذين يرافقونهم مثل ظلهم ، فإن أحداً منهم لم يبد علامة على ذلك . لم يبذلوا أي مجهود لإخفاء أنفسهم .

أصبح واضحاً أن الفرنجة مصممون على الوصول إلى السلامة ، ولم يعودوا في حالة نفسية لتقبل القتال .

قال قطز «سيكون الملك على رأس الجيش» .

«أو على الماء . يحتمل أن يكون في سفينة القيادة» . قال قلاوون .

قال بيبرس «كلا . إنه أكثر حرصاً من أن يأتمن نفسه في الماء . ماذا يحدث لو تم إيقافهم أو هبت عليهم نسائم خلفية؟ هنالك طرق عديدة جداً لأن يؤسر الشخص في سفينة ما . هنالك أشياء عديدة يمكن أن تسوء» .

قال قطز «أنت تقول هذا لأنك لا تحب السفن» .

ابتسم بيبرس «أنت لن ترغب في الموت على سفينة . إنها ليست نهاية مجيدة» .

نظر إلى الأعلى «سوف يسيرون لساعتين آخرين؟ كم تقدر بعدنا عن دمياط؟»

«حوالي عشرين مرحلة أو أكثر . حتى لو أنهم مشوا طوال الليل فهم لن يبلغوها قبل الصباح . ليس كلهم» .

«لن يبقوا في العراء عندما يهبط الظلام ؛ لأنه سيتم التقاطهم مثل الذباب المضيء» .

طرد قطز ذبابة من أمام عينيه .

«إذاً سنعثر على المعسكر . لابد وأن بعضهم سبق لبيدأ في الحفر» قال بيبرس .

«كيف تعرف ذلك؟» سأل قطز .

«لأنه على الرغم من أن هذا الملك قد انهزم بسبب غباء شقيقه ، إلا أنه مازال قائداً أفضل من قادة سلطاننا» . قال بيبرس «سيكون قد أدرك ما لدينا ، قبل أن ندرك نحن ، وقام بالتحضيرات لإنقاذ ما تبقى من جيشه» .

قال قطز «إنه لا يثق بربه أن يقوم بذلك وكفى» .

«إنه يؤمن بأن الرب يكافئ على الأعمال الطيبة تماماً كما نؤمن نحن . إن إنقاذ الرجال الذين يتبعونه هو عمل طيب» . لم يقل بيبرس «مثلما أنقذتك» . لكن قطز أدرك تماماً ما قصده . وكذلك أدرك الآخرون . استطرد بيبرس قبل أن يتمكن قطز من الكلام «لن نتمكن من أخذه بوجود كل هذه القوة ، لكن هناك فرصة إذا حدث هجوم أكبر . يجب علينا أن ننتظر أن تسنح لنا الفرصة» .

«أوافق معك» . قال قلاوون ، مبقياً عينيه مسبلتين حتى لا ينظر في عيني قطز .



الفصل الحادي عشر
بغداد

مشى عبد خارجاً من الغرف وسحب نفساً عميقاً من هواء الليل . أحسَّ بمزيج غريب من الانتعاش والقلق . فقد بدا له كل شيء أكثر حيوية بطريقة ما ، وكأن جميع أنشطته حتى هذه اللحظة كانت مجرد توافه يمكن الآن وضعها جانباً مثل ألعاب الأطفال .

فكر أن رؤية الخليفة ، وقد تم استفزازه في عقر داره ، سيؤدي مثل ذلك التأثير ، عندما بدأ يمشي في الشارع السيء الإنارة . مصادر الإنارة الوحيدة هي بضعة فوانيس مازالت مضاءة في الشبابيك المفتوحة . لم يفكر في أن يطلب شعلة من ابن دقيق . لا يهم . فهو يعرف طريقه إلى البيت وسرعان ما سيصل إلى الشوارع الرئيسة ، حيث الأرضية أفضل واحتمالية الدوس على شيء ما تصبح أقل ، حتى لو أنها لا تنعدم بدرجة كلية . نظر إلى الأعلى كعادته دوماً ليتأمل الأبنية العالية ذات الطوابق الثلاثة والأربعة في حي ابن دقيق ، وسمح لنفسه بأن يحلم بأنه سيمتلك هو أيضاً مثل ذلك البناء في يوم ما ، وسيكون سيد البيت وسيمتلئ بكتبه وربما حتى أطفاله . ربما تبدو مثل هذه الأشياء بعيدة المنال حالياً ، ولكن حتى والده ما كان ليحلم بأن عبد سيمارس الحياة التي يحياها في هذه الآونة . لقد بقيت سلالته العائلية الأبوية عبارة عن سلسلة طويلة من السائسين ، الخدم والحرفيين . ليس من نمط الناس الذين يكتبون الكتب ليعتاشوا منها . حفظ والد عبد الدراهم

القليلة التي كان التجار والنبلاء ينفحونه إياها كل أسبوع مقابل عنايته بخيولهم، حفظها على حدة، واستخدمها لدفع تكاليف مدرس لعبد وحده من بين إخوته الخمسة، لكونه الابن البكر.

تعرض كلاهما للسخرية على هذا العمل، من قبل رجال عائلتهم وجيرانهم المباشرين. لكن والده لم يتردد أو يتراجع، ولا حتى مرة واحدة.

والآن يفترض فيَّ أن أذهب إلى دمشق، فكَّر عبد. ماذا كان سيكون رأيه في ذلك سابقاً؟ أجبره صوت قدم تركل بعض أوساخ الطريق على التلفت إلى الوراء. للحظة عابرة، لم يتمكن من إعطاء اسم للوجه الذي شاهده تحت الشعلة.

«سلام يا عبد» قال عازر.

«ما الذي تفعله هنا؟»

وزع عازر نظراته على أصدقائه من حوله «أرأيتم كيف يكلمني؟» ثم استدار إليه «أنا لست مضطراً لتبرير أمكنة تواجدي إليك ولا إلى أي شخص آخر، يا كلب. لا تنس ذلك».

دار عقل عبد بسرعة. هنالك ستة منهم في الإجمال، واستطاع أن يرى في وجه كل منهم نظرة مجنونة غريبة، وكأنهم قد تناولوا نوعاً من المخدر القوي. ولم يكن ذلك من تأثير الظلام أو المشاعل. أحسَّ عبد بتيار من إثارة الخوف تسري في كيانه.

«هل لاحقتني؟»

«لا حاجة لذلك». شخر عازر بسخرية «فأنت ستكون إما هنا أو في وجارك مع قحبتك تلك. لقد رأيناها، أليس كذلك أيها الشباب؟ ربما سنذهب لرؤيتها هذه الليلة بعد أن نفرغ منك. ليس الأمر وكأنك

قادر على أن تفعل أي شيء حيال هذا . . .»

تصاعد الغضب وكافح عبد للسيطرة عليه ؛ لأن ذلك هو ما أرادوه . «هل رأيت ما حدث هذه الليلة؟» قال عبد «لماذا تهدر وقتك معي؟» .

«لأن لدينا خدماً ليقوموا بتحزيم أمتعتنا يا عبد . أي شخص لديه أشياء ذات قيمة سيكون قد أخرجها من المدينة بحلول صباح الغد ، إذا كان لديه أي قدر من المنطق . ثم سوف ينضم إلى حرس الوزير ويقاتل من أجل المدينة . سنكون نحن أبطالاً ، مع وثيقة ضمان» . هزَّ عازر رأسه ، وظن عبد أنه رآه يبتلع ريقه أيضاً . «هذا مجرد منطق عاقل» . قال منهياً كلامه . أطلق الآخرون ضحكة مجلجلة ذات رنين مرتفع . أزعجت ضحكتهم أعصاب عبد المشدودة أصلاً .

«حسناً إذاً ، أتمنى لكم الحظ الأوفر» .

«ليس بهذه السرعة ، يا صبي الإسطبل» . قال عازر «لقد تعرضت للتحقير وبدوت مثل الأحمق هذا اليوم ، وكل ذلك بسبب ثرثرتك المجردة من العقل وترهات ذلك الرجل العجوز القابع هناك . الآن ، لا أستطيع أن أصل إلى السيد - ليس بعد - ولكنني أظن أنه ينبغي علينا أن نسدد الحساب ، ألا تظن ذلك؟»

«ما الذي تريده يا عازر؟» حاول عبد أن يضع في صوته ثقة أكثر مما يحسه وندم على ذلك فوراً . فقد سحب عازر من حزامه سكيناً ذات نصل طويل ورفعها أمام ضوء المشعل .

«تأخذ أنت قطعة مني ، وآخذ أنا قطعة منك» قال ذلك وتحرك متقدماً .

استدار عبد ليجري هارباً ، لكن اثنين من أصدقاء عازر كانا التفا

خلفه مسبقاً بحيث سدا طريقه .

قال أحدهما «لا ، لا ، واجهه» .

نظر عبد إلى عازر وأطاح برأسه من جانب إلى الآخر ، باحثاً عن مهرب . في هذه الآونة ، أخذ عازر يمشي الهوينا وقد تعززت ثقته بنفسه ، وقد أمسك بالنصل المشرشر أمامه ورأسه موجه مباشرة وكأنه رمح . رفع عبد قبضتيه وانطلقت عدة ضحكات .

تراجع مرة أخرى لكن الاثنين الواقفين خلفه وضعا أيديهما على ظهره ودفعاه إلى الأمام . أصبح عازر قريباً الآن إلى درجة أن كل ما عليه هو الدفع إلى الأمام لتصل السكين وتخترق عبر سترة عبد . لم يكن عبد قد خاض عراكاً منذ أن كان صبياً صغيراً ، ولم يزد عراكه وقتها عن مصارعة شقيقه وأولاد عمومته . لم تكن لديه خبرة في مثل هذا النوع من العنف . استمر في التهيؤ ، واضعاً يده اليسرى إلى الأمام واليمنى خلفها . ركز قدميه وحدَّق في عيني عازر . ابتسم المعتدي المتطاول ، فجاءت ابتسامته مرعبة في مزيج من اللونين البرتقالي والأسود تحت نور المصباح . نظر عبد إلى قدميه .

ارتبك عازر وفعل الشيء نفسه ، وفي تلك الثانية دفع عبد بقبضته تحت أنف عازر بكل قوته وشعر بها تصطدم في العظم وأسنان الفتى العلوية . أصيب عازر بمزيج من الصدمة والدهشة وغلبه الألم ، فتراجع خطوة ، فانطلق عبد هارباً من خلفه إلى الشارع . فوجئ أصدقاء عازر بالحركة إلى درجة أنهم لم يقوموا برد فعل إلا بعد أن تخطاهم ، لكن بحلول ذلك الوقت ، كان عبد الأخف وزناً قد قطع مسافة انطلاق طويلة أمامهم . ركض قاصداً السوق الواقع على زاوية قريبة من بيت ابن دقيق ، متجاهلاً الصرخات القادمة من خلفه ، وصولاً إلى دكان

العطار الذي طالما تحدث عنه ، قام أثناء ركضه بمعالجة الوشاح المحيط بخصره وحل عقدته . لم يكن يشكل أكثر من منديل ؛ إذ لم يحتو على عقدة مثل الحزام ، لكنه لفه حول يده اليمنى النابضة ووصل إلى الطريق الدائري الذي يشكل الحد الخارجي لسوق العطارين .

جاء صوت دبيك أقدام عازر والآخرين عالياً من ورائه . استمر في الجري مباشرة نحو واحدة من البوابات الضيقة الواقعة تحت قبة الشارع الرئيس ، والذي أغلقت كل بسطاته أو تمت تغطيتها بسبب حلول الليل . رغم أنه لم يكن قد خطا في المحل بعد الغسق من قبل ، إلا أنه بقي واثقاً من وجود شبكة الأزقة التي تفصل متاهة حوانيت التجار وسوف توفر له درباً للهروب ، فقد أصبحت الاحتمالات ضعيفة في أن يلاحقوه داخل كل زاوية وانحراف بمجرد أن يصل إلى الداخل .

مع تقدمه مجرد بضع ياردات ، تمكن من الوصول تحت القوس ثم الركض متوغلاً في المتاهة وهو يصلي حتى لا يصطدم بالجسور المعلقة أو قضبان العرض في العتمة ، فيغيب عن الوعي . أصبح يبتعد عنهم أكثر فأكثر ؛ لأنه لم يعد يبدو أكثر من خيال يتحرك بسرعة في أرجاء المتاهة ، بسبب ثيابه الداكنة .

سمع عازر يصيح «تفرقوا . يأخذ كل شخص ناحية مختلفة . سوف نجبره على الخروج مثل جرذ» .

زاد عبد من من سرعته بأقصى قدراته ، محاولاً أن يبقي صوت أنفاسه المتقطعة منخفضاً ؛ لأنه تخيل أن صوت تنفسه أشبه ببطة تتنفس بجهد . كان اعتياده على الجري بندرة تعوده على القتال نفسها . لاح له المخرج في الطرف القصي من السوق بعد جريه جيئة وذهاباً .

انسكب نور القمر إلى الداخل وجعل الشارع في الخارج يبدو له

مثل فردوس يدعوه للقدوم . مجرد خمسين خطوة للوصول . سحب نفساً عميقاً وخفض رأسه .

جاء الجسم عن يمناه وتسبب الالتحام لدى اصطدامه به في جعل النور الأبيض يتراقص أمام عينيه لثانية . سقط على الأرض نائحاً .

«لقد حصلت عليه» صاح الرجل الواقف فوقه «نحن موجودان هنا» .

«هلموا !» جاءت الصرخات الجوابية «لقد قبض عليه بابيار !»

حاول عبد أن يعاود الوقوف ، لكن سجانه وضع قدماً على صدره . «ابق تحت حيث أنت الآن» . قال الفتى ، فجاء صوته مغروراً وغبياً بشكل متواز . «إذا هربت مرة أخرى ، فسوف لن تفلح إلا في جعله أشد غضباً» .

عاود عبد الرقود للحظة وانطوى على نفسه .

صاح عازر «أين هما؟»

«نحن هنا !» أجابه التابع . رأى عبد رأسه ينفتل ليصيح فاستغل فرصته للمرة الثانية . أمسك بقدم الغبي بيديه الاثنتين وركل الرجل إلى أعلى بين فخذيه . قفز الرجل إلى الوراء برد فعل غريزي ليحمي نفسه لكنه فقد توازنه ؛ لأن عبد ظل ممسكاً بقدمه بقوة . سقط على ظهره وقفز عبد واقفاً وركض باتجاه المخرج . اندفع واحد آخر من أصدقاء عازر أمامه لكنه ألقى بالوشاح الذي كان قد لفه حول يده في وجه الرجل ، ورفع هذا يديه ليحمي نفسه ، ضربه عبد بكتفه أثناء مروره فطرحه إلى الأرض هو الآخر . آخر ما سمعه قبل أن يتشمم الهواء النقي للشارع هو صرخة عازر الغاضبة خلفه . لم يتباطأ لثانية طيلة الطريق إلى بيته .

الفصل الثاني عشر
مصر

المعسكر في حالة فوضى شاملة ، لكنه يؤدي الغرض . اندفع الفرنجة داخلين ، ألقوا بأسلحتهم ، وجلسوا ليستريحوا بينما قامت قلة من الخفراء بالتمشي حول المحيط ، غير آبهين بنصب الخيام أو وسائل الراحة الأخرى . السور عبارة عن خط قصير من خشبات المنصة ، مسننة على شكل مسامير شائكة ، ووراء ذلك خندق غير عميق . أدى هذا الخندق هذا أيضاً وظيفة مبولة المعسكر . راقب البحريون ، من على ظهور مطاياهم المتعبة بحلول هذا الوقت ، استعراضاً للمؤخرات تظهر فوق جدار الأوتاد وتتبرز على الجهة الأخرى .

قال بيبرس «سوف ننتظر على الجانب الشمالي . عندما يأتي الهجوم ، سوف نختار رجالنا ونهجم عليه» .

ركبوا إلى الجهة الأخرى ، محاذرين من أي وحدات باحثة عن التموين أو أخرى تائهة مثل تلك التي التقوا بها عند القناة . استمر بيبرس في تمرير يده على الجرح بين الفينة والأخرى ، لكن بدا أن عمل قلاوون قد أعطى نتيجة حسنة ، وأن الجرح سوف يشفى . عندما اختاروا البقعة التي سيريحون جيادهم فيها ، حرص بكل الأحوال على أن يترجل بخفة ، وأن يضع أقل ما يمكن من الوزن على الساق .

انقضت ساعات وما زال معسكر الفرنجة غارقاً في الهدوء : بضعة مشاعل ، بضع نيران . رجال منهكون بعيدون عن أوطانهم .

قال قطز «لن نستطيع أن نعرف متى سيحدث أي هجوم» .

رد عليه بيبرس «إذا لم يحدث أي هجوم ، فسوف نعثر على سانحة أخرى . لكن هؤلاء الأفارقة سيرغبون في التكفير عن خسارتهم خارج المنصورة . كان بوسعهم أن يدمروا الجيش الفرنجي كله والمعبدين المتبقين بينهم . بدلاً من ذلك أقدموا على قتل بضعة متحمسين دينياً وما يكفي من كتان الخيام ليغطي اليخت الملكي بكامله» .

قال قلاوون «لا تنسيا البدو الذين صادفناهم قبلاً . هناك الكثير مثلهم في خدمة السلطان والموعودين بالنهب» .

قال بيبرس «لسنا بحاجة إلى قوة هائلة . مجرد قلة من أولئك بما يكفي لقلب العربة» .

***

جاءت الغارة في صميم الليل ، في ساعة ما قبل الفجر ، حينما كان الرجال في الداخل يغطون في نوم عميق بأكثر الاحتمالات . راقبوا بينما خرج البدو من العتمة يمتطون الخيول والإبل ، وبدأوا بإلقاء الشعلات الملتهبة على السور الفرنجي ، ثم بإطلاق السهام على المدافعين الذين هرعوا صاعدين في محاولة لإطفاء ألسنة اللهب . أحاط البدو والأعراب بالمعسكر ، يصرخون ويبحثون عن نقطة ضعف ليقفزوا منها إلى داخل المجمع الفرنجي ، سقط الأكثر شجاعة بينهم صرعى ؛ إذ أصيبوا بالسهام الفرنجية الطويلة ثم القصيرة حينما اقتربوا كثيراً . على أية حال ، فقد كان هذا الهجوم الأول استفزازياً لا غير ، عصا مغروزة في جانب العدو لتحريك عش الزنابير ورؤية ما سيخرج منه .

عندما انتهى الفرنجة من إطلاق الجزء الأكبر من ذخيرتهم المتبقية ، انضم صوت آخر إلى زغاريد أهل الصحراء : صرخة الحرب لدى الفرسان

البحريين . خرجت صفوة رجال الفرسان من العتمة بدرجة من التنظيم والدقة والسرعة ، تجاوزت الموجة الأولى ، بحيث جعلت العصابات التي تنخز المعسكر تبدو مثل سرب من الدبابير المزعجة ، وليست العينات المخيفة التي ظهرت فيما سبق . جاء خلف البحريين المصريون النظاميون ووحدات الأفارقة الجنوبيين ، إلى جانب فرسان الجزيرة الفراتية الذين رافقوا السلطان إلى المنصورة ، متمسكين بالمؤخرة بأقصى قدراتهم وملتصقين بحرس السلطان الشخصيين الشرسين .

عندما شاهد الفرنجة حجم القوات المحتشدة ضدهم ، بدأوا ينادون وراءهم ويستدعون المزيد من الرجال لتعزيز الخط والحفاظ عليه ، لكن حتى هذة المقاومة الرمزية تحطمت عندما قفز الصف الأول من الفرسان البحريين من فوق استحكاماتهم وكأنها غير موجودة ، ثم بدأوا يهاجمون المدافعين الراجلين في كل اتجاه . صدر الأمر مسبقاً بالانسحاب وتفرق القسم الرئيس لجيش الملك ، والذي مازال يعد بالآلاف لتعم فيه الفوضى والفرار باتجاه الشمال ، وبعيداً عن فورة غضب جيش السلطان .

اعتبر كل هذا مجرد ضجيج بالنسبة للصيادين الأربعة المنتظرين بصبر في أقصى شمال المعسكر ، لكنهم لم يتمكنوا من تخطيط مسار المعركة من الأصوات وحدها .

«ها هم أبناؤنا قادمون» . قال قلاوون لدى سماعه الصرخة البحرية .

«لن يطول الأمر الآن» . علّق بيبرس .

جلس أربعتهم منتصبين في السرج ، يراقبون . في البداية ، خرجت مجموعات صغيرة من المعسكر ثم انطلق تيار من الأشكال

وأسرع باتجاه العتمة . ثم ، عندما أصبحت جسامة الموقف واضحة ومعروفة ، خرج طوفان من الناس ، يتدافعون ويركلون خارجين وركضوا مبتعدين في الظلام . وجد بينهم عدد من الفرسان ، لكن بيبرس نفض رأسه رافضاً

«إنه ما يزال في الداخل» .

«كيف يمكنك أن تتأكد؟» سأله قطز .

«سوف ينتظر حتى يتم إطفاء أي قطرة من الأمل . استمع . ما زالوا يقاتلون» .

خرجت مجموعة كبيرة من الفرسان وتجاوزت أولئك الذين يركضون على أقدامهم ، لكن بيبرس استمر في نفض رأسه . توتر الآخرون وهم يراقبون المزيد والمزيد من الفرنجة يفرون ، لكن بيبرس لم يتحرك . بدلاً من ذلك ، اكتفى بإبقاء تحديقه في الفتحة الموجودة في الاستحكام التي أحدثها الفارون ، بدون أن يظهر عليه أي شعور خاص . نقر قطز بأصابعه على زاوية السرج ، ووجهه يعكس التوتر والعصبية . تناقص المد الذي أحدثه المنسحبون ، ووسط التوقف ، خرجت مجموعة صغيرة من الفرنجة راكبة .

«هناك» قال بيبرس «ذلك الشخص» . لامس جانب حصانه بكعبه وانطلق مطارداً .

تبادل قطز وقلاوون النظرات . نفض قلاوون كتفيه . سحبا أعنة جواديهما وتبعاه مهتاجين ، كالعادة ، طرد تيكا حصانه خلف بيبرس مباشرة .

تشكلت المجموعة من سبعة أشخاص في المجموع . أصبح من الضروري التتابع بشكل قريب في العتمة ، ولم تنقض سوى بضع

دقائق قبل أن يستدير أحد الفرنجة ويكتشفهم .

نادى على الآخرين وأشار إلى الخيالة الذين يصطحبون مطايا إضافية ، وهي وسائل لم تعد متوفرة بدون شك في الجيش الفرنجي ، ولذلك فهم العدو حتماً . وبما أنهم كانوا يطردون خيلهم بأقصى سرعتها ، لم يكن هناك غير القليل مما يمكنهم عمله بكل الأحوال .

نادى بيبرس «أين هي البلدة؟»

قال قلاوون «إنها أمامنا . فارسكور . ستتمكن جيادهم من الوصول إلى هناك ، لكنها لن تبتعد أكثر بهذه السرعة» .

هزَّ بيبرس رأسه وخفض رأسه في وجه الريح والحصى المتطاير .

استمر الفرنجة في الطراد ، بينما استمر أحدهم في التلفت إلى الوراء للتأكد مما إذا كان المطاردون الأربعة ما زالوا خلفهم . اتضحت فارسكور للعيان ، مضاءة ببضع شعلات داخل كوات الشبابيك المفتوحة ، واتجه الفرسان إليها . ظهر الفارون من المعركة راجلين بين الأبنية مثل الأخيلة ، وبدا أن بعضهم يتعارك هنا وهناك ، حيث ظهر الاحتمال الأكبر بأن الأهالي يدافعون عن شوارعهم وأبنيتهم ضد الاستيلاء أو الاحتلال من قبل الغزاة المشتتين حالياً .

همز الخيالة الفرنجة السبعة مطاياهم في أقصى طرادها ، ودخلوا فارسكور وخلفهم البحريون الأربعة بسرعة فائقة . وجاء دخولهم بلا فائدة . وُجدت قلة من فرسان الفرنجة ممن أمكن رؤيتهم ، وكان أولئك الراجلون يجدون أنفسهم يخوضون اشتباكات متفرقة مع أهالي البلدة . أوقف بيبرس حصانه أمام الفرنجي القائد واستدار ليواجهه ، وقد ارتسم الإرهاق جلياً على وجهه المشعث وعلى بنية حصانه اللاهث . أظهر وجها الرجلين أمارات التعرف .

دفع بيبرس بإصبع في صدره وقال باللاتينيَّة «بيبرس أوتيم بحري» .

هزَّ الفرنجي رأسه وأجابه بالعربية «لويس الملك» .

تقدم أحد رجال الملك قائلاً «سوف أقوم بمهمة مترجم الملك . أنا جان من جوينڤيل» . تفحص بيبرس الشاب من الرأس إلى القدمين . حتى في نور الفجر الباهت لتلك اللحظة ، والمتنزل عليهم ، برز بياض وجهه حتى بين الفرنجة أنفسهم . بات جلياً أنه رجل مقاتل ، يشهد على ذلك درعه ورؤوس السهام المتكسرة المنغرزة في درعه ، لكن سحنته انطوت على عنصر مثقف بالإضافة . هزَّ بيبرس رأسه موافقاً .

«وهكذا هو الوضع يا جان من جوينڤيل» . رفع بيبرس إصبعه وأشار إلى الارتباك القائم في البلدة وما وراءها «أخبر مليكك بأن هذه الحرب قد انتهت . تقضي أوامرنا بأن نضعه تحت حمايتنا ونصطحبه إلى سلطاننا ، والذي سيقرر مصيره بنفسه» .

هزَّ جوينڤيل رأسه ونقل هذا الكلام إلى مليكه . راقب بيبرس بعناية باحثاً عن نوع رد الفعل . الخوف ، الغضب ، الانفراج . . . الأسلوب الذي يعرضه الرجل حينما يقال له أنه قد فقد حريته ، يعكس نفسيته في أصدق حالاتها . لم يشاهد على وجه الملك لويس سوى الحزن ، ألم قوي إلى درجة أنه تفوق على الإرهاق الواضح الذي يعانيه الملك . فكر بيبرس أن الرجل مريض في جسمه وقلبه .

«لن يجد مليكك ولا رجاله حراسة أفضل من تلك التي نعرضها أنا ورجالي» .

ألقى إليه قطز بنظرة عجلى .

«إذاً استسلم الآن ، فسوف أصدر الأمر إلى رئيس هذه البلدة وإلى

الجيش القادم خلفنا بأن الأعمال العدائية يجب أن تتوقف . ولكنني لا أستطيع أن أتكلم نيابة عن السلطان . إن حياة مليكك وحياة أتباعه رهن بإرادته» .

تمت ترجمة هذا الكلام وهزَّ الملك رأسه ليظهر أنه قد فهم .

«إذا كان الملك يفضِّل القتال ، فسوف نكمل المعركة ونمنحه ميتة مقاتل هنا بحيث يستطيع أن يقابل ربه . لن يشكل ذلك انتقاضاً للأوامر الصادرة إلينا فيما لو اختار ذلك» .

تنحنح قطز بصوت مرتفع ، لكن بيبرس تجاهله .

«إذا اختار هذا المسار ، سيتوفر له بعض الوقت ليتلو صلواته قبل وصول رجال السلطان» .

ترجم جوينڤيل كل هذا في اندفاعة من الكلمات اللاتينية ورد عليه الملك بما بدا مثل سؤال . تبع ذلك نقاش محتدم بين الرجلين . أخيراً أحنى جوينڤيل رأسه واستدار ليواجه بيبرس .

«يشكرك الملك على العرض ، لكن اهتمامه الأول هو على سلامة رجاله . سوف يحيا ليشهد على أنه يتم تقديم المصير الأفضل الذي يمكنهم أن يأملوا فيه» .

قال بيبرس «في هذه الحالة أنا أقبل استسلامكم . وجماعتك تحت حمايتي الآن» .

قال الملك شيئاً ما لجوينڤيل وهزَّ الرجل رأسه «هل أنت بيبرس البندقداري؟»

«أنا هو» .

نقل جوينڤيل هذا إلى الملك الذي قال بدوره شيئاً آخر .

«يمتدحك صاحب الجلالة على شجاعتك ودهائك في المنصورة .

لقد أحرزت نصراً عظيماً لشعبك وأرسلت آمالنا إلى الإخفاق» .

لمس بيبرس قمة جبينه ومد يده باتجاه لويس في بادرة امتنان «لم يكن ذلك نصراً أعظم من النصر الذي أحرزه مليككم في دمياط» .

مشاورات سريعة أخرى ، وبعدها مرر جوينڤيل تشكرات الملك إلى بيبرس .

قال قلاوون «إن شهرتك تتنامى يا بيبرس» .

«سرعان ما سنحمد الله كلنا عند ذكر اسمك» قال قطز . كان المقصود بالتعليق اللاذع أن يحمل روح النكتة ، لكنه حمل تياراً ومعنى لم يخفيا على بيبرس .

اقتربت مجموعة من الرجال ، وقامت بالتعريف على أشخاصها بأنهم كبار ووجهاء البلدة ، وأن رئيسهم هو الأمير المحلي . أخبرهم قطز بأن الجيش الملكي سيصل داخل حدود البلدة عما قريب ، وأنهم سيحتاجون إلى بناية مفروشة تؤدي وظيفة مقر قيادة لهم .

أشار الرجل إلى المسجد ومئذنته المتواضعة . وقفت مجموعة من الشبان العابسين خارج مدخله ، حاملين تشكيلة من الأسلحة المصنوعة محلياً ، والتي هي أدوات مطبخ ولوازم زراعية بشكل رئيس ، من الواضح أن النية تتجه إلى الدفاع عنه لو قرر الفرنجة احتلال البلدة . قال بيبرس إنه سيؤدي الغرض منه ، وقال لجوينڤيل أن يبعث بتعليمات لجميع القوات الفرنجية بأنهم ينبغي عليهم الاستسلام لأول وحدة سلطانية يقابلونها . سوف يتم توفير التموين لهم وإمكانيات الإيواء لهم جماعة بمجرد أن يصبح ذلك ممكناً .

استعلم جوينڤيل عما إذا كان تخليهم عن أسلحتهم بذلك الأسلوب سيكون آمناً .

قال بيبرس «لديهم فرصة أفضل للإبقاء على حياتهم إذا استسلموا بدلاً من محاولة القتال عائدين إلى الساحل» .

أطاع جوينفيل التعليمات وأصدر الأمر إلى أحد رجال الملك . بعد ذلك قبل الملك ومجموعته عرض بيبرس بالالتجاء إلى المسجد حتى تتم السيطرة على الموقف ويجري الاتصال مع السلطان .

جلس الفرنجة في الداخل غير مرتاحين وهم يجيلون أبصارهم فيما بدا لهم أنه مجال بسيط مفتوح ، والتزويق الوحيد هو الآيات القرآنية المخططة على المحراب والجدار الخلفي .

عاد رئيس البلدة ورجاله إلى الظهور مرة أخرى ، حاملين المناشف وأباريق تحتوي على شاي الخبيزة ، ووضعوها أمام الرجال المقاتلين الوسخين . كذلك وضع أمامهم طبق صغير من التمر وطبق من الخبز المشروح . تشارك الفرسان والفرنجة في تناول بعض من الطعام والشراب ثم جلسوا في صمت مرهق . طلب بيبرس من الأمير أن يتأكد من تقديم شيء من الطعام والشراب إلى تيكا الجالس في الخارج ، يحرس المطايا .

في وقت لاحق من تلك الليلة ، عندما تم اصطحاب بيبرس وقلاوون إلى المعسكر الجديد وعثرا على خيمهما ، جلس كلاهما مرة أخرى واسترجعا أحداث ذلك النهار .

بمجرد قبولهما لاستسلام الملك ، تحركت الأحداث بسرعة . كانا في وسط تناول الوجبة عندما ترددت أصداء أصوات الخيول عبر الجدران الجصية للمسجد . اندفع بدوي إلى الداخل فأوقفه بيبرس وأخبره بعبارات مؤكدة أن المسجد قد تمت مصادرته من قبل الفرسان البحريين ، وأنه لن يسمح لأي وحدات أخرى بالدخول . عندما رأى

هذا المساعد أن خياره الوحيد هو إما القتال أو الانسحاب ، خرج مغضباً مسرعاً . بعد ذلك حضر ضابط من قبل معمر ، الذي أعطاه بيبرس الرسالة نفسها . يسمح للقائد معمر أن يدخل المبنى ، حتى بصحبة مساعديه وخدمه ،لكن المسجد ممنوع على أي أناس آخرين فيما عدا البحريين أو السلطان نفسه .

غاب الضابط ليخبر سيده . راقب الفرنجة ومليكهم هذه المحادثات والمجريات باهتمام .

تزايد الضجيج في الخارج أكثر بحيث أصبحت الأصوات أشبه بأن الشارع بكامله محتشد بجميع عناصر جيش السلطان وجنسياته المتعددة وأتباعه . في آخر الأمر دخل آيبك وأقطاي ، مغمورين بالغبار مثلما كان حال أولئك الجالسين في الداخل ، ووقفا على حدة عندما شاهدا الملك ، جالساً يحمل كوب الشاي في يده ويرشف منه .

«يا صاحب الجلالة» قال أقطاي ، بينما تولى جوينڤيل الترجمة «سيبقى شخصك مكرماً تحت حماية البحريين تماماً مثلما كان عندما كنت في داخل بلادك» .

قال جوينڤيل «لقد قدم لنا بيبرس البندقداري تأكيدات مشابهة ، يا صاحب الفخامة . يرغب الملك في التعريف عن أنه سعيد جداً بالمعاملة التي تلقاها حتى الآن ، لكنه قلق على رفاهية وسلامة رجاله» . قال الملك شيئاً تسبب في التفات جوينڤيل لكي يستفسر ، ما جعل البحريين يتبادلون النظرات السريعة .

«يرغب الملك في التوضيح بأنه سيدفع مقابل الإبقاء على أرواح رجاله هو –» توقف جوينڤيل ، غير سعيد بدرجة واضحة بالمشاعر التي يوشك على التعبير عنها «إن مسؤولية هذا الفشل تقع على منصبه

وعليه وحده . سوف يغطي أي فدية يرغب سلطانكم في طلبها . ولذلك ، يترتب عليكم أن تبلغوا قواتكم بالإبقاء على حياة جميع المقاتلين الملكيين الذين يستسلمون أو حتى الذين يؤسرون بطريقة أخرى» .

«يمكنك أن تخبر مليكك بأنه ليس بحاجة إلى الشعور بالانزعاج» قال أقطاي . «لأنه لدى رجالنا أوامر بالإبقاء على حياة جميع النبلاء والفرسان مقابل الفدية ، كما هي العادة في بلادكم وبلادنا» .

قال جوينڤيل «أقدم اعتذراتي ، يا صاحب الفخامة . يحتمل أن لغتي العربية ليست بدرجة الوضوح التي اعتقدتها» . استند إلى الأمام في جلسته «إن الملك لويس يرغب في افتداء أرواح جميع رجاله . الأمراء والنبلاء ورجال الدين وحتى العامة . سوف يتم الدفع مقابل أرواحهم من المحفظة الملكية» .

عبس أقطاي «أعتقد أن مثل هذا الترتيب ممكن . إنه غير شائع . لكنه وارد . سوف أصدر الأوامر بأن يقدم البحريون الاستسلام لجميع القوات الفرنجية ، وسوف أخبر الضباط في الخارج بأنه سيكون من الحكمة أن يقوموا بالشيء نفسه . سيصل السلطان عما قريب وليس هناك شك في أنه سيستمع إلى طلبك . قل لي يا سيدي؟ ما هو عدد الرجال المتبقين في جيش الملك؟»

قال جوينڤيل «حتى صباح هذا اليوم ، اثنا عشر ألفاً» .

«اثنا عشر ألفاً !» صاح قلاوون لاحقاً في ذلك المساء داخل خيمة بيبرس «كيف له أن يمتلك كل هذه القطع النقدية؟ حتى امبراطور المغول سوف يبصق على فكرة شراء مثل هذا العدد من الرعاع» .

نفض بيبرس كتفيه «هو من ذلك النمط من الملوك . لقد شهدت

ذلك ، وتلك هي الطريقة التي أسرناه بها قبل أن يفعل أي شخص آخر» .

«حسناً ، أنا سعيد لأنك تتمتع بموهبة التفكير العقلاني» .

انسحب غطاء باب الخيمة إلى الخلف وظهر قطز ، نظيفاً ونشطاً بعد مشاق الأيام المنصرمة .

قال بيبرس «أدخل أيها الصديق قطز . أنا لم أمتلك بعد الطاقة على الاستحمام ولا حتى غسل وجهي . اسكب لنفسك بعض النبيذ إذا كنت ظمآناً . ما كنت لأرغب في تلطيخ قدحك بهاتين اليدين» .

«أشكرك ، ولكنني لا أستطيع أن أبقى» . قال قطز «لقد تلقى بعض من رفاقي علقة أثناء الهجوم على المعسكر وسأذهب لتقييم الأضرار» .

«هل هناك أي وفيات؟»

«اثنتان . شابان طيبان ، لكنهما لم يكونا من النوع الذي يبقي رأسه مطأطئاً عندما تبدأ السهام بالطيران . ماذا عنك؟»

«العدد تقريباً نفسه» جلس بيبرس مستنداً إلى الوراء وفرك عينيه .

«يخبرني الرجال أنهم هجموا من فوق الجدار في مقدمة المعسكر وطاردوا كل فرنجي أمكنهم رؤيته . تلقى قلة منهم السهام ، لكنها مجرد سحجات وجروح بسيطة في الأغلب . قام البدو بعملهم كجنود صاعقة ويبدو أن البحريين حطموا كل ما تبقى من القوات» .

«أنا واثق من أن كلتا كتيبتينا ستكونان جاهزتين للقتال إلى جانب إحداهما الأخرى خلال وقت قصير جداً» . قال قطز ذلك بلهجة مفعمة بالرفض .

«دائماً يا قطز . نحن إخوة» . قال بيبرس ، وقد ارتبك قليلاً . عبس

وفكر في سؤاله عما إذا كان على ما يرام . بعد صمت مر بك ، قدَّم قطز انحناءة صغيرة .

«نحن إخوة يا بيبرس . منذ أيام شبابنا الباكر» . سحب نفساً عميقاً «سوف أتركك لتحظى بقليل من النوم . تبدو أنك بحاجة إليه . عمت مساءً» . استدار قطز .

«أتمنى لك ليلة سعيدة» قال بيبرس .

«سأراك في الصباح» قال قلاوون بينما اختفى ظهر قطز عبر باب الخيمة . «يبدو من صوته أنه الشخص المتعب» قال بعد أن ابتعد .

«نعم» قال بيبرس . عبس باتجاه الباب للحظة أخرى ثم سحب نفساً وهزَّ رأسه . «سيعود إلى طبيعته بعد انبثاق الفجر» .

قال قلاوون «سأتركك أنا أيضاً . لدي كومة من الرسائل وليس لدي وقت نهار الغد حتى أقرأها كلها» .

«هل سيلقي السلطان خطاباً علينا بعد صلاة الفجر؟»

«ذلك هو الأمر . أعتقد أنه سيعلن بأن الحرب ضد الفرنجة قد انتهت» .

«لقد انتهت المعركة ، لكن سيكون هناك الكثير مما ينبغي خوضه . عكا ، أنطاكية . اثنتان من أهم المدن في المشرق ما تزالا في أيدي الفرنجة» .

ابتسم قلاوون «أنت تنسى طرابلس . ولا مانع من ذكر الكرك الخاضعة للشيفاليين . سنضطر إلى منح الشباب فترة استراحة قبل أن نحاول مهاجمة تلك المدينة» .

قال بيبرس «سيقتضي ذلك الآلاف ، أو أنه سيكلف واحداً فقط» .

«الآن أدركت أنني مضطر إلى مغادرتك، لأنك بدأت إما تثرثر بلا وعي أو أنك أصبحت روحانياً غامضاً. وليس أي منهما مفيداً لي، لأنني كرئيس للجواسيس، يتحتم عليَّ أن أبقى واقعياً. أتمنى لك ليلة سعيدة يا بيبرس».

«تصبح على خير يا قلاوون. دعنا نرى ما يرغب السلطان في مشاركتنا به».

«إن شاء الله».

بعد انصراف قلاوون، نهض بيبرس واتجه إلى الصندوق الذي كان موضوعاً عند طرف سريره. فتحه وأخرج كتاباً من الكدس ثم عاد ليجلس في كرسي المعسكر. ما كاد يفتح اللفة حتى بدأت عيناه تنغلقان، لكنه قاوم ليقرأ صفحة واحدة على الأقل قبل أن يستسلم للإرهاق الذي يتجول في أنحاء جسده، فقد أخذت المعارك وأيام الركوب مأخذها منه، كما فعل الجرح الذي أعطاه إياه الفرنجي على ساقه.

حينما عاد من فارسكور وخلع بنطال ركوبه، للطبيب البحري، رأى أن الركبة والفخذ قد تحولا بالكامل إلى لون أصفر واحد وجرح قرمزي، وانتشر مثل رقعة من السوسن حول الدماء الغاضبة باللون الأحمر، والتي تجمدت فوق الجرح نفسه. لقد ظل الكتاب، وهو المجلد الأول من كتاب تاريخ العالم لابن الأثير، رفيقه الدائم خلال هذه الأشهر الفائتة بسبب المعلومات الواردة فيه عن مكائد الفرنجة الأوائل، لكنه أخذ الآن ينزلق عن ركبتيه.

انزلق بيبرس في المقعد، وكانت آخر خاطرة له قبل أن يأخذه النوم هي عن سيده، ايديكين، الرجل الذي عرَّفه على عالم المعرفة الكامن

في المجلدات الشبيهة بذلك الذي بين يديه ، والذي جعله يؤمن بنفسه بطريقة يقدر عليها أي رجل آخر في الدنيا . ظل يدعو في كل الأيام لأن يستمتع ايديكين بثمار الفردوس ، بالإضافة إلى أن يخصص الوقت ليرشده في واجباته وأعماله اليومية .

كانت هذه هي اللحظة التي قام فيها المعتدي بهجومه . من الخلف ، طوّح السيَّاف المقنَّع على رقبة بيبرس ، بدلاً من أن يضرب مباشرة على قمة رأسه ، وكانت تلك هي الهفوة التي أنقذت حياته . اختار المهاجم الثانية المحددة التي سقط فيها رأس بيبرس إلى الأمام نتيجة للإرهاق ، بحيث قص السيف المقوس الهواء فوق رأسه بمثل الضجة التي يحدثها السوط . أيقظت الحركة وتغير الهواء بيبرس من غفوته فقفز واقفاً على رجليه ليواجه الخطر . كان الرجل قد وضع كل قوته خلف التطويحة على أمل إنهاء الفارس البحري بمجرد ضربة واحدة ، ففقد في تلك اللحظة توازنه وأصبح مواجهاً للخلف . ركله بيبرس بقوة فأسقطه على ركبتيه ثم استدار ليحضر سيفه . لكن مهاجماً آخر ، مقنعاً مثل الأول وقف في طريقه ، اندفعت يد الرجل باتجاه وجه بيبرس . مال بيبرس متجنباً الخنجر المندفع نحوه ثم استقام . دفع بمرفقه في أنف القاتل . صرخ الرجل فركض بيبرس وتجاوزه إلى حيث منصة أسلحته . أصبح المهاجم الأول قريباً من ظهره . تمكن بيبرس من الإمساك بسيفه وسحبه من غمده في اللحظة المناسبة لمواجهة الهجوم الثاني للرجل . تفادى الضربة ورجع إلى الوراء خطوة . طوّح المهاجم مرة أخرى ، وأخرى .

أصبح الاندفاع خلفه الآن ، ولم يستطع بيبرس أن يحصل على مساحة كافية بقدميه الحافيتين ليعثر على فسحة ويتخذ موقفاً

هجومياً . ظهر المهاجم الثاني ، الذي بات يتحرك بسرعة أقل ، عند كتف الأول وهاجم بخنجره ، آملاً أن يصيب جانب وظهر بيبرس غير المحميين حينما يتجنب الضربات الأقوى من السيف .

صاح بيبرس «تيكا!» ورفع سيفه إلى الأعلى ليتفادى اندفاعة مستقيمة نازلة ، فكانت تلك هي اللحظة التي أصابه الرجل الثاني خلالها على كتفه ، ما تسبب في فتح جرح طويل .

صاح بيبرس من الألم والغضب . انخفض حامل السيف قاصداً مهاجمة الساق الجريحة ، فتصدى للضربة ، لكنه اضطر فوراً للتطويح إلى الخلف للتصدي لضربة السكين . لكنه تأخر . جرح آخر . في رقبته هذه المرة . أصبح مجروحاً في ثلاثة أمكنة ، فوصل بيبرس إلى حالة من اليأس . انتابته حالة من الذعر المتنامي . كان قد أحسَّ بها من قبل . شاهدها على أرض المعركة في عيني أعدائه .

لن يطول الأمر الآن . قام بطعنة يائسة إلى رقبة الرجل الذي يحمل السيف فاضطر إلى الابتعاد خارج مسار الطعنة . منحه ذلك نصف ثانية ليهاجم حامل الخنجر ويجتاحه . وصل إليه ، لكنه شعر بنصل السيف يدخل في جسمه أثناه مروره . استغرب كيف أن الطعنة لم يشعر بها أكثر من لكمة . تعثر وسقط على الأرض . طار السيف من يده . أجبر نفسه على النهوض عن الأرض والنظر إلى أعلى . صمم على أن لا يموت ووجهه إلى أسفل . في تلك الأثناء شاهد زوجاً من السيقان البنية الأشبه بجذوع الأشجار . تيكا .

دخل تيكا الخيمة وأخذ يضرب القاتلين بتطويحات قوسية هائلة من بلطته الحربية . مع كل هجمة ، زأر تيكا على العدوين أمامه مثل شيطان فتراجعا جراء الخوف والصدمة . عثر بيبرس على سيفه

ونهض ، مرتعشاً قليلاً ، ثم تقدم ليقاتل مع صديقه . أدرك المعتديان الآن أنهما في وضع أسوأ من ذلك الذي وضعا بيبرس فيه قبل لحظات ، أخذا يتلفتان حولهما باحثين عن مهرب . لم يكن هناك أي سبيل ولاح لهما كتان جدار الخيمة من الخلف .

جرب حامل السيف هجمة أخرى ، لكن تيكا طرحه جانباً فطعنه بيبرس بسيفه طعنة مخترقة . لحظتها هاجم الثاني تيكا مباشرة فيما سيقرر بيبرس لاحقاً أنها هجمة انتحارية . منحه تيكا رغبته ودفع بالمسمار الضخم على رأس بلطته في جبين القاتل .

وقف الفارسان البحريان يرتعشان مخطوفي الأنفاس لشدة تهيجهما وتدفق الأدرينالين ، بينما رقدت الجثتان بالملابس السوداء ، لمدة طويلة ، بينما هبت عاصفة من الصرخات بين زملائهم الفرسان في الخارج ، تتصاعد متسائلة عما يجري .

الفصل الثالث عشر
بغداد

«سلام ، أيها الشاب» .

نظر عبد إلى فوق باتجاه الوجه المبتسم لابن دقيق المنحني فوقه . هل كان ذلك حلماً؟ فرك عينيه وحاول أن ينهض ليجلس .

«كلا ، كلا ، ابقَ حيث أنت ودعنا نجلب لك بعضاً من الشاي» .

قال «ليس لديَّ شاي» .

«نعم ، لقد قالت فتاتك ذلك . لحسن الحظ ، أرسلتها إلى السوق لتحضر بعض الحاجيات . إنني منذهل من كونها تحملت كل هذا الحرمان طيلة هذا الوقت» . تلفت الرجل العجوز في أرجاء الغرفة . «هل تنفق كل نقودك على شراء الورق؟»

«الحبر يا سيدي . لا تنسَ الحبر . إنه أغلى سعراً من معظم أصناف النبيذ» .

«هذا صحيح» تناول ابن دقيق صحيفة «أرى الآن أنني قللت من قدرك . أنت رجل صاحب أذواق مكلفة . سامحني» .

ابتسم عبد على السخرية ثم عبس جراء الألم . أحسَّ وكأن جسمه كله ، من الداخل والخارج ، مغطى بالسحجات .

«ما الذي حدث؟» سأل ابن دقيق .

رقد عبد واضعاً ساعده فوق عينيه ، وهو يتذكر «عازر ، هو وبعض من أصدقائه» .

«هل كانوا من أولئك الذين حضروا حفل استقبال الخليفة؟»

«ربما . . يحتمل . لم أستطع أن أرى . لقد كان الظلام شديداً» .

«أستنتج من هذا أنهم هدفوا إلى أكثر من الطرقة على الرأس التي حذرتك منها ، صح؟»

شاهد السكين «لقد هدفوا إلى ذلك . لقد تصرف وكأن شيطاناً ما قد تلبسه . لقد ظل متنمراً على الدوام ، لكنه لم يكن خطيراً أبداً» .

«همـمم» رفع ابن دقيق الكتابة إلى فوق وقربها من وجهه وهو يتفحصها «هذا خط جميل وراقي» .

«أنا لا أبالغ» نهض عبد جالساً وندم من فوره .

«لا تقلق» رجع ابن دقيق باتجاهه «لقد تفحصتك . فيما عدا بعض السحجات على ظهرك ومرفقيك - أفترض أنك سقطت أو أنه تم دفعك - فأنت بخير . لا كدمات منتفخة على رأسك ، لحسن حظك . أنا أعزو ذهولك وهذيانك ليلة الأمس ونومك العميق فيما بعد ، إلى الصدمة والإرهاق بكل بساطة» .

طوَّح عبد بساقيه نازلاً عن السرير وأحسَّ بهما تزعقان معترضتين .

وقف العالِم فوق رأسه «إنني أعزو عنف عازر إلى الصدمة أيضاً . نحن نحيا في أوقات يائسة ، رغم أن الأغلبية تنكر وجود أي شيء خطير . نحن نعيش تحت التهديد بالمذبحة ، وقد أخذ أبناء شعبنا يتصرفون مثل الحيوانات نتيجة لذلك . ذلك هو ما حوَّل عازر من مغفل إلى قاتل . ذلك بالإضافة إلى المخدرات القذرة التي يتناولها هو ورفاقه . تجنب مثل هذه السموم دائماً يا عبد ؛ لأنها سوف تجعل عقلك يصدأ ، وتجعل كل شيء جميل يبدو أسود» .

«لقد هددك أنت أيضاً ، أيها السيد» .

«حسناً ، سوف أحترس منه ، رغم أنني لا أعتقد أن حتى عازر مختل إلى تلك الدرجة حتى يهاجم رجلاً عجوزاً مثلي» .

«لديه أصدقاء أقوياء متنفذون» .

«وكذلك أنا . والآن . إلى العمل» .

انفتح الباب المؤدي إلى العلية الصغيرة ودخلت منه صفية . كانت ترتدي ثوباً رمادياً بسيطاً وقد لفت رأسها بمنديل . بدت لعيني عبد مثيرة . تمنى فجأة لو أن ابن دقيق لم يكن موجوداً .

بالنسبة لابن دقيق ، فقد بدا الرجل العجوز مبتسماً سعيداً . «آآه ، يا ابنتي العزيزة ، أدخلي أرجوك» .

«سلام» قالت بشيء من الخجل «أنت مستيقظ» جلست على الكرسي الصغير .

«نعم» قال عبد . لم يستطع ، للمرة الأولى ، أن يفكر في أي شيء يقوله بحضورها .

سمح ابن دقيق للصمت أن يستمر للحظة ثم صفق بيديه .

«لدينا موضوع نريد أن نبحثه معك ، يا عزيزتي ، أنا النسبة لي ، آمل بأن تقبلي . أما بالنسبة للآخر ، فأنا متأكد لأقصى درجة أن الشاب عبد يفكر بالرأي نفسه» .

«حسناً» قالت .

«المدينة متجهة نحو الحرب» أعلن ابن دقيق ، وتوقع من النبرة التي تكلم بها ، بكل وضوح ، أن يخرج عن صفية رد فعل أكبر من مجرد التحديق المرح .

أجابت «أعرف ذلك ، لقد دأبت على إخبار عبد حتى ينذرك منذ أسابيع» .

«لم تكن هناك حاجة إلى ذلك حقيقة» عقد ابن دقيق يديه خلف ظهره «لدي العديد من الأصدقاء الذين يخبرونني بما حدث في المدينة ، بالإضافة إلى زملائي في اللجان ومجالس كبار السن» .

«فهمت» قالت صفية وهي تحدق فيه .

«وكذلك أنا» . قال ابن دقيق . أدرك عبد أنهما يخوضان في نقاش منفصل عنه كلياً . «وبسبب هذه الهدايا من التنبيه المبكر ، فقد استطعت أن أجري ترتيبات لتلميذي المتدرب عندي ، كما أحب أن أسميه ، ليغادر بغداد» .

نظرت صفية إلى عبد ثم عادت للنظر إلى ابن دقيق ، لكنها لم تقل أي شيء .

«إن عبد متردد ، أولاً لأنه شاب يافع ومتشوق لأن يؤدي واجبه الوطني . . .» .

ابتسمت صفية .

«والسبب الثاني هو لأنه مهتم بسلامتك أثناء غيابه» .

نظرت إليه صفية في هذه اللحظة بشيء من المحبة ، ومرر عبد يده عبر شعره ، وقد أحسَّ بالإحراج والخجل .

«نتيجة لعلاقتي العميقة بعبد ، وسنوات خدمتي الطويلة للدولة ، فقد تمكنت من شد بعض الخيوط والمطالبة ببعض الجمائل ، وهكذا سيتم ارسال عبد في مهمة دبلوماسية ، مع موظفة . هي أنت» .

«أنا؟»

«نعم يا عزيزتي . عبد - نحن - نرغب بشدة أن ترحلي بصحبته» .

«ذلك بعيد عن كونه ملائماً . ما هو نوع المرأة التي تظنني أكونها؟»

قال عبد «نحن لا نعرف . هل لديك عائلة هنا في المدينة؟ أنا أكاد لا أعرف شيئاً عنك» .

«أنت رجل كريم حتى تأخذني كل المسافة إلى أي مكان تريد الذهاب اليه» ، ثم أضافت «كيف سيبدو ذلك؟»

سأل عبد «هل لديك سبب لتهتمي بما يفكر فيه الآخرون؟»

زمَّت صفية شفتيها .

مال ابن دقيق إلى الأمام وتناول يدها «لا يريد عبد إلا ما هو الأفضل لك ، يا ابنتي» .

قالت «أنا لا أستطيع أن أغادر» .

«ولكن ألم تقولي لي إن الكارثة قادمة في طريقها إلينا؟» شد عبد شعره وأخذ يذرع الغرفة ، مهتاجاً .

قالت صفية «ذلك صحيح . لكنني لا أستطيع أن أذهب يا سيدي» رفعت رأسها باتجاه ابن دقيق . «أرجوك أن تسامحني لعدم قدرتي على عمل ما تطلبه» .

نظر الرجل المسن في عينيها للحظة ثم هزَّ رأسه . قال «حسناً إذاً ، هل تقبلين بموقع في بيتي كتعويض عن عملك في بيت عبد هنا؟ أستطيع أن أوفر لك مكاناً تنامين فيه خلف مطبخي» .

«هل لديك خدم آخرون؟»

«خادمي الرجل وزوجته ، الطباخة . هناك صبي يعتني بحصاني ويقوم بأداء بعض المهمات أيضاً . سيرحبون بشخص في مثل سنك ، وهم أناس طيبون» .

«فهل تثق بهم إذاً؟»

تراجع ابن دقيق إلى الخلف قليلاً وقال «نعم ، أثق بهم» . ربَّت

على يدها مرة أخرى ونهض واقفاً .

«إذاً انتهى الأمر ، يا عبد . جهز نفسك للمغادرة . صفية ، إذا كانت لديك أية حوائج ترغبين في إحضارها معك ، قومي بتجميعها» .

قال عبد «لكن الأمر عاجل جداً يا سيدي . كيف سأتمكن من حمل كل كتبي؟»

«املأ خرجين فقط ، لا أكثر» قال الرجل المسن «سوف أجعل مستخدمي يرسل شخصاً لتجميع بقية أعمالك وأخزنها في بيتي للمحافظة عليها» .

«مجرد خرجين صغيرين لأعمالي؟»

«مجرد خرج واحد» صححه ابن دقيق «ضع الملابس في الثاني . سيبرد الطقس في الليل ثم يصبح حاراً أثناء النهار» .

«مجرد خرج واحد؟»

مشى ابن دقيق إلى حيث وقف عبد ونظر إليه «يا عبد ، هناك أمران مؤكدان بعد هذه الليلة . الأول هو أن الوزير سيصدر أمر منع من مغادرة المدينة بعد منتصف النهار . كل شخص مازال موجوداً داخل حدود المدينة سيضطر إلى البقاء داخلها . بعد ذلك ، سيتم استدعاء كل الشباب صغار السن للدفاع عن المدينة ، بمن فيهم أنت . لن تكون الكلية قادرة على حمايتك» . ازدرد عبد ريقه .

«الأمر الثاني الذي سيحدث بدرجة مؤكدة هو أن عازر سيحاول أن ينهي المهمة التي بدأها في الليلة الماضية . سوف يتصيدك . في الواقع ، لن أفاجأ إذا علمت أنه يراقب هذا المكان في هذه اللحظة بالذات» .

«كيف سأغادر إذاً؟»

«سوف أقوم باستئجار حصان ودليلين لإيصالك إلى حيث أنت ذاهب» .

التفت إلى صفية «عندما تصل إلى هناك ، افتح الخطاب الذي سأعطيك إياه ويحتوي على تعليماتك . لا تفتحه إلا في وقته . خذ معك كل النقود التي لديك ، أخفها جيداً ، وسوف أعطيك قليلاً من المال لحين الحاجة . بعد ذلك ، سيكون كل شيء بين يدي الله سبحانه وتعالى . ليكن هو دليلك ومرشدك» .

«نعم ، أيها السيد» .

«هيَّا تحرك . سوف أعود إلى هنا خلال ساعة» .

انصرف ابن دقيق بعد هذا القول وبدأت صفية تجمع الحوائج تمهيداً لرحلتيهما . فوجئ عبد ، أن تعبئة خرجين لم تستغرقه أكثر من دقيقتين . جمعت صفية معطفاً صغيراً لارتدائه حول كتفيها وبعض الوشاحات وأنهت عملها . بعد ذلك ، جلس كلاهما على حافة سريره .

قالت «إن سيدك رجل حكيم . وكذلك هو صاحب إمكانيات . لقد بوركت لأنك تعلمت من رجل على هذه الشاكلة» .

«إن ابن دقيق في منتهى الحكمة . إن عمله على الحديث النووي سوف يغيِّر الإسلام» .

«كيف سيتمكن شخص من تغيير ما هو حقيقي أصلاً؟»

«ذلك هو ما أمضيت معظم أيامي وأنا أبحثه معه ومع بقية علماء الدين ، أنا لا أقصد القول بأن هذا العمل سيغير قاعدة الإيمان فعلاً . بدلاً من ذلك سوف يرينا طرائق جديدة لفهمه . إن الأمر أشبه شيء بإضافة المزيد من الألوان إلى قوس قزح» .

ابتسمت «أنت شاعر. هذا هو سبب محبتي لك، يا عبد. أنت أيضاً رجل فاضل. وهاتان صفتان لا تعنيان الشيء نفسه دائماً».

«هل قابلت شعراء من قبل؟»

«لقد رأيت الرجال وما هم عليه. أنت وسيدك من بين الطيبين. لكن العالم مليء بالرجال الأشرار. وهذا هو السبب في أن رحيلك أمر طيب. يرغب الرجال الأشرار في إيذاء الرجال الطيبين لأنهم يذكرونهم بما ليس متوفراً لديهم».

«ربما أتمكن من مبادرتهم بالإيذاء». فكر عبد بالطريقة التي هرب فيها من عازر وأصدقائه في الليلة الفائتة وأحسَّ بالحماقة على الفور.

«ربما» قالت ذلك وأراحت رأسها على كتفه.

بقيا على تلك الوضعية حتى جاءت نقرة على الباب وأعلن ابن دقيق أنه حان وقت الرحيل. تناول عبد خرجيه وسار نازلاً الدرجات الدوارة، وصفية خلفه. كان هناك رجلان وثلاثة جياد في الأسفل، خارج باب المبنى مباشرة.

عانق عبد سيده وقال بضع كلمات هادئة لصفية قبل أن يمتطي الحصان المقدم إليه، ثم ركب ببطء نازلاً الشارع المزدحم. سلمه ابن دقيق كيساً جلدياً وقال له أن يفتحه عندما يخيمون في الليلة القادمة وليس قبل ذلك. ثم كشف عن حزام سيفه من تحت معطفه وناوله ذلك أيضاً.

«هل تعرف كيف تستعمل هذا؟»

بدأ عبد يقفل السلاح حول خصره وقال «أستطيع أن أتعلم».

«تعلم بسرعة» امسك ابن دقيق بركبة عبد بقوة ثم أطلق سراحه بتلويحة من يده.

بمجرد أن همز حصانه ليتحرك قدماً ، لم يلتفت عبد خلفه ولا مرة . عندما تجاوز الزاوية المؤدية خروجاً إلى البوابة العامة ، نظر إلى تحت وشاهد وجهاً يبادله النظر .

لم تكن هناك طريقة للمعرفة بدرجة مؤكدة ، لكنه شعر أن الرجل كان واحداً من أولئك الذين هاجموه بصحبة عازر في الليلة الماضية . استمر الشخص البائس يحدق فيه حتى أتم عبد عبوره من البوابة وأصبح خارج المدينة .

الفصل الرابع عشر
مصر

أدخل بيبرس إلى البيت من قبل ابراهيم بن لقمان، ومضيفه وصاحب البيت. ترك حذاء ركوبه عند الباب وتقبل اناءاً وقطعة قماش ليغسل وجهه ويديه قبل أن يعبر الصالة. وجد القصر، الذي لم يكن قد لاحظه لدى دخوله فارسكور ليتقبل استسلام الملك، أشبه بالبلسم الشافي بعد حرارة الظهيرة في الخارج. البيت في مثل هدوء وبرودة المسجد. التزويق والزينات من النوع الثمين، ولكنها تنم عن ذوق راقي.

أرسل خشب الطاولات الداكن ولمسات الرخام ذات الأبعاد الملائمة رسالة إلى الزائر مفادها أن هذا مسكن لتاجر إقليمي يتمتع بذوق سليم. وليس متباهياً.

لم يكن هناك وجود للحراس في الداخل، عرج ببطء - إذ لم تكن جراح ساقه قد شفيت كلياً بعد - ماراً بصف من الرجال الجادين الجالسين في خط طويل، وقد أظهرت ستراتهم خطوط الصدأ من حيث كان درع الزرد معلقاً قبل وقت قصير. أصبحوا الآن بدون درع أو أسلحة، هؤلاء النبلاء الفرنجة، لكن تم الإنتباه إلى جميع احتياجاتهم الأخرى. فيما عدا الإستثناء المحتمل للنساء، فكر بيبرس، على الرغم من أنه كان في العادة يمكن ترتيب شيء ما على الدوام. راقبه النبلاء أثناء مروره صامتين، واستمر ذلك الهدوء حتى أثناء صعوده الدرجات

إلى الطابق الثاني . لم تكن جروحه قد التأمت كلياً بعد لكنه لم يشأ أن يظهر ذلك .

في منتصف الدرجات ، ألقى بنظرة إلى الأسفل مرة أخرى ليرى أنهم مازالوا يلاحقونه بنظراتهم بينما يشير له مضيفه إلى الباب على يمينه .

نقر لقمان الباب ، انتظر ، ثم أدار الأكرة ، مبتسماً ومنحنياً أثناء دخول بيبرس . الغرفة الداخلية مضاءة جيداً بعدد من الشموع على الطاولة وفوق السرير ، تتدلى من الثريا ، وكذلك من كوى صغيرة محفورة في الجدران فوق ارتفاع مستوى الرؤوس . كان الجو لطيفاً بهيجاً بوجود أثر خفيف للبخور .

«مرحبا يا بيبرس البندقداري . نحن سعداء لرؤيتك تتعافى من جروحك» .

كان جوينڤيل جالساً وراء طاولة الكتابة وأمامه كومة كبيرة من الصحائف والكراريس المكومة بدرجة مرتفعة .

«تحياتي يا جوينڤيل . أشكرك . لم أكن أتوقع أن يتم استقبالي هنا» .

«لا؟ لقد افترضنا ورجحنا أنك ستكون منشغلاً بتلقي المدائح من السلطان الجديد» .

«لم يتم استقبالي من قبل السلطان حتى الآن» .

نهض جوينڤيل واقفاً وتناول إبريقاً وأكواب موضوعين على حقيبة عالية خلفه .

«تلك أيضاً تشكل مفاجأة . لقد أظهرت قوة استثنائية في مطاردة مجموعتنا بالطريقة التي فعلتها . لم تتمكن أي من وحداتكم الأخرى

من ذلك . نحن نعرف أنك لم تكن مجموعة الصيد الوحيدة التي أرسلت . أتشرب نبيذاً؟ أنا لست متأكداً أبداً مما إذا كان الرجال الذين يؤمنون بدينك يشربون الخمر ، أم لا » .

«أنا لا أشرب أبداً أي شيء أقوى من نبيذ الفواكه أو مشروبات شعبي التقليدية» .

«ذلك أمر جيد . أي شيء يؤدي إلى تبلد الأحاسيس هو إهانة وتحدي للرب . إن الملك يحمل نفس الإيمان» .

«أنا أؤمن فعلاً» جاء الصوت الثاني بينما كان بيبرس ماداً ذراعه لتناول الكوب المقدم . ما أجبره على الإلتفاف إلى الوراء بسرعة فلم يستطع أن يمنع نفسه من إراقة بضع قطرات من الكوب . أبصر جوينفيل . بينما حدّق بيبرس في الزاوية المعتمة خلف السرير ، وهناك ، بكل تأكيد ، كان ملك الفرنجة . قال لويس لجوينفيل شيئاً باللاتينية .

«يعتذر الملك لأنه أجفلك . إن لغته العربية تمكنه من فهم بعض الكلمات ، ولكن ليس كل شيء . إنه يطلب أن أساعد في المحادثة بحيث لا تكون هناك -» توقف جوينفيل «أية حالات سوء فهم . أو رسائل مفقودة» . أعاد التفكير «إن الملك متشوق وحريص على أن يفهم كل منكما ما يقوله الآخر» .

استغرب بيبرس من ملك يقدم طلبات ، حتى من الأجانب الذين أخذوه أسيراً .

«أنا في خدمة جلالته . الآن وقد توقف القتال ، فأنا مضيف له بقدر الشيخ لقمان طالما هو موجود في أرض الأمة» .

قام جوينفيل بالترجمة ولاحظ بيبرس أنه كرر كلمة الأمة بدون

أن يستعمل بديلها اللاتيني .

«إن الملك يشكرك على حسن ضيافتك ، رغم أنه يعتقد بأن مصر كانت أرض الأديرة المسيحية الأولى وحتى ملاذ يسوع الطفل ، فإنها مازالت ضمن مملكة المسيحية بدلاً من . . . **مجتمعكم** . هل هذه ترجمة منصفة؟»

«هي كذلك . مع أنه بالنسبة للمؤمن فإن الإيمان يتعدى كل الأفكار الإغريقية والرومانية القديمة حول الأمور المشتركة . إن ديننا لا يهتم فقط بالملكية والسياسة ، ولكنه يضم كل شيء في مخلوقات الله . ليس الإسلام محدوداً . إنه شامل لكل شيء . كل الأشياء مترابطة وهي نفسها» .

تقدم الملك إلى الأمام . ليسمع الترجمة وأطلق ابتسامة صغيرة . أشرق وجهه أثناء إعطاء رده إلى جوينڤيل من الشكل الرمادي المتقلص الذي كان عليه حينما دخل بيبرس الغرفة . انتظر جواب بيبرس بعينين براقتين .

«يقول الملك أنك رجل متعلم» .

طأطأ بيبرس رأسه باتجاه الملك ليشكره على المجاملة «أشكر جلالته بالنيابة عني» .

«لكنه يحضك على أن تتذكر بأن ديننا هو المذهب الكاثوليكي - المشتق من كلمة العالمية . لقد كانت كل الأراضي حول البحر الأبيض المتوسط وما وراءه في حالة سلام تحت دين واحد قبل مجيء الهرطقات العربية . إتحد العالم كله تحت النزعة الخيرية لروما . أليس ذلك الوضع مفضلاً على الصراع الحالي؟»

فكَّر بيبرس للحظة «إذا كان دينكم عالمياً ، فما هو السبب في أن

البابا في روما لا يحكم سوى قسم من ايطاليا وليس فرنسا أو ألمانيا . إن ملوك تلك الدول ، تماماً مثل جلالته ، يستمعون اليه فقط عندما يلائم كلامه مصالحهم ، أليس هذا هو الوضع؟»

رشف بيبرس من كوبه بينما تبادل جوينقيل ولويس كلاماً سريعاً ثم استدار جوينقيل عائداً . «ألا يمكننا أن نقول الشيء نفسه عن أمة يخالف فيها سلطان مصر من قبل الخليفة في بغداد؟ ألم يفقد المسلمون القدس في زمن بلدوين لأنهم كانوا يتقاتلون فيما بينهم مرات عديدة؟»

«هذا صحيح ، لكن الأمة أعيد توحيدها تحت حكم صلاح الدين وأعيدت القدس إلى الدين الإسلامي حيث ستبقى . سوف نشهد إستعادة شرف هذه البلاد ضمن حياتي . سيتم محو كل آثار الخائنين وتنظيف البلاد منها» .

«ألم تمنح القدس إلى فريدريك الثاني من قبل ورثة صلاح الدين قبل مجرد سنوات قليلة؟»

قال جوينقيل ذلك بدون أن يلتفت إلى الملك .

«وذلك عمل جلب العار على المسلمين في كل مكان . لقد تم تصحيح ذلك بعد المعركة العظيمة في لافوربي وأنا أحمد الله وأشكره على أنني كنت هناك لأساعد في استعادتها» .

كرر جوينقيل كل ما قيل إلى الملك ، واستمع لويس بمنتهى الإهتمام . قال جوينقيل شيئاً ثم نظر إلى بيبرس .

«يقول الملك أنك قد أصبحت شاباً حكيماً وعميق الإيمان ، ولكن هل تعتقد حقاً أن قوة الإيمان الحقيقي سوف تغادر هذه البلاد؟ الأرض نفسها التي مشى عليها المسيح» .

«أعتقد ذلك . لقد أرعبت جيوش المسيحية المؤمنين عندما جاءت إلى هنا ، وقد ذبحوا الناس بالآلاف . لقد انتهى زمنهم . إن الإسلام هو البوح والكشف النهائي للحقيقة» .

«أنت تقول أن جيوش أوروبا قد أحضرت البؤس إلى البلاد ، ولكن ألا تقوم الجيوش العربية والتركية بالضغط على أسوار القسطنطينية وبقتل شعوب تلك البلدان حتى هذا الوقت؟ ألا يقوم القراصنة الأتراك والمغاربة بغزو سواحل اسبانيا وايطاليا كل سنة ويخطفون الشباب والشابات بالآلاف؟»

«لن أدافع عن أنشطة المجرمين . إنني أخدم القوات البحرية التي تدافع عن السلطان الذي يتبع تعاليم القرآن الكريم . كل من لا يفعل ذلك هو غير مؤمن . الأسوأ ، هو مرتد عن العقيدة . ألم يتباهى الملك في رسائله إلى السلطان القديم عن حقيقة قيام المسلمين في اسبانيا بدفع الجزية له حالياً لحمايتهم وتركهم في سلام؟ ما هي غارات القراصنة بالمقارنة مع ذلك؟»

أجاب الملك بسرعة ، في سيل من الكلمات ، بدون توقف تقريباً .

قال جوينفيل «على ما يبدو فإن هذه الحرب سوف تستمر لوقت طويل قادم قبل أن يتخذ الرب قراره . الملك مستعد لأن يمتحن في إيمانه وقد اثبتت هذه الحملة أنها الإختبار الأعظم حتى الآن . كنقطة نهائية هو يرغب في أن تعلم بأنه يرى كل أعمالنا على أنها وجهان مختلفان لقطعة العملة نفسها . من غير الحق سبحانه وتعالى يعرف الجانب الذي ستهبط عليه العملة» .

قال بيبرس «لا أحد . أليست أعمال الرب مثيرة للدهشة؟»

ضحك الملك على هذا القول حينما أخبره جوينفيل ثم طرح

سؤالاً بلهجة ودية .

«لم يطلب الملك حضورك إلى هنا لتخوض معه في خطاب ديني ، رغم أنه بات سعيداً و . . . متنوراً بآرائك السديدة . لقد سمع بالهجوم على شخصك وهو سعيد لأن يرى بأنك لم تتأذى ، نسبياً» .

«أخبر جلالته أنني أشكره على اهتمامه . إنني معجب ومتأثر بكونه قد سمع عنه بهذه السرعة» .

«يأتينا الكثير من الزوار إلى هنا» . قدَّم جوينڤيل الإبريق ليعرض على بيبرس إعادة التعبئة والذي قبله بيبرس . «يريدك الملك أن تعرف أنه يفترض فيك أن تحترس» . قال جوينڤيل ذلك أثناء سكبه النبيذ «لقد توفر لدينا العديد من الأصدقاء في هذه البلاد ، والذين أخبرونا أشياء كثيرة قبل أن يقوم شقيق الملك بإهدائك أفضل كتائبنا لتذبحها . لدى البحريين ولديك أنت يا بيبرس ، العديد من الأعداء» .

«ذلك صحيح . لكن يجب على الملك أن يفهم بأن لديه الكثير من الأعداء حتى في هذا المكان ، وهو الآن في موقع سيء جداً من حيث قدرته على مهاجمتهم» .

أنهى جوينڤيل تعبئة الكوب وأرجع الإبريق ، وهو يحدق في عيني بيبرس بحدة ، بدون أن يرف له جفن .

«نحن لم نرسل القتلة يا بيبرس . لأن ذلك سيكون ضرباً في منتهى التهور كما أوضحت أنت محقاً ، بالنظر إلى موقعنا الحالي . هل تعرف أن السلطان يريدك ميتاً؟»

تلفت بيبرس حواليه . بات في حكم المؤكد أن هناك شخصاً ما يسترق السمع إلى المحادثة . فقد تعامل هو وقلاوون مع مثل هذه الإستخبارات في كل يوم .

«نحن وحدنا تماماً ، يا بيبرس . الباب صلب والجدران سليمة . لقد دفعنا إلى السيد لقمان بسخاء لنحصل على خصوصيتنا . لست بحاجة إلى أن تكون لديك مخاوف من استراق السمع» .

«ليس السلطان الجديد الداعم الذي كان عليه والده بالنسبة للبحريين . لا أصدق أنه يرغب في موت كل البحريين» .

«ما الذي قالته لك مارا؟»

لم يقدر بيبرس أن يمنع نفسه من إبداء رد الفعل . ابتسم جوينقيل .

«لدينا الكثير من الزوار . الملك ضيف مثير للإهتمام ، والعديد من زوارنا يفاجأون بمقدار كرمه» .

توتر بيبرس في جلسته «لا تفكر للحظة بأن كرم الملك سينفع معي» .

أطلق جوينقيل ضحكة قصيرة وأخبر لويس بما قاله بيبرس «كلا» نقر ببضعة أصابع على الطاولة «نحن نعرف أنك غير مؤهل لمثل هذه السخافات . لن يقدم الملك على الإساءة لشرف مقاتل مثلك بأشياء مزورة وكاذبة . لقد صدر كل ما قلناه عنا بنيَّة طيبة . ونحن نعرض عليك هذا كإشارة على احترامنا لك . لن يصمد السلطان طويلاً . لن يتصالح هو والملكة وستعمل هي على الإطاحة به ، طال الزمان أم قصر . إنها الأكثر خطورة بين الإثنين بدرجات كبيرة . أنت تعرف هذا القدر ، حتى لو أنك لم تعترف به لنفسك حتى الآن» .

تناول جوينقيل جرعة من النبيذ «ما ينبغي عليك فعله هو مراقبة الأصدقاء المزيفين والحذر منهم» .

«ماذا تقصد؟»

«نقصد يا بيبرس ، أنك لا تستطيع أن تثق بجميع إخوتك البحريين بكل الأحوال . هناك العديد - العديد - من الذين يغارون من قدراتك وهيبتك والنجاح الذي حققته لك . لقد خسر جلالته هذه الحرب بسبب زيف شقيقه - أمير من نفس الدم . إنه يحثك على أن لاتقترف الغلطة نفسها» .

***

«إنها معلومات مغلوطة ، مصممة لتغيير أفكارك» . قال قلاوون عندما أعاد له بيبرس رواية المحادثة في المعسكر في وقت لاحق .

قال بيبرس «إنهم في غاية المنعة ، حتى في هذا الوقت ، وهم محبوسون في ذلك البيت مع الحرس المحيطين بهم من كل ناحية . ولكن ما هو رأيك في قوله أننا لا نستطيع أن نثق بإخوتنا البحريين؟»

«لقد قال أننا لا نقدر على الوثوق بجميع البحريين . هل كان لديه اسم ما؟»

«كلا»

«إذاً لا تهتم للمسألة أبداً . ابقِ عينيك مفتوحتين كما تفعل على الدوام ، وسوف نبقي نحن أذننا على الأرض . لم يحمل الإثنان اللذان هاجماك أي شيء يخبرنا عمن أرسلهما ، أو ما إذا قررا أن يتصرفا ببادرة شخصية منهما . حتى سلاحيهما هما من النوع الذي ينتجه حدادو المدينة بالآلاف . كان يمكن شراؤهما من قبل أي شخص مقابل النقود» .

جلس بيبرس واضعاً شاهديه على فمه ، غارقاً في التفكير .

سأله قلاوون «ما هي المواضيع الأخرى التي تحدثتم بها؟»

«لقد سألني عن ماضيَّ . المكان الذي قدمت منه . قال أنه حتى

الفرنسي يستطيع أن يعرف بأنني لست عربياً» .

«إن قواهم رهيبة فعلاً . ماذا أخبرتهما؟»

«الحقيقة . وهي أنني شركسي من قبيلة الشابسوغ وأنه تم اختطافي من قبل القراصنة المسيحيين وأنه تم شرائي من قبل ايديكين . لقد دربني على حياة الفرسان وتوفي في أول معركة لي» .

«هل أخبرتهم أي شيء عنها؟»

«من تقصد؟»

«لا تتظاهر يا بيبرس . النفي لا يفيد أياً منا . هل أخبرتهما عن الفتاة التي قتلها الروس؟ دانا؟»

«لقد حدث ذلك منذ وقت طويل جداً يا قلاوون . لم آتِ على ذكرها» .

«ألم تخبرهما عن الطريقة التي مازالت تسكن فيها أفكارك وأن ذلك هو سبب بعدك عن زوجتك؟»

نهض بيبرس واقفاً «أنا بعيد لأنني عسكري . لا تقع الحروب قريباً من بيتي ، وذلك بفضل بركة الله . إنني أبعد زوجتي عن المصاعب التي أنا مجبر على تحملها . إنها امرأة فاضلة» .

«هي كذلك . لكنك لم تقوَ على نسيان دانا ، رغم أنك لم تكن أكثر من مجرد صبي» .

لوَّح بيبرس بيده ومشى نحو الجانب الآخر من الخيمة ، وأشغل نفسه ببعض الأوراق .

«قل لي ، هل تمكنت من إخضاع مارا لرغباتك؟» قال قلاوون ، رافعاً حاجبيه .

«ماذا؟»

«الفتاة التي تزورك هنا ليلياً ، التي تمتلك جسماً وصدراً بوسع الرجل أن يقضي عمراً بكامله في اكتشافهما . هل حصلت عليها أم لا؟»

«لقد كنت جريحاً» .

أطلق قلاوون ضحكة أشبه بالنهيق «جريح؟ افترض أنها لا تصاب بجرح جراء طعنها في عينها برجولتك في كل مرة تدخل فيها هذا الباب هنا . لو كانت فتاتي ، لكانت تمشي بطريقة مضحكة صباح كل يوم ، أستطيع أن أقول لك هذا» .

«يكفي هذا يا قلاوون» .

تهاوت ضحكة قلاوون وأخذ يفرك عينيه . «تساهل مع نفسك يا بيبرس ، ولا تأخذ الأمور بهذا القدر من الجدية . هنالك أوقات لذلك الشيء وأوقات للأمور الأعظم في الحياة . استمتع بها الآن ، لأن العمر المتقدم يأتي قبل أن نعرف ، ومن يدري ما الذي ستقدر على فعله في حينها؟ ذلك إذا لم يقض عليك قتلة المعارك أولاً» .

لم يرد عليه بيبرس .

«إنها فتاة رائعة يا بيبرس ، وهي مغرمة بك بعمق» .

أرسل في طلبها في وقت متأخر من تلك الليلة حينما يكون السلطان إما في فراشه أو غارقاً في أكوابه إلى درجة أنه لن يلاحظ غيابها . قادها تيكا عبر باب الخيمة ووقفت تنظر اليه للحظة ، عيناها تبرقان وارتسمت نظرة أقرب إلى الانتصار على محياها .

ثم رأت جروحه : وجهه المصاب ، الساق المضمدة ، فاندفعت تركض لتلقي بذراعيها حوله .

«لقد تعرضت للأذى» قالت . بدأت تزرع القبلات على صدره

وكتفيه ، وكأنما ستصلح قبلاتها الدمار الذي أحدثه السيف . احتضنها للحظة ثم أبعدها وتأملها ملياً . ذهبت عيناها إلى الجرح في رقبته ، والضمادة التي تغطي أضلاعه حيث جاءت ضربة الخنجر .

«لقد حدثت عدة معارك . لابد وأنك سمعت شيئاً ما عنها في مجالس السلطان ، لا؟»

«بالطبع . لم أستطع أن أتوقف عن التفكير فيك أثناء كل مرحلة لاحقناه فيها بقافلة حاجياته . أنا في العادة أكره الجلوس مع الحمالين والخادمات فوق كل أدوات المطبخ . ولكن لمعرفتي بأنني يحتمل أن أراك عندما أصل ، حيثما كان وصولنا . . . أصبح ذلك كافياً بالنسبة لي» .

«هل عرفت أنك ستتمكنين من رؤيتي؟»

«بالطبع . لقد صليت في كل لحظة استطعت فيها أن أصلي . لقد كانت الرحلة طويلة بحيث لم يكن لدي عمل آخر أنجزه . وطبعاً لم أكن أمانع . . .» أضافت قائلة . ثم استأنفت تقبيله .

«ليست هناك حاجة ، يا مارا» أحسَّ بالحرج في هذه اللحظة . فقد كانت هذه فكرة سيئة .

«هل لك أن تخبريني عما كان يقال في دائرة السلطان أثناء فترة غيابي؟ إن المسألة في غاية الأهمية» .

عبست . أضاف العبوس إلى وجهها المزيد من الأنوثة البريئة . «لا أعرف كل ما قيل . فقد ركب توران شاه حصانه معظم الوقت ، ولم أستطع أن أسمع أكثر من نتف من الأحاديث عندما قمت على خدمته أثناء وجبات الطعام . فقد تناول وجباته في العراء ، كما تعلم» .

«هل فعل ذلك؟»

«نعم . قال إِنه لا يوجد وقت لنصب الخيمة الملكية ، لذلك قمنا

بتحضير السفرة في العراء وتناول وجبة طعامه بينما وقف أحد صبية المطبخ حاملاً مظلة فوق رأسه ، وآخر يلوِّح بالمروحة العريضة» .

«يبدو لي أن السلطان لم تفته أي من المصاعب . ما الذي تحدثوا عنه؟»

«لقد تحدثوا عن الفرنجة ، والمعبديين . كيف سيجنون منهم ما يكفي من الأموال لشراء ولاء المغول ، أظن أن ذلك هو ما بحثوه . قال معمر ، الشخص الأسود - أعني أنه واحد من السود - سمعته يقول إِن النقود الفرنجية ستكون قادرة على شراء جيش كامل من المغول» .

«ماذا قال السلطان حول هذه المسألة؟»

«لا أعرف حقيقة . يقولون إن المغول قد وصلوا سلفاً إلى بلاد الفرس ، وإنهم سيصلون قريباً إلى الجزيرة ويعبرون الفرات . هل هذا صحيح؟»

«سيتوجب عليهم أن يستولوا على بغداد أولاً ، وهي المدينة الأكبر والأعظم في العالم . أظن أن ذلك سيكون كثيراً جداً ، حتى بالنسبة لهم . لا تستطيع الجياد أن تقفز عن أسوار بذلك الارتفاع» .

«هل تسمح لي بالتخفيف من توترك؟ أنت متصلب من شدة الألم ، أنا أعرف هذه الأمور . استلق على الأرض» وأشارت «هناك» .

تردد بيبرس لكنه في النهاية أطاع . تلفت إلى ناحية الباب وهزَّ رأسه لتيكا . انسحب الرجل الضخم واستلقى بيبرس على السجادة الصغيرة التي أشارت إليها مارا .

انحنت فوقه وأخذت تفرك ما بين عظمتي كتفيه بيديها .

سألته «هل يعجبك هذا الشعور؟»

«نعم» قال «ماذا قال السلطان غير ذلك عن المغول؟ هل هو يريد أن يشتري جيشاً؟»

«لقد قال إن جيشهم سيتم شراؤه بكل سهولة بمجرد أن يدفع الفرنجة» .

فكر بيبرس أن ذلك يمكن أن يعني أموراً كثيرة «وماذا عن البحريين ، هل سمعته يقول أي شيء عنهم؟» بدأ صوته يخفت عن السابق ، أصبحت كلماته بطيئة ومتداخلة بغير وضوح فقد أخذت حركاتها تؤتي أكلها .

«لقد قالو إنه بمجرد التخلص من الفرنجة ، فسوف يتم التخلص من البحريين أيضاً» . بدأت تعمل على ظهره الآن ، بحيث ركزت إبهاميها على العضلات النازلة على طول عموده الفقري . أحسَّ بكل توتر الأيام الماضية يتبخر ، ومفاصله تسترخي . رفعت ساقيها وجلست فوقه الآن ، وبدأت قبضتاها المكورتان تتدحرجان فوق عضلات أسفل ظهره المتكتلة . أحس بدفئها فوق ظهره «إلى أين ستذهبون؟ ينبغي على البحريين أن يبقوا مع السلطان ، أليس كذلك؟ وهكذا لن نكون بعيدين عن بعضنا بعضاً» .

«إن المكان الذي سيذهب إليه البحريون منوط بأمر السلطان» وكذلك ما إذا كانوا سيحيون أو يموتون ، فكر في نفسه «نحن لا نكتشف في العادة إلا بعد أن يحين موعد المغادرة» .

«وبعدها تعود إلى هنا على هذه الحالة؟» أحسَّ بها تستدير ، لتنظر إلى الجرح على ساقه .

«تلك هي حياة البحري . لقد قلت لملك الفرنجة شيئاً شبيهاً بهذا صباح اليوم» .

«هل قابلت الملك؟»

«نعم»

«هل هو الوحش الذي يصفونه؟ إن الفرنجة أشبه بالحيوانات، أليسوا كذلك؟»

«أنا لم أشاهده إلا في هزيمته. وهو شبيه بالأسد حقاً. إنه يهتم برجاله وبدينه، كما أفعل أنا مع جماعتي».

«هل تعتقد أن سلطاننا يهتم بنا وبالإسلام بالطريقة نفسها؟»

«السلطان هو الإسلام يا مارا. احترسي في كلماتك، حتى في هذا المكان».

انتهت من تمسيد ظهره وضربته بيديها برفق على كتفيه. قالت له «انقلب» ثم أضافت «كلا، انتظر». تسلقت نازلة عن ظهره وسمع هو صوت حركة قماش. قالت «الآن، انقلب على ظهرك».

نفذ ما قالته وفتح عينيه. كانت عارية تماماً. تراقبه منتظرة موافقته. بشرتها بنية اللون، أفتح لوناً في الأمكنة التي ترتدي عليها ثوباً طيلة النهار، أغمق على ذراعيها وساقيها. سحبت الدبوس الذي يمسك شعرها الأسود وتركته يتساقط حول كتفيها وعلى صدرها. نفضت رأسها فتشرَّب كل منظرها وهي تتحرك بتلك الطريقة.

قال لها «أنا لدي زوجة».

«لكنك بحاجة إلى امرأة».

سحبها نحوه فذهبت إليه، وأمسك كل منهما بالآخر بأكثر ما لديه من قوة. وجد نفسه فوقها خلال ثوانٍ، وسلمت نفسها له طائعة راغبة.

بعد ثوانٍ قليلة، وحينما زعقت، تلفت تيكا مذعوراً في الخارج ثم استرخى، عقد ذراعيه على صدره، وابتسم.

الفصل الخامس عشر
من بغداد إلى دمشق

أذهلته السرعة التي غابت فيها المدينة عن ناظريه وأصبحوا وحدهم على الطريق عبر الرمال الغربية .

«هل تعرف الكثير عن الصحراء؟» سأله أحد الرجلين ، فهزَّ رأسه بالنفي «فقط أنها حارة ومغبرة وأكثر برودة من بغداد في الليل» .

ابتسم الرجلان لنفسيهما «ستذهب بعيداً» قال الرجل الأول .

بات عبد مسروراً لأن الفرس التي أعطوه إياها تتمتع بطباع في غاية السلاسة . هي بلون كميت ، وبدأ يستمتع بالركوب بعد انقضاء ساعتين . لم يتكلم الرجلان إلا في أقل القليل ، ليعرضا عليه بعض الكثبان بين الفينة والأخرى وسط انبساط السهل . فكر لنفسه بأن حياة الناسك أو الراهب تنطوي على العديد من عناصر الجذب ، وليس هناك أكثر جاذبية من الهدوء الذي تقدمه بعيداً عن ضوضاء المدينة التي غادرها لتوه .

مدينة مليئة بالأنفس ولكنها خالية من الأصدقاء

تلك كانت الوسيلة الوحيدة التي يستطيع عبد أن يصف كيف سيكون شأن المدينة في الأيام القادمة . وواسى نفسه بفكرة أن صفية وابن دقيق سيحمي أحدهما الآخر من أي شيء تفرضه عليهما تلك الأيام . بالنسبة لشخصه ، فقد كان متلهفاً على فتح الخطاب الذي أخبره السيد أنه موجود في الكيس ، وقراءته . بدت الأيام المقبلة مثل

غموض متثائب بالنسبة له ، وبينما كان جانب منه يتألم لعدم وجود صفية إلى جانبه ، ظل جانب آخر ، بجانب أكثر شبابية من نفسيته ، يشعر بالإثارة . بلاد جديدة وأناس جدد ، لكن ابن دقيق قد علمه بأن الأماكن الجديدة والناس الجدد كثيراً ما تمنح العقل الفضولي شيئاً جديداً ليفكر فيه .

«عصرة من الليمون لتعطي المشروب المالح بعض الحيوية» . كان يقول حينما تبحث مجموعتهم الدراسية المنافع التي يغدقها السفر على العقل .

سأل عازر في إحدى المرات «ماذا يستطيع المرء أن يتعلم عن الله مما ليس موجوداً أمام عيني الشخص سلفاً؟ أليس هو موجوداً في كل مكان؟»

تسبب تفكيره في عازر بخفض معنوياته مرة أخرى وسرح في تفكيره لبعض الوقت حتى أعلن الرجل الذي كلّمه في البداية أن النور قد بدأ يخفت ، وأنهم سوف يستريحون حتى يصل القمر إلى السمت .

سارع عبد إلى فتح الكيس الذي كان ابن دقيق قد أعطاه إياه ووجد فيه مجموعة من الأوراق الملفوفة .

«كتان مصري مكرر ومنض بالطريقة الصينية القديمة» فكر عبد «مع حكمة ابن دقيق على الصفحة» .

فك الصفحة الأولى ، والتي تغطي خطاباً ممهوراً بختم في أسفله .

«إنني أحمل في يدي كل ما هو عظيم عن بغداد» .

جاء الخطاب قصيراً ، مختصراً ، والختم على الخطاب الداخلي هو ختم دار الحكمة نفسه . جلس عبد واستقر ليقرأ بمساعدة أواخر ضياء الأمسية .

إلى تلميذي محي الدين ابن عبد الظاهر، تحياتي.

يا عبد إنني أكتب هذه الرسالة بسرعة لأن أحمد وعادل يقومان بتحضير الجياد والمؤن في الإسطبل الخلفي. سامحني على اليد الراعشة لرجل عجوز، لأننا في عجلة من أمرنا ولم يبق سوى وقت قليل لتحضير كل شيء. لقد أخبرت خادمي وزوجته بأن صفية ستكون خادمتنا الجديدة، وأنها ابنة خادم زميل لي. لن تكون هناك أية أسئلة أخرى تطرح وأنا أعتقد أنها فتاة ذكية بما يكفي وأنها ستكون قادرة عن الإجابة على أي سؤال يمكن أن يطرح عليها أثناء ذهابها ومجيئها.

لدي شعور يا عبد، بأن هناك الكثير مما لا تقوله لنا صفية، ولو أنني لم أقابلها بنفسي وتحققت من شخصيتها، لكنت نصحتك بأن تستغل هذه الرحلة غير المتوقعة لكي تنساها وتتحرك قدماً لتبحث عن حظك الشخصي. سوف تكون لديك زوجة في نهاية المطاف. مثلما تحدثنا، وموضوع استجابة صفية لكونها المرأة الثانية لديك هو أمر خاضع للجدل، أو أن تقبل العيش في بيت تكون فيه امرأة أخرى هي سيدتها.

بالنسبة للوضع القائم، فقد تأثرت به أنا الآخر، وهكذا فإنني أعرض عليها رفاهية ضيافتي إلى حين عودتك بعد أن تتم تسوية هذه المشكلة مع الخان، بطريقة أو أخرى.

بالنسبة للأيام القادمة، يفترض فيك أن تتخذ طريقك إلى بيت ابن ناصر الدين. هو فارسي المولد، لكنه يقضي وقته في خدمة المدارس المختلفة هناك، يدرِّس ويكتب كما أفعل أنا، مع أن أعمالي متواضعة بالمقارنة مع أعماله. لا تخف مما قد يبدو لك مثل

آراء أو أفكار بغيضة يحتمل أن تسمعها منه . يمكنه ، إذا أراد أن يصبح مستشاراً لأي ملك أو سلطان أو خليفة ، لكنه بدلاً من ذلك يبقي عقله مفتوحاً ويتبع المسار الذي يأخذه إليه عقله . سوف تتعلم منه الكثير ، وأنا أطري نفسي عندما أفكر بأنك سوف تترك لديه انطباعاً جيداً بالتعليم الذي تلقيته بصحبتي هنا خلال سنواتنا سوية .

يفترض فيك أن تعطيه الخطاب المختوم . إنه كتاب تقديمك وضمانتك في دمشق . سوف يسمح لك ناصر بالبقاء معه حتى تصل الأخبار حول مصير بغداد . وأنا أدعو الله جلت قدرته لأن تكون الأخبار مستحبة .

في الأثناء ، استغل وقت نفيك بأفضل ما يمكنك وابق عينيك مفتوحتين ، ليس على الأخطار والإغراءات وحدها بل أيضاً على الجمال الذي مازال العالم قادراً عليه .

الخطاب موقع بتوقيع ابن دقيق المخربش المعتاد ، رفع عبد رأسه لينظر إلى القمر الصاعد وجمّع شتات أفكاره . عاد إلى التحديق في الأسفل ، فرأى ملاحظة صغيرة مكتوبة في الزاوية

إذا خدمتني الذاكرة ، فإن أرقى الموسيقى وأكثر الفتيات الراقصات تميزاً يمكن العثور عليها في بيت مريم في حي الميدان بجنوب دمشق . أرجو أن تتأكد مما إذا كان موجوداً هناك منذ وقت وجودي في المدينة .

ابتسم عبد لنفسه ودسّ يده في داخل الكيس ليرى ما إذا كان هناك أي شيء قد غفل عنه . انقبضت أصابعه على كيس قماشي أحسّ من خلاله الشكل الدائري الصلب للقطع النقدية . الكثير من

القطع النقدية . بدون أن يخرج المحفظة من الكيس ، فتحه بعد أن ألقى بنظرة خاطفة باتجاه أحمد وعادل وهما يوقدان ناراً ويقيمان ملجأً بدائياً ، ونظر بداخله . شاهد تشكيلة من قطع النقد المختلفة ، ولكن بالرغم من النور الضعيف ، أمكنه أن يرى أن أغلبيتها من القطع الكبيرة والفضية . ازدرد ريقه ومرر يديه فوق الحواف الحادة للدنانير المسكوكة حديثاً وعاود البلع ، حين أدرك أنه لم يمتلك هذا القدر من المال في كل حياته . تذكر نفسه ووضعه بسرعة فأخفى النقود ، ثم طوى الرسائل وأعادها إلى مكانها السابق فوق النقود . نهض واقفاً وبدأ يتمشى ليحرك ساقيه . سأله الشخص الذي اعتقد أن اسمه عادل «هل لديك طعام؟»

«كلا» أجابه عبد . ما كان لشيء مثل هذا أن يخطر بباله أثناء الاستعداد للمغادرة في وقت سابق . ولكنه استمتع بوجود صفية جالسة قريباً منه ، فغابت كل الأفكار حول وجبته التالية عن ذهنه في حينها . «لم أتناول غير حبات الفستق الحلبي ، تلك التي قدمتها لي طيلة النهار ، الآن فقط خطر الموضوع ببالي» .

قال عادل «تعال واجلس إذاً . لدينا من الخبز ما يكفي ثلاثة أشخاص ، وحتى بعض الفواكه . لقد قال سيدك إنك من النوع الجائع دوماً» .

«لقد فكر في كل شيء» . قال عبد وهو يهم بالانضمام إليهما .

«إنه رجل حكيم» . يتمتع عادل بمزاج مرح بينما أحمد من النوع الأكثر هدوءاً ، أكثر صمتاً وجدية ، لكن عبد لاحظ أنه يبتسم كلما تكلم عادل مادحاً ابن دقيق .

«هل تعرفه بشكل وثيق؟» سأل عادل أثناء جلوسهم على الرمال .

«إنه معلمي منذ سنوات ثلاث» قال عبد .

«إذاً لابد وأنك تعرفه معرفة وثيقة» قطع عادل قطعة خبز بأسنانه «إن عمي هو خادمه الشخصي ، وقد حضر إلى بيتنا في العيد لعدد من السنوات ما عدت أذكره . لقد اعتاد على أن يحملني على كتفيه وينزل بي إلى النهر لنطعم البط» .

أحسَّ عبد بأعصابه تسترخي «أكان ذلك ابن دقيق نفسه؟»

«نعم» قال عادل «في ذلك الوقت ، كان هو الرجل الأكثر إضحاكاً الذي يمكن أن تراه . هل قام بأداء الصوت المضحك أمامك على الإطلاق؟»

تقدم عبد إلى الأمام في جلسته «هل يقوم ابن دقيق بأداء أصوات مضحكة؟»

انقضت الأمسيات بهذه الطريقة السهلة في الأيام التي تلت عبورهم نهر الفرات وسفرهم عبر الصحراء إلى داخل سورية . أثبت عادل وأحمد أنهما رجلان قويان ، معتادان تماماً على العمل الشاق والمصاعب التي ينطوي عليها العيش في العراء ، في بلاد تتمنى مع كل لحظة تمر ، أن تقتلك ، أو هكذا بدا الوضع بالنسبة لعبد . خلال اليوم الأول من الركوب المستمر ، أصيب بالكدمات وآلام السرج ، وتعب وغمره الغبار ، وتفسحت يداه بالسحجات جراء إمساكه بالعنان بشدة زائدة . كاد أن يسقط عن الفرس التي أسماها جعفر . في المرة الأولى التي رأى فيها حية تزحف خارجة من خلف صخرة لتنزلق إلى داخل شجيرة ما ، أحسَّ بجلده يتحول إلى ما يشبه الورق الجاف ، وذلك كل ما أمكنه عمله ليمنع نفسه من الحك حتى يقطِّع جلده كل ليلة . اكتفى عادل وأحمد بشرب جرعات صغيرة من الماء من قربة

مشتركة بينهما ، وقد بذل عبد أقصى جهوده لاتباع مثالهم ، ولكن عندما وصلوا إلى الواحة الأولى في رحلتهم ، في منتصف المسافة بين النهر والمدينة ، قام عبد بإلقاء نفسه في الماء وغطّس رأسه مثل الطفل . رأى دليليه يحدقان فيه بينما هو يغسل الرمل العالق في شعره .

سأل عبد «لماذا لا نستطيع أن نتابع النهر لمسافة أطول؟ لماذا نذهب مباشرة وسط الصحراء؟»

قال عادل «المغول ، إنهم يقومون بسقاية خيولهم على طول نهري دجلة والفرات ، ويأكلون كل قطعة متوفرة من العلف . نحن أفضل حالاً إذا سلكنا الصحراء ، حيث لا يريدون أن تطأ أقدامهم» .

قال أحمد «معظم ينابيع السقاية البعيدة عن النهر تزداد ملوحة بكل الأحوال . الجميع يعرف هذا ، بمن فيهم المغول ، لذلك فمن غير المفاجئ أن المزيد من المزارعين أصبح يذهب إلى المدينة هذه الأيام» .

اضطجع عبد إلى الخلف وترك جسمه يطفو للحظة ، وهو يحدق في السماء فوقه . بعد أن امتلأت مطرته ، عاد إلى الجلوس ونفض الماء من شعره . «وهل تأثرت دمشق بهذه الطريقة؟»

«كلا ، لم تتأثر بالملوحة ، لكن المغول سيصلون هناك عما قريب» . ركع عادل وبدأ يملأ قربة من طرف الماء . «لقد رأيت ما فعلوه بالأموات بعينيَّ هاتين . لم يتمكن الخليفة أبداً من استعادة ذلك الجبل ، لكنهم فعلوا ذلك بدون صعوبة . سوف يستولون على كل شيء موجود» .

قال عبد «يقول التجار إنهم تمكنوا حتى من بلوغ أراضي الفرنجة إلى الشمال» .

«أنا واثق من أن كل ذلك لن ينفعهم بشيء . إنهم لا يؤمنون بغير الدماء . حتى الفرنجة سيجدون أن عطشهم للدماء لا يعني شيئاً بالنسبة

للخان» . نهض عادل واقفاً . «تعال يا أحمد ، لقد حان ميعاد الصلاة» .

مشى كلاهما باتجاه الجياد لإحضار حصائرهما . فكر عبد فيما قالاه ثم لحقهما . في تلك الليلة ، عندما سمع الرجلين يتحركان ، انضم إليهما في التوجه إلى الجنوب وتقديم تضرعه ، بينما كان نسيم الصحراء يهب على وجهه ويجدد روحه بكل ذلك العمق الذي لم يدرك أنه فقده .

لم تؤثر صلواته على راحته بأي مقدار ، فقد ظلت ساعات الصباح الطويلة وأيام الركوب مؤلمة كما كانت في السابق ، لكن الجفاف في فمه وشعوره بالانزعاج صارا يتراجعان ويفقدان تأثيرهما ، وبدأ يشعر أن عوامل الضعف التي وقع فيها في المدينة قد بدأت تخرج من كيانه ، وبدأ يؤسس لشيء آخر مجدداً .

ظل تفكيره في صفية قائماً معه ، كما بقيت أفكاره مع ابن دقيق . ظل يشعر بالقلق من أن يكون عازر قد انتقم منهما عندما اكتشف أن عبد قد هرب من المدينة ، واضطر إلى تذكير نفسه بأن مثل هذه الأفكار هو ضرب من الحماقة . فكما قال ابن دقيق ، حتى شخص غاضب مثل عازر لا يمكن أن يكون مضطرباً إلى درجة أن يقضي على حياة واحد من أبرز أساتذة بغداد .

عندما تراءى منظر مسجد أوائل الخلفاء وقلعة دمشق في البعد ، بعد انقضاء حوالي شهر كامل على مغادرتهم بغداد ، ركع عبد إلى جانب عادل وأحمد وقدموا الشكر على بلوغهم وجهتهم سالمين .

«هل تعرف إلى أين ستذهب؟» سأل عادل أثناء مرورهم عبر البوابة الشرقية .

«إلى بيت رجل اسمه ناصر . لقد ترك لي ابن دقيق تعليمات ،

رغم أنه لم يعطني الموقع الذي يمكنني أن أجد بيته فيه» .

«اسأل في المسجد . أنا متأكد من أنه رجل بارز وصاحب إمكانيات . سوف يعرفونه هناك» .

لم يكن عثورهم على الطريق إلى المسجد الأموي صعباً ، لأنه كان يسيطر على المنظر فيما يبدو ، من أي مكان ذهب إليه الشخص في المدينة . دقق عبد في السكان المحليين أثناء مرورهم راكبين ، ورأى أنه بالرغم من شبههم بأهل بغداد بشكل عام ، إلا أنهم بدوا أكثر بساطة ، يرتدون ملابس أقل بريقاً من ملابس أولئك السكان المدنيين لأعظم مدينة في العالم ، والتي عاش فيها طيلة حياته . المتاجر يعمها قدر أكبر من الفوضى . الشوارع تحتوي على كمية أكبر من الغبار : القلة من الشوارع التي كانت مرصوفة ، أظهرت أن كثيراً من حجارتها مقلوعة أو ناقصة ، مثل أسنان مقلوعة . افترض أن أي مدينة ستبدو مملة وريفية بالمقارنة مع بغداد ، رغم أنه بعد الأسابيع التي قضاها وحده في الصحراء مع عادل وأحمد والخيول فقط لا غير ، لم يستطع أن يكبت إثارة تكاد تكون طائشة لكونه قد وصل إلى مكان محاط فيه بالناس وحتى بعض البنايات الفخمة .

ذكَّر نفسه بأن الكثير من أقسام بغداد مهمل بدوره ، الواقع هو أنني لا أراها أبداً .

استأذنه رفيقاه بالمغادرة عند بوابة المسجد ، محاطاً بالحجاج والتجار والمؤمنين العاديين من سكان المدينة المتجولين في الأرجاء وهم ينادون لتسويق بضائعهم .

فاجأ عبد نفسه حين قام بمعانقة كل من عادل وأحمد كما فعل حينما قام بتوديع ابن دقيق .

«انتبه إلى نفسك في هذا المكان يا عبد ، واحتفظ بالسيف قريباً . فنحن في بطن صحراء أشد خطورة من تلك التي عبرناها لتونا ، وسيكون هناك الكثير من الكثيبات الوعرة التي سيترتب علينا تسلقها قبل أن نشاهد الواحة الأخيرة» .

لم يستطع عبد أن يفعل أكثر من طأطأة رأسه ومعاودة توديعهما . أثناء انصرافهما وهو يتخذ طريقه إلى داخل الساحة المواجهة للمسجد الهائل ، اكتشف أنه بدونهما ، فإن آخر صلة له ببغداد والوطن قد ذهبت ، فهو سيعتمد على نفسه الآن .

توقف في المربع الواسع وسط الساحة ونظر إلى قبة الساعة وقبة الخزينة ، بدأ يتمشى من أحد أطراف صف للأعمدة إلى الآخر ، مستمتعاً بالمناظر التي طالما قرأ عنها في كتبه . تفحص الشكل الغريب للأعمدة تحت الخزينة ، والتي علم أنها تعود إلى العصر الروماني وعلى طرازه ، وتوقف أمام كل لوحة من الموازييك الموجودة على الواجهة لفترة طويلة ، محاولاً أن يتفهم المناظر المحيطة به . في النهاية ، ابتعد وبدأ يبحث عن مسؤول محلي ما ، يمكنه أن يوجهه في الاتجاه الصحيح .

استقر رأيه على رجل نحيل جالس في الظل تحت الرواق المعمد ، خلف طاولة بدائية الصنع ، يكتب ملاحظات عاجلة ويتسلم قطعاً صغيرة من الورق دورياً من الرجال الذين يمرون ويكاد لا يتوقف .

قال عبد «السلام عليكم . مساؤكم سعيد» .

«هل حل المساء؟» ارتجف الشارب الصغير للرجل عندما تكلم .

«أعتقد أن ذلك يعتمد على ما إذا كانت لديك وسادة تحت ذلك المقعد أم لا» .

توقف الرجل عن الكتابة وألقى بالريشة المعدنية . رفع رأسه إلى

عبد للمرة الأولى . قال «ما الذي تريده؟»

«إنني أبحث عن منزل ابن ناصر الدين» .

تفحصه الرجل من فوق لتحت ، شخر ، وتناول ريشته مرة أخرى . بدأ يكتب .

«إذا لم تكن تعرف أين يقع . . .» بدأ عبد بالقول .

«أنا أعرف أنني لا أميل إلى مضيعي الوقت . لقد تأخرت كثيراً» .

«تأخرت كثيراً عن ماذا؟»

«الجنازة . لو أنك كنت تفكر في الحصول على بعض النقود وبضع قطع اللحم من الوليمة فأنت مخطئ» . التقط الرجل قطعة ورق ، تفحص ما كتب عليها ، واستطرد الكتابة .

«استمتع ببقية نهارك» .

عبس عبد وتهيأ ليسير مبتعداً ، لكنه عاود التوقف «يبدو أنك أخذت عني انطباعاً خاطئاً ، أيها الصديق» .

«أنا لست صديقك . أنا كاتب الرسائل» .

«هل تكتب الرسائل لهؤلاء الناس؟ وكيف تعرف ما ينبغي عليك قوله؟»

«آه ، إنهم يقولون الأشياء نفسها باستمرار . أنا أعطيهم هذه القطع الصغيرة في المرة الأولى ، ثم أسجل تاريخ آخر رسالة لهم في كل مرة . عندما يدخل الرجال ليصلوا ، أقوم بكتابة الرسائل للأمهات ، الآباء ، الأعمام الأثرياء والعمات وما إلى ذلك . هذا يوفر عليهم الوقت وينقذني من وجع القلب الناتج عن تبادل بضع كلمات فعلية معهم . هل ترى هذا؟» رفع له قطعة الورق الصغيرة «إنه يكتب إلى شقيقه في القصيم مرة كل ستة أشهر أو ما يقاربها . أنا أقوم فقط بتجديد

المعلومات بحيث تطابق ما يتذكره الشقيق . والأمر لا يؤثر بكل الأحوال ، لأن الشقيق يدفع المال لرجل ما هناك ليقرأ له الرسائل ، وبكل الأحوال أظن أنه يختلق هذه الأمور . كلاهما يعمل في التبليط ، وليس كلاهما بارعاً . لن يتوفر لأي منهما ما يكفي من النقود لمشاهدة أخيه مرة أخرى» .

«وهل عملك هذا مكلف؟»

«كلا ، ولكن في الوقت نفسه ، إنه لا يستغرق مني الوقت الكثير . أترى؟ انتهى» . ألقى بالريشة ورفع الرسالة المنتهية . اضطر عبد إلى الاعتراف بأن خط اليد يدعو للإعجاب . «إن طاهر الصغير أصغر بستة أشهر وصوته أعلى بستة أشهر ، والبنت الصغيرة ما زالت بنتاً صغيرة . هل تحب أن أكتب لك رسالة؟»

«كلا . بوسعي أن أكتب رسائلي الخاصة بي بنفسي» .

«حقا؟» تغيرت سحنة الرجل . ارتسمت على وجهه ابتسامة سرعان ما اتسعت . «إنني أبحث عن متدرب . والآن بما أنك تعرف أن ناصر لم يعد ذا فائدة لك . . .»

نفض عبد رأسه رافضاً «أشكرك ، ولكن لا . هل يمكنك أن تخبرني أين يقع منزله؟ ربما يوجد هناك شخص أستطيع التكلم إليه» .

«ربما» انشغل كاتب الرسائل في تفحص قطعة ورق صغيرة أخرى . «لقد سرت شائعة مفادها أنه ترك وراءه ورثة كبيرة . هل أنت من أبناء إخوته؟» انخفض صوته إلى همسة «أم أنك ابن مفقود؟»

«لا شيء من هذا القبيل . مجرد شخص يتمنى له الخير» .

«حسناً ، من المؤسف أنك لم تتمنَّ له الخير في وقت أبكر ، أليس كذلك؟»

«ماذا عن البيت؟»

أشار كاتب الرسائل بيده اليسرى باتجاه البوابة بدون أن يرفع نظره . «ارجع واخرج من هناك . اذهب واعبر قصر العظم على يسارك وابق على اليسار أثناء مرورك بالقلعة . سترى ثلاثة شوارع في الجهة البعيدة . اذهب في الأوسط . سيدلك الرجال هناك على بيت ناصر» .

قام عبد بما قاله الرجل ، وبعد أن استرد فرسه من الفتى الذي تركها في رعايته ، قادها من سروعها عبر الشوارع المكتظة للمدينة القديمة . أشارت مجموعة من الرجال الذين أرسله كاتب الرسائل باتجاههم في آخر الشارع ، إلى بيت مدني أنيق ، وهكذا نقر على الباب ووقف ينتظر من الذي سيرد عليه .

لم يرد عليه أحد .

انتظر لبعض الوقت وعاود النقر . لا شيء . في اللحظة التي كاد فيها أن يفقد الأمل ، أسرع رجل يرتدي ثياباً بيضاء مذهلة وغطاء رأس ثمين ماشياً باتجاهه .

«هل تعرف أنك تدق على باب بيت رجل ميت؟» سأل الرجل عبد .

قال عبد «هكذا قيل لي . لكنني كنت آمل أن تكون للرجل عائلة ما أو منفِّذ للتركة يمكنني أن أتحدث إليه» .

«هل أنت مدين بمبلغ ما؟» اقترب الرجل . أصبح بوسع عبد أن يرى بأن الغريب أكبر منه سناً ، ولكن ليس بكثير .

«لست مديناً بأي مبلغ . لقد تم ارسالي من قبل زميل للسيد ناصر» .

«حقاً؟ أي واحد منهم؟»

«ابن دقيق البغدادي» .

«هل أنت قادم من بيت الحكمة؟»

سمح عبد لنفسه بأن تنتفخ بقليل من الكبرياء «هذا صحيح» .

«لقد كان ابن دقيق يحظى بإعجاب هائل من قبل سيدي قبل أن يتوفاه الله . تعال . سأدلك على المكان الذي تستطيع فيه أن تودع فرسك» .

الفصل السادس عشر
مصر

جاء خطاب السلطان إلى العامة والخاصة بعد صلاة الفجر محتوياً على الإعلان بأن الحرب ضد الملك الفرنجي قد انتهت ، ولم يتضمن الكثير غير ذلك . قيل للموظفين ذوي المراتب العليا مثل أقطاي وآيبك بأنه ستتم مشاركتهم بالمزيد من المعلومات أثناء مأدبة المساء داخل الخيمة الملكية الهائلة التي أمر توران شاه بإقامتها .

أقام السلطان نفسه داخل برج خشبي ضخم بناه المهندسون خلال ليلة واحدة ، أجبر منظره كلاً من بيبرس وقطز وقلاوون على هزّ رؤوسهم سخرية لدى رؤيتهم البرج .

«أين كان هؤلاء المهندسون حينما كنا بحاجة إلى عوامات لتطويق المعبدين في دمياط؟» سأل قلاوون .

أجاب قطز «على ما يبدو فقد كانوا يلاحقون توران شاه ويبنون له البروج في أرجاء الجزيرة الفراتية كافة» .

«إنه نسخة مطابقة عن البرج الأحمر في القاهرة ، أليس كذلك؟» مال قلاوون إلى الوراء حتى يعاين الواجهة بكاملها .

«ماذا غير ذلك؟» قال قطز .

تم إخبارهم مسبقاً بأن حضورهم في الوليمة متوقع ، ولكن بالنسبة إلى الصباح وما بعد الظهيرة ، كانت هناك العملية المملة لإتمام الأعمال في نهاية معركة عظيمة مثل تلك التي تم خوضها ضد ملك الفرنجة .

تفرق الثلاثة لممارسة أدوارهم باعتبارهم القادة للذراع الأرقى في جيش السلطان . أمر كل من بيبرس وقطز كتيبته للانتظام ونادوا على كل جندي باسمه ، ثم فتشوا أسلحة الرجال ودروعهم وأزياءهم وجيادهم بتمحيص خاص . لأنه مع فورة النصر والحصول على مئات العبيد ، فإن النظام أصبح معرضاً للاختلال في الكتيبتين اللتين يبلغ تعداد كل منهما ألف رجل .

ألقى بيبرس خطبة هنأ فيها وانتقد ، تعاطف وقدم العزاء ، منادياً على رجاله من الذاكرة ، ومذكراً إياهم بالمستوى الذي يتوقع منهم أن يؤدوه . منح الإجازات والراحة للوحدات التي قدمت المجهود الأكبر أو تحملت أسوأ الخسائر ، ثم وزع مهمات الحراسة وأعمال الاستطلاع على أولئك الذين لعبوا أدواراً أقل بروزاً . في النهاية ، خاطب الكتيبة بكاملها وأخبرهم أن بإمكانهم أن يتوقعوا الحصول على مكافآت ستجعل منهم رجالاً أغنياء ، بعد أن يتم دفع جميع المبالغ المترتبة على الملك الفرنجي .

انطلقت الهتافات والزئير بالموافقة ، وأخذ رجاله ينشدون بصرختهم المعهودة - «بيبرس ! بيبرس ! بيبرس !»

في اللحظة التي وصلت فيها هتافاتهم إلى قمتها العليا ، رفع يديه إلى الأعلى وذكَّرهم بأن مباريات البولو سوف تستأنف ، ونادى على أسماء الفرق المختلفة التي تم تشكيلها من بين الكتائب . تحوَّل فرسان القوة الأشد رهبة في كل المشرق من فيلق زاعق من القتلة المدربين إلى ما يشبه مجموعة من رعاع طلاب المدارس ، تتطاير عبارات التوبيخ والسخرية جيئة وذهاباً عبر الطوابير وهم يتدافعون ويلقون النكات عن الهزائم التي سيلحقها بعضهم بالآخرين بالعصا والكرة . شاركهم

بيبرس الضحك ثم رفع يده مرة أخرى بالتحية . أمر الضباط جنودهم بالانتظام المرة الأخيرة ثم صرفوهم ليقوموا بأداء وظائفهم لذلك اليوم . عاد بيبرس وطاقمه إلى خيمته ، حيث كانت بانتظاره كومة من المراسلات ، إضافة إلى كشوفات حسابات وجردات قواته .

توقف في طريقه للتحدث إلى قلاوون ، الذي لم يكن له لواء خاص به ، لكن عوَّض عن ذلك بجبل الأعمال الورقية الذي يحتفظ به ، والذي تشكل كل صفحة منه قطعة جديدة من أحجية هي قسم الاستخبارات للعملية البحرية .

نظر بيبرس إلى ملفات وصناديق الوثائق وحمد ربه على أنه ليس لديه أي شيء من هذا القبيل بانتظاره في عمله .

رفع قلاوون رأسه عن طاولة كتابته «يبدون في حالة طيبة . أعتقد أن السجناء الفرنجة ربما خافوا من أننا على وشك مهاجمتهم مجدداً» .

«إنهم في مجمع عبر النهر» .

«كانوا قادرين على سماعك» خربش قلاوون ملاحظة «هل أرسلت في طلبها ليلة أمس؟»

ابتسم بيبرس «أنت تعرف أنني فعلت» .

«هذا صحيح . تبدو اليوم بحالة أفضل . أنا سعيد . آمل أنك خصصت بعض الوقت لتسمع ما قد رأته سابقاً . . حسناً ، أنت تعرف ما أرمي إليه» .

تلفت بيبرس حواليه باتجاه الضباط والفرسان المارين ثم أشار إلى قلاوون قائلاً «تعال وتمشى معي» .

نهض قلاوون وأخذا يتمشيان سوية عبر المعسكر بدون مساعديهما حتى لا يتنصت إليهما أحد .

سأل قلاوون «وهكذا هو يخطط لاستخدام النقود الفرنجية ليدفعها للخان المغولي؟ هي خطة محكمة ، لولا وجود المشاكل المحدقة بنا . من الذي سيدفع للرجال؟»

أجابه بيبرس «سندفع نحن ، على ما أفترض» .

«وماذا إذا لم نعد موجودين ، لأنه يبدو أن هذا السلطان يرغب أن يخلص نفسه من بحريي والده» .

«لن نغادر بدون قتال» .

«سيوافق كل من آيبك وأقطاي» .

«أخبرهما بما سمعته . أنا لا أستطيع أن أجتمع بهما حالياً ؛ لأن ذلك سيثير الشكوك» .

«سأخبرهما . هنالك اجتماع مخطط له ظهر هذا اليوم» . تمشيا لمسافة أخرى قبل أن يتكلم قلاوون «لقد وردت أخبار من بغداد . لقد قرر مونجكي خان ، الخان الأعظم ، مرة واحدة وإلى الأبد ، أنه يريد أن يحكم بلاد الفرس وسورية . لقد أصدر الأمر لأخيه هولاكو لكي يشكل جيشاً لهذا الواجب» .

«وهل باشر في العملية؟»

«لقد باشر» قال قلاوون ، بصوت هادئ إلى درجة أجبرت بيبرس على أن يميل باتجاهه حتى يسمعه فوق أصوات المعسكر . «لقد استدعى رجلاً من بين كل عشرة رجال في منغوليا ، بالإضافة إلى وحدات من أرجاء امبراطوريتهم كافة . لقد انضم القفقاسيون والأرمن إلى قضيته ، هذا ما تقوله الأنباء . إنهم يبلغون مئات الآلاف وهم يزحفون باتجاه بغداد بينما نحن نتحدث . لقد قاموا بإبادة أصدقائنا القدامى الخوارزميين من الميدان وأحرقوا وطنهم بالكامل . كل مدينة

تقاومه تعالج بالسيف . بدون أية استثناءات» .

«وماذا عن أمر الخليفة العباسي؟»

«إنه يخبر الشعب والنبلاء أن الله سوف يحميهم ، وأن جيشهم هو جيش الله .

ولكنه يرسل رسائل استجداء إلى هولاكو في الخفاء ، يعتذر عن الإهانات والخلافات السابقة ويرجو الرحمة» .

«هل (كلمتك) حول هذه المسألة موثوق بها؟»

«لدي العديد من (الكلمات) التي تخبرني عما يدور في بغداد . وأنا أصدق هذا بالذات» .

«وأنت تحتفظ بهذه (الكلمات) لنفسك ، أليس كذلك؟»

«تلك هي الطريقة التي تظل فيها (الكلمات) في غاية الأمان» .

«ما رأيك في خطة توران شاه للدفع للمغول اتقاءً لشرهم يا قلاوون؟»

«أعتقد جازماً أنهم سيأخذون نقوده ويستمرون في الركوب باتجاه البحر الأبيض المتوسط . ما لم يعثر على ملك آخر للفرنجة ليأسره ويطلب الفدية ، فسوف يلقون به في البحر» .

«وهو يخطط أن يلقي بنا في البحر قبل أن يحدث ذلك بوقت طويل» .

قال قلاوون «ذلك هو ما تخبرني به (كلماتي)» .

الفصل السابع عشر
مصر

لم يكن بيبرس قد رأى من قبل خيمة أو بناءً في مثل لمعان وبريق الخيمة التي كان توران شاه قد أمر بنصبها خارج فارسكور . توهجت آلاف الشموع فوق شمعدانات معلقة من أعمدة السقف . أعدت الموائد بأطباق وأكواب ذهبية ، وكانت جميعها مع الأثاث ومفارش الموائد ، مشغولة بخيوط الذهب ، وقد اتحدت كلها لإبهار الحواس .

لم يكن بيبرس غريباً على أبهة البلاط ، ورغم ذلك فقد شعر بشيء من الدوار أثناء اتباعه لضبي عبد نصف عارٍ إلى مقعده . تم وضعه إلى مائدة طويلة بين قطز وقلاوون كما في السابق ، في المكان الثالث خلف المائدة الثانية التي جلس إليها أقطاي وأيبك مع الوزراء والنبلاء المحليين .

عند رأس الطاولة ظهر مقعد توران شاه ، بارزاً في فخامته المبالغ فيها . فقد كان في الحقيقة عرشاً ، رغم كونه نسخة مختصرة إلى حد بعيد عن العرش العظيم الجالس في القاهرة ، الأمر الذي تم تفسيره باحتمال ضرورة تقليصه بالحاجة إلى تمكين المدعوين الآخرين من مشاركة السلطان في مائدته .

«القادة الذين يبقون أحياء لا يتناولون عشاءهم وحيدين أبداً» .

دخل صوت ايديكين إلى رأس بيبرس وهو يستعرض فخامة المنظر . كانت هناك حتى أشجار نخيل مقلدة ، مرصعة بالجواهر موزعة

بين الموائد وفي الزوايا . أومضت ثمارها من الياقوت الأحمر مع انعكاس الضوء . فكر بيبرس : قطع من الألماس .

تذكر وقتها جوابه على توكيد ايديكين «كثيراً ما لقي أولئك القادة حتفهم على الموائد أيضاً ، أليس كذلك يا سيدي؟»

لم تكن سنه يزيد على خمسة عشر عاماً في ذلك الوقت .

«لقد حدث لهم ذلك يا بيبرس . ذلك صحيح» قال ايديكين «وهكذا ، فما هي العبرة؟»

«تناول طعامك وأنت على ظهر جوادك . بهذه الطريقة لن يتمكنوا من الإمساك بك أبداً» .

دخل أفراد حلقة توران شاه الداخلية مع هدير الأبواق وساروا على طول المساحة الطويلة المتروكة في وسط الأرضية من أجل الموكب الملكي . سار في مقدمتهم معمر وليبور ، لم يتلفتا يمنة ولا يسرة للسلام على صفوف الوزراء والضباط ، بل مشيا بدلاً من ذلك رافعين رأسيهما عالياً نحو المائدة الرئيسة واتخذا موقعيهما بأثوابهما الزاهية .

همس قلاوون «إنهما مثقلان بجواهرهما إلى درجة أنهما يمشيان بمنتهى الصعوبة» .

عندما استكمل إشغال الموائد ، تحرك العبيد الذين لا يرتدون سوى قطع قماش فوق أعضائهم الخاصة ، مثل الصبي الذي أحضر بيبرس إلى مكانه ، تحركوا على طول الأرضية ليملأوا كل كوب مستخدمين أباريق طويلة ، محفورة عليها رموز فارسية ، تذوق بيبرس كوبه . لم يكن النبيذ مخلوطاً بالماء .

بعد انتهاء تلك الخدمة وابتعاد السقاة ليقفوا عند محيط التجمع ، قام مراسل بالضرب على جرس قرصي وأعلن حضور السلطان .

«قفوا احتراماً للسلطان توران شاه ، قاهر الفرنجة وحاكم الجزيرة ، سيد الفرات والنيل . حفيد رسول الله والمجاهدين في سبيل الإسلام !»

نهضوا واقفين واستداروا بينما زعقت الأبواق ودقت الطبول إكراماً لتوران شاه .

ظهر السلطان مرتدياً ثوباً وطقماً يليق بصلاح الدين نفسه . أثناء مروره ، مال قلاوون مقترباً من بيبرس .

«يقول كل من أقطاي وأيبك إن الوقت قد اقترب» .

نظر بيبرس ليرى أن كلاً من قطز وقلاوون يحدقان فيه بنظرة ذات مغزى . فهم الوضع . سارت شجرة الدر خلف السلطان مع سيداتها ، حجابها شفاف إلى درجة أن كل ملامح وجهها باتت مرئية ، وصار جمالها كافياً لأن يجعل جميع الرجال الذين رأوها يشهقون .

سأل بيبرس «ماذا عن الملكة؟»

«إنها تعرف» قال قلاوون .

جاء هذا القول مفاجئاً ، لكن بيبرس احتفظ بالمفاجأة لنفسه .

انتظر توران شاه حتى جلست زوجة أبيه إلى مائدة ثانوية ، أقل بدرجة ، وإلى الجانب من تلك التي يشغلها مع رفاقه ، لكنها ظلت أعلى من موائد القادة وكبار الموظفين ، ثم نهض ليخاطب الاجتماع .

«إننا مدينون بشكرنا في هذا اليوم لله العلي القدير ، الواحد الأحد ، ورسوله محمد ، سلام الله عليه . لقد هزمنا الكفار والإمبراطورية تنعم الآن بالسلام . إن مملكتنا هي مملكة الله الحقيقية ، ولا يمكن أن يكون هناك شك بأن أولئك الذين يبقون خارج سلطانها سرعان ما يستسلمون أو يتم تدميرهم . كما حدث لملك الفرنجة!»

صدرت هتافات عن الوزراء ورجال السلطان . اكتفى بيبرس

والبحريين الآخرين بالتصفيق .

نهض معمر واقفاً وقد رفع كأسه «اشربوا نخب سلطاننا ! ليدم حكمه إلى الأبد !»

فعل الضيوف ما أمروا به ، مع أن بيبرس اكتفى بأخذ رشفة صغيرة من الشراب القوي .

رأى آيبك واقفاً مباشرة أمامه يفعل الشيء نفسه .

«دعونا نحتفل !» صاح توران شاه وانطلق هتاف آخر قبل أن يجلس مع تلويحة من يده ، فاندفعت الأحاديث من كل مكان في أرجاء القاعة الخيمية . باشر العبيد في وضع قصعات هائلة من الطعام على الموائد ، سلطات مملوءة بالبندق والبلح ، التين . أسياخ من مختلف أنواع اللحوم وأطباق من أرغفة الخبز المشروح . تناول بيبرس سيخاً من لحم الخروف ووضعه في قطعة خبز وأخذ يمضغ . لاحظ أن لا قلاوون ولا قطز كانا يتكلمان . تناول ثلاثتهم الطعام ببطء ، غارقين في تفكير عميق . قال أقطاي شيئاً ما لآيبك في المقدمة ، والذي رد عليه الرجل الآخر بطأطأة ، وكان ذلك هو الحد الأقصى لمحادثتهم إلى حين إزالة الصحون الفارغة للطبق الأول .

تبع ذلك المزيد ، تشكيلة من أنواع الحساء والصلصات ، أطباق حلوة وذات مذاق شهي ، وكلها متوافقة مع إعادة تعبئة للأقداح بالنبيذ من قبل الصبية الذين لم يتوقفوا عن الحوم مثل حشرات العث حول كل مائدة . لم يأكل بيبرس الكثير وشرب حتى الأقل ، فقد انشغل تفكيره بما قاله قلاوون له مسبقاً ، حتى انقضت ساعة كاملة وبقي لديه بعض النبيذ في كوبه .

بعد أن تمت إزالة آخر الأطباق ، ضرب المراسل على جرسه

القرصي مرة أخرى وعاود جميع الحضور توجيه انتباههم إلى المائدة الرئيسة .

نهض توران شاه وقد بدا أكثر تهتكاً من لحظة دخوله القاعة ورفع يده .

«أنا -» وكبت تجشؤه . ثم قال «لدي خطاب أريد أن أقرأه لكم» .

همس قلاوون «ما مقدار ما شربه؟»

«ما يكفي» قال بيبرس . استند إلى ظهر مقعده ليحصل على رؤية أفضل .

«لقد كتب ابن عمنا الكريم الأمير جمال الدين حاكم دمشق ليهنئنا على نصرنا العظيم ، وأنا أعتقد أن هذا شي ينبغي عليكم أن تسمعوه» . قال توران شاه . مد يده باتجاه المراسل . صعد الرجل إلى المكان الملكي وناول السلطان شيئاً ، قبل أن يعود أدراجه ، منحنياً حتى وسطه .

«إنني بحاجة إلى طاقيتي المخصصة للقراءة» . نزع توران شاه عمامته ووضع على رأسه طاقية مخروطية الشكل ذات ألوان غريبة «هذه هي الطاقية التي ارتداها لويس الفرنجي حينما أحضر جيشه إلى شواطئنا . لقد كانت في أنقى درجة من البياض في حينها . لكنها الآن ملطخة بدماء الفرنجة!»

انطلق هتاف هائل واستمتع توران شاه بالتهليل قبل أن يرفع كفه طالباً الهدوء . قرأ رسالة شكر غاية في الإسراف والاحتفال قارن الأمير فيها انتصارات السلطان ليس فقط بصلاح الدين بل بانتصارات النبي نفسه . كبت قلاوون شخرة . استمرت القراءة ردحاً إلى أن قرأ توران شاه الخاتمة ، وقد تأثر بالمديح المنثور على شخصه بدرجة واضحة ، حتى

إن بيبرس فكر أنه رأى السلطان يمسح دمعه عن عينيه .

«يجب عليَّ الآن أن أقدم امتناني الخاص» . قال توران شاه «لأن أسر الكلب لويس الفرنجي لم يكن إنجازاً سهلاً . ولم يكن بالإمكان القيام به إلا من قبل أشجع وأقدر الفرسان المقاتلين» .

التفت قلاوون إلى بيبرس وابتسم .

«لهذا السبب أنا أرغب في مكافأة الصالح ، أكثر مستشاريَّ إخلاصاً لي ، والذي سلَّم لويس إليَّ وأشرف على سجنه وتوبته على جرائمه خلال الأيام القليلة الماضية» .

نهض رجل لم يكن بيبرس قد رآه من قبل أبداً من طرف المائدة الملكية ومشى باتجاه السلطان ، الذي حيَّاه وكأنه ابن له .

قال قلاوون «هذا خصيّ !»

اكتسب وجه بيبرس تعبير عن الغضب العارم . نظر وراءه باتجاه قطز فرأى النظرة نفسها على وجهه .

«أيها الصالح ، أنت أسد مصر ومطرقة الفرنجة» رفع توران شاه سلسلة ذهبية ضخمة ووضعها حول رأس الخصي وابتسم كلا الرجلين . صفق معمر وبقية المستشارين الجالسين إلى المائدة . لم يشارك أي من البحريين في التصفيق .

قال قلاوون «ليست هذه مجرد إهانة قاتلة لك يا بيبرس ، هذه إهانة لجميع البحريين» .

انهمك أقطاي وآيبك في حوار عنيف .

«ينبغي أن نغادر . ننهض واقفين ونخرج» . اشتدت قبضة قلاوون على الطاولة .

«ليس بعد» قال قطز .

كان الصالح قد انحنى بحدة أمام توران شاه ، فعمد السلطان إلى رفعه ووضع يديه على كتفيه . بعد تبادل عبارات المجاملة ، عاد الصالح إلى مقعده . عاد توران شاه إلى مواجهة الجمع .

قال «هناك الكثير مما ينبغي عمله . لقد انتصر ديننا على الكفار ، وقد تمت مكافأتنا نتيجة لذلك . لقد تم إرسال خيالة إلى الخليفة في بغداد ، مع عربات محملة بالجزية لإظهار إخلاصنا لقضيته الأسمى» .

انفجر المزيد من التصفيق من رجال السلطان لإظهار موافقتهم .

ظل البحريون على وجومهم بوجوه مثل الصخر . رفع توران شاه كأساً على امتداد ذراعه كاملة ثم تناول جرعة طويلة .

استطرد قائلاً «لكن لا يشارك الجميع في إخلاصنا . ليس كل أصدقائنا المزعومين هم على ما يبدون!»

انطلقت همهمات استنكار .

«بعض الذين عانقناهم مثلما عانقت الصالح الشجاع في هذه اللحظة ، لا يتمنون لسلطانهم كل نجاح!»

ملأ القلق القريب من الخوف نفوس الضيوف المراقبين لما يجري .

«البعض . . . حتى بعض الموجودين في هذه الغرفة ، قاموا بالتآمر ضد شخص السلطان . لقد انهمكوا في البحث عن وسائل للاستيلاء على ما هو قدس الأقداس وتحويله إلى شيء مبهرج مثل أنفسهم !»

تحول الخوف إلى الغضب حين أخذ العديد من القواد البارزين والوزراء يتلفتون في أرجاء الغرفة ، باحثين عن مصدر انزعاج السلطان ، وأخذ آخرون يطلقون كلمات دعم للسلطان .

بدأت الأعين تستقر على البحريين ثم تركزت على بيبرس . ظهر وكأن تركيز الغرفة ينتقل ويحوم حوله . رفع توران شاه ذراعه .

«أدخلوها !»

حصل تدافع عند مدخل الخيمة وظهرت مجموعة من الحرس يسحبون شخصاً ما معهم . أغمض بيبرس عينيه ثم تلفت . لقد كانت المرأة مارا ، بالطبع . سحبها الحرس من ذراعيها على طول الممشى الأوسط ، لا تكاد قدماها المغرقتان في الصغر تطآن الأرض أثناء مشيهم .

«لقد كانت هذه الفتاة هي التي قالت إنها تخدم السلطان» قال توران شاه «لقد جلبت لي طعامي وحتى الماء الذي أشربه . تظاهرت أنها بريئة من مآسي العالم ، بينما كانت في الحقيقة تتآمر وتتجسس لصالح الأعداء الذين يسعون إلى تدمير امبراطوريتنا العظيمة» .

توقف الحرس أمام مائدة توران شاه وألقوا بمارا إلى الأرض . لم يقم أي من الضيوف الآخرين أو من المحيطين بالملكة الوالدة برد فعل . اكتفوا بالجلوس ينظرون إلى الأسفل باتجاه الفتاة المنتحبة مثلما ينظرون إلى عصفور طار لتوه إلى داخل بيتهم . أبقت شجرة الدر يديها معقودتين أمامها واستمرت في التحديق .

«ماذا لديك لتقوليه؟» زمجر توران شاه صارخاً في مارا .

توسلت الفتاة ، وقد ملأ نحيبها السكون الذي خيم على القاعة الهائلة «أرجوك يا صاحب الجلالة . أنا لم أرتكب أي خطأ» .

«كاذبة !» ملأ الصراخ الخيمة الواسعة وهب البعض واقفين على أقدامهم .

قال توران شاه «إنهم على حق . فأنت كاذبة . لكنك لست الأسوأ من بينهم . ليتقدم الرجل الذي قادك إلى الضياع إلى الأمام ويقول الحقيقة لسلطانه للمرة الأولى» .

وضع قلاوون يداً مسكنة على ذراع بيبرس، وشد قبضته بينما نهض بيبرس ورفع رأسه عالياً.

«أنا هو الشخص أيها السلطان. اترك الفتاة بحالها. لقد قمت بإغوائها كما تقول».

حول توران شاه نظرته إليه وثبتت ابتسامة شريرة نفسها على وجهه.

قال «بيبرس، بطل المنصورة. من كان ليفكر أن الرجل الذي أنقذ المملكة قبل مجرد بضعة أيام سينقلب بهذه السرعة ويحاول أن يملأها بالسم؟»

تسبب هذا الكلام بحدوث موجة من التوتر. لكن أحداً لم يتحرك. لم تكن هناك أية صرخات أو مناداة في هذه اللحظة. الصوت الوحيد المسموع هو بكاء مارا.

قال توران «هل تعتقد أنني أخاف منك؟ هممم؟ هل تعتقد ذلك فعلاً؟» بات مخموراً، تعتعه السكر.

جاء صوت بيبرس معتدلاً وواضحاً «دع الفتاة تذهب. أنا هو الشخص الذي تريد أن تعاقبه. إنها طفلة بريئة».

«هل تجرؤ على إصدار الأوامر إليّ؟ كيف تتجرأ على القيام بمثل هذه الأمور؟ وأي نوع من الأطفال هي حتى تأخذها إلى فراشك؟»

قاوم بيبرس الدافع إلى الجري للأمام.

«أوقفوها على قدميها» أمر توران شاه. أطاع الحرس أمره بينما أطلقت مارا نواحاً عالياً وهم يرفعونها.

«أنا السلطان الأسمى مرتبة في هذه البلاد» رفع توران شاه ذراعيه عالياً «وأنا أمتلك السلطة على حياة وموت جميع رعاياي. وبما أنهما

تآمرا ضد عرشي ، فسوف أستخدم ذلك العرش لإنزال العقوبة . الموت!»

انطلقت صرخات من الذعر بينما تراجع الحرس وقام أحدهم بإشهار سيفه . سحبه عبر رقبة مارا بدون أن يتنفس ، ثم رفعه نحو أذنها اليسرى . طار رذاذ الدماء بقوة إلى درجة أن الحرس في المؤخرة والموائد خلفهم تعرضوا لرذاذ أحمر . قفزت كل النساء المرافقات للملكة الوالدة خارج مقاعدهن وبدأن يركضن هاربات . ومع ذلك لم تتحرك شجرة الدر . ابتسم توران شاه ورفع ذراعيه بأعلى ما يستطيع «هذا هو مصير الخونة !»

لم يتسن لقلاوون الوقت إلا لينهض عن كرسيه ويهرول باتجاه الباب قبل أن يسحب بيبرس سيفه ويهجم على المائدة الملكية . انفجرت الفوضى مع انقلاب الموائد وتطاير الكراسي إما لسقوطها أو قذفها . لم يتمكن أقطاي وأيبك من الوصول إلى بيبرس بسبب منعهما من قبل حشد من الوزراء ، رغم أنهما أشهرا سلاحيهما في يديهما . ركض بيبرس وتجاوزهما ، وهو يدفع بكتفه ويسقط أي شخص تواجد في طريقه إلى ناحية ، بينما لاحقه قطز على بعد مجرد خطوة خلفه . اتجهت بقية الضباط البحريين الموجودين في القاعة ، والبالغ مجموعهم عشرين ، في الاتجاه نفسه . في هذه اللحظة ، شكّل حراس توران شاه الذين كانوا قد ادخلوا مارا إلى ذلك المكان ، نصف دائرة أمام السلطان لحمايته من بيبرس المندفع . حاول المزيد ممن هم في الخارج أن يدخلوا ، لكن كتلة أولئك الفارين من المشهد كانت تسد المدخل ، فلم يتمكن الحرس السلطاني من المرور ، حتى عندما أخذوا يطعنون ضيوف العشاء عديمي الحظ ويضربونهم إلى الخلف .

قابل بيبرس سيف الحارس الرئيس وتهرب من الهجوم الجانبي لحارس آخر، ما جعل الرجل يطوّح بطيش ويصيب زميله بجرح عميق في ذراعه. قفز بيبرس إلى الخلف وطعن الرجل الذي أقدم على قتل مارا في معدته وراقب بقناعة والرجل ينزلق إلى الأرض، ممسكاً بطنه بيده. حاول حارس آخر أن يصيبه بالأسلوب نفسه، لكنه أصيب بمقدمة سيف قطز، الذي فتح وجنة الرجل ثم استدار ليطعن الحارس الأخير بهجوم معاكس.

نظر بيبرس في هذه اللحظة إلى السلطان المنكمش خوفاً وأتباعه، والذين أشهر معظمهم سيوفهم المزخرفة وتجمعوا حول توران شاه لمنحه بعض الحماية. وصلت بقية الفرسان البحريين إليهما والى المجموعة الملكية، بينما علق الحراس الملكيون في الخارج، فأصبحوا أقلية فاقدة الأمل. حوّل بيبرس نظرته إلى شجرة الدر فبادلته السيدة المطلقة النظرة بعينين في سواد الفحم، وقد اتخذ فمها الأحمر خطاً أحمر مستقيماً. منحته العينان الموافقة، بطريقة لا مجال للخطأ بشأنها.

ظهر آيبك خلفه ووضع يده على كتف بيبرس قائلاً «افعلها».

قفز بيبرس فوق المائدة وأهوى بسيفه فوق رأس معمر مثل صعقة برق أزرق.

تهاوى الرجل الضخم مثل شجرة عفنة. استدار بيبرس وطوّح بسيفه في ضربة جانبية على رقبة ليبور، فسقط الثاني من قادة توران، والذي كان قد ألقى بسيفه سلفاً ورفع يديه في حركة استسلام، إلى الوراء وتهاوى عن المنصة المرفوعة نحو جدار الخيمة. ألقى بقية رجال حاشية توران شاه أسلحتهم وسقطوا جاثمين على ركبهم، يتوسلون من أجل الحفاظ على حياتهم.

بقي السلطان متسمراً في مكانه ، وقد تجمد من الخوف المخمور ، وقد جعلته رجفته العصبية يرتعش بكامل كيانه .

نزل بيبرس عن المنصة وتوقف عند الصالح .

قال له «انهض» وعندما أجاب الخصي المذعور بمجرد نشيج ، كرر كلامه بصوت ميدان الاستعراض «قلت لك انهض!»

نهض الصالح على قدميه وهو يثرثر باكياً . نظر بيبرس إلى توران شاه وأشار بسيفه إلى الصالح .

«هل هذا هو مطرقة الفرنجة؟ هل هذا هو الرجل الذي سيكسب لك حروبك؟»

لم يعد توران شاه قادراً على الإجابة . طعن بيبرس الصالح بسيفه وعاد أدراجه .

قال «أنت لست بسلطان . أنت جبان سكير وأحمق ، ولا تستحق اللقب مثل والدك وصلاح الدين من قبله» رفع سيفه .

«لا !» زعق توران شاه ورفع يده فوق رأسه في اللحظة التي أنزل فيها بيبرس النصل . قطع السيف عبر الأصابع الأربعة من اليد ، تاركاً البنصر وحده معلقاً بخيط من الجلد . أصدر توران شاه زعقة عذاب ويأس . عندما رفع بيبرس سيفه ثانية ، ظهر ثقب في جدار مؤخرة الخيمة وبدأ الحرس الملكيون يتدفقون من خلاله . استطاع توران شاه بطريقة ما أن يستجمع ما يكفي من القوة ليستدير ويركض باتجاههم ثم ينجو من المخرج المرتجل .

«اركضوا خلفه !» صاح أقطاي وهجم البحريون ، اشتبكوا مع الحرس الملكي وقضوا عليهم بالسرعة التي ظهروا فيها عبر الثقب . اندفع بيبرس خارجاً إلى الناحية الأخرى ، حيث رأى الشكل المبتعد

لتوران شاه يركض باتجاه البرج الملكي . هرول خلفه مشهراً سيفه بيده .

أصبح بالإمكان سماع أصوات خيالة تقترب . كان أولئك هم بقية سرايا البحريينْ ، بقيادة قلاوون وتيكا . ركبوا إلى وسط جنود السلطان النظاميين ، يطوحون يمنة ويسرة ليطرحوا أي شخص يعترض طريقهم . بدأت ألسنة اللهب ترتفع خلفهم نحو السماء الصافية الليلية ، وتعالت الأصوات والصرخات في كل مكان حولهم .

تلفت توران شاه خلفه مرة أخيرة عندما وصل إلى باب البرج الخشبي المحاذي للنهر ، ثم عبر إلى الداخل وأغلق الباب خلفه . دفع بيبرس الباب بكتفه لدى وصوله إلى هناك ، لكنه وجده من البلوط السميك بحيث أن كبش الخشب سيجد صعوبة في مجرد ترك علامة على خشباته .

جاء خلفه كل من قطز وأيبك وأقطاي مع الآخرين الذين كانوا في الوليمة ، وعندما شاهد قلاوون وتيكا مشاعلهم ، أوقفوا جيادهم .

قال قلاوون «لقد استولينا على المعسكر» .

أضاف آيبك «وكذلك الخيمة» .

قال قطز «ومع ذلك لم نستولِ على البرج . هل تمكن السلطان من الدخول إليه؟» موجهاً سؤاله إلى بيبرس .

هزَّ بيبرس رأسه بالموافقة وقال «أحرقوه»

أحضروا المزيد من المشاعل من الخيمة وتوزع الفرسان للعثور على ما يكفي من الأخشاب وخشب الإشعال لتكويمه حول قاعدة البرج . تصاعدت وتيرة الضجيج في الجهة الأخرى من المعسكر مع انتشار الأخبار عما يجري .

قال أقطاي «لابد وأن أتباع توران شاه الباقون على قيد الحياة قد

تمكنوا من الوصول إلى قطعاتهم . قطز ، إذهب إلى هناك واعمل على تحييدها» .

أدى قطز التحية وانطلق مع مجموعة من الفرسان ، وجمع بقية أفرادها أثناء انطلاقه .

نظر أقطاي إلى كومة الحطب والأغصان حول قاعدة البرج العريضة . وقال لبيبرس «سوف يستغرق هذا وقتاً طويلاً» .

حوَّل بيبرس نظره من الكومة إلى الجهة العليا من البرج وأجرى حساباته . نظر من فوق كتفه قال «الخيمة . اهدموها وكوموها هنا» .

انطلق تيكا على الفور مع مجموعة من البحريين باتجاه الخيمة العملاقة ، التي يبلغ حجمها مساحة ملعب بولو وتحتوي على الكثير من المواد القابلة للاشتعال ، بحيث يحتمل أن يصل ارتفاع لهيبها إلى ارتفاع البرج عندما توضع جنباً إلى جنب . لقد كانت أعجوبة أنها لم تحترق في خضم الهلع والفوضى مع كمية المشاعل الهائلة في الداخل .

صاح آيبك «الملكة ! إنها مازالت في الداخل هناك ! يجب علينا أن نعمل على سلامتها !»

راقبوه وهو يذهب راكضاً خلف طاقم التدمير ، وبعد ثوانٍ قاد الملكة الوالدة من خارج الباب نفسه المرتجل الذي استخدموه بأنفسهم .

سأل قلاوون «هل كانت موجودة في الداخل هناك طيلة الوقت؟»

قال بيبرس «لم تتحرك مطلقاً» . راقب خروج أول البحريين الشباب حاملاً كراسي مكسورة وطاولات أخرجت من قاعة الوليمة . تضاعفت كمية هذه القطع ثلاث مرات خلال دقائق لتضاعف حجم وقود النار أسفل البرج . أضيفت المطرزات والكتان فوق الخشب وقام بيبرس بدفع المشعل ليوقدها .

عبس أقطاي وسأل «ألن تمنحه أي إنذار؟»

«وهل كان سيفعل الشيء نفسه معنا؟»

اشتعلت النار وامتدت، وسرعان ما تحولت قاعدة البرج إلى جحيم مستعر. استمر البحريون في الجري جيئة وذهاباً باتجاه خيمة الوليمة المتناقصة ليضيفوا المزيد من الوقود.

ظهر رأس من إحدى النوافذ العلوية وأخذ يصرخ إلى تحت، في ثرثرة غير مفهومة ولا قابلة للفهم.

قال أقطاي «لقد أصابه مسٌّ من الجنون. ماذا يفترض فينا أن نخبره؟»

«لا تخبره أي شيء. لقد فات الوقت». قال بيبرس.

«لا يمكننا أن نسمح له بالبقاء حياً بعد الآن» علق قلاوون.

أجبرتهم زعقة رهيبة على رفع رؤوسهم فشاهدوا جسماً يطير خارجاً من النافذة، فوق النار، وباتجاه المناطق الضحلة من النهر خلفهم. عاود توران شاه الطفو على ضوء النيران وبدأ يتحرك باتجاه الشاطئ.

صاح قائلاً «عرشي! سوف أتنازل عن عرشي! بإمكانكم أن تأخذوا كل شيء!»

نظر بيبرس باتجاهه للحظة ثم أصدر أمره بصوت خفيض «السهام».

صاح قلاوون «السهام!»

بدأ الرجال على الفور يلقمون أقواسهم.

«كلا!» أرجوكم أرجوكم!» أصبح توران شاه في هذه الآونة على مقربة أقل من ثلاثين قدماً. «سوف أذهب بعيداً. سوف أختفي في

الجنوب . سوف أذهب حتى باكتريا ! أرجوكم أن لا تقتلوني!»
«أطلقوا» قال بيبرس .
انزلقت السهام المطلقة عبر الماء مثل حجارة تلامس السطح . غطس توران شاه تحت الماء وعاود الظهور بحيث بدا أنه لم يصب «بحق الله ! اعفوا عني !»
«مرة أخرى» قال بيبرس .
صلية أخرى والنتيجة نفسها . غطست السهام في الماء أو إلى جانب وعاود توران شاه النواح والبكاء ، رافعاً يده الخالية من الأصابع في الهواء . أطلق بيبرس صرخة كبت غاضب وأشهر سيفه . خطا نحو الماء وخاض فيه حتى وصل الماء إلى خصره ثم ارتفع إلى صدره . كان توران شاه قد عثر على كثيب رملي . سبح بيبرس نصف سباحة ، ثم نصف مشي ، إلى الكثيب حتى عثرت قدماه على الأرض الصلبة .
«أرجوك يا بيبرس !» وضع توران شاه كفيه مع بعضهما وعصرهما ، بحيث التفت أصابع اليد السليمة حول المصابة . «سوف أعطيك كل ما تشتهيه . سوف أعطيك سورية ، دمشق ، حلب ، إنها لك كلها ! كل النساء والحريم والمزيد . السلطة . الجيش ! الجيش لك !» .
رفع بيبرس سيفه وأهوى به . تحاشاه توران شاه فأصاب النصل كتفه . زعق وحاول أن يتحرك مبتعداً ، لكن المياه أبقته حيث هو . أحسَّ بيبرس بجرح رقبته ينفتح . رفع السيف متهيئاً لضربة أخرى . أصاب توران شاه في مؤخرة رقبته ، وفجأة تحول الرجل إلى صمت مطبق . ضربة أخرى وأخرى ، ولم يعد توران شاه يتحرك . قبض بيبرس على السترة الثقيلة وسحبه إلى الوراء ، دافعاً بالسيف باتجاه القلب من فتحة عظمة الكتف . نظفت المياه الجارية نصل السيف حينما سحبه

خارجاً . عاد إلى الشاطئ مطأطئ الرأس ومشى صاعداً عبر جمهور البحريين المحتشد . قدمت له قلة منهم التهاني المغمغمة ، لكنهم باتوا في الغالب صامتين . توقف أمام أقطاي وانحنى له ، ثم وقفوا جميعاً في مكانهم ، ولم يكن أحد منهم يعرف ما يجب عليه عمله تالياً . قام قطز بكسر نوبة الصمت السحرية ، حيث عاد من المعسكر راكباً ليخبرهم أن الأقسام الملكية قد جرت السيطرة عليها ، لكن الخزينة مازالت تحت حراسة قلة من المعتصمين وبقايا جيش معمر . توقف عن الكلام حينما رأى الجثة الوحيدة تتقاذفها المياه خلفهم صعوداً ونزولاً .

لم يقدم أي شخص أقل تفسير ، لذلك التفت نحو مساعد صغير السن وأصدر له أمراً بوجوب دفن الفتاة الموجودة فيما تبقى من الخيمة الملكية .

الفصل الثامن عشر
دمشق

عرَّف الرجل بنفسه على أنه سميح ، أحد طلاب ناصر والشخص المكلف بالإشراف على صيانة البيت حتى يصبح بالإمكان الاتصال ببقية عائلة الرجل العجوز .

«ألم تكن له عائلة هنا في المدينة؟» سأل عبد أثناء جلوسهما فيما بدا أنه غرفة الاستقبال .

«كلا ، لا أحد . لقد كان فارسياً ، وما يزال جميع أبنائه بعيدين إلى الشرق من بغداد . لقد بعثنا برسائل مع التجار وحتى مع موفدين دمشقيين ، لكنني لم أحصل على أي إجابة . إن التبليغ صعب . لا بد وأنهم رجال بالغون يعيشون مع عائلاتهم حالياً ، في ثلاثينيات وأربعينيات أعمارهم . وقد كبروا هم أيضاً . سوف أستمر في العناية بممتلكات السيد حتى يحين الوقت الذي يحضر فيه شخص ما ليأخذها ، أو يبيعها ، من يعرف؟»

قدم سميح صينية تحتوي على الخبز المشروح وتناول عبد قطعة .

«ما تزال المرأة التي وظفها ناصر للعناية بالبيت خارجة ، وهي التي تعيد ملء الخزائن في حال احتمال أن يحضر شخص مثلك ويقرع الباب . إنها حزينة كما يمكنك أن تتخيل» .

ابتسم عبد ، وذهب تفكيره إلى ابن دقيق ومدبرة منزله ، كما فكر

بوضعه مع صفية . أحزنه التفكير بهذه المسألة ، لذلك عاود التركيز على سميح .

«إنني في وضع مشابه من نواح عديدة . لقد تم إرسالي إلى هنا للدراسة على يد الشيخ ناصر ، الآن أنا في حيرة مما ينبغي علي عمله» .

«ستكون العودة إلى بغداد شاقة . بإمكاني أن أسمح لك بالبقاء هنا لبضعة أيام لأجل الاستراحة» . حك سميح رأسه . كان انطباع عبد عنه أنه شاب قوي مفعم بالثقة بالنفس لدى ظهوره أول مرة ، لكن لدى الحديث معه عن قرب ، أدرك عبد أن إظهار الرقي والثقافة وارتداء الملابس الفاخرة يخفي وراءه شخصية متوترة إلى حد الخجل .

«سيكون الحديث معك عن طبيعة عملك وما هو الوضع في بغداد مصدراً لمتعة عظيمة لي . فأنا لم أحصل أبداً على امتياز السفر بعيداً عن دمشق» . توقف سميح لوهلة ثم أنهى كلامه بقوله «بالطبع . يوجد كذلك الكثير مما يمكن عرضه هنا في دمشق أيضاً» .

«أشكرك يا سميح . إنه عرض ساحر» قالها وهو صادق «لكنني أخشى أنني لا أستطيع أن أعود إلى بغداد الآن ، ولا حتى خلال بضعة أيام قادمة» .

تقدم سميح في جلسته على الوسادة .

«لقد أرسلني ابن دقيق إلى هنا لأنه ستقع حرب بين الخليفة والخان المغولي . ستصبح بغداد منطقة حرب» . لم يذكر عبد أن أحد زملائه الدارسين قد حاول أيضاً أن يغتاله في الليلة التي سبقت مغادرته .

قال سميح «في هذه الحالة يجب أن تبقى هنا» .

«لكن ينبغي أن يتوفر لدي عمل أقوم به . ماذا لو وصل أقارب ناصر ولم يكن لدي مكان أذهب إليه؟»

«هناك غرفتي ، لكنها ضيقة ومحشورة إلى حد ما» .

عاود عبد الابتسام «أستطيع أن أتخيل» .

«هل لديك شيء من المال؟» قال سميح بدرجة من الفجاجة بحيث أن عبد لم يخطر بذهنه أن يأخذ حذره .

«لدي القليل ، لكنه لن يكفي إلى الأبد» .

بالحكم على وزن القطع النقدية التي ناوله إياها ابن دقيق ، أدرك أنه سيتوفر لديه ما يكفي من المال للإنفاق على إقامته في نزل جيد وطعامه لمدة شهرين أو ثلاثة ، لكن ليس للكثير غير ذلك . فكم سيطول الوقت حتى تصبح العودة إلى بغداد آمنة؟ لم يعرف الجواب . ماذا إذا قرر الخان أن ينتظر حتى حلول الربيع ليغير على المدينة؟ أو حتى الصيف؟ ذلك حتى قبل أن يفكر بأن المدينة ستتم محاصرتها ، وذلك حتماً هو الاستنتاج الذي قرره خلال الأيام والليالي الطويلة التي قضاها قاطعاً الصحراء . يحتمل أن يدوم نفيه لسنة كاملة أو ربما أطول .

«في تلك الحالة سنعثر لك على عمل ما . سوف أسأل في المدارس والكلية . يمكنك أن تؤسس نفسك كمدرس لأطفال الأغنياء . لا شك عندي في أنهم سيدفعون راتباً جيداً لدارس قادم من بيت الحكمة» . ربت سميح على كتفه .

«لا تخش شيئاً يا صديقي . سوف نعثر لك على مكان هنا في دمشق . آمل أن يتوفر لك ما يكفي من المال لزيارة الحلاق ، صح؟ بوسعي أن أعيرك بعض الملابس . نحن لا يمكن أن نترك زميلاً لنا يتجول في أرجاء المدينة بمنظر سائس بعير . ما الذي سيفكر الناس فيه؟»

ضحك عبد ومرر أصابعه من خلال لحيته التي طالت كثيراً .

«بالنسبة للوقت الحاضر ، فسوف تنام هنا . ذلك ما كان سيرغب فيه الشيخ ناصر لتلميذ صديقه ، أستطيع أن أقول لك ذلك . اسمح لي أن أتولى الأمور كافة» .

أحسَّ عبد بدفقة من السعادة والأمان ، وهو شعور كاد ينساه منذ تلك الليلة في قصر الخليفة . أمضى هو وسميح بقية تلك الليلة وهما يبحثان في عمليهما ، هو في دراسته للتاريخ وسميح في علم النجوم . أصغى عبد مذهولاً بينما شرح له سميح كيف اكتشف الشيخ ناصر الطريقة التي تتحرك بها النجوم إحداها حول الأخرى ، وحتى كيف يمكن لإحدى النجمات أن تظهر في جزء ما من السماء في وقت ما من السنة ثم في قسم آخر في فصل مختلف .

صباح اليوم التالي ، وقبل أن يغادر سميح متجهاً إلى الكلية ، ليقوم ببعض الإستفسارات نيابة عن عبد ، فتح باب مكتب ناصر ومنح عبد الإذن ليبحث بين الكتب الموجودة على الأرفف حسبما يريد . قال إنه سيترك ملاحظة للسيدة التي تعتني بالبيت حينما تعود ، بأنه موجود هنا وأنه يجب معاملته بكامل كرم الضيافة الذي يستطيع طاقم البيت أن يقدمه .

انتظر عبد حتى انصرف سميح ثم انغمس في إخراج الكتب من الأرفف وفتحها على طاولة الشيخ ناصر العريضة ، والتي بات واضحاً أن الشيخ قد حافظ على نظافتها وتنظيمها كأنها مقام أو ضريح مقدس . لم يتمكن من فهم محتويات أغلبية المجلدات ، والتي تشكل معظمها من صفحات كثيرة من الرسومات والمعادلات الرياضية التي تفوق قدرته على الفهم بمراحل عديدة ، لكن تلك الشروحات اللغوية

التي عثر عليها أبقته مستغرقاً إلى درجة أنه فقد الإحساس بمرور الوقت كلياً ، وسرعان ما جاءت مدبرة البيت لتنقر على الباب بأدب وتسأله عما إذا كان يرغب في شيء ما لوجبة منتصف نهاره . بينما كان عبد جالساً إلى طبق من الفاكهة والمزيد من خبز الليلة الماضية ، دخل سميح وقد ارتسمت على محياه ابتسامة عريضة .

«لقد قلت لك إنه لن يطول الوقت قبل أن نعثر لك على شيء تفعله» . قال وهو يهم بالجلوس ويصب لنفسه كوباً من الماء .

«ما الذي وجدته؟» سأل عبد .

«لقد حضر رجل إلى الكلية صباح هذا اليوم بالذات ، أعتقد أنه تاجر ، وسأل عن كاتب متعلم ليذهب ويقوم بسائر الأعمال الكتابية لشركته» .

«هل قلت تاجر؟ هل قابلته؟ أنا لست مؤهلاً للتعامل بالأرقام» .

«هذا هو الوضع» قال سميح «لقد قالوا إنك ستكتب ما يملى عليك ، لكنهم طلبوا بالتحديد شخصاً يكون قد تعلم بأسلوب الكتبة التقليديين وكتبة القرآن الكريم» .

«تدريس علوم الدين؟»

«يحتمل» قال سميح ، غارقاً في التفكير . تناول قطعة من الخبز «ولكن لماذا لم يذهبوا إلى المسجد للعثور على كاتب مثل ذلك؟»

«لا أعرف . ولكن ما الذي قلته أنت؟»

«حسناً ، لقد بدا الرجل من النوع الصلب . ربما حتى لم يكن عربياً ، مع أنني لم أره شخصياً . لقد طلب العميد منا جميعاً ولم يكن أحد منا متحمساً للفكرة بدرجة خاصة ، وهكذا أخبرته عنك . فقال إنه يبدو أنك تبدو مطابقاً تماماً للنمط الذي يبحث عنه الرجل» .

«حسناً ، ذلك مثير للاهتمام» .

«نعم ، لذلك قلت إنك ستقابل الرجل هناك في الكلية بحلول هذا المساء» .

احتار عبد بين خيارين . فمن ناحية ، فهذا العمل يلبي صلواته فيما يتعلق بالطريقة التي سيعيل بها نفسه ، خاصة بعد أن توفي مضيفه في دمشق ، ولكن في الوقت نفسه ، فإن فكرة الذهاب للعمل لدى شخص لم يقابله أبداً أو يعرف عنه شيئاً ، بدت محبطة . فهو لم يضطر من قبل للتفكير بمثل هذه المواقف .

«هل هذا الرجل من أهل دمشق؟»

«لا أظن ذلك ، ولكن في نهاية الأمر ، المدينة كبيرة جداً ، والناس يجيئون ويذهبون بكثرة ، مثل وضعك ، ولذلك فما هو الفارق لديك؟» أنهى سميح قطعة الخبز التي لديه ثم تناول جرعة ماء . «فهل ستقابله؟ لقد قال العميد إن الرجل ميسور الحال ، وإن شروط العمل تبدو في غاية الكرم» .

«ماذا تفعل لو كنت في مكاني؟»

«سوف أقابله . ما هو الضرر الذي يمكن أن يحصل؟»

«أفترض أنك على حق . هل حصلت على اسمه؟»

هزَّ سميح رأسه موافقاً «قلاوون» .

الفصل التاسع عشر

يكاد المسجد الأموي أن يكون مهجوراً في حرارة منتصف النهار ، مع وجود استثناء واحد هو كاتب الرسائل ، الجالس إلى طاولته الصغيرة ومنهمك في الكتابة جيئة وذهاباً بخطوط مزوقة من ريشته الصغيرة .

لم يتوقف إلا عندما سقط خيال ظل على صفحته .

قال «إذا لم تكن زبوناً دائماً ، فعليك أن تنتظر . فهناك العديد من الناس الذين لديهم أخبار يريدون مشاركة الآخرين بها في هذا الوقت من السنة» .

قال عبد «لست زبوناً منتظماً» .

رفع كاتب الرسائل رأسه واستغرق لحظة في التعرف على القسمات .

«آه ، الرجل صاحب الحكمة ، لقد عدت . هل جئت لتصلي أم لتقبل عرضي؟»

«ربما أقبل بعرضك ، ولكنني أتيت اليوم لكي أطلب منك أن تكتب لي شيئاً معيناً» .

«شيء ما لك أنت؟ ألست أنت ما قلته عن نفسك؟» بان الانزعاج على الرجل .

«أنا ما قلته عن نفسي» تمنى عبد لو كان هناك كرسي أو مقعد ليجلس عليه . فقد أحسَّ مثل طالب مدرسة واقف أمام مكتب المدير ،

ينتظر العقاب .

«إذاً لماذا لا تقوم بكتابة رسالتك بنفسك؟» أشار بحدة إلى اليسار بريشته . «إن باعة الورق موجودون في السوق بعد الشارع المستقيم مباشرة . أنا واثق من أن أحدهم سوف يبيعك قارورة من الحبر هناك أيضاً» .

تنحنح عبد «أنا بحاجة إلى أن تكتب الخطاب أنت» .

اتخذ وجه كاتب الرسائل نظرة خبيثة «كذلك إذاً؟ زيارتك إلى دمشق هي أكثر قليلاً من مجرد رحلة متعة؟»

«إنها ليست مرحة حتماً ، وأنا لا أستطيع أن أنفق على المتعة» .

أطلق كاتب الرسائل ضحكة مدوية . من الواضح أنه لا يضحك مراراً ، لكنه حين يضحك يستمتع بالضحك . «ولكن في هذه الحالة ، هل بمقدورك أن تدفع كلفة أتعابي؟»

ابتسم عبد موافقاً . «حسناً أيها الدارس ، قل لي عما تريد مني أن أكتبه ولمن» .

«لقد كتبت كل شيء هنا» ناوله عبد قطعة ورق كان قد أخذها من مكتب ناصر .

«لقد فعلت ذلك بالطبع» . رفع كاتب الرسائل الورقة باتجاه الشمس «وعلى صفائح ورق من أغلى الأنواع أيضاً» . لم يقل عبد أي شيء . بدأ كاتب الرسائل يتأتئ مستاءً . «حسناً ، هي نقودك» وضع الخطاب أمامه وسحب ورقة جديدة .

«لابد وأنك مختبئ من شخص ما أنت تعرفه جيداً وعلى ثقة من كونه يعرف خطك» .

وضع عبد قطعة نقدية على الطاولة «أريد منك أن تنسخها الآن

ثم سأخذ النسخة الأولى معي . لا أستطيع أن أفقد صحيفة من الورق الثمين» .

باشر كاتب الرسائل العمل «كما تقول أيها الدارس . لن يستغرق هذا أكثر من مجرد دقائق قليلة» .

بدأت فروة رأس عبد تنخزه من شدة الحرارة ، لكنه اكتفى بالقول «لست على عجلة» .

إلى السيد الحكيم الوافر الاحترام ، ابن دقيق .

أكتب إليك لأخبرك بأن صديقك ابن ناصر قد غادر هذه الدنيا على أثر مرض لم يمهله طويلاً . أرجو أن تعلم بأنه قد سأل عنك قبل أن يحين أجله ، وكانت أعز رغباته هي أن يكون لكما لقاء واحد أخير قبل أن ينتهي زمنه على الدنيا .

بيته في دمشق يستضيف العديد من الناس الذين طالما أعجبوا بذلك الرجل العظيم . وقد حضروا من الأنحاء كافة لتقديم تعازيهم . يحرص تلاميذه على أن كل شخص يغادر البيت حاملاً ذكرى عزيزة عن ابن ناصر ، وهكذا فنحن نحب أن نعتقد بأن لا أحد يغادر خالي الوفاض وأن الجميع يتم الاهتمام بهم .

لقد كان ابن ناصر معروفاً بإحسانه إلى الفقراء ، بدرجات أوسع وأكبر مما هو مستحق على جميع المسلمين ، وهكذا فإن الفقراء لا ينصرفون بدون مساعدة ، وسيتوفر سرير لكل من ليس لديه مأوى هنا في دمشق ، طيلة استمرار فترة الحداد وما بعدها . عندما ينتهي ذلك الوقت ، من المأمول أن كل أولئك الذين تركوا وهم محتاجون قبل ذلك ، سينعمون بحماية ذكراه التي ستعيش إلى الأبد» .

سأل كاتب الرسائل «كيف تريد أن تنهي الرسالة ، بأي توقيع؟»

«ماذا؟»

«لا يوجد اسم في ذيل ملاحظتك الراقية هنا» . رفع الصفحة الأولى .

قال عبد «وقعها باسم سميح ابن البغدادي» .

«هل اسمك هو سميح؟» زمَّ كاتب الرسائل عينيه .

«الأمر لا يهم» . قال عبد ، ثم نظر إلى الأسفل باتجاه الطاولة «هل أنهيت عملك؟» .

«لحظة واحدة» وقَّع كاتب الرسائل الخطاب بطريقة استعراضية ثم رفع الصفحة ونفخ عليها قائلاً «سيكلفك هذا دينارين» .

«هل قلت دينارين؟»

«ذلك هو ما قلته . إن التأكد من وصول الرسائل إلى بغداد مسألة تنطوي على عمل مخادع . الجيوش منتشرة في كل مكان . من يعرف الأيدي التي يحتمل أن تقع فيها هذه الرسائل؟» دلَّى كاتب الرسائل الصفحة من طرفي سبابته وإبهامه وحدجه بنظرة ذات مغزى .

نفض عبد رأسه وبحث في معطفه عن محفظته . وضع النقود على الطاولة وتناول الصفحة الأولى من الخطاب .

قال كاتب الرسائل «جيد جداً . سوف أحرص على أن يصل هذا الخطاب إلى رجلك في بغداد بأسرع وقت ممكن» .

هزَّ عبد رأسه «حسناً» .

«الأمر الغريب هو أنك تقيم مع شخص اسمه سميح أيضاً» قال كاتب الرسائل بينما استدار عبد ليغادر . «تخيل سميحان تحت السقف نفسه» .

ألقى عبد بنظرة إلى الوراء «نعم . تخيل» .

«هل ستقيم في دمشق لفترة طويلة؟»

قال عبد «لا أتخيل أن ذلك سيحدث» .

«حسناً ، هي بلدة صغيرة . أنا على ثقة من أننا سنلتقي . عد إلى هنا إذا احتجت إلى استنساخ شيء آخر وإرساله بواسطة خيالة البريد» .

هزَّ عبد رأسه موافقاً «سأفعل ذلك» .

في وقت لاحق ، جلس عبد وسميح إلى جانب البركة المستطيلة الطويلة في المدرسة حيث أمضى الشيخ ناصر أيامه يدرِّس ويدرس . كانت مراقبة الأسماك الذهبية أثناء خروجها تحت أنوار الأمسية المائلة إلى البرودة لتتراقص بين النباتات الصغيرة النامية عند أسفل الماء ، متعة .

قال سميح «لقد اعتاد الشيخ ناصر على الجلوس هنا لفترة كل صباح لمجرد النظر إلى الماء . في وقت مبكر ، بعد الفجر مباشرة . كثيراً ما سألته عما يفعله فكان يكتفي بالابتسام ويقول لي إنه يصلي . طالما سبب لي جوابه الاضطراب لأنه حتماً قد أدى صلواته قبل الفجر في بيته ، لكنني أعتقد الآن أنه كان رجلاً تقياً جداً . لقد كانت عيناه متجهتين إلى السماء دوماً» .

قال عبد «أتمنى لو أنني تمكنت من مقابلته» .

«يحتمل أن أسافر إلى بغداد في يوم ما لأقابل ابن دقيق وأزور المدينة العظيمة» .

«سوف يسعدني ذلك . ربما تحصل على الإذن من العميد بعد أن يحل السلام هناك ، وتذهب معي حين أعود . سوف يستضيفك ابن دقيق وستكون المكتبات مفتوحة لأجلك» .

قال سميح «سيكون ذلك رائعاً . كيف وجدت أعمال ناصر؟»

«في معظم أجزائها ، هي أبعد من قدرتي على الفهم . أنا لا أستطيع أن أفهم شيئاً غير الأرقام العملية ، وحتى في حينها أمضي عليها وقتاً أطول مما ينبغي . إن أفكاره النظرية التجريدية حول قدرته على توقع أين يحتمل أن تتواجد النجوم في يوم أو الآخر ، لا تقل عن العبقرية حقاً» .

قال سميح «يجب عليك أن تشاهد الاسطرلاب» .

«نعم ، لقد قرأت عنه . إنه عبارة عن آلية معينة ، أليس كذلك؟»

«نعم هو جهاز يمكِّن الشخص الذي يستعمله من قياس مواقع الأجرام السماوية وحتى احتساب أوقات شروق الشمس وغروبها» .

«من أجل الصلوات؟»

«نعم ، وكذلك لقياس وتحديد اتجاه مكة المكرمة» .

«ذلك مثير للدهشة . لقد سمعت بهذه الأجهزة من قبل لكنني لم أرها أبداً» .

«هنالك جهاز في غاية الندرة يحتفظ به مقفلاً عليه في مستودع الكلية القريب .

إنه والقطع الأخرى في المجموعة قيمة جداً إلى درجة أن العميد وحده يحتفظ بالمفتاح» . تلفت سميح حواليه «إنه مقياس مدرَّج للاسطرلاب ، اخترعه أستاذ ناصر المدعو شريف الدين الطوسي . أحضره هو والشيخ ناصر معهما من بلاد فارس لدى قدومهما إلى دمشق لتعليم ابن الأمير . إنه لا يخبرنا فقط الوقت من النهار والاتجاه الذي نصلي فيه ، ولكن أيضاً يفيد في مسح الأرض قبل أن يقوم الشخص بتشييد الأبنية الفخمة» .

«هل يقدر على احتساب شكل الأرض؟»

«وكم سيبلغ ارتفاع البناء . يقولون إن الشيخ الطوسي استطاع أن يحدد أين ستكون الظلال نفسها» .

«يبدو الأمر قريباً من أعمال السحر» ثم أوقف عبد نفسه «أقصد ، هنالك الكثير ممن يحتمل أن يصابوا بالرعب من هكذا معرفة» .

«لقد كان هناك مثل أولئك ، ويوجد مثلهم الآن . حدث ذلك حتى بدأ السيد وأستاذه يضمنان أن لا تسقط أبنية المدينة فوق رؤوس الناس . وضعهم ذلك الإجراء في قلب المؤمنين بالخرافات» .

«كثيراً ما نتكلم عن الفرق بين الإيمان والخرافة في صالون ابن دقيق . هنالك الأشخاص الذين يتبعون مذهب الإمام الغزالي بطريقة عمياء وبدون أي تساؤل ، رافضين كل أمر غامض على أنه من عمل الله سبحانه وتعالى» .

«هنالك الكثير من أمثالهم هنا في دمشق . كيف تتعاملون معهم في بغداد؟»

«لقد حاولت أن أناقش في رأيي ، لكنهم هاجموني بسكين . لذلك فررت مبتعداً» .

ضحك سميح ولكنه رأى أن عبد جاد في كلامه «حسناً ، أنا لا أظن أن هناك عيباً في هذا المسلك . لو أنك لم تهرب ، لما كنت موجوداً هنا لتتعلم عن الإسطرلابات وتشاهد أعاجيب دمشق وروائعها» .

«هل هذا هو الرجل؟»

رفع كلاهما رأسيهما لدى سماعهما صوت الرجل الغريب ورأيا أنه وصل إليهما بدون أن يحدث أي صوت مطلقاً . شاهد عبد خط

الفك القوي ، ملابس التجار الثمينة ، والسيف والخنجر المزينين والخطرين في الوقت نفسه وسط الرجل . قدَّر أن يكون في ثلاثينيات عمره ، لكنه يمكن أن يكون أكبر أو أصغر من ذلك ببضع سنوات بكل سهولة .

«نعم ، هو الشيخ قلاوون» . نهض سميح واقفاً وقام بالتعريف . هزَّ قلاوون رأسه وتأمل عبد من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، ودلَّ التعبير على وجهه أنه غير متأثر بما رأى .

شاهد عبد الشعر واللحية المعتنى بهما بدقة ، اليدين والأظافر المطلية والمقصوصة بعناية ، والمجوهرات الثقيلة حول رقبة الرجل ويديه .

فكر لنفسه ، إن هذه الجواهر وحدها تكفي بأن تثقل عليه .

«إذاً ما هو الاسم الذي تعرف به ، عبد ، أليس كذلك؟»

«نعم ، أيها الشيخ قلاوون» .

لوَّح قلاوون بيده رافضاً «لا عليك من الألقاب . فقط خاطبني باسمي مجرداً . أنت دارس إذاً؟ وهل أنت قادر على القراءة والكتابة؟»

«أنا قادر يا شـ . . . سيدي» .

طأطأ قلاوون برأسه «وأنت قادم من بغداد . وهل صحيح أنك درست في قصر الحكمة هناك ، وهل قرأت الكثير من الكتب؟»

«إحم ، صحيح ، لقد قرأت بعضاً منها» .

صدر عن قلاوون صرير تشكيك «أيهما هو الأصح؟ أنك قرأت القليل أم الكثير؟»

نهض عبد واقفاً «لقد قرأت الكثير ، يا قلاوون» .

تفحص قلاوون وجهه ملياً ثم منحه إيماءة برأسه ، مثل رجل يتفحص أسنان جواد قبل أن يتخذ قراراً بالصفقة . «حسناً» قال أخيراً

«لن يضيرنا شيء وسوف نرى كيف يكون أداؤك . تعال معي» . تهيأ عبد وسميح لمتابعته ، لكن قلاوون رفع يده باتجاه سميح «ليس أنت» .

رفع عبد يديه ولاحق الرجل الغريب بينما لوَّح له سميح مودعاً وراقب انصرافهما .

***

مشى قلاوون أمام عبد راجلاً عبر عدد فوضوي متشعب ومحير من الطرقات ، وبدا لوقت طويل أنهما قد تغلغلا عميقاً في الأزقة العنيفة والأحياء الفقيرة لدمشق ، بحيث فقد عبد القدرة على رؤية المسجد الأموي وحتى القلعة . راقبته الأعين طيلة الوقت ، من الشبابيك المفتوحة ، البوابات والمداخل الضيقة المحفورة في جوانب جدران الجص والطين للأكواخ ، إلى أولاد الأزقة وحتى الرجال كبار السن ، المتلصصين في الظلال خلف كل زاوية ، وتخبر نظراتهم وأشكالهم عبد أنهم لن يحبوا شيئاً أكثر من تقطيعه إلى أشلاء ، حتى من أجل قطع من معطفه المخصص للدارسين .

يشاهد هؤلاء الناس نمطاً من الحياة لن يمتلكوه ، فكر وهو يهرول ليتمشى مع خطوات قلاوون السريعة ، وها هم يرون الخوف في عينيَّ من أن ينتهي بي المطاف مثلهم في يوم ما .

لم تكن لدى قلاوون مثل هذه المخاوف . أبقى عينيه إلى الأمام في كل الأوقات ، ولم يتورع عن صدم أولئك الذين يقتربون منه أكثر مما يوفر له حرية المرور أثناء تقدمه .

تلفت كثيرون بوجوه غاضبة إذ لم يدركوا ماهية الشخص الذي دفعهم ، لكنهم سرعان ما انكمشوا حينما وقعت أعينهم على حجم

قلاوون والأسلحة التي يحملها .

لدى مراقبته لقلاوون بين أناس دمشق العاديين ، أدرك عبد حقيقة أخرى لم يكن قد انتبه لها عندما شاهد الرجل للمرة الأولى . لم يكن قلاوون عربياً . صحيح أن لديه ملامح وشعراً قاتمين ، ولكن بالقياس إلى الدمشقيين ، بات جلياً أن هذه الأوصاف هي نتيجة لتواجده تحت أشعة الشمس لفترات طويلة ، أكثر من كونها أية صفات وراثية . استنتج عبد أن هذه الساعات قد تم قضاؤها في السرج ، ورغم أنه لم يكن قلاوون يمتلك مشية السيقان المقوسة والخطوات المتدحرجة لأي بحار ، أو تاجر ، لكنه ظهر بدلاً من ذلك وهو ينقل وزنه من قدم إلى الأخرى ، كما يفعل الفرسان .

لابد وأن مقر عمله قريب من هنا ، فكر عبد . ومقبض السيف ذاك لاشك في أنه من الذهب . إنها قطعة جميلة . لقد شاهد العديد من الأسلحة المزوقة أثناء وجوده في بغداد ، فالأرستقراطيون يحملون سيوفاً مطعمة حتى بالجواهر والماس ، لكن قلة قليلة منهم ظهرت وكأنها قادرة على إشهار السلاح في حالة غضب . لكن قلاوون يحمل صفات رجل قادر على مقاتلة الشارع كله إذا اضطر إلى ذلك . بدأ عبد يتساءل ما إذا كان يفترض فيه أن يحضر سيفه هو الآخر .

التفا حول زاوية أخيرة ليدخلا إلى زقاق مسدود في آخره وتوقف قلاوون خارج محددة . وضع يديه على وركيه وانتظر أن يلحق به عبد . حدَّق فيه متدربون بصدور عارية وعمال ملتحون مستغربين . غريب في وسطهم . وزع نظراته بينهم وبين قلاوون .

أشار الرجل الأكبر سناً بإصبعه إلى الباب بقوة قائلاً «حسناً ، هيا ادخل» .

خطا عبد خطوة، متردداً، ثم مشى قلاوون خلفه وإلى جانبه حتى دخلا المحددة.

كانت الحرارة محسوسة حتى من الخارج لكنها أصبحت في الداخل ضاغطة والجو مظلماً. تعرَّق عبد بحدة واضطر إلى تهوية صدره بقطعة من سترته. تجول حوله رجال يحملون قطعاً محمرة لشدة حرارتها من معدن يراد به أن يتم تشكيله إلى قطع مفيدة جيئة وذهاباً، بينما استعان المتدربون بملاقط يمسكون بها على امتداد أذرعتهم لنقل المعدن المذاب المحمول في أوعية من الرصاص. ما كان عبد سيشعر بهذه الدرجة من التوتر حتى لو ألقي به في حفرة ملأى بالعقارب. رفع ذراعيه وحاول أن يجعل نفسه ضيقاً بأقصى قدر ممكن لتقليل احتمالات أن يصطدم به أي من العمال. حبس قلاوون ابتسامة وهو يتلفت حواليه.

قال «حسناً. سوف أراك لاحقاً». ثم استدار وخرج ليختفي وراء زاوية الطريق التي دخلا منها.

«لاحقاً، بعد ماذا؟» نادى عبد مخاطباً ظهر قلاوون. أدار بصره في المنظر المرعب حوله.

بات يقفز مجفلاً في كل مرة تهوي فيها مطرقة على سندان أو خرج بخار من الأتون.

خاطبه صوت «حاذر من المدخنة على ذلك الفرن. يحتمل أن يصيبك منه حرق أسوأ من ذلك الذي يمكن أن يصيبك من الرصاص».

انفتل عبد لينظر إلى الرجل الذي تكلم. هو واحد من المديرين صدره الهائل مغطى بمريلة جلدية ولا شيء تحتها ما عدا بنطاله وحذائه الثقيل.

«هذا أمر يصعب تصديقه» . قال عبد بصوت عصبي متوتر .

«حسناً ، إنه خطأ شائع بدرجة واسعة» . حرَّك الحداد الكير فوق الفرن وحرَّك النار بملقطه . سحب رافعة فانسكب تيار من المعدن القرمزي البرتقالي المذاب نزولاً في قناة أحد القوالب . كان ذلك سيفاً . «إن المدخنة مصممة لتتحمل درجة حرارة أعظم حتى من درجة حرارة المعدن والإناء . في نهاية الأمر فإن المدخنة تتعامل مع العناصر التي تذيب الرصاص . هل رأيت ما أقصده؟»

طأطأ عبد برأسه ، وقد وصل اهتمامه وفضوله إلى قمته وقال «فهمت ، أنت حتماً تعرف ما تفعله» .

تناول الحداد قضيباً مسطحاً من المعدن أشبه بمسطرة وبدأ يزيل الأوساخ عن قمة السيف المتبرد . «لا يصح لك أن تدخل محددة إلا إذا كنت تعرف ما تفعله» .

مسح المبسط الموجود على طرف السندان ونظر إلى عبد . إحدى عينيه معلَّمة بالأبيض بينما الأخرى سوداء تلتمع تحت حمرة النار .

«لقد تم إحضاري إلى هنا من قبل رجل اسمه قلاوون» قال عبد «لقد أمرني بالوقوف هنا ثم غادر . أريد أن أفترض بأنه عائد إلى هنا» .

هزَّ الحداد رأسه «سوف يعود» تفقد السيف مرة أخرى «لكنك لم تخبرني عن سبب وجودك هنا يا عبد» .

اتخذ عبد خطوة إلى الوراء ، فكاد يصطدم بمتدرب فعاد إلى القفز للأمام فور إدراك غلطته . «كيف تعرف . . .؟ أقصد . . .» جمع شتات أفكاره «أنا مدرس . لقد اعتقدت أنني موجود هنا للتدريس أو العمل بوظيفة كاتب» .

رفع الحداد المطرقة «هل أنت مدرس أم كاتب؟ أيهما أنت؟»

انفتح فم عبد «لست في الحقيقة أياً منهما» .

اتخذ الحداد خطوة إلى الأمام فاستطاع عبد أن يرى الفارق في الحجم بينهما .

فاحت من الرجل روائح الدخان والتعرق . وجهه وجذعه مخططان بخطوط من السخام ، تقطعها جداول من التعرق الذي ينزل من كتفيه ومن تحت إبطه ، ليكشف عن سحجات وبعض الإصابات السيئة .

«إذاً ماذا تكون ولماذا أنت هنا؟»

«لقد قيل لي إن الرجل المدعو قلاوون لديه حاجة إلى خدمات أنا قادر على تقديمها . لقد وصلت من بغداد قبل بضعة أيام وأحتاج إلى وظيفة . لقد قام صديق من كلية الأمير بتعريفنا على بعضنا» .

هزَّ الحداد رأسه . قلَّب المطرقة في معصمه كأنه يختبر وزنها «ذلك هو ما سمعته» . استدار ورفع نصل السيف الذي ما زال أحمر اللون عن القالب . «ماذا كنت تفعل في بغداد؟»

«لقد كنت الرجل نفسه الذي أنا عليه الآن . كنت تلميذاً لابن دقيق العيد . إن اسمي الكامل هو محي الدين ابن عبد الظاهر ، مع أنني أظن أنك تعرف هذا سلفاً» .

«أعرف أنه يطلق عليك اسم عبد اختصاراً» .

بدأ الحداد يطرق السيف بقوة ، وهو يحرك الملقط في يده اليسرى بشكل دائري على القاعدة بضربات محكمة وكل ضربة ترن مثل جرس فرنجي عند الظهيرة . بعد فترة ، توقف ورفع القطعة «لقد كنت أعرف ذلك» . قال الرجل . حمل السيف وعرضه على عبد «قل لي ، ما الذي تعرفه عن الفولاذ الدمشقي؟»

«أعرف أن مصدره هو الهند» .

لم يستطع بيبرس أن يغالب الابتسام «ذلك جيد . ماذا غير ذلك؟»

«أعرف أنه أكثر ليونة من الفولاذ الفرنجي وحتى المغولي ، لكنه في الوقت نفسه أقوى منهما وأكثر مضاءً» .

«جيد جداً . وماذا يعني ذلك؟»

«ذلك يعني أنه أقل احتمالاً لأن ينكسر فوق درع ما وأكثر احتمالاً ليخترق قلب شخص ما» .

هزَّ بيبرس رأسه «أنت تقول الصدق الآن . ماذا عن التصاميم المحفورة في النصل نفسه؟»

«إنها جميلة ولكنها لا تحدث أي فارق بالنسبة لقدرات السيف أو الخنجر القتالية» .

«أنت قادم من بغداد . فكيف تصنف قدراتها؟»

«لدى الخليفة عشرون ألف فارس وحدهم» .

«ليس ذلك هو ما سألتك عنه» .

نظر عبد في وجه الرجل الواقف أمامه .

«يا عبد . أنت لن تكشف أية أسرار عندما تخبرني بما يعرفه كل شخص سلفاً» .

لم يتحرك عبد .

انفرج وجه بيبرس وأطلق تنهيدة صغيرة دلَّت على أن لعبته قد انتهت . استدار وأعاد السيف والملقط إلى السندان «حسناً . اسمح لي أن أقدم نفسي لم . أنا . . .»

قال عبد «أنت بيبرس البندقداري» .

«آه» أحسَّ بيبرس بخيبة «منذ متى وأنت تعرف؟»

«بمجرد أن أدركت أنه لا أنت ولا قلاوون من العرب ، وأنك عملاق أشقر بعين بيضاء والأخرى سوداء . ولم تفعل هذه الإصابات الخطيرة على جسمك أكثر من توكيد ظنوني» .

رفع بيبرس يداً ليتلمس بها الجراح القديمة ثم بؤبؤ عينه المعلَّم . «يصبح العمل بدون أن يعرفني الناس أكثر صعوبة مع كل معركة» .

قال عبد «إن شهرتك تتنامى فعلاً . مع أنك يجب أن تعرف بأن حيلتك هذه انطلت عليَّ بدرجة ممتازة ولفترة طويلة» .

«إنها تنفع في جعل الناس يتخلون عن أية واجهات يصممونها ويعرضون شخصياتهم الحقيقية» .

«ذلك شأن مهم بالنسبة لرجل في موقعك» .

«ذلك صحيح» خلع بيبرس المريلة «والآن وقد تم تعارفنا بالأسلوب الصحيح . ما هي الأخبار من بغداد؟»

«لن أخبرك قبل أن تخبرني عن سبب وجودنا هنا» .

«أنا موجود هنا لكي أصنع أسلحة . وأنت هنا لشأن مختلف . إلا إذا كنت تعرف شيئاً عن الحدادة؟»

«لا أعرف» .

«قل لي يا عبد . هل سمعت عن كورش العظيم مطلقاً؟»

«بالطبع» .

«وماذا عن عمر بن الخطاب؟»

ضحك عبد لنفسه «نعم ، بالطبع» .

«ماذا عن صلاح الدين؟»

«منذ أن كنت صبياً صغيراً» .

«وماذا عن ميثراداتيس؟»

فكر عبد «إنه مألوف، لكنني لن أتمكن أن أخبرك أي شيء عنه».

«طيب، ماذا عن سيبوكتيغين؟ لقد كان أحدث بكثير».

«أخشى أنني لا أعرف عنه أي شيء».

«لقد أشاد كل من ميثراداتيس و سيبوكتيغين امبراطوريات هائلة، لكن حتى رجل متعلم مثلك لم يسمع بهما أبداً. ما السبب في ذلك؟»

قال عبد «لا أدري. هناك مجال لعدد محدد من الرجال العظماء».

«آه، هذا صحيح فعلاً. يجب على الإنسان أن يفسح المجال إذا رغب في أن يكون عظيماً، أليس هذا صحيحاً؟»

«لا أعرف ياسيدي».

«لا بل تعرف. كلا، السبب في أنك لم تسمع بهذين الرجلين هو لأن أحداً لم يكتب عنهما، أو على الأقل أي شخص بارز من جهتهما. إنهما موجودان فقط كأعداء في قصص الرجال الآخرين، هل تفهم ما أقوله؟»

«لقد فهمت يا سيدي».

«توقف عن مخاطبتي بسيدي».

«حسنا –».

استدار بيبرس وأشار إلى عبد ليلحق به «لقد سمعت باسمي، فهل تعرف من أنا؟»

«أنت قائد الفرسان البحريين. أو على الأقل كنت القائد».

«لم أصل إلى مرتبة القيادة أبداً. كان السيدان آيبك وأقطاي هما

القائدان ، لكنهما اختلفا فيما بينهما فأصبحت مجبراً على اللجوء إلى المنفى» .

«والآن أصبح سيف الدين قطز هو السلطان» .

مشيا عبر القسم الخلفي من المحددة وخرجا إلى ساحة صغيرة . مشى بيبرس نحو حوض ومضخة وأخذ يغسل يديه ، قائلاً «ذلك صحيح» .

«فهل أنت نائبه هنا في دمشق؟»

«كلا . لم تعد هناك أي علاقة بيني وبين قطز . فأنا أمثل الخط الصادق للفرسان البحريين» .

«ما هو شعور السلطان الجديد حيال ذلك؟»

«إن رأيه لا يشكل اهتماماً لي» .

هزَّ عبد رأسه إشارة على تفهمه للنقطة .

قال بيبرس «أريد أن يتم تدوين الحالة الصحيحة للأوضاع . وإلا فإنني أخاطر بالتحول إلى الشخص المعادي في قصة رجل آخر : رجل أقدم على خيانة الفرسان البحريين في عينيَّ وأعين العديدين الذين تبعوني» .

«تلك هي حالة صعبة من الأوضاع» .

نفض بيبرس رأسه رافضاً . رشق الماء على كتفيه «الصعوبات لا تعني شيئاً بالنسبة لنا . الإيمان هو كل شيء ، والفرسان البحريون هم التجسيد لذلك الإيمان» .

«هل تريد مني أن أكتب قصتك؟»

«أريد منك أن تكتب تاريخنا . سجل كل ما حدث وما سيحدث في المعارك القادمة حتى يتمكن المؤمن أن يفهم من كنا ولماذا قمنا

بالأمور التي قمنا بها . لقد قرأت ما يكفي عن العالم لأعرف أن هذه الأمور مهمة ، حتى لو وجد حولي الكثيرون ممن لا يرون الأمور بالطريقة نفسها» .

«كيف تسنى لك أن تعرف هذه الأمور؟»

«لقد كان لدي معلم عظيم ، كما سمعت بأن معلمك ابن دقيق شخص عظيم . حتى لو أنني أعتقد بأن الرجل الذي يقوم بشرح المبادئ الأساسية هو - مسهب زائد عن الحاجة» .

«وهل ستقول الرأي نفسه عن تعليقات ابن رشد حول ما وراء الطبيعة؟»

تناول بيبرس منشفة وبدأ يمسح نفسه «هل يقوم ابن دقيق بترجمة أعمال آرسطو طاليس؟»

«كلا» وافقه عبد .

«إذاً فرأيي يبقى ثابتاً . والآن ، هل ستخبرني كيف هي الأوضاع في بغداد؟»

سحب عبد نفساً عميقاً . «الأوضاع سيئة . فقد دخل قائد الخان العسكري في الليلة التي سبقت مغادرتي ، إلى بيت الخليفة وهدده أمام المدينة كلها» .

اتسعت عيناه لشدة مفاجأته . قال «ذلك شأن غير عادي» .

قال عبد «وتلك عبارة أقل من الحقيقة» .

«هل هناك حقيقة فيما قلته عن أن الخليفة لديه عشرين ألف فارس؟»

«لقد أخبرني بذلك ابن دقيق نفسه . ما الذي قد يدفعه إلى الكذب؟»

«ربما كـان يحـاول أن يـهـدئ من روعك . أنت تبـدو مـثل شـخص يكثر من القلق» .

تجاهل عـبـد محـاولة الـسخرية «بالعكس تماماً . لقـد كـان هو الذي أصر على أن أغادر المدينة» .

«إذاً لم يكن لديه سبب ليكذب» . فكـر بيبرس للحظة «إذا كنت تعـرف أنه لـدى الخليـفـة هذه الأعـداد ، فـمـعنى ذلك أن الخـان بدوره يعـرف . ومع ذلك فـهـو في منتـهى الـصـفـاقـة لأنه يسعى إلى اصطناع معركة» . ارتدى قـميصاً كـان معلقاً إلى جانب المضخة . «لـقد سمعت سـابقـاً أن الموقف سيء ، لكـنني لـم أعـرف أنه على تلك الدرجـة من الخطورة» .

«ليس الوزير قلقاً ويطمئن الخليفة يومياً بأن كل شيء سيكون على ما يرام . ربما هي خدعة من جانب هولاكو ، القائد المغولي» .

نظر بيبرس إلى عبد بحدة «المغول لا يمارسون الخدع ، ولا يلجأون إلى الحيل . ألست تخطط للعودة إلى بغداد؟»

«ليس إذا تمكنت من البقاء هنا» .

قال بيبرس «حسناً . هيا بنا نباشر العمل» .



الفصل العشرون

يعني العمل بالنسبة لبيبرس مباشرة كلاهما الذهاب إلى بيت قريب من القلعة ، والذي تأمله بيبرس وسأل عبد عن رأيه فيه .

«إنه ذو تصميم وبناء جميل . ليس كبيراً جداً ، ولا حتى على عائلة» . بذل عبد جهداً ليفكر في أشياء أخرى يقولها «إذا كان أفراد عائلتك صغار السن ، فسوف تعيش هنا براحة» .

قال بيبرس «إن عائلتي موجودة في القاهرة» . تجولت عيناه على المزاريب نزولاً إلى قنوات التصريف على جانب الطريق . «لم يبلغ أولادي سن الركوب بعد ، ولذلك يبقون مع والدتيهم» .

«هل لديك زوجتان؟»

«نعم» نقر بيبرس على باب البيت «وماذا عنك؟»

«كلا ، ليس بعد» . قال عبد «لقد أخبرني ابن دقيق قبل أن أغادر بأن الكلية سوف تدبر لي أمر زواجي بعد انتهاء المشاكل» .

«هناك إمكانية ضئيلة لأن تمر هذه المشكلة في وقت قريب يا عبد» . نقر بيبرس ببراجمه على الباب الحديدي مرة أخرى ثم أمال رأسه ليصغي . لاحظ عبد الندوب المتقاطعة على أصابعه صعوداً إلى معصميه الغليظين . «سوف نستمر في مقاتلة الخان إلى أن يصبح بمقدورنا الركوب إلى بلاد الصينيين لنحرق بلاطه ونسويه بالأرض» . انزاح قفل عبر خلفية الباب «أو أنهم سيبدأون بالتقاتل فيما بينهم . إنهم ينتخبون ملوكهم خلال مجلس هائل من النبلاء ، هل كنت

تعرف ذلك؟ ماذا يخبرنا التاريخ عن الطريقة التي تنتهي إليها مثل هذه الترتيبات؟»

قال عبد «بطريقة سيئة» .

انفتح الباب ليكشف عن رجل عجوز ، محني الظهر ، برأس مستدير ووجه يبدو أنه قد تعرض للعديد من الضربات ، بحيث يفترض الناظر إليه أنه أمضى طفولته في مباريات ملاكمة .

سأله بيبرس «هل لديك المفاتيح ، أيها العم؟»

«أنا في داخل البيت ، أليس كذلك؟» حدجه العجوز بنظرة محتجة .

«كما تقول» خطا بيبرس عبر المدخل «قم بقيادة الطريق» .

استدار الرجل العجوز وهو يدمدم لنفسه وعاد صاعداً الممر ، يتبعه بيبرس وعبد قادم خلفهما .

«إنه بحاجة إلى قليل من التزيين ، لكنني أعتقد أنه سيفيدنا للفترة التي سنحتاجه فيها» .

نظر عبد إلى حجرة طعام واسعة ، مفروشة بالكامل بالأرائك وحتى الخزائن ، ثم خرجوا عند نهاية القاعة إلى مطبخ ، تتدلى فيه حبال من الثوم والأعشاب من السقف . اشتم عبد رائحة خبز طازج مع الريحان والزعتر . وجدت بضعة كراسي صغيرة حول طاولة طعام صغيرة ، قريبة من الموقد .

«حسناً يا عبد ، ما رأيك؟»

استمر بيبرس في ارتداء مجرد القميص وسراويل العمل التي كان يرتديها في المحددة . اتضح أن البيت مخصص لموظف في المدينة أو تاجر غني .

اعتـرف بقوله «لقـد كنت أتخيـل بيبـرس البندقـداري يقـيم في مساكن ذات صفة عسكرية» .

«إن غـرفي مـوجـودة في القلعـة ، وأنا مـحـاط بضـبـاطي . ذلك يذكرني ، ماذا تعرف عن الشراكسة؟»

قال عـبـد «لم تتح لي سوى مناسـبات قليلة للتـحادث معـهم في كلية الوزير» .

«حسناً ، ذلك سوف يتغير . بكل الأحوال ، إذا كنت ستـصبح الكاتب عندي يا عبـد ، فـسيكون هذا بيتك . سيكون سـعـيـد هذا خادمك وبوابك» . ألقى بيبرس نظرة باتجاه سعيـد وتعبيره الحزين . «أتمنى لك حظاً سعيداً معه» . قال هامساً بسرعة «هناك امرأة تحضر إلى هنا لأداء جميع الواجبات المنزلية ، بالطبع . فهل كل هذا يعجبك؟»

«أنا . .؟ نعم ، بالطبع» . أصيب رأس عبد بالدوار .

«جيِّد» صفق بيبرس بيديه ، ما جعل سعيد يجفل . «سوف أرسل شخصاً ليحضر أغراضك من بيت ناصر ، رحمه الله ، وعندها سيمكنك أن تستقر» . تلفت حوله «آه صحيح ، هناك شيء آخر . تعال!» أشار إلى عبد نحو درجات تؤدي إلى غرفتين متواجهتين «هنا» قال بيبرس وهو يفتح الباب على الجهة اليسرى «ستكون غرفة مهجعك» . استدار «وهنا» فتح الباب الكائن على اليمين «غرفة عملك ومكتبك» .

تراجع إلى الخلف ليمكِّن عبد من إلقاء نظرة إلى الداخل «كل ما يمكن أن تحتاجه» قال بيبرس ، وكان كلامه صحيحاً . شاهد عبد كرسياً راقياً بظهر عالٍ ، طاولة عريضة من خشب الجوز ، والأكثر إثارة له من كل شيء ، كومةً من أفضل أنواع الورق ومحبرة هائلة الحجم . «لقد

فكرت في أنك ستحتاج إلى الغرفة الأكبر لعملك، لذلك جعلتهم يضعون سريرك في الأخرى».

قال عبد «لقد فكرت بطريقة صحيحة». أصيب بذهول منعه من قول المزيد.

«كذلك لم أعرف ما تريده فيما يتعلق بمواد القراءة لك، لذلك جعلت الشباب يضعون نسخاً من بعض الكتب العالمية في ذلك الصندوق الذي تراه عند الحائط، وتستطيع أن تبحث في المكتبات خلال الأيام القليلة القادمة عن أي أشياء أخرى قد تريدها. فقط أخبرهم بأن يرسلوا الفواتير إلى المدير المالي في القلعة وسيقوم هو بالباقي».

نقر عبد بيده على برواز الباب.

«لدينا الكثير مما علينا فعله، كما قلت لك». كان بيبرس قد بدأ ينزل الدرجات.

انقضت الأيام التالية في تعريف عبد إلى فصائل الفرسان البحريين المتواجدين في دمشق، ومع قصة بيبرس عن الكيفية التي وصل فيها إلى وضعية النفي الفعلية. تجولت شائعات هزيمة الملك الفرنجي وما حدث على نهر النيل فيما بعد وفي القاهرة، لمدة سنوات في بغداد، لكن الأمور عادت إلى الاستقرار مرة أخرى بعد أن أعلن أن قطز قد أصبح السلطان، وبدأ الجميع يدركون أن الخان هو الذي يشكل الخطر الأعظم على المدينة من سلطان مصر.

قال بيبرس لعبد «أنا لا أندم على ما حصل لتوران شاه. لقد كان ابن سلطان عظيم وهو يستحق السلطنة بشخصه، لكنه حطم إيمانه بأولئك الذين تبعوه منا، جراء الغيرة السخيفة والقلق على ما إذا كانت سلطته لم تكن كل ما كان يشتهيه لتكون عليه. كان حرياً به أن يعرف

بأننا نحن ، الفرسان البحريين ، كنا مستعدين للموت في سبيله ، حتى آخر رجل منا لو أنه اكتفى بقيادتهم . بدلاً من ذلك ، فقد اختار أن يهيننا ويقلل من شأننا ، ويستخدم أعوانه الأفارقة والمخصيين ليقوموا بالقتال لأجله» سحب بيبرس نفساً عميقاً . «انظر إلى أين قاده ذلك» .

«لقد ذكرت فتاة ما» .

«نعم ، مارا . لقد كانت . . . حسناً ، كانت فتاة لطيفة . عندما أقدم على قتلها ، حطَّم عمله شيئاً في داخلي . لقد قمنا ، قلاوون وأنا ، وتيكا ، وحتى قطز . لقد قمنا بتحريك الجبال حتى أحرزنا له أعظم نصر يمكن تحقيقه . . . لقد قمنا بأسر ملك الفرنجة - أربعة رجال ! لقد كان كل جيشه محطماً . لكن توران شاه لم يستطع أن يسمح لنا بذلك النصر . ولا استطاع أن يترك الفتاة تعيش بسبب تحديها له» .

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«حسناً ، بعد ذلك وقع على عاتقنا إخماد الثورات في جميع أنحاء مصر . ناهيك عن ذكر القوات التي بقيت موالية لتوران شاه داخل معسكرنا في تلك الليلة نفسها . لقد استمر القتال أياماً عديدة . لقد فقدت أثناءه ثلاثة جياد ونجوت بروحي بصعوبة بالغة» .

«ولكن ألم تكن تعاني من إصابات سابقة؟»

ارتسم على وجه بيبرس تعبير عابس «فرنجي وبلطته ، هناك في مكان ما من المستنقعات على الطريق إلى دمياط . ثم قاتلان اخترقا خيمتي وكادا أن يفصلا رأسي عن كتفيَّ» . فرك الساق حيث مازال الجرح يمنحه شعوراً بالإصابة ، بعد كل تلك السنوات . «اعتقدت أن الحرب قد انتهت بمجرد أن أصبح لويس في عهدتنا . وأن السلام سوف يسود . ونستريح . لكن كانت تلك مجرد البداية» .

حاول عبد أن يتخيل . فقد أرهقه مجرد ركوب لمدة شهر في الصحراء . لم يشأ أن يفكر في الاضطرار إلى خوض معركة عند نهاية رحلته .

«لهذا السبب أخبرك أنه لن يحل السلام ، حتى لو انتصرت بغداد على الخان . مازال الفرنجة يحتلون موانئ على البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك قلاعاً . بينما هم يحتلون هذه الأمكنة فهم يهينون الإسلام ويهددون حياتنا . هذا وضع لا يمكن السماح باستمراره . إن الحشاشين يهددوننا في كل اتجاه من قمم جبالهم . بمجرد أن تقضي على أحدهم ، يظهر آخر» .

جلس عبد إلى الأمام «هل تعتقد أن الحشاشين هم الذين حاولوا أن يقتلوك في تلك الليلة؟»

قال بيبرس «لقد كان منظرهم مثل الحشاشين . ولكن من يعلم؟ على أية حال ، هناك أعداء على الدوام . ذلك هو ما أحاول قوله» .

«ماذا حل بكل من آيبك وأقطاي؟»

«حسناً ، لقد تزوج آيبك الملكة الأم . فقد ظلت لدينا شكوك على الدوام بأنه يقيم معها علاقة ، ولكن لم يتوفر لدينا أي برهان مطلقاً . لقد تم إعلانها سلطانة - هل يمكنك أن تتخيل؟ وانتشر الخبر في أنحاء الأمة كافة . لقد عرض علينا خليفتك في بغداد أن يرسل إلينا جنوداً لأنه كان يعتقد بأننا نخسر الرجال الذين لدينا ، بينما هنا ، أرسلت إلينا دمشق وحلب أخباراً مفادها أنهم يسخرون منا في صلواتهم نفسها . أعتقد أنها مارست الحكم لمدة ثلاثة أيام قبل أن ندرك أنها غير قادرة على الحكم لوحدها . لن يقبل حكام الولايات أن يتبعوا امرأة ، بغض النظر عن درجة كفاءتها .

«هل كانت كفؤة؟ لقد قالوا في بغداد إنها ساحرة، ومجنونة فوق ذلك».

«لقد كانت شجرة الدر امرأة نبيلة وتحملت كل انتقاد رأيته بقدر من النبل وأناقة ورباطة جأش. لم تكن تلك مبالغة يا عبد. ما أقوله صحيح تماماً. لقد كانت ملكة. لكن الظروف - والآن هذا تخفيف - لم تكن الظروف مواتية. كما قلت، كانت سورية قد انفصلت. لقد خشينا أن يشن الفرنجة حملة لإنقاذ لويس، وكانت مصر في خضم ثورة. لكنني عرفت أنه طالما بقينا مسيطرين على مصر، فإن كل شيء آخر سوف يصلح أمره. تمكنت من تجميع بعض القوات وركبت باتجاه الجنوب لأسيطر على رؤوس جسور النيل، ثم أبحرت شمالاً مرة أخرى لأقاتل في داخل المدن. على الأقل، كنت أتمكن من الاستراحة لفترات أثناء وجودي في السفن».

«ماذا عن لويس؟»

«لقد ذهبنا - آيبك وأنا - لنزوره قبل أن نغادر. قدمنا له ضماناً على سلامته وأخبرناه أنه طالما هو قادر على دفع ربع قيمة فديته، فإنه ورجاله أحرار في المغادرة».

«هل سمحت له بالمغادرة؟»

ضحك بيبرس «على الشرط القاضي بأن شرفه سيتلوث إذا لم يقم بدفع بقية المبلغ. ظن الآخرون أنني مجنون، لكن توفر لي بعض الوقت لأقابله، واستطعت أن أقيِّم شخصيته. وهكذا قام بتسليم النقود خلال الموسم التالي».

«أمر لا يصدق!»

«لقد كان يشكل خطورة أكثر أثناء وجوده في حوزتنا. فقد كنا في

حينها نستجلب الهجوم على أنفسنا . بدلاً من ذلك ، انطلق ذاهباً إلى عكا وتفرغ لإعادة بناء التحصينات هناك . كان يأمل في تشكيل تحالفات فرنجية مع جميع اللوردات المختلفين الذين يحملون ألقاباً في فلسطين . لكن لم يكن هناك أي أمل في إمكانية توصلهم إلى اتفاق . لقد أهدر وقته كلياً . قضى ثلاث سنوات من حياته وهو يبني الجدران» .

انهمك عبد في كتابة ملاحظات حول كل شيء يقوله بيبرس .

«لقد قلت إِن الملكة كانت تتمتع بكفاءة عالية . ما الذي حدث حتى انقلب كل شيء إلى خطأ؟»

«السلطة يا عبد . إن السلطة مادة خداعة إلى درجة أن كل شخص يريد قطعة منها . لكن تأثيرها الجانبي هو الشك . بمجرد أن تصل إلى قمة القوة ، تبدأ بالإيمان أن كل شخص أدنى منك يحاول أن يكسب ما لديك . هذا هو ما حدث لأصدقائي . بمجرد أن توصلنا إلى اتفاق مع خليفتك وبقية داعمي توران شاه ، ثارت شكوك آيبك والملكة من نوايا أقطاي . فقد كان مستقلاً أكثر مما ينبغي بقليل . فدبروا عملية اغتياله أمام أعيننا ، بعد أن قمنا بهزيمة غزوة الناصر يوسف . بمجرد أن عدنا وباشرنا بالاحتفالات ، تم إلقاء أقطاي من فوق برج كما حصل مع توران شاه . لقد كنت حاضراً ، كما كان قطز وقلاوون ، وقد شاهدت قوات جيش الفرسان البحرية بكاملها حدوث العملية . غادرنا في تلك الليلة ، قلاوون وأنا . بقي قطز ، فقد قال إنه مخلص لآيبك ، مع أنني قيَّمته دائماً على أنه صديق حميم لأقطاي . تلك هي الطبيعة القابلة للتغيير للرجل الذي هو السلطان حالياً . حصلت بيننا مجادلات واختلفنا ، قيلت أشياء كثيرة . فيما بعد ، قال قلاوون إن قطز يغار

مني ، لكن هذه الحالة كانت موجودة دوماً ، حتى بالعودة إلى أيام كنا صبية . يغار الإخوة أحدهم من الآخر دائماً بطريقة أو أخرى ، أليسوا كذلك؟»

«أنا ليس لدي سوى شقيقات ، يا بيبرس» .

«وكذلك أنا» قال بيبرس «ذلك هو ما يسمونه بالصدفة ، أليست هي صدفة؟ لقد رأيت في بعض الأحيان أن الله يرسل هذه الأفكار في طريقنا ليرينا أننا على المسار الصحيح» .

«أنا كذلك أحب أن أفكر بالطريقة نفسها . هل أنت تخاف من قطز ، يا بيبرس؟»

رمقه بيبرس بنظرة ملؤها التنازل فخشي عبد من أنه قد ارتكب غلطة . هو يعرف أنه هو يخاف من بيبرس ، وأن الرجال مثل بيبرس الذين قابلهم في الماضي بدوا أنهم لا يخافون من أحد .

قال بيبرس «إن عدم الخوف من السلطان أمر في منتهى انعدام الحكمة . على الرغم من أنني وقطز كنا إخوة فيما مضى ، إلا أنه يمثل حالياً تجسيد الإيمان والأمة . إن السلطان هو الوجود الكلي الذي ينهي الكل يا عبد . إنه السلطة الأسمى على الأرض . ما نوع الرجال الذين لا يخافون ذلك؟»

لم يشعر عبد أن علاقتهما قوية بما يكفي حتى يمارس منتهى الصراحة مع سيده الجديد .

أراد أن يخبر بيبرس أنه على الرغم من ادعاء معظم الرجال بأنهم لا يخافون أحداً ، إلا أن بيبرس بدا وكأنه لا يخاف أحداً ، ومع ذلك يعطي الانطباع بأنه **يخاف** . مثل هذا النمط من الرجال يمتلك مقدرة تفوق ما يقدر عليه معظم الزعماء العاديين ، فكر عبد . أي أمير حرب

آخر ، لأن هذا هو ما أصبح عليه بيبرس عند انفصاله عن قطز ، يمكنه أن يبحث طبيعة السلطة مع كاتبه الشخصي؟

قال بيبرس «يتحتم علينا جميعاً أن نمنح ولاءنا للسلطان . وإلا فإن كياننا كله سوف ينهار ويدمر» .

ووقتها ستصبح مجرد مرتزق في الصحراء . فكر عبد ، لكنه اكتفى بالسؤال ، بدلاً من أن يعطي أفكاره صوتاً مسموعاً «ماذا صار عن أمر الملكة ، شجرة الدر؟ وكذلك آيبك؟ ما هي الوسيلة التي استولى فيها قطز على العرش؟»

«كان هناك العديد من المعارك التي يتحتم خوضها بعد ، وتصرف قطز بقوة ، قاد قواته بسرعة ودهاء دلت على امتياز رجاله كجنود فرسان . تمنى جزء مني لو أنني استطعت أن أقود رجالي إلى جانبه كما فعلنا في السابق ، لكنني لم أستطع أن أغفر له خيانته لأقطاي ، رغم أن أقطاي لم يكن صديقاً لي في يوم من الأيام . كنت موجوداً هنا في الشمال ، لتعزيز نصرنا على يوسف ، ولصد هجمات الفرنجة وغارات المغول ، وأشن الغارات بدوري . بنيت لنفسي قاعدة قليلاً قليلاً هنا في دمشق وعموم سورية . اصطف الأمراء الأيوبيون خلفي عندما لم يروا أي بديل . في هذه الأثناء ، قام آيبك وقطز بإتمام اخضاع مصر . اندفعنا خارجين من سيناء ، وكانا يخططان للقيام بتحرك على الجزيرة الفراتية أو حتى إلى الشمال منها . لم أعرف ما كان يمكن أن يحصل في حينها . ربما كنت سأضطر إلى مقاتلتهما ، أو ربما استطعنا أن نجد طريقة ما لإحلال السلام . يحتمل أنني كنت سأرسل لهما فدية ، لذلك لا أظن أن ذلك سيحصل» .

سحب بيبرس نفساً عميقاً وتلفت حوله باحثاً عن شيء ليشربه .

ثم استطرد «على أية حال ، كانت أوضاعهما جيدة جداً ، ويشعران بالرضى عن نفسيهما . لكنك عندما تزيل التهديد ، فإن الكلاب تبدأ بالتقاتل فيما بينها مرة أخرى . ظلت الملكة الأم على اعتقادها بأنها صاحبة السلطة ، بينما اعتقد آيبك أن شخصه ومساعدته لها هو ما سمح لها بالاحتفاظ بالسلطة . وفي تلك الحالة ، فهو الملك صاحب السلطة العليا . وكان ذلك صحيحاً لأنه لولا وجود الفرسان البحريين ، لكان توران قد قتلها . ولكان الأمراء قتلوها . حتى خليفتك في بغداد ووزيره ، والقائمة تطول . . . رضي الجميع واقتنع بالوضع لفترة ، لكن بعدها تجاوز آيبك ما اعتقدته الملكة من باب الأمانة حيث أعلن أنه سوف يتخذ لنفسه زوجة أخرى» .

ضحك بيبرس لنفسه على الذكرى .

«وبوسعك أن تتخيل كيف تم تلقي هذا الخبر في بلاط الملكة» .

«لم يكن جيداً كما أتوقع» . قال عبد .

«لا ، غير جيد على الإطلاق . ولم يخفف حدة الوضع كون الزوجة الجديدة فتاة صغيرة لم تكد تنتهي من اللعب مع إخوتها الصغار . تأذى إحساس الملكة بالشرف وكبرياء الأنثى لديها . بدرجة سيئة . بالطبع ، لم يستطع آيبك أن يرى أي مشكلة في نواياه» .

«من كانت الفتاة؟»

«ابنة أمير الموصل ، البدر . في الأثناء كانت شجرة الدر تجري الاتصالات مع يوسف هنا في دمشق . أخبرني عن الرسائل حينما وصلت . كانت تبحث عن الدعم لقطاعها الخاص ، بينما انهمك آيبك في إجراء اتصالاته وتحالفاته . لم يكن مثل هذا الترتيب قابلاً للاستمرار ، وهكذا وصلت الأوضاع إلى حد التصادم . في نهاية

المطاف ، فإن شجرة الدر هي السلطانة الشرعية بكل الاعتبارات . فقد أمرت بسك النقود باسمها ، هل عرفت ذلك؟ أصرت ليس فقط على أن لا يتزوج آيبك ابنة البدر ، بل على أن يطلق زوجته الأولى أيضاً . وبالطبع لم يقبل ولم يستطع أن يفعل أياً من الأمرين ، لأنه كان قد أعلن سلفاً عن نيته في المضي قدماً .

دبرت عملية اغتياله أثناء وجوده في الحمام ، تماماً كما لاقى فخر الدين موته على أيدي الفرنجة . أتمنى لو أستطيع أن أجد موقفاً شاعرياً في هذين الموقفين يا عبد ، ولكن الأمر يملأني بالغضب بدلاً من ذلك . اكتشف قطز الأمر وأصيب بحالة هياج . قضى على وصيفات الملكة ورجال بلاطها ، ثم ألقى القبض عليها وعلى خادماتها . في البداية ، أنكرت الخادمات كل علاقة أو معرفة ، لكن قطز أجبرهن على الكلام وظهرت الحقيقة في نهاية المطاف» .

أحسَّ عبد بجلده يتقلص من مجرد التفكير فيما يمكن أن يكون رجال قطز قد فعلوه بالنساء .

«ولكن في الوقت نفسه ، كانت محمية من قبل رجال أقطاي ، تلك القلة التي بقيت بعد مماته . اعتقدوا أنها لم تكن لها يد أو علاقة في مقتله ، لذلك أقدموا على إخراجها من الاعتقال وأخذوها إلى البرج الأحمر في القاهرة . مرة أخرى ، وتماماً كما مات توران شاه . هل تعتقد يا عبد أن خطايانا تلاحقنا وتدركنا؟ لقد أدركت آيبك والملكة حتماً . فقد أراد رجال قطز موتها . طاردوها إلى البرج الأحمر . حاصروه وأجبروا الحراس على الفرار . في نهاية الأمر ، قام قطز بمصالحتهم ، أو أنه قام برشوتهم» .

«هل اقتحموا البرج؟»

«لم تكن هناك حاجة لاقتحامه . اكتفوا بإغلاق المخارج وانتظروا حتى تقوم الطبيعة بأخذ مجراها . سمع قلاوون أن الملكة قضت أيامها الأخيرة فوق هناك ، وهي تطحن مجوهراتها حتى أصبحت غباراً ، وهي تصرخ بأن أحداً غيرها لن يلبسها . في آخر الأمر ، وبعد انقضاء ثلاثة أيام ، ملوا من الانتظار وهكذا سمحوا لخادمات زوجة آيبك الأولى وابنه ومحظياته بالدخول لمطاردتها إلى النزول مثلما يطلق الشخص الجرابيع لمطاردة جرذ ما . ضربوها وتركوا جثتها مطروحة في العراء» .

قال عبد «ذلك عمل وحشي» .

قال بيبرس «تلك هي السلطة . يقوم الناس بأفعال رهيبة للحصول عليها أو للاحتفاظ بها . يتحتم عليهم ذلك ، وإلا فإن شخصاً آخر سيقوم بعمل وحشي تجاههم بدوره» .

نفض عبد رأسه ، وقد غمره الحزن .

سأله بيبرس «هل بدأت تتردد في قبول العمل لديَّ يا عبد؟»

«هذه الأحداث التي تصفها لي مرعبة فعلاً» . تصوَّر البيت وخزانة الكتب والورق الذي أعطاه إياه بيبرس . عندما تكون الحياة ضعيفة ومعرضة للأذى ، فلابد أن إعطاء مثل هذه الأشياء يصبح سهلاً ، أو ربما لأن الحياة عرضة للأذى بهذه الدرجة ، يشعر بيبرس بالحاجة إلى إغراق أتباعه بالهدايا . كل الوضع جديد عليه تماماً . لذلك لم يستطع أن يتفهمه بشكل منطقي .

«اسمع يا عبد . أريدك أن تطمئن بأنه لا أحد ، في حدود معرفتي ، يقوم بمطاردة المؤرخين . إلا إذا كتبوا شيئاً فاضحاً بدرجة خاصة» . ضربه بيبرس على ظهره تحبباً «والآن هلم بنا لنذهب ونتناول شيئاً من الطعام» .

ذهب عبد بصحبة بيبرس إلى قاعة طعام الضباط في القلعة ، بينما تصطرع الأفكار داخل رأسه حول ما قيل له . في تلك الليلة ، وبعد أن أضاء سعيد شمعات النحل في مكتبه ، نظر خارج النافذة إلى ظل جبل قاسيون الممتد في البعد ، واستمع إلى خرير مياه نهر بردى المتدفقة برفق تحته ، وهو يحاول أن يفهم كل ما أخبره به بيبرس . تناول ريشته المرة تلو الأخرى ، وحاول أن يبدأ بخرطشة بضع كلمات على الورقة ، لكنه ظل يعيدها ، إذ لم تكن لديه فكرة عن النقطة التي سيبدأ منها . *كيف أعثر على الكلمات التي تصف مثل هذه الشهوة إلى الدماء؟*

إلى جانب القصص التي رواها له بيبرس ، فقد بدأت الحياة مع الفرسان تتخذ منحى ممتعاً أكثر بكثير مما تأمل عبد في تخيله . فقد راقب مندهشاً بينما قام بيبرس بقيادة رجاله خلال المناورات المعقدة على ظهور الخيل في أرض الاستعراضات ، يوماً بعد الآخر .

بدا وكأنهم لا يغادرون السرج مطلقاً ، منذ انشقاق الفجر وحتى حلول الغسق . صعق عبد لدى مقابلته ذلك العدد من الشراكسة بين الرتب المختلفة ، وكاد يغيب عن وعيه لدى مقابلة رجال يبدون مثل المغول يصطفون كل صباح في طابور التفقد .

«إنهم من المغول» . قال بيبرس عندما أثار الموضوع فيما بعد . «بعضهم تم أسره في صغره ، كما حدث معي ، لكن معظمهم انضم إلينا بموافقتهم واختيارهم . إن مصدر قوة الفرسان هو إيماننا . الله سبحانه وتعالى يضع فينا القوة ، وليس فقط سلالتنا» . مال مقترباً من عبد «إن وجودهم بين صفوفنا كسب كبير لنا ، هؤلاء الرجال . لقد تعلمنا الكثير من حيل المغول واستراتيجياتهم ، ولكن على الأغلب هم

يعطوننا فكرة إلى أي درجة يخلص رجال الخان إلى خيولهم . إن المغول يمضون حياتهم في السرج ، ولذلك فحتى نهزمهم ، يتحتم أن نفعل الشيء نفسه» .

توصل عبد إلى فهم حقيقة مفادها أن بيبرس ينوي أن يستمر عملهما أثناء وجوده في الحملات ، ولذلك فسوف يضطر إلى مغادرة بيته الجديد ، وسعيد ، ويتحول إلى ما يشبه الجندي .

انطلقت ضحكات كثيرة عندما بدأ يتدرب بالسيف في ميدان التدريب . طوّح بسيفه على عمود المبارزة وأصابه ، لكن نصل سيفه انغرز داخل الخشب ولم يتمكن من إخراجه . في النهاية أشفق عليه مساعد شاب وسحبه له ، مستخدماً قدمه كرافعة .

قال له عبد «أشكرك» بينما اشتعل خداه حمرة .

نادى عليه بيبرس مستمتعاً بالمنظر «ابقِ ذراعك مرفوعة وتابع الطعنة يا عبد ! وإلا فإنك إذا أخطأت ولم تصب هدفك ، فسوف يكون جسمك مفتوحاً ومعرضاً لضربة اعتراضية» .

لم تكن لدى عبد أي فكرة عما يعنيه ذلك الكلام ، لكنه استمر في توجيه ضربات وتطويحات جادة إلى العمود حتى لم تعد ذراعه وكتفه قادرتين على رفع السيف .

«ذلك عمل طيب» قال بيبرس فيما بعد ، بينما استمر عبد في تدوير ذراعه حول المرفق في محاولة لاستعادة الإحساس بها . «قم بالعمل نفسه في الغد وسوف تلمس التحسن» .

أصبح واضحاً أن بيبرس يتوقع معركة في وقت قريب . لكن عبد فهم أن الحالة هكذا على الدوام .

لم يستطع أن يتخيل هؤلاء الرجال يسترخون على أمجادهم

ويستمتعون بخيرات الأرض . فقد استمروا في الضغط لتسريع تحركهم ، إطلاق سهامهم بدقة أكبر ، بالاستدارة وشن هجوم معاكس بوقت أسرع بقليل . كانوا يهجمون لساعات كاملة في طوابير مستقيمة منتظمة ، يدفعون برماحهم خلال صفوف من أكياس الرمل المعلقة بارتفاع رجل جالس على صهوة حصان ، ومتابعين إلى الطاقم التالي من العوائق بعد استرداد رماحهم إلى الخلف والخارج . حاول عبد أن يرفع أحد الأسلحة ويبقيه مرفوعاً أثناء وقوف حصانه ليكتشف أن الوزن يعادل كل القوة الكامنة في معصمه .

قال بيبرس «إن بناء القبضة يستغرق وقتاً . هو أثقل وزناً من الريشة ، هل أنا محق؟»

«هل استعملتم مثل هذه الأسلحة ضد المغول سابقاً؟»

نفض بيبرس رأسه «لم نفعل أكثر من المناوشات مع وحداتهم ، لعبة اقتحام وانسحاب بالقوس والنشاب . ذلك هو أسلوب المغول . يطلقون أعداداً كبيرة من السهام والمقذوفات ، وهكذا يقسمون أعداءهم إلى وحدات منفصلة يسهل عليهم طردها وهزيمتها . يمتلكون القدرة على الهجوم ، لكنهم ليسوا في مثل قوة الفرنجة ، لكنهم أقوياء وأكثر عدداً بكثير» .

سرحت عينا بيبرس إلى المدى ، حيث تراءت الجيوش المغيرة أمام ناظريه .

«في المنصورة ، هزمنا حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف من فرسان الملك الفرنجي ، وعندما كنت شاباً وخضت معركتي الأولى ، هجمنا على طابور من ألفين أو ثلاثة آلاف من الفرنجة الهوسبيتاليين والمعبدين . حدث ذلك في قرية الحربية ، والتي يسميها الفرنجة لافوربي» .

جاء للاسم اللاتيني رنة غريبة على لسانه . شاهد عبد الشكل الأبيض لعينه وقد بدأ يتوهج عند الذكرى . «سيضم جيش الخان أربعة أو خمسة أضعاف العدد من الفرسان ، على الأقل . وكلهم يطلق السهام علينا في محاولة لقتل خيولنا عندما لا يتمكنون من قتلنا . وقد قيل لي إنه عندما يتم إضعافنا بدرجة كافية ولكننا لا نهرب من الميدان ، وقتها سيهاجموننا» .

سأله عبد «إذاً ما الذي ستفعلونه؟»

«ربما يكون كل ما بوسعنا هو إثارة غضبهم» . قال بيبرس ، وقد حلت على وجهه نظرة غريبة .

قال عبد «إنهم قادرون على إطلاق النار» .

«ماذا؟» وجه إليه بيبرس انتباهه الكلي .

«لقد رأيتها . في قصر الخليفة . بعد أن غادر القائد المغولي ، كان قد أرسل رجاله إلى داخل الحدائق وقد بدأوا يطلقون النيران في السماء» .

«نيران؟ هل تعني أنهم ألقوا بها؟ نيران مشتعلة؟»

«كلا» حاول عبد أن يعثر على الكلمات المناسبة ليصب بها القذائف المنطلقة والانفجارات الراعدة حينما تنفجر في الهواء ، زخات من الشرارات . «لقد بدا المنظر وكأنهم أطلقوا البرق في السماء . ثم عادت القطع نازلة على رؤوسنا ، مثل الزجاج المحطم ، إلا أنها كانت مشتعلة» .

«هل قاموا بإنتاج البرق؟»

«ليس مثل ذلك الذي نراه في السماء ، كما يحدث عندما يرسل الله عاصفة . لقد احتوى هذا على ألوان عديدة مختلفة بطريقة ما ،

وكلها تزعق مثل الشياطين ثم تشعل السماء بقصف أعلى صوتاً من الرعد . أصيب الجميع بالهلع . ابتدأ الخدم بالصلاة وهم يعتقدون أن الجحيم قد انفتح على العشب» .

«هل مات عدد كبير؟»

«لم يقتل أحد . كان الأمر غريباً . استطعت أن أسمع الجياد تزعق في الإسطبل . لكن لم يحترق أحد . فقد احترقت الشرارات الكبيرة نفسها وانتهت قبل أن تنزل على القصر أو الناس الذين تواجدوا داخله» .

قال بيبرس «لقد سمعت بمثل هذه الشعوذة . لكنني لم أسمع أبداً عن شيء مثل هذا يحدث في مكان بهذا الاتساع بحيث يقدر على إنارة قصر وإرهاب مدينة» .

قال عبد «لم أتوقف عن التفكير في الموضوع . هناك قلة من العلماء في بغداد يجرون اختبارات باستخدام الذرور والأعشاب ، ومعظمهم من الصيادلة» .

قال بيبرس «هؤلاء سحرة» .

«يفضل أن يحترس الإنسان من مثل هذه الكلمات ، حتى في بغداد . يقولون إن عملهم هو عمل طبيب ، إيجاد العلاجات لتخفيف الأمراض كما تدعو الحاجة . حتى إنه تمت دعوتي لحضور عروض ، خاصة بالطبع ، حيث قام بعض هؤلاء الرجال بإشعال المساحيق لتحترق بأنوار غريبة . لو أنني رأيت مثل هذه الأشياء في الشارع لفكرت أنها من فعل شبح ، أو روح ، ولكن لأنني أعرف أن هؤلاء رجال ذوو علم ، وأن الغبار مصنوع من أشياء مخلوقة بيد الله ، لم أشعر بالخوف» .

«هل رأيتهم وهم يصنعون المسحوق؟»

هزَّ عبد رأسه إيجاباً «أنهم يكسرونه من الصخور والنباتات ويدقونه بالهاون . هل تعتقد أنه يوجد رجال مثل هؤلاء هنا؟ لقد فكرت في سؤال ناصر» .

هزَّ بيبرس رأسه «لا تقل أي شيء . سوف أقوم ببعض التحريات . هل تعتقد أن هذا المسحوق هو ما استعمله الخان ليشعل منه نيرانه؟»

فكَّر عبد للحظة «إنها احتمالية . لا أستطيع أن أتأكد إلا بعد أن أحصل على بعض من ذلك المسحوق لأجري عليه اختباراتي» .

طرق بيبرس بمؤخرة رمحه على الأرض «هل تعتقد أن هذه النار يمكن استخدامها في المعركة؟»

«لا أعرف عنها إلا أقل القليل ، مجرد ما شاهدته . ولكنك إذا استطعت بدورك أن تصنع ناراً مثل تلك ، ألن تشغل بالهم على الأقل؟»

«ربما تفعل ذلك ، يا عبد» . حوَّل بيبرس نظره إلى حيث كان الفرسان يشنون هجمة أخرى على صف الأهداف ، مشهرين رماحهم . «إذا استطعنا أن نجذب العين إلى ناحية ما باستخدام النور ، يحتمل أن نتمكن من إرسال جريد عبرها من الاتجاه الآخر» . تناول الرمح بكلتا يديه ومثَّل أنه يرمي به عبد . «لنعد إلى تدريب أعضائنا وسوف نتكلم المزيد عن تدريب أدمغتنا لاحقاً» .

في الأمسيات ، اختلفت الأمور اختلافاً بيناً . بعد ذلك اليوم الأول من التدريب بالسيف ، انهمك عبد في فرك عضلاته التي تؤلمه بالزيت حينما جاءت طرقة على الباب ودخل بيبرس ، مرتدياً حلة من الحرير الأحمر من رأسه إلى أخمص قدميه ، وقد شذب لحيته في جديلة طويلة .

أعلن «تعال يا عبد ! هناك موسيقى ينبغي الإصغاء إليها» .

وهكذا انطلق عبد راكباً بصحبته إلى حدائق قصر الأمير وأمضى أمسية مميزة ، تم تكريمه خلالها بعازفين في واحدة من أرقى الفرق الدمشقية ، جالساً في مقعد بظهر مرتفع ، ويحمل في يده شراباً مثلجاً .

في أول يوم جمعة له في دمشق ، وبعد انتهاء صلاة الظهر ، لم يفاجأ عبد بأن الفرسان عادوا إلى ساحة الاستعراض وبدأوا يسرجون جيادهم . أصبح واضحاً من معدل ساعات عملهم في بقية الأسبوع ، أنهم ينوون الإبقاء على أنفسهم في حالة جاهزية تامة .

لكن لم يكن الأمر كما توقعه . سحب الفرسان من طيات أغمادهم القماشية ، عصي البولو بدلاً من السيوف ، وخصصت بقية ذلك النهار لألعاب ودية متبادلة ، عمد فيها بيبرس إلى انتقاء الفرق وتهنئة الفائزين بهدايا من الحلويات والمناديل الملونة .

الفصل الواحد والعشرون

حدث ذلك خلال الأسبوع الرابع من وصول عبد إلى دمشق ؛ إذ جاءت طرقة على الباب ووقف هناك سميح ، يحمل بطاقة طويلة في يده . فوجئ عبد لكونه لم يشاهد صديقه الدمشقي الأول لبعض الوقت . لقد فقدا التواصل بينهما بسرعة بعد أن انتقل عبد إلى البيت الذي هيأه له بيبرس .

قال عبد «الصديق سميح ، أهلاً بك» .

«السلام عليكم ، يا أخي عبد . لقد ظهر كاتب عدل هذا الصباح حاملاً خطاباً إلى رجل سماه سميح البغدادي . لقد افترضت أنه يقصدك لذلك أكدت له بأنني سأهتم بأمر إيصاله» .

«نعم بالطبع» . نظر عبد باتجاه لفة الورق ، المختومة من الخارج بختم من الشمع بلون الياقوت «أرجوك ، أدخل . آمل أن لا يكون قد أثقل عليك أو أجبرك على أن تعطيه نقوداً؟»

«لا شيء أكثر من بضعة دريهمات . مسألة تافهة» . قال سميح . تلفت حوله باتجاه الممر وعوداً إلى منطقة المطبخ أثناء دخوله . «إن من يقيم في مسكن كهذا لا يحتاج لأن يقلق على أي شيء بكل الأحوال» . أطلق صفيراً قصيراً . «وهكذا فقد أثبت قلاوون ووظيفته أنه ذو عائد ممتاز ، صح؟»

أشار عبد إلى وجوب جلوس سميح على أحد الكراسي الخشبية

«لقد كان قلاوون مجرد وسيط . أما الزبون الحقيقي فهو الأمير» .

«اليوسف؟ لكنه لديه جيش من الكتبة والموظفين . بصراحة ، لديه صفوة الحكماء وعلماء الرياضيات في المدينة . فلماذا السرية والاضطرار إلى إرسال هذا الرجل قلاوون؟ كان بوسعه الاكتفاء بالذهاب إلى الكلية» . توقف سميح «فهذه بنايته بكل الأحوال» .

استمر عبد في الابتسام ، قال «إنه ليس اليوسف» .

«من إذاً؟»

«بيبرس البندقداري» .

«هل قلت بيبرس . . .؟ ولكن أليس هو . . .؟»

«أحد الفرسان البحريين؟ نعم ، هو كذلك» .

ثار فضول سميح بطريقة إيجابية «وهل قاموا باستخدامك؟»

«بطريقة ما ،» دوَّر عبد عينيه في أرجاء الغرفة «لقد أهدوا إلي هذا البيت» .

تابع سميح عيني عبد في أرجاء الغرفة «وهو بناء راق . ولكن ما هو الشيء الذي يطلبونه منك في المقابل؟»

«سوف أعمل بوظيفة كاتب يومياتهم . سوف أكتب تواريخهم» .

«مؤرخ بلاط؟»

«لم أفكر في الأمر بتلك الطريقة . ليس لدى بيبرس أي بلاط بالطريقة التي يمكن أن تتخيلها» .

«لا؟ كيف إذاً يقومون بإدارة أعمالهم وشؤونهم؟»

«لديه دائرته الخاصة من حوله ، إنهم في الغالب من قبيلته نفسها في الشمال ، القفقاس . هم شراكسة . لست أعرف أي شيء عن اللغة أو الناس بعد ، والأمر صعب لأن رجاله ينظرون إلي بقدر من الشك» .

نفض سميح رأسه «إنهم ينظرون إليك كمخلوق داخلي يستحق الاحتقار . أنت تقضي كل وقتك بين أرفف المكتبات المغبرة . سوف أفاجأ لو أنهم اتخذوا منك موقفاً مخالفاً» .

«لكن بيبرس نفسه يرحب بي . إنه هو الذي استخدمني شخصياً» .

«لتكتب عن مغامراته وإنجازاته؟»

«نعم ، بوسعك أن تقول ذلك . لأكتب الأشياء حتى يعرف كل من يأتي بعدنا ما حدث . لقد كنت أفكر دائماً بأنني يحتمل أن أكتب تاريخاً ما في يوم من الأيام . أنا فقط لم أفكر بأن الأمر سيحدث بهذه الطريقة» .

«يا عبد . هناك دائماً جوانب عديدة لكل قصة . فهل ستظهر أنت جانب الفرسان منها؟»

ضاق صدر عبد بأسلوب سميح في الاستجواب ونفض رأسه ، مؤشراً على أن النقاش قد وصل إلى نهايته . أومأ برأسه إلى الخطاب «هل قرأته؟»

«كلا ،» قال سميح «لست بحاجة إلى معرفة ما يقوله . لقد كان اهتمامي الوحيد هو أن يصل إليك» .

تنهد عبد ، وقد ندم على تسرعه ونزقه قبل لحظات قليلة . «أشكرك ، هل ترغب في شيء تشربه ، أو ربما تأكل شيئاً؟»

«كلا ، أشكرك» نهض سميح واقفاً «أظن أنني سأعود إلى بيت ناصر وأستمتع بقراءة كتبه بينما لا تزال الفرصة سانحة لي» .

سمعا صوت ضجة في القاعة الخارجية .

«من هناك؟» نادى عبد .

«هذا فقط أنا» . جاء سعيد يعرج وأومأ بالتحية إلى سميح . ردَّ له الشاب البادرة .

خرج عبد مودعاً معه إلى الباب الخارجي «سوف أحضر لأزورك يا سميح ، بمجرد أن أستقر» .

قال سميح «سوف يسرني ذلك» . وانصرف ليخفيه شعاع الشمس المتناقص في أول المساء .

عاد عبد وتناول الخطاب «أنا صاعد إلى الطابق العلوي ، يا سعيد . أظنني سأخلد إلى النوم» .

«افعل ما يلائمك» جاءه الرد .

أشعل عبد مصباحه واستقر في مكتبه ليقرأ الخطاب . ظهرت تحت الختم المكسور كتابة ابن دقيق التي لا يمكن الخطأ بشأنها ، فأحسّ بنوبة من الحنين لموطنه وحياته القديمة التي تؤثر فيه بين الفينة والأخرى . أضافت رؤية خط سيده القديم حدة خاصة إلى حنينه ، مستحضراً شعاعاً من الذكريات ليجد نفسه يسير إلى داخل الكلية في الصباحات المشمسة ، متسائلاً عن الاكتشافات التي سيحملها إليه ذلك النهار وهما يحلان المخطوطات القديمة ويتشاركان في قراءة محتوياتها .

ركزّ اهتمامه على الكلمات قبل أن يغلبه الحنين .

بدأ الخطاب : ***يا عزيزي عبد ، لقد تلقيت رسالة في منتهى التنوير من رجل غريب قال إنه قادم من سورية من صديقي الحميم سميح . لابد وأن روحاً معينة قد أوقفت لساني ، لأنني كنت قد أقسمت مسبقاً أن أخبره بأنني لا أعرف أي شخص بذلك الاسم في تلك البلاد ، وهكذا أخذت الرسالة من يده ونفحته قطعة نقود .***

إذا لم أكن قد فقدت كل قدراتي الإدراكية ، فإنني أؤمن أن هذه الرسالة هي منك تخبرني فيها بأن صديقي القديم ناصر قد توفي . لقد كان رجلاً متفرداً قادراً على الإتيان بأعمال مدهشة لا يستطيع أي مخلوق فان آخر أن يقلدها . من المؤسف أنكما لن تلتقيا مطلقاً . كان سيريك قسماً من وجوده لا يسمح بالاطلاع عليه إلا لقلة قليلة من الآخرين .

فكر عبد بالصفحات من القواعد والفرضيات الفلكية التي انكب عليها في بيت ناصر ، وكيف حاول سميح أن يشرحها له . أدرك أن هذا الرجل ناصر كان سيأخذه ليرى المحيط بأكمله ، حيث في السابق كان راضياً بأخذ المياه من الغدير مثل جميع الآخرين .

ذلك هو ما أحتاج إلى قوله عنه . بالنسبة لبقية الأمور ، فإنني أستنتج أنك عثرت على صديق له وأنه قد قدم لك المساعدة . أعلم أنك لن تكون قد أنفقت النقود التي أعطيتك إياها لدى مغادرتك ، لذلك إذا كنت قد حظيت بالاستضافة ، حافظ عليها فقد تساعدك مرة أخرى في المستقبل . أكمل عملك ودراستك بأفضل جهد ممكن في مدينتك الجديدة وسرعان ما ستتمكن من المتابعة هنا في ظلال كلية الخليفة ، ويمكنك حينها أن تخبرني بكل الأشياء الجديدة التي تعلمتها .

عبس عبد وبدأ يقرأ بسرعة أكثر قليلاً .

سأخمن أيضاً أنك تفقد صبرك باحثاً عن أخبار فتاتك ، صفية .

ضحك عبد . أحياناً يعرفه ابن دقيق أكثر مما ينبغي .

لقد استقرت بداخل بيتي وكأنها بقيت موجودة فيه منذ

ولادتها ، وكل ثلاثتنا ، سعداء بوجودها معنا . تتكلم عنها سارة كما قد تتكلم عن ابنة لها ، وتحتفل بوجودها كما يرحب الشخص بعمود من النور يكسر وجوم وعتمة صباح عاصف . افترض أن السنوات التي اعتاد فيها طلابي على الاستلقاء على الأرضيات وتوسيخ الوسائد قد أثرت فيها كثيراً . إذا كانت صفية قد أثبتت أنها هدية من الاعتذار ، غير مقصود حتماً ، وقتها يجب أن تعرف أن لديها بيتاً هنا لكل الوقت الذي ستحتاجه فيه .

مازالت تغادر وتغيب لفترات طويلة كما وصفتها أنت ، ولا نعرف ما تفعله خلال هذه الأوقات ، لكن من المحتمل أنها تكتفي بالتجوال وتريح نفسها من ضغوطات بيتنا الغارق في الصمت لفترة ما . لا ينبغي تقييد الشباب ، في نهاية الأمر . في الختام ، هي فتاة راقية وسوف تجعل أي رجل سعيد الحظ لدرجة أنه سيحظى بيدها يشعر بأن الله قد كافأه .

لكن المدينة تزداد توتراً وأحياناً أظن أن اختياري الشخصي لحياة الدارس المعلّم وعدم اختيار حياة رجل العائلة هي أمر طيب . يتجول الجنود المسلحون في شوارع المدينة كل يوم ، ونسمع حوافر خيول الفرسان تقوم بالمناورات خلف الأسوار ونحن في فراشنا أثناء الليل . يتنامى جيش الخان مع مرور كل يوم ، هكذا يقولون ، مع قدوم قوات جورجيا وأرمينيا وحتى أنطاكية لتزيد في ضخامة صفوفه الهائلة أصلاً .

لقد تم القضاء على آخر بقايا الخوارزميين والحشاشين أو أنهم تم نفيهم وطردهم إلى أبعد نقاط الأرض . بوجود المغول يسيطرون على جميع المناطق إلى الشرق ، ومع وجود حلفائهم الذين ذكرتهم

أعلاه ، في الشمال والغرب ، يصبح من الصعوبة بمكان رؤية المكان الذي يمكن للاجئين أن يتجهوا إليه . نحن كلانا تلاميذ تاريخ يا عبد ، وأنا واثق من أنك ترى ، كما أرى أنا ، بأننا نقترب من هاوية رهيبة . تلك هي الكلمة الوحيدة التي أستطيع أن أفكر فيها بالنسبة لما يتصف به الخان وقطعانه . سوف يكون المغول لبغداد الشيء نفسه الذي شكله الهون بالنسبة لروما .

ليسامحني الله تعالى على كتابتي لهذه الكلمات ، لكن لم يعد من الأمر مهرب الآن . لقد أمرت بتركيب قفل جديد على بابي الأمامي الخارجي وأقفال قوية لجميع غرف البيت ، في حال اضطررنا إلى تحصين أنفسنا داخل البيت . لقد فكرت باستئجار بعض الحراس ، لكن استفساراتي دلت أن مثل هذه المساعدة تكاد تكون مستحيلة الإيجاد . جميع الوكلاء الذين يمكنهم توفير مثل هذه الخدمات في العادة ، إما أنهم أرسلوا رجالهم إلى الانخراط في حرس الوزير ، أو أنهم هربوا . إن صديقك السابق عازر واحد من هؤلاء . فقد تسلل خارجاً من المدينة ولم يره أحد منذ عدة أيام . بعد هجومه عليك ، أشعر أن غيابه هذا لا يشكل خسارة .

لا أريد أن أسبب لك الحزن ، يا ولدي ، لذلك لا تظن أن جميع الذين تعرفهم وتحبهم قد استسلموا لليأس . نحن نظل على ثقة من أن الله جلت قدرته سيوفر بعض الكيمياء ، والتي ستسلم بموجبها المدينة وكل الناس في داخلها من المصائب التي حلت بالمدن الأخرى التي وجه إليها الخان نظرته الغاضبة .

اطمئن أيضاً إلى أن هذه الرسالة قد أرسلت مع مراسل أثق به بالدرجة نفسها التي أثق بها بك أنت .

أنهيت الرسالة بتوقيع ابن دقيق بدون دعاء النهاية .

جلس عبد مسترخياً ليحاول فهم المحتويات . إن اليأس كلمة قوية ويندر أن يستعملها ابن دقيق ، حتى لو كانت بصفة اعتراض لأن وضعه الحالي هو العكس تماماً . فرح عبد بما لا يقاس حين قرأ أن صفية قد وجدت ملاذاً آمناً في البيت ، على الرغم من أن استمرار غيابها أزعجه . بصرف النظر عن أعمالها أو الأمكنة التي تتردد عليها . ماذا لو أنها كانت متغيبة لدى بداية المعركة ، فلم تعد قادرة على العودة؟ تمنى لو أنه قد بقي في المدينة ، ولم تكن تلك هي المرة الأولى . ولكن بمجرد تفكيره بهذه النقطة ، تراءت له الحقيقة والواقع ، حيث انغلقت يد ميتة على قلبه . أدرك أنه لا يمتلك وسيلة ، ولا حتى الحق ، في منع صفية من مغادرة البيت ، وكيف سيكون مفيداً في حمايتها وحماية ابن دقيق بكل الأحوال؟ لا شيء . عرف ذلك . إذا كان حراس المدينة الأقوياء يهربون ، يصبح الواقع منطقياً ، والقائل بأنه لا يمتلك فرصة في إحداث أي فارق في حال قيام العدو باختراق الأسوار .

لعن نفسه على خجله وجبنه . ثم جلس غارقاً في صمت الليل حتى أخبره صوت سعيد وهو يحضر فراشه في الطابق الأرضي بأنه يكاد يتجمد من البرد . حمل مصباحه وهو يهز برأسه آسفاً إلى غرفة في نومه ، نزع ثيابه ، سحب الغطاء ودخل الفراش حيث غط في نوم عميق .

***

جاء القرع على الباب متواصلاً . جلس في سريره وأدار رأسه من اليسار إلى اليمين ليحدد موقعه . تعالت أصوات في الشارع الكائن تحت غرفته . استمر الطرق العنيف على الباب . خاطبه سعيد بعبارة

ما ، ثم سمع الرجل العجوز يمشي في الممر باتجاه الباب .

صاح به «انتظر يا سعيد ، فإنني قادم !» . ارتدى عبد ثوبه الطويل من فوق رأسه وانتعل حذاءه . وصلت الأصوات إلى الممر الآن . أثناء نزوله الدرجات ، رأى أن القادمين هم ثلاثة من شراكسة بيبرس من الخاصكية ، الحرس الشخصي الذين يثق بهم أكثر من كل الآخرين ، والذين أقسموا بحياتهم جميعاً على حمايته . كانوا يتحدثون مع سعيد بأصوات خفيضة .

عندما ظهر لهم عبد من خلف الدرجات ، توقف الأربعة كلهم عن الكلام ورفعوا أبصارهم باتجاهه . رأى أن الفرسان كلهم يرتدون الدروع .

سأل ، وهو يتوقف عند الدرجة الأخيرة «ماذا بوسعي أن أفعل لكم ، أيها السادة؟» على الرغم من أن الدرجة أضافت ارتفاع نصف قدم إلى قامته ، إلا أنه ظل مضطراً إلى النظر إليهم رافعاً رأسه .

«يفترض فيك أن تجيء معنا» . قال الشركسي الأول .

رأى عبد أن سعيد لم ينزع عينيه عنه . كان الرجل يحملق فيه وكأنه مجرم .

سأل «هل هناك مشكلة من أي نوع؟»

تجاهل الفرسان السؤال «لن تحتاج إلى جواد» . أفرد يديه ذات القفاز باتجاه الباب «الآن» .

نزل عبد الدرجة ومشى الفارسان أمامه ، بينما تبعه قائدهم .

تواجد المزيد من الخاصكية في الخارج ، أحدهم يركب فرساً ويحمل شعلة بكل يد ، والآخر يمسك أعنة خمسة جياد . أحسَّ عبد بمعدته تتعقد وتتلوى . أعتقد أنه على وشك أن يغمى عليه . امتطى الحصان المقدم له بصعوبة وتناول السروع بيدين أحسَّ بهما ترتعشان ،

بتنميل حاد وكأنه قد نام عليهما . لم يتمكن من التحكم بقبضتيه مهما حاول . في النهاية ، لم يؤثر ذلك ، لأن حصانه كان مربوطاً إلى سرج النقيب الذي قاد الموكب عبر الظلام . لم ينطق أي من الرجال بكلمة طيلة طريق عودتهم إلى القلعة . راقب عبد درب القصابين أثناء مروره ثم استداروا ودخلوا شارع الصاغة . انتصبت الكتلة الهائلة للقلعة أمامه ، خارجة من العتمة ، وانجذبت عيناه إلى بضع شعلات تضيئان حول القاعدة ، والاثنتان الأخريان المشتعلتان في النافذتين الصغيرتين فوقهما . سار النقيب بجواده متجاوزاً البوابة الرئيسة باتجاه باب جانبي على بعد حوالي نصف ميل باتجاه الغرب . كان أكبر قليلاً من بوابة شعرية حديدية تحمي القلعة ، يحرسها خفير يبدو عليه الملل . طأطأ النقيب وارتفعت البوابة فدخلت مجموعتهم . عندما سمع عبد البوابة تنطرق حيث عادت إلى مكانها خلفه وهم يتخذون طريقهم صعوداً في الممر الضيق ، بدأ يتلو صلواته .

لم يكن قد دخل هذا الجزء من القعلة من قبل أبداً ، فكر لنفسه ليس في الليل على الأقل ، وسرعان ما ضاع في الأزقة المتوالية ، والساحات والممرات . كانت مدينة داخل مدينة ، فيها الأبنية والحوانيت ، حتى أكواخ للحراس وبيوت للضباط . استطاع بين الفينة والأخرى أن يميز شكل شخص ما في الظلال ، واقفاً في وظيفة الحراسة ، ولكن لم يكن هناك أي شخص آخر يتحرك في ذلك الوقت ، ما عدا مجموعته . توقفوا أمام عمارة مهيبة إلى حد الرهبة ، مؤلفة من طابقين ، نوافذها محمية بقضبان قوية وباب مسلح قوي في المقدمة . بدت مثل سجن ، وتحققت شكوك عبد حينما أصبحوا في الداخل ، لأن الغرف كانت مغلقة كلها على الجانبين ، مع نوافذ صغيرة

محفورة في وسط الأبواب على مستوى ارتفاع الرأس ، بحيث يتمكن السجانون من النظر عبر المربع إلى سجنائهم كلما اختاروا النظر . عبروا متجاوزين العديد من هذه الغرف وسماع عبد مرتين أصواتاً تشبه تحركات الحيوانات والنحيب من خلال الألواح الخشبية . لم يكن هناك أي نور فيما عدا الشعلتين اللتين يحملهما الحرس الذين بصحبته .

اعتقد عبد أنه قد عرف شعور الخوف من قبل ، عندما سعى عازر وزبانيته للتعرض له في الليلة التي سبقت هروبه من بغداد ، شعر وقتها أن حياته في خطر وكانت هناك إمكانية حقيقية بأنه سيموت . لدى تفكيره بالحادثة بينما كان يعبر الصحراء في طريقه إلى دمشق ، اعتقد أن مثل هذه التجربة قد وفرت له خبرة في أعماق العاطفة . كان قد قرأ أن الحواس والفطنة يتم شحذهما في مثل تلك الحالات ، وبدا له أنه قد تذوق وجرب في هذه اللحظات ما تكلم عنه الفلاسفة في أعمالهم .

ولكن في هذه الأثناء ، بدت له تلك التجربة أشبه بلعب أطفال ، مسرحية هزلية لمراهقين تمادت أكبر مما يجب . كان يتقابل وجها لوجه مع السلطة الحقيقية في هذا المكان ، النوع القادر على استدعاء الجحيم نفسه من أعماق الأرض ، وإطلاقها على أي روح تختارها .

أخذ يرتعش وتباطأت خطواته . انبعثت من شفتيه شهقة بكاء وصدمته بقدر تلك الأصوات التي سمعها من حوله . اصطدمت أكتاف الفارسين السائرين خلفه بكتفيه وظهره ، ودفعه أحدهما بخشونة في ظهره .

«استمر في المشي» . قال له الحارس .

عاود اللحاق به فتناول كل منهما جانباً من ثوبه بقوة ، وأخذا

يدفعانه أمامهما باتجاه قاعدة درجات ثم رفعاه ، درجة بعد الأخرى . مع حلول لحظة وصولهم إلى الطابق العلوي ، كان عبد يكافح للبقاء واقفاً . كاد يشعر بالسرور عندما فتح النقيب الباب الأول في الفسحة وساروا به داخلين . احتاجت عيناه إلى وهلة لتعديل أبصارهما على النور الإضافي ، حيث أضيئت مجموعة من الشموع والشعلات ، ولحظتها شاهد بيبرس واقفاً أمامه مباشرة .

قال «سلامات يا عبد» .

«بيبرس . . . أنا» .

نفض بيبرس رأسه ورفع يده باتجاه الحراس «يمكنكم أن تغادروا» . هزوا رؤوسهم وخطوا إلى الوراء قبل أن يقفلوا الباب خلفهم .

وقف قائلاً «أريدك أن ترى شيئاً يا عبد» . الغرفة واسعة ومطلية بالجير الأبيض ،لكن لم يكن فيها من الأثاث سوى ثلاثة كراسي «أدخلوه إلى هنا» . نادى . التفت عبد بينما انفتح الباب ودخل منه رجل لم يره من قبل أبداً ، متبوعاً بقلاوون وتيكا . نظر الرجل إلى عبد بينما قاده تيكا إلى الكرسي المواجه لذلك الذي جلس عليه بيبرس لتوه . نظر عبد إلى أقرب حراس بيبرس بشيء من التهيب . أرهب حجم الرجل وهيئته ، مضافين إلى صمته عبد أكثر بكثير من أي عدوان مكشوف .

«اجلس يا سليم» قال بيبرس . أجبر تيكا الرجل على الجلوس «لقد سمعنا أنك وصلت حديثاً من حلب» .

قدَّر عبد أن الرجل في حوالي الثلاثين ، وسيم الهيئة رغم أن وجهه نحيل وضيق ، وأن عيناه ستكونان ضيقتين بدورهما لولا الذعر الذي تسبب في توسعهما .

قال «لقد ذهبت إلى هناك لشراء الصباغ ولرؤية والدتي» .

قال قلاوون «آه ، والدتك . كم هي لفتة طيبة من جانبك» .

نظر سليم إليه ثم عاود النظر إلى بيبرس ، متوسلاً «سيدي ، أقول لك إنني كنت في حلب ليس لأية أسباب أخرى» .

صفعه تيكا على وجهه بقوة جعلت عبد يقفز .

«لأ؟ ألا تريد أن تخبرني عن الأمكنة الأخرى التي زرتها غير منزل والدتك؟» جاء صوت بيبرس خفيفاً ، وكأنه يسأل سليم فعلاً عن جولة قام بها لرؤية الأمكنة أثناء غيابه .

«أي أمكنة أخرى؟»

صفعه تيكا مرة أخرى باليد الأخرى ، ما أجبر سليم على الزعيق من شدة الألم . أخذ خداه يتحولان إلى اللون الأحمر وبدأت عيناه تدمعان .

أخذ ينوح «لا أعرف ما تريد !» .

سأله بيبرس «لقد قابلت شخصاً ما هناك ، ألم تفعل؟»

«من؟ من هو الذي تقصده؟»

«أنت تعرف من الذي نقصده» . جاء صوت قلاوون صبوراً ومعايراً . «بعد أن أجريت الصفقة على الصباغ ، غادرت المخزن ، فإلى أين ذهبت بعد ذلك؟»

«لقد ذهبت لتناول شراب مع الوكيل . لقد قال لي إنه يحب الحشيش . لم أجد في ذلك أي ضرر . لقد شعر كلانا بالسعادة . . .» ارتفعت يد تيكا مرة أخرى فانكمش الرجل إلى الخلف بحيث كاد يسقط عن الكرسي .

«من هو الذي كان موجوداً في المشرب عند وصولك؟»

«المالك ، ورجلان آخران أو أكثر . . . لقد كان المشرب معتماً » . نزلت يد تيكا وزعق سليم . أتبع تيكا الصفعة بلطمة على مؤخر الرأس .

«أخبرنا» قال بيبرس . «كان هناك فرنجي ، أليس كذلك؟»

صدر عن سليم أنين ، وخرجت أنفاسه في اندفاعة طويلة . «يحتمل أنه كان فرنجياً» .

«يحتمل؟» اقترب قلاوون ووقف فوق رأسه .

اندفعت يد تيكا إلى كتف سليم . انتفض ورفع يده برد فعل غريزي ليحمي نفسه ، لكنه توقف وتجمدت يده مرفوعة ، وكأنه يشير إلى حشد من الناس . «لقد كان يتكلم بلكنة . تكلم بطريقة غريبة» .

أخذ الآن يشهق من شدة الألم . نظر بيبرس إلى تيكا . أرخى قبضته .

«ماذا تقصد بلكنة؟ لقد قابلت ما يكفي من الفرنجة لتعرف ما هم عليه» . قال قلاوون «فقط أخبرنا الحقيقة وسوف تهون الأمر على نفسك» .

عقد بيبرس ذراعيه فوق صدره «يا سليم ، سيصبح الوضع أصعب من هذا بكثير . افعل ما يقوله لك» .

«لقد كان فرنجيا . لم يكن عربياً ولا فارسياً بكل الأحوال» . بدا على سليم الاستسلام ولو مع الانفراج بطريقة ما . «لقد كانت القاعة معتمة ووجهه ملفوحاً من الشمس» .

«كيف حدث والتقيت به هناك؟»

«موزع الأصباغ –» .

«نبيل» قال قلاوون .

رفع سليم رأسه باتجاهه وطأطأ «ذلك صحيح . قال إنه يعرف رجلاً سيكون في غاية الاهتمام لسماع أخبار حول دمشق» .

«لماذا؟» سأل بيبرس .

«لم يقل السبب . وأنا لم أسأل . قال نبيل إن لدى هذا الرجل نقوداً كثيرة إذا أعجبه ما يسمعه» .

«وأنت فكرت في الحصول على بعض النقود؟ في وكر تعيس يعبق بالحشيش ومدخنيه والسكارى؟»

«لقد اعتقدت أن ذلك لن يتسبب بأي ضرر ، ماذا؟» استعاد سليم قليلاً من معنوياته .

«لقد أراد أن يعرف أشياء عن المدينة . ما الذي يمكن أن أعرفه ولا يعرفه كل شخص آخر موجود في دمشق؟»

تبادل المستجوبون النظرات . وقف عبد في الزاوية القريبة من الباب ، مذعوراً لدرجة أنه لم يجرؤ على محاولة المغادرة .

أشار بيبرس إلى تيكا «ما الذي سألك عنه؟ أخبرنا بكل شيء الآن . إذا اعتقدنا أنك لا تقول كل شيء فإن الوضع سيصبح مؤلماً لك» .

«لقد بادرني بالسؤال عن نفسي ، ما هي طبيعة عملي ووجودي في حلب . الأشياء العادية التي يطرحها الرجل عندما يلتقي بغريب» .

«ما هي الأشياء العادية الأخرى التي سأل عنها؟»

«لقد قال إنه سمع بعودة الأمير يوسف إلى المدينة بعد أن قاد رجاله إلى مصر . سألني ما إذا كانت دمشق هادئة ، وما إذا كان لدى الناس كفايتهم من الطعام» .

««ماذا قلت له؟» أخذ قلاوون يتمشى قليلاً في هذه اللحظات .

«قلت له إن المدينة آمنة . لا مشاكل . وإن الأمير قد عاد وإن هنالك رجالاً إضافيين في المدينة» .

توقف قلاوون «رجال إضافيون؟»

«نعم» اضطر سليم إلى الالتفاف حتى يراه . عاد إلى التحديق في بيبرس .

«من تقصد بالرجال الإضافيين؟»

«جماعتك . الفرسان البحريون . قلت له إن المدينة آمنة بفضل وجودك هنا» .

سأله بيبرس : «وماذا كان رده على ذلك؟»

«لقد قال إن سمعتك عالية جداً . وإن كل شخص يعرف اسمك» .

«وهل كان ذلك كل شيء؟»

«سأل ما إذا كنت أشاهدك كثيراً ، وقلت له إن ذلك صحيح ؛ لأن متجري قريب من القلعة ، وإن دورياتك المتجهة إلى البوابة الجنوبية تمر من أمام متجري تماماً . مرتين يومياً ، مئة رجل أو أكثر . قلت له إنه منظر رائع وأصوات رهيبة» .

حوَّل بيبرس نظرته من وجه سليم المصاب بالكدمات والنظرة المتفائلة ، إلى وجه مساعده قلاوون المكفهر والمصمم .

«هل أعطاك نقوداً؟»

«بضعة دنانير . لا شيء أكثر» . رفع سليم يديه «هل كان يتحتم عليَّ أن لا آخذها؟ أنا لم أخبره بشيء ، أقسم لكم» .

سأله قلاوون «هل أخبرك باسمه؟»

«كلا» نفض سليم رأسه «وأنا لم أسأله أبداً» .

«أمر مؤسف» رفع قلاوون سليماً ليوقفه على قدميه ، فتناوله تيكا من تحت إبطه ومشى به إلى الخارج .

«أنا لم أفعل أي شيء آخر يا بيبرس !» صاح سليم من فوق كتفه «أقسم لك ! أنا مخلص ! أنا -» .

أغلق تيكا الباب بقوة خلفهما . لم يقل بيبرس وقلاوون أي شيء لفترة طويلة ثم تلفت إلى عبد . كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما .

قال قلاوون «سأشرف على مسألة الرسائل» .

بعد أن غادر قلاوون . مدَّ بيبرس يده «تعال يا عبد ، اجلس» .

نظر عبد إلى الكرسي الذي كان سليم قد جلس فيه . بان له مكسوراً بطريقة ما ، خطيراً . لاحق بيبرس اتجاه نظرته .

«آه ، بالطبع» قال «لم لا تأخذ كرسيي أنا؟» جلس هو في كرسي سليم وجاء عبد ببطء واقتعد في الكرسي .

«سوف يموت الرجل» قال بيبرس بعد فترة صمت .

«لماذا؟»

«لأنه أعطى معلومات ذات قيمة إلى غريب في مدينة غريبة مقابل المال . بعض من رجالي - حتى أنا - يمكن أن أموت لأننا لم نمتلك ما يكفي من المنطق لأن لا نفضي بأي شيء» .

«هل لديه عائلة؟»

«نعم . زوجة شابة . أطفال» .

«وهل ستتركهم بدون والدهم؟»

«لدى رجالي أيضاً زوجات وأطفال والآن هم معرضون لخطر أكثر مما يجب بسبب تاجر القماش هذا وطمعه» .

«لكن -» .

«ليست هناك استثناءات ، يا عبد . إن قوانيننا وكتابنا المقدس في منتهى الوضوح . إن عقاب الخيانة هو الموت . خاصة إذا كانت تلك الخيانة من أجل المال» .

«لماذا أنا موجود هنا؟»

نظر بيبرس بعيداً إلى الجدار «لقد سمعت أنك تلقيت رسائل ، وزائراً» .

«لقد كانت الرسالة مجرد أخبار عن بغداد من ابن دقيق» .

«وماذا عن زائرك؟»

«هو سميح . الرجل الذي ساعدني لدى أول وصولي إلى المدينة . لقد قابله قلاوون . هو الذي عرفنا ببعضنا» .

«لم يخبره قلاوون لماذا هو بحاجة إليك . هل تذكر ذلك؟»

«نعم» قال عبد وقد أصيب بالإحباط .

«فلماذا إذاً أخبرته؟»

«لا أعرف . مثلي مثل سليم . لم أعرف أن في إخباري له أي ضرر» . ندم على الفور لأنه قارن نفسه بسيء الحظ سليم . «لم أكن أعرف أن الموضوع سري» .

«هو ليس سرياً» . قال بيبرس وابتسم . أحسَّ عبد بموجة من الانفراج تنداح فوقه . «وقد رأيت رسالتك . أعرف أنك لم تقصد أية خيانة . وما قلته لسميح كان نتيجة تفكير سيء ، ولكنه لم يكن مؤذياً» .

عاد عقل عبد إلى العمل مرة أخرى «كاتب الرسائل . سعيد . إنه من رجالك» .

«طبعاً . المعرفة شكل من أشكال القوة يا عبد . أنت تعرف هذا أكثر من معظم الناس ، حتى لو أنك لا تعي الوضع . نحن في حالة حرب . لا أعتقد أن ذلك مرجح ، ولكن كانت هناك إمكانية لأن تكون

جاسوساً لدى الخليفة، مرسلاً إلى هنا لاستطلاع أوضاع البلد وتقييمها».

لو أن عبد شعر بتحسن أكثر، لضحك بصوت عالٍ. «وهكذا وظفتني حتى تبقيني تحت المراقبة؟»

«ذلك صحيح. فذلك أفضل من تركك تتجول في أنحاء المدينة وتنام في المواخير».

«فهل أنا مضطر للمغادرة؟ أقصد أترك البيت؟»

ضحك بيبرس «تغادر؟ ليس بعد. نحن لم نكد نبدأ في سجلات التاريخ. لقد كانت تلك الوظيفة حقيقية بدرجة كافية. أريدك أن تكتب تاريخنا. لقد كنا عبيداً وأصبحنا ملوكاً، يا عبد. نحن بحاجة إلى الكتّاب ليدونوا تاريخنا. ابتداءً بك».

«ولماذا أنا؟»

«لأنك أثبت لي بأنك تتبعنا من أجل الأسباب الصحيحة. أنت غير مرغم من قبلنا لأننا نسيطر على مدينتك. أنا لم أحصل على ولائك برأس سيفي. أنت معجب بوسائل الراحة التي وفرناها لك، ولكن ليس لديك اهتمام بتكوين ثروة. أنت باختصار، مجرد فضولي. أريدك أن تكتب كل ما تخبرك به تساؤلاتك وأن تشركني بها. أريد من الأولاد في الطباق الذي درست فيه مع كل من تيكا وقطز أن يقرأوا عن مغامراتنا ويتعلموا منها ويعرفوها».

أسبلت عينا عبد إلى الأرض.

«أنت خائف. لا تشعر بالإحراج. أنت لم تضطر من قبل أبداً إلى اتخاذ قرار أصعب من التخلص من مقطع كتبته بشكل سيء».

مال بيبرس إلى الأمام «إذا لم يكن لديك الميل أو القدرة على هذا النوع

من العمل ، فأنت حر في المغادرة . سوف أسمح لك بالبقاء في البيت ، وأن ألبي لك احتياجاتك طالما أنت موجود في دمشق . عندما تعود بغداد آمنة ، سيسمح لك بالعودة إلى حياتك السابقة . سيكون الوضع آمناً ، يحتمل أن تكون صفية بانتظارك» .

رفع عبد رأسه لدى ذكر اسمها . إذاً فقد قرأ بيبرس الرسالة ، بالطبع ، فكر عبد ، سيعرف عن موضوعها . المعرفة هي القوة .

«لكن إذا أردت أن تحيا الحياة التي لا يستطيع الكتّاب الآخرون أكثر من الكتابة عنها ، فإنني أدعوك لكي تبقى معنا . لن تكون الحياة بهيجة على الدوام . أنا لا أستمتع بحقيقة كون الموت محيطاً بنا ، كما يفعل في هذه الليلة . لكنها حياة تستحق أن تعاش ، صدقني» .

حرّك عبد رأسه صعوداً ونزولاً ، في إيماءة تشير إلى الموافقة .

سأل بيبرس «فهل سوف تستمر إذاً؟»

«سأفعل» .

«الحمد والشكر لله» . نهض بيبرس واقفاً سعيداً . «هناك الكثير مما ينبغي عمله» .

أحسَّ عبد بالخوار . البطء ، عاود الوقوف .

«تعال يا عبد . إن قليلاً من الهواء النقي سينعش روحك» .

قاده بيبرس باتجاه الباب وأضاء شعلة من الشمعة الموضوعة في الجدار . راقبه عبد وهو يدير العصا في يده إلى الأمام ثم الوراء ، يغذي اللهب ويراقبه إذ يكبر .

سأله «الى أين سنذهب؟»

«الى السطح» . قال بيبرس .

«السطح؟»

«لقد قلت لك إن الهواء النقي سوف ينعشك» . سحب بيبرس الباب بعد أن اقتنع بقوة احتراق الشعلة ، ومشيا باتجاه الدرجات . كانت مجموعة من الرجال تقترب .

تقابلت عينا عبد وسليم للحظة بينما مرَّ السجين بجانبه . يمشي خلفه تيكا والفرسان الذين جاءوا إلى بيته . كانت كل مظاهر المقاومة قد غابت عن سليم ، واحتقن وجهه بمقدار من الحزن لم يره عبد في أي وجه آخر أبداً . انقبض قلبه للمنظر ، وكأنما سليم يخصه بطريقة ما حتى يقلق على مصيره . قال لنفسه إن هذا مجرد هراء ، لأنه كما قال له بيبرس ، منذ قدم لذلك الرجل معلومات مقابل النقود في حلب ، لابد وأنه عرف بأن هناك شيئاً غير صحيح حول ذلك العمل .

انتحى بيبرس بهم جانباً هو الآخر ليسمح لهم بالمرور . عندما تجاوزا منتصف الدرجات نزولاً ، التفت إلى عبد وهمس له «تذكر يا عبد ، لو أن قلاوون لم يكشف لصديقك عن هويته ، ما كان يجدر بك أن تخبره . فذلك ليس من شأنك . من الآن فصاعداً ، لا تتصرف كما كنت ستفعل في حياتك السابقة . إفعل ما يفعله الفرسان نفسه» .

«نعم يا بيبرس» .

مشيا إلى آخر الممر حتى وصلا إلى مجموعة درجات أخرى ، أضيق من الأولى ، وتبع عبد بيبرس صعوداً إلى الباب وخرج وراءه إلى هواء الشتاء الليلي شديد البرودة .

عادت عيناه إلى التآلف مع العتمة وشاهد قلاوون عند الطرف المقابل ، يمسك بشيء أبيض وهو واقف إلى جانب بضعة أقفاص . سمع عبد الهديل .

قال له بيبرس «تعال وقابل حبيباتي» .

كان يشير إلى الحمام . عشرات وعشرات من الحمائم . توقف عبد وهو يحدق في المربعات الصغيرة التي كانت الطيور تنقر من خلالها .

«هل أعجبتك يا عبد؟» تناول بيبرس الطائر الذي يحمله قلاوون ورفعه عالياً . «إنها طيور مدهشة . أسرع من أي بعير أو حصان» .

قال عبد «لقد سمعت أناساً يتكلمون عن ذلك» . أما هو فلم يكن يحب الطيور ، بأجنحتها الخفاقة .

«إليك» . دفع إليه بيبرس بالطائر ، الذي جلس في يده بكل هدوء . «احمل سندباد . إنه واحد من أقوى الطيور عندنا» .

«هل أنت تعطيها أسماء؟ وهل بإمكانك أن تميز أحدها عن الآخر؟»

«آه طبعاً ، يصبح الأمر سهلاً بعد فترة . حتى في العتمة . لكل واحد منهم ميزته الصغيرة الخاصة به . مثل النساء ، أليس كذلك يا قلاوون؟»

ضحك الرجلان بينما وضع بيبرس الطائر بين يدي عبد . استطاع أن يشعر بقلبه ينبض لينفرد جناحاه . «هل سيطير مبتعداً إذا أطلقته؟»

«ربما ، لكنه سيعود إلى هنا دوماً . إنها تعرف أين يوجد بيتها وتحب طعامها بدرجة خاصة» .

«ولماذا كل هذا العدد؟»

«لأن هناك الكثير جداً مما يجب علينا أن نعرفه يا عبد . هل هناك شيء آخر؟» سأل مخاطباً قلاوون .

«نعم يوجد» . مرر قلاوون قطعة ورق صغيرة لبيبرس ، الذي رفعها باتجاه الشعلة ليتمكن من قراءتها .

«لقد بدأت العملية» . قال لعبد .

«ما الذي بدأ؟»

«إن الخان يزحف على بغداد . ستقع هناك معركة» .

شعر عبد بنبضه يعاود التسارع «هل ستركب باتجاه الشرق؟»

«وأهاجم جيشاً مستريحاً بعد عبور الصحراء؟ لا . أنت قدمت من بغداد حديثاً ، فهل شعرت أنك راغب في خوض معركة بعد عبورك؟»

«كلا ، ولكن -»

«يا عبد . هذا أمر لا يمكن التفكير فيه . لن تسنح أي فرصة للفوز . ستكون تلك بادرة رمزية وسنخسر الكثير من الرجال ذوي القيمة العالية بدون تحقيق أي غاية» .

«لكن بغداد هي مركز الإسلام !»

«وأين كانت بغداد عندما احتل الفرنجة بيت المقدس؟ لا أذكر خروج جيش الخليفة وقدومه لنصرة مصر عندما زحف جيشها ضد الجحافل وتمت إبادته» .

«لكن ذلك كان شأناً مختلفاً» .

«وكيف ذلك يا عبد؟ إذا رغبت بغداد وخليفتها في قيادة الإسلام ، فعليهم وقتها أن يحموا الإسلام ، لكنهم لم يفعلوا ذلك ، لمدة تنوف على قرنين من الزمان . وبدلاً من ذلك ، فقد ظلت تحرص على مجدها الخاص» .

«وهل ستترك بغداد تحترق؟»

«سأدافع عن إخوتي ووطني يا عبد . والطريقة المثلى لعمل ذلك هي عدم الركوب إلى موت محقق للدفاع عن مدينة تمنت موتنا في أكثر من مناسبة» .

لم يستطع عبد أن يصدق ما يسمعه . نظر بيبرس إلى قلاوون «سنركب باتجاه الجنوب» .

الفصل الثاني والعشرون

على ما يبدو، لم يكن الأمر في مثل سهولة وضع السروج على الأحصنة والتحرك خروجاً صباح اليوم التالي، وهكذا الأيام التالية مثل تلك التي سبقتها، مناورات يومية للرجال في ميادين الاستعراض، دوريات ليلية، وحتى حفلات استقبال في قصر الأمير اليوسف. ظهر على حاكم دمشق العجوز أنه أقنع نفسه وارتضى بحقيقة أن الفرسان البحريين يسيطرون على المدينة تحت قيادة بيبرس، ولذلك حافظ على حضور رمزي. لم تكن حقيقة أن قوات قطز هي التي هزمته، وأن بيبرس وقطز في حالة نزاع ذات تأثير يذكر. فالأمير اليوسف يدرك الوضع أكثر من أن يحاول أن يخطط ليجعل الأجنحة البحرية المختلفة تتحرك بعضها ضد بهض. لكنه بكل الأحوال سمح لقوات بيبرس وقلاوون أن تلتجىء في سورية عندما فروا في المرة الأولى من أخطار بلاط آيبك وقطز الجديد، ولم ينس بيبرس ذلك الموقف، الذي ظل يعامل الأمير بكل احترام ومجاملة، فيما عدا تسليم سلطته واستقلاله. فهو في نهاية الأمر، حفيد صلاح الدين، وقد علم فيما بعد بأن ذلك يعني الكثير في عيني بيبرس.

في المرة الأولى التي شاهد عبد فيها الأمير، في احتفال بمناسبة ذكرى حصار صلاح الدين لمدينة القدس قبل أكثر من ستين سنة، ظهر الرجل المسن بحالة جيدة، رغم نحوله، وليس الحضور الطاغي الذي توقعه عبد. ظهر بيبرس بضعفي حجم الرجل تماماً، وقد جرت

مخاطبة الرجلين بلقب أمير ووقفا على منصة مشتركة .

الأمر الذي أقلق بيبرس وأجبره على تأخير الخطة القاضية بمغادرة المدينة هو انعدام المعلومات الاستخبارية المتعلقة بمواقع جيوش الفرنجة والمغول في الداخل ما بين الساحل ونهر الفرات .

قال بيبرس «إن المنطقة هناك هي أرض حرام في الوقت الحالي ، يا عبد . ويحتم المنطق أن نبقى في موقع آمن بينما نحاول أن نكتشف أمكنة وجود الأفخاخ الرملية» .

راقبوا مجموعات صغيرة من كشافة الفرسان البحريين بشكل يومي ، أثناء مغادرتهما عبر بوابة القلعة وقدوم المزيد من الأخبار يومياً من المجموعات الراكبة ، ومن جيش الحمام الزاجل الذي احتفظ به بيبرس على ظهر مقر قيادته .

«يقول رجالنا على النهر بأن لدى هولاكو مئتي ألف رجل ، على الأقل» . قال قلاوون ، وهو يقرأ الملاحظة الأخيرة .

سأل عبد «وما هو العدد المتوفر لدينا؟»

«حوالي أربعة» . قال قلاوون .

«أربعة آلاف؟» قال عبد متشككاً .

«نعم» . قال بيبرس «نحن قوة من النخبة . يأتي مصدر قوتنا من مناعة هجماتنا ، نقوم بإحداث ثغرات في الصفوف ، وقدرتنا على المناورة في ميدان المعركة . لا تستطيع قوة كبيرة أن تفعل ذلك . تذكر عدد الرجال الذين هزمهم الإسكندر الأكبر في معركة جاوجاميلا ، أو ما فعله خالد بن الوليد في معركة اليرموك . لم يتغير شيء منذ تلك الأزمنة» .

تراقصت صورة الفرسان البحريين وهم يتم سحبهم بعيداً مثل

حجارة على شاطئ البحر أمام عيني عبد . فقد أصبح مدى الخيارات المتاحة لبيبرس أكثر وضوحاً ، فقط لأنها أكثر تحديداً بدرجة أكبر .

«وهكذا فنحن لا نستطيع أن نهزمهم؟»

«كلا يا عبد . حتى لو كانت لدى دمشق أسوار أعلى وأكثر سماكة من أسوار القسطنطينية ، فإنهم في النهاية سوف يتغلبون علينا . ينضم إليهم المزيد والمزيد من القوات كل يوم . أصبح في حكم المؤكد أن يتعهد بوهيموند حاكم أنطاكية بالولاء للخان ، وقد احتقره البابا في روما» .

«وماذا عن بغداد؟»

قال قلاوون «ربما يخضع الخليفة ويستسلم . مع أن جماعتي تقول أن الظرف قد تجاوز ذلك» .

«لن يستمع الوزير إلى أي كلام عن الاستسلام ، وأنا أعتقد أن ذلك هو شعور الخليفة نفسه ، رغم أنه بحاجة إلى أن يقنعه الوزير ويدفعه إلى ذلك الموقف» .

«هل كنت موجوداً عندما قدم بايجو شروطه للخليفة؟»

هزَّ عبد رأسه بالإيجاب «في القصر . وبعدها جعلوا سحرتهم الصينيين يطلقون نيرانهم التي بدت مثل الجحيم نفسه ، وتكاد تحرق البناية حتى توصلها إلى الأرض» .

«وماذا عن المدينة؟»

«المواطنون في موقف الخليفة نفسه . فقد استمروا في ممارسة أعمالهم معظم الأيام وكأن شيئاً لا يمكن أن يحدث . تقول آخر رسالة وصلتني إن ذلك الوضع قد تغير ، ولكن إذا كان المغول قد أصبحوا عبر النهر ، فالمدينة محاصرة حتماً . فهل سيسمحون للمواطنين البغداديين بعبور خطوطهم؟»

نفض بيبرس رأسه «سوف يأخذون منهم كل شيء له قيمة ، ثم يعرضون الباقي للبيع . أظن أنك من أواخر الناس الذين تمكنوا من الفرار ، وذلك مرده فقط إلى أن دليليك قد قاداك عبر طريق وعرة وقاسية» .

فكر عبد في عادل وأحمد ، وتساءل عما يكون قد حل بهما . فقد كانا رجلين ذوي تقوى ونزاهة ، وقد تركهما بكل بساطة عند بوابات المسجد الأموي بعد أن قاما بما يعادل إنقاذ حياته . أحزنه أن يفكر بأن عائلتيهما ستكونا داخل المدينة . هناك إمكانية في أن يتمكن ابن دقيق من إيوائهما أيضاً ، لكنه يساعد صفية أصلاً ، وخدمه وعائلاتهم ، وعدداً من طلابه بدون شك . ولن يتمكن من مساعدة الجميع .

سأل قلاوون «كيف هو وضع دفاعات المدينة؟»

اعترف عبد «هناك أقسام من بعض المناطق في حالة إهمال وتداع . ليست بغداد بدرجة عظمتها السابقة نفسها . يحتمل أنهم قد استخدموا البنائين والناس العاديين لإزالة الموانع وفتح الطرق ثم إعادة بناء الأسوار ، لكن تلك الأقسام ستكون في حالة يستحيل الدفاع عنها» .

«ولكن إذا كان الدفاع عنها صعباً ، فهل سيكون عبورها صعباً على القوات المهاجمة؟» سأل قلاوون .

«ليس إذا أرسلوا المهندسين أو مجموعات صغيرة راجلة ، بوسعهم الاختباء في تلك البنايات القديمة لأيام ولن يعرف أي شخص بمكان وجودهم . وبعدها سيكون من السهل عليهم أن يفتحوا بوابة ما من الداخل ، أليس كذلك؟»

ابتسم بيبرس في وجه قلاوون «ألم أقل لك إن عبد هو شخص حكيم؟» استدار نحو الرجل الأصغر سناً «هل قرأت كتاب جوزيفوس عن حصار القدس؟»

قال عبد «كلا ، لم أفعل» .

«يجب أن نعثر لك على نسخة . لقد كان ذلك واحداً من أوائل كتبه والذي قرأته وأنا مرشح ، سوف تستمتع بما لديه ليقوله حول مهاجمة العدو بطريقة تجعلك تتجنب الاعتماد على أعداد قواتك» .

سأل عبد «هل تعتقد أن المغول قد قرأوه؟ لأن لديهم الأعداد أيضاً؟»

«ذلك هو السبب في كونهم خصماً رهيباً ، يا عبد» . قال بيبرس .

***

أدت عملية متابعة بيبرس وقلاوون في جولاتهما اليومية إلى تفتيح عيني عبد على متطلبات قيادة قوة ما وتوفير ضرورات المعيشة اليومية لها . أدى تفكيره في اضطرار القادة المغول إلى عمل الخطط والاعتبارات لقوة يبلغ حجمها خمسين ضعفاً .

تم تحويل دمشق إلى ثكنة عسكرية تحت قيادتهما ، وانتشرت أخبار مفادها أن الأكثر دهشة على الإطلاق كان الأمير اليوسف نفسه . فقد حاول في نهاية المطاف أن ينتزع مصر كلها من أيدي قطز ، وهو الآن يراقب بيبرس ، وهو يبني قاعدة لوازم تجعل قاعدته تبدو قزمة ، في الاستعداد لزحف قوة في منتهى الصغر بالمقارنة .

قام مع بيبرس وتيكا ، وقلاوون عندما لا يكون خارج المدينة ليجمع المعلومات الاستخبارية ، بالمرور على المستودعات وقاعات الطعام والاسطبلات وميادين الرماية .

«أحضر معك ماعون ورق وريشة» قال له بيبرس صباح أحد الأيام ، وهكذا وجد عبد نفسه يجمع الأعداد التي نادى بها بيبرس عليها بينما هو يحصي المخزون ثم يقارنها في الأمسيات مع حسابات أمناء المستودعات ومتعهدي تموين الجيش . بعد بضعة أيام ، وجد نفسه يناقش في أسعار تكاليف جلود العجول مع تاجر ماروني من صور ، وأدرك في حينها أنه قد أصبح جزءاً من منظمة الفرسان البحريين .

«كم أردب قال ذلك المزارع من منبج أنه يمتلكها يا عبد؟» سأله بيبرس في أحد الأيام ، بينما كان يبحث في قائمة بالمقر الرئيس الواقع خلف ميدان الاستعراض .

«ألف وأربعمئة» قال عبد بدون أن يفكر . فقد كان منهمكاً في جمع الأرقام عن عدد قضبان الجريد الموجودة في مهاجعهم ، بالمقارنة مع الكمية التي يجري إنتاجها لتحل محل تلك التي يتم إخراجها من الاستعمال نتيجة للتدريب . فقد سخر بيبرس من فكرته بأن يقوم الفرسان باستخدام عصي عادية عندما يشنون هجماتهم أثناء التدريب .

«هل قلت عصا؟ يا عبد ، لا يمكننا أن نجعلهم يستعملون العصي ليتدربوا بها . إنهم بحاجة إلى امتلاك الإحساس باستعمال الجريد نفسه ، وزنه ، توازنه . إن العصا سلاح مختلف كلياً» .

«لقد قرأت عن قوات أخرى . . .»

رفع بيبرس يده «سوف أوقفك عند هذه النقطة . نحن لسنا مجرد أي (قوة أخرى) . نحن الفرسان البحريون . لقد هزمنا ملك الفرنجة وأسرناه . لقد دمرنا فرسان المعبد في معركة مفتوحة أكثر من مرة . لقد حققنا ذلك لأننا لم نبخل بالأسلحة ، تماماً مثلما أننا لا نوزع الشجاعة

بجرعات صغيرة أيضاً . إذا لم تتوفر لدينا رماح الجريد ، أصدر أمرك إلى صناع الأسلحة بضرورة صنعها بسرعة أكبر ! واعثر على المزيد من صانعي الأسلحة» .

استمر عبد في تدريباته العسكرية طيلة الوقت ، يتدرب في الصباح ويقوم بجهوده الكتابية في الليل . استنتج أنه سيشعر بانزعاج جراء التدريبات البدنية ، لا يشبه أي شيء جربه سابقاً ، على الأقل في الوقت الحالي ، وهكذا أصيب بكدمات في يديه ورجليه من الجري الذي لم يتعود عليه والتعامل بالسيف . ما إن ابتدأ جلده يشعر بالارتياح مرة أخرى ، حتى ابتدأ يقضي أياماً طويلة جالساً في السرج خارجاً ، في تدريبات ركوب مع السرية . تحمّل التشنيعات والنكات على شخصه ، من أجل الحصول على فرصة لتعميق معرفته ببيبرس والمهمة التي تنطح لها البطل الشركسي .

فهو لم يكن قد استجمع بعد ما يكفي من الشجاعة ليسأله عن السبب في نية البحريين الركوب باتجاه الجنوب ، بينما تخبرهم جميع المصادر بأن المغول قادمون على شكل قوس واسع من اتجاه الشمال . عرف عبد أن الجواب الأكثر احتمالاً سيكون بأن مغادرة دمشق هي انسحاب ، وقد بدا شبه مؤكد ، لكنه خشي من ردة فعل بيبرس في حال ألح عليه في هذه المسألة . فهو لم يسمع قلاوون يستفسر عن دوافعهم مطلقاً ، لكنه افترض بعد ذلك أن قلاوون مطلع على معلومات لم يسمعها سوى قلة من الناس حولهم ، هذا إذا سمعها أحد على الإطلاق . سرعان ما أدرك عبد بأن قلاوون هو الجاسوس الخارق والمتعامل مع المعلومات في قوة الفرسان كلها .

عاد إلى التدرب على الرماية بالقوس للمرة الأولى منذ أن كان

طفلاً ، وأحسَّ كأنه لم يترك تلك العادة خلفه أبداً . من المؤكد أنه كان رامياً في منتهى السوء ، لكنه استمتع بعملية تبادل الأدوار مع الرجال وإطلاق سهامه إلى الهوامش الواسعة من الهدف .

كان يرمي ثم يراقب بإعجاب وأسى ، بينما يقوم بيبرس ورفاقه بتكرار الحركة نفسها في الصف بأقواسهم القصيرة ، إلا أنهم كانوا يقومون بالإطلاق أثناء ركوبهم الخيل ، ممسكين بأعنة خيولهم باليد الأخرى .

قال بيبرس «تستطيع جيوش الخان أن تطلق السهام أثناء هجومهم بأقصى سرعة لهم» . وهو يشير إلى المجموعة الموجودة في أقصى ميدان العرض «راقب كيف يستطيع جنودنا المغوليون أن يعيدوا التلقيم مرتين أو حتى ثلاثاً في هذه الفسحة وحدها . تخيل ما سيقدرون على فعله في سهل واسع ، وعندما يبلغ عددهم مئة ألف» .

قال عبد «سيتحول لون السماء إلى الأسود» .

«ويحجب نور الشمس؟» قال بيبرس بمرح «آه يا عبد . لديك حساسية شعرية ، هذا صحيح . قل لي ، هل تستطيع أن تكتب كتباً مصورة؟»

«أستطيع» قال عبد . انطلقت صيحات من الجهة المقابلة للميدان وبدأ الفرسان المغول الهجوم بأسلوبهم التقليدي . راقبهم عبد ، وقد امتلأ قلبه بالإثارة والرعب . «ولكنني لست ماهراً جداً في تلك الناحية . إن عقلي ينفتح على جمال كلمة أو عبارة ما وتسعد يدي في كتابتها كما أسمعها أو كما يدخلها الله سبحانه وتعالى في أذني . لكنه لسوء الحظ لا يقوم بتوجيه يدي في الرسوم التوضيحية . وأنا أعرف حدود قدراتي هناك» .

«حسناً، ذلك أمر جيد. أترك أمر رسم الصور لشخص آخر. يمكنك أن تركز تفكيرك على ما هو مهم. الرسالة».

«وماذا ستكون رسالتنا، يا بيبرس؟»

مرَّ المغول من قربهم وهم يزعقون، والسهام تتطاير بسرعة تتحدى حدود المنطق. انتفض عبد عندما فكر أنه سوف يضطر عما قريب إلى مواجهة رجال بالمنظر والتوجه نفسهما في صراع حتى الموت.

قال بيبرس «رسالتنا هي أننا منغمسون في حرب من أجل روح العالم. فقد قال الخان بأنه سوف يمسح الإسلام عن وجه الأرض. لن يكون هناك شيء باقٍ إذا لم نقاتل. لقد سبق وأن تم الاستيلاء على الأراضي الواقعة إلى الشرق والشمال. لقد انضمت القوى المسيحية إلى قضيتهم ونحن الآن واقفون في طريقهم».

وصل الفرسان المغول إلى نهاية ميدان الاستعراض ونهاية هجومهم الافتراضي، فشدوا أعنة خيولهم، يضحكون فيما بينهم. مال بيبرس باتجاه أذن عبد.

«سرعان ما ستسقط حتى هذه المدينة».

استدار عبد لينظر إليه فعاجله بيبرس بنظرة حادة عابسة لإظهار حقيقة ما يقوله.

«تخبرنا طيور الحمام الزاجل وجواسيس قلاوون أننا لن نقدر على الدفاع عن المدينة. ليس لوقت طويل بأية حال. سوف يدهموننا في الشوارع. ذلك يعني فقدان سورية.

لقد خضع السلطان السلجوقي في أرض الرومان. لقد قام حكام البندقية بتدمير القسطنطينية سلفاً. إنها مدينة أعظم مما تقوله أنت عن بغداد. ما الذي سيوقفهم عن الركوب شمالاً وجنوباً وتدمير بلاد

أجدادي ثم الاتجاه غرباً لمسح الفرنجة عن وجه الأرض؟ ليس لأن ذلك سيشكل خسارة . هناك بلد واحد لديه الإمكانيات لإيقافهم وقائد واحد لديه الرغبة في القتال . الأهم من ذلك ، يقود ذلك الزعيم جيشاً قادراً على تمزيق المد المغولي عندما يصل إلى شواطئه .

«من هو ذاك ، يا بيبرس؟»

«صديقي القديم . قطز» .



الفصل الثالث والعشرون

غادروا المدينة في اليوم التالي ، وقد ركب عبد في المقدمة بين بيبرس وأقرب رفاقه . من بين الأكثر تميزاً ، عامله قلاوون بمجاملة مهذبة - فهو في نهاية المطاف الشخص الذي جذب انتباه بيبرس إليه ، وهكذا فهو لا يستطيع أن يتذمر الآن مما يعتبره البعض من المرافقين أنه معاملة تفضيلية ويتهامسون فيما بينهم . بالطبع ، لم يقل تيكا أي شيء ، ولكن تشكلت لدى عبد قناعة بأن الرجل يتقبل وجوده بنوع من الاحتمال الطبيعي ، مثل الطفل الذي لا يمانع في الارتباط برفاق لعب جدد أو وجوه لبالغين جدد وحتى تغير الفصول . استنتج عبد أن الأمور بالنسبة لتيكا موجودة في يوم ما ، وغير موجودة في اليوم التالي ، وكثيراً ما تذهب في حال سبيلها مرة أخرى . كان يعيش في زمنه الحاضر كلياً .

راقب عبد في أحد الأيام عندما ذهب تيكا ليبحث عن سيف مفضل لديه بعد المناورات ، وعندما لم يتوفر له على الفور ، فقد ذهب إلى مدير المستودعات بكل بساطة وحصل على سيف آخر .

في اليوم التالي تحديداً ، جاء جندي وقال إنه أخذ السيف عن طريق الخطأ ، بان على تيكا السرور لعودة السيف في يده ، ولكن ليس بالقدر الذي يفترضه أي شخص .

قال قلاوون ، «أثناء مراقبته مع عبد «لقد امتلك ذلك النصل لمدة عشر سنوات» . تلك كانت التركيبة الذهنية لأقوى مساعدي بيبرس .

ظلت محادثات قلاوون متكلفة إلى حد ما ، مع أنه كان يصبح أكثر حماسة بحضور بيبرس . افترض عبد في حالة قلاوون ، إما أنه يريد أن يبقي على الواجهة الصلبة التي أبداها حينما عرَّفهما سميح بعضهما على بعض ، وأيضاً لأن قلاوون مضطر إلى الإبقاء على مسافة المنصب المتفوق بوعي أكثر مما يفعل بيبرس ، لأنه في الواقع صاحب المركز الثاني في القيادة . وهذا ينطبق على حالات خاصة مثل كاتب المجموعة الجديد .

كذلك جاء لقاؤه الأخير مع سميح متكلفاً بعض الشيء . بسبب تأدبه ورهبته من ذكرى سليم ، فقد أفضى عبد بالقليل جداً مما كان يفعله في تلك الأيام الفائتة ، وبات سميح منزعجاً بعض الشيء ، وهذا أمر يمكن فهمه .

سأل «متى ستعود إلى هنا؟»

«لا أعرف» قال عبد ، سعيداً بأنه قادر لمرة واحدة على الأقل ، بالرد على أسئلة صديقه بصدق .

«ولا يمكنك أن تخبرني إلى أين أنتم ذاهبون؟»

«لن يفيدك ولا يفيدني الإفصاح لو أنني فعلت . هذا واحد من المواقف الذي يكون فيه عدم امتلاك المعرفة أفضل من امتلاكها» .

«أنا لست متأكداً من معرفتي بالكثير من هذه المواقف» . قال سميح «لقد كنت آمل في أن نتمكن من إنجاز بعض العمل سوية . أعرف أن عملك على علوم ما وراء الطبيعة في بغداد ، يمكن تطبيقه على ما درسته مع ناصر . كنا استطعنا أن نأخذ لا نهايات العقل وضمها إلى لا نهايات النجوم» .

ابتسم عبد لسماعه الفكرة «مازال الاحتمال قائماً بأن نتمكن من

عمل ذلك يا سميح . هنالك أحداث عظيمة في حالة حركة . لا أحد يعرف أين سيكون حتى بعد مرور سنة من الآن» .

«هل نحن معرضون لخطر ما؟»

«نعم» .

«هل ينبغي عليَّ البقاء في المدينة؟»

«هل لديك مكان آخر لتذهب إليه؟»

«كلا»

للحظة طائشة ، فكر عبد في اصطحاب سميح ، حيث يحاول أن يشرح المسألة لبيبرس بطريقة تؤدي إلى موافقته ، لكنه صرف الفكرة بالسرعة التي جاءته فيها . فالمكان الوحيد الذي يستطيع فيه أن يستضيف صديقاً له بدون أية شروط هو بيت ابن دقيق ، وربما أصبح ذلك حالياً أشد خطورة من دمشق . «ماذا عن ناصر . هل كان لديه أي زملاء مثل أستاذي؟ في مدن أخرى ، ربما باتجاه الجنوب؟»

«كلا ، فقد كان فارسياً ، هل تذكر؟ كل أصدقائه موجودون باتجاه الشرق» .

«أنت لا يمكنك أن تذهب باتجاه الشرق يا سميح» .

«ماذا عن أمر الشمال؟»

الأمر أسوأ مرة أخرى «كلا يا سميح . لقد سمعت أخباراً سيئة» .

«أخبار سيئة لدرجة أنك لا تستطيع أن تخبرني بها» .

«اسمع –» كاد أن ينفجر ويخبره بالقصة كاملة التي راقب فيها سليم وهو يتخلى عن حياته بمنتهى البطء ، لكنه أوقف نفسه . لم يكن سميح ساذجاً إلى الدرجة التي لا يعرف فيها هذه الأمور . الخطر الكامن والمحتمل حدوثه من بوح عبد واقعة ما غير مقصودة يمكن أن

تشكل خطورة على الفرسان البحريين . كلا ، فقد صدر عناده وغضبه في هذه اللحظة من أحاسيس متأذية لأن عبد هو الشخص الذي سيغادر المدينة وليس هو ، وأنه هو الشخص الذي سيخسر الرفقة التي بات يعول عليها . اشتعل غضب عبد من صديقه بحيث نسي تماماً الصنيع الطيب الذي قدمه إليه «إذا احتفظت بمفتاح بيت ناصر ، وقتها يمكنك أن تختبئ بداخله» .

«تقصد أخبئ نفسي؟»

«نعم . سوف تضطر إلى الاختباء . لن أصرح لك بالمزيد . لن يحضر أقارب ناصر . ليس في المدى القريب ، بكل الأحوال . سوف تتاح لك السيطرة الكاملة على البيت» .

«ماذا عن أمر الخدم؟»

«ماذا عنهم؟ اضربهم بالعصي ، فالأمر سيان عندي . أقفل الأبواب وأغلق النوافذ . ابدأ بتخزين كميات من الطعام والماء منذ الآن ، بينما الأسواق ما تزال مفتوحة» .

«الأسواق؟»

«احتفظ بسلاح . شيء يمكِّنك من إبعاد النهابين إذا دعتك الحاجة ، لكنك لن تضطر إلى استخدامه حينما يحين الوقت . ستعرف ما أرمي إليه» .

«يا عبد . . .» استبد الخوف بسميح عند هذه النقطة .

«الوداع يا صديقي ، وسأراك إن شاء الله حينما أعود إلى دمشق . إذا وجدت طريقة تغادر بها دمشق ، فابحث عني من خلال خدمة بيبرس والفرسان البحريين . لم يعد هناك الكثير مما يمكن قوله . أتمنى لك حظاً سعيداً» .

غادر سميح وهو يحدِّق وراءه عند عتبة بيت ناصر واختفى في عتمة الليل ، خافضاً رأسه ولاعناً نفسه على عدم إبداء المزيد من الصبر .

لو انعكست مواقعنا ، فهل سأتصرف بحزم أكثر من سميح؟

بالطبع جاء الجواب سلباً . ولكن لو اختلفت لاحتفظت بصفية . لا يبدو أن سميح لديه أي شخص . توقف عن المشي . لم يكن هناك أي أحد آخر في الشوارع وأصبح في ظلام يكاد يكون مطبقاً . أخذ ينقر بإصبعه على فخذه ، وعيناه جاحظتان تتقافزان ، أخذ يفكر في العودة ليخبر سميح أن بوسعه البقاء .

ما الذي أفعله بكل الأحوال؟ أنا لم أعرف هذا الرجل بيبرس إلا بضعة أيام وقد سبق لي رؤيته وهو يرسل شخصاً إلى حتفه وسمعته يكلمني عن العديد من الآخرين . هل أنا مجنون؟ هو ليس حتى عربياً . إن الفرسان عبيد أصلاً . طبقة من الخدم المقيدين بعقود عبودية يحتلون منزلة أعلى من معظم الناس الأحرار في جميع بلاد المشرق ، لكنهم يظلون عبيداً أجانب رغم كل شيء .

لكنه فكر فيما بعد بالحياة التي لمحها خلال الأيام المنصرمة القليلة . السعي القوي الحثيث لبلوغ الحدود القصوى لقوة الشخص . التدرب والممارسة على مهارة ما بدون توان حتى تصبح طبيعة ثانية . الطريقة التي يجعل بيبرس ورجاله بموجبها إيمانهم المرشد الوحيد فيما هو صحيح أو خطأ . فكر عبد كيف تحدث عن تخليص البلاد المقدسة من جميع أولئك الذين يدنسونها ، سواء كانوا من الفرنجة أو المغول ، *كما قال هو ، بوسعي أن أختبئ في بيتي هنا في دمشق بصحبة كتبي ، أو بوسعي أن أركب مع الرجال الذاهبين ليحاولوا أن يوقفوا*

البلاء الأعظم في تاريخ البشرية . لدي السانحة لأبدع كتاباً سيحيا عبر العصور . ألقى بنظرة خلفه نحو بيت ناصر حيث جلس سميح لوحده ، وقد غطاه ثوب الليل ، ثم استدار ومشى مصمماً عائداً إلى بيته ليجمع حاجياته .

اندفع بيبرس وتيكا عبر بوابة باب توما ، نشيطين على الرغم من أن دوريتيهما قد استمرت لقرابة أربع ساعات . لم يكن هناك أي حدث مهم للتبليغ عنه ، فيما عدا الأعداد الكبيرة من الفلاحين المرتحلين وسط القافلة المتوفرة ، وهي علامة على الكيفية التي سرعان ما ستندلق بها الحرب في الجزيرة على كل سورية .

التفت بيبرس إلى نقيب حرسه أثناء اقترابهم من الشارع المستقيم ، الطريق الرومانية القديمة التي تؤدي إلى القلعة . «أظن أنني وتيكا سنذهب في جولة لنرى ما إذا كان أحدث مجند لدينا قد عبأ قارورة الحبر خاصته . اجعل أحد الفتية يتحضر للعناية بجوادينا حينما نعود واترك لنا شيئاً من الطعام» .

رفع النقيب يده إلى رأسه بالتحية قائلاً «سأشرف على الأمر بنفسي» . استمرت بقية الدورية في سلوك الطريق الرئيسة بينما افترق بيبرس وتيكا عنها لسلوك طريق جانبية . تجاهل كلاهما رائحة القاذورات في الطريق وخرجا إلى الشارع السكني حيث رتب بيبرس مسألة إقامة عبد . وقفت أمامهما مجموعة من الرجال ، خارج البيت ، يخوضون في محادثة على ما يبدو . كانت رؤيتهم بجلاء صعبة في العتمة ، لكن بيبرس بات واثقاً من أنه شاهد عبد واقفاً في الجهة اليمنى ، والمجموعة تمنعه من الوصول إلى باب بيته . أبطأ هو وتيكا جواديهما إلى حالة السير البطيء ، ثم همزاهما إلى طراد مرة أخرى

لدى رؤيتهما أحد الرجال يجرد سيفاً ويوجهه إلى رقبة عبد . أطبقت يد تيكا على مقبض سيفه ، بينما دفع بيبرس بيده إلى أسفل سرجه وفك القفل على قوسه القصير ثم رفعه . لابد وأن المحادثة السابقة لوصولهما قد تطرقت إلى بعض التفاصيل ، لأن أياً من الرؤوس لم يلتفت ناحيتهما إلا بعد أن أصبحا يشرفان على المجموعة ، لتسجل حضورهما .

قال بيبرس «ما الذي يحدث هنا؟»

لم يكن عبد قد تعرف على أي من الفارسين حينما أوقفا جواديهما على جانبيه . بل افترض بدلاً من ذلك أنهما يبحثان عن بيت سكني قريب من المسجد ، ولذلك أبقى رأسه محنياً وحاول أن يمر من بين الجمع ، لكن صوتاً مألوفاً أوقفه في مكانه .

«ألن ترحب بوجودنا في دمشق ، ياعبد؟»

حدَّق في الخيال الذي تكلم لتوه فاغراً فمه واستغرقه الحاق الصوت بالملامح الخشنة بضع لحظات متوترة .

«عازر؟»

«آه» انفرج وجه زميله السابق في الدراسة عن تكشيرة مرعبة حينما حاول أن يبتسم .

«نعم ، أنا هو . تبدو كأنك قد تدبرت أمورك بشكل جيد هنا في سورية . ليس مثلنا» . تلفت حوله إلى رفاقه الثلاثة «انظروا إلى هذه الملابس الفاخرة ، أيها الشباب . انظروا كيف تم تسريح شعره ولحيته الصغيرة السخيفة بكل هذه العناية . وهل هذا هو بيتك؟»

استند عازر إلى الخلف في سرجه حتى يعاين البناية «مريح ، أنا واثق من ذلك . يحتمل أن لديك عاهرة صغيرة أخرى في الداخل

تشعل نارك وتدفئ لك فراشك» .

«عازر ، ما الذي -؟» أصيب عبد بأكثر من صدمة لرؤيته حالة الشباب الذين عرفهم شديدي التأنق يتجولون في شوارع بغداد وحماماتها العمومية . حتى جيادهم بدت هزيلة . كانت وجوههم كالحة ، يائسة ، وثيابهم ممزقة وقذرة . دأبت جيادهم على سحب أنفاس طويلة تكشف جوانبها عن أضلاع بارزة نتيجة الجوع الشديد . «ما الذي حدث لك؟»

كان عبد يتمنطق بسيفه ، لكنه لم يخطر بباله حتى أن يجرد السلاح ، بسبب شدة دهشته ، أولاً بسبب رؤيته لعازر هنا في دمشق ، وثانياً كيف انحدر هؤلاء الذين كانوا في القمة إلى الحضيض خلال أشهر قليلة . «ما الذي حدث؟»

«لم يقبل ذلك الأحمق العجوز ابن دقيق أن يساعدني في الحصول على خروج آمن من بغداد ، كما فعل لأجلك» . قال عازر «افترض أنني لم أكن دوماً الكلب اللاعق الذي تظاهرت أنك هو . حيوان أليف صغير ليمسده الرجل العجوز . لذلك اضطررنا إلى الفرار من المدينة عندما بدأ حراس الوزير يطرقون الأبواب ويسحبون الرجال والفتية في منتصف الليالي» .

«وما الذي سمعته منذ ذلك الوقت؟»

«كانت المدينة ماتزال صامدة حينما غادرنا ، لكن حتى الرجل الأعمى بوسعه أن يشعر كيف تهب الريح في وجهه . لم نكن سنبقى بينما اختبأت حثالة الشوارع في بيوتها ولجأت إلى المدارس . اندفعنا خارجين من بوابة البصرة ، لأن بقية البوابات كانت محروسة . لقد راقب بولص هذا خروجك من بوابة دمشق مع حارسيك الاثنين . مع

حلول وقت إتمام استعداداتنا ، أصبحت المدينة كلها مقفلة تماماً . ليس من قبل الخان كما يحتمل أن تشك ، ولكن لمنع الناس الذين على شاكلتنا من الفرار . لقد كنا محظوظين بخروجنا من باب الصحراء كما فعلنا . وبعدها سلكنا مسارنا الطويل باتجاه الشمال ، والذي لم تضطر أنت إليه ، بدون أدلاء ، بدون حراس . مجرد عقولنا وسيوفنا» . انخفضت عينا عازر «ولكن كل ذلك لم ينفعنا بأي شكل ضد جماعة المغول الذين أغاروا على معسكرنا في الليلة الثانية» .

«أغاروا؟» وزع عبد نظراته بين الرجال واحداً بعد الآخر ، حتى فهم الحكاية كاملة .

«ذلك هو ما قلته . لقد انقضوا علينا في منتصف الليل ، قبيل الفجر مباشرة» .

فكر عبد أنه كان يفترض فيكم إزالة مخيمكم والتحرك بحلول ذلك الوقت ، ثم وبخ نفسه على غروره . فهل كان سيعرف أن يقوم بذلك لو لم يكن عادل وأحمد يعتنيان به؟

«هل تذكر بابيار؟ صديقنا الذي ضربته أنت في سوق العطارين؟»

تذكر عبد بكل تأكيد . ذلك هو الشخص الذي طرحه أرضاً وكان يمسك به حتى يصل الآخرون ويجهزون عليه بسيوفهم .

«كان كاحله مازال ملتوياً عندما هاجمونا . استطعنا أن ننفذ إلى جيادنا وطردناها في جميع الاتجاهات . لكنه لم يكن محظوظاً إلى تلك الدرجة» .

اتسعت عينا عبد «هل قتلوه؟»

«في نهاية المطاف» . بدا عازر وكأنه يحدق فيه «على أية حال -»

نفض نفسه مثل كلب ينفض ماء النهر عن جسده «لم نعد أدراجنا لنكتشف . تركنا كل شيء وراءنا . لقد كان مجرد عثورنا على بعضنا البعض نحن الأربعة أشبه بالأعجوبة . وكما يمكنك أن ترى ، ليس لدينا أي شيء حالياً . لسنا مثلك ، إيه ياعبد؟ الرجل الذي انتهى به السقوط واقفاً على قدميه . أشبه شيء بالقطة صعبة الإرضاء التي طالما كنت عليها» . كنت كلباً لاعقاً قبل لحظة ، فكر عبد . لكنه أيضاً لم يصرح بأفكاره .

«فكرنا لأنفسنا ونحن نعرج عبر الصحراء ، لماذا نحن؟ متى بدأت مصائبنا؟ وبعدها فكرنا ، أن ذلك حدث عندما سمحنا لك بالنجاة منا في تلك الليلة ، بعد حفل استقبال الخليفة . ذلك هو الوقت الذي انقلبت فيه الآلهة ضدنا ، لأنها تقززت من عدم قدرتنا حتى على تخليص دودة مثلك من تعاستك . لذلك فكرنا في القدوم إلى هنا لنصحح الأمور . ربما سيعاد إلينا شرفنا بعد ذلك . بالنسبة إلينا على الأقل» . حرَّك عازر حصانه إلى الأمام وسحب سيفه ، ليلمس رقبة عبد . «على -» .

«ما الذي يجري هنا؟»

تحولت عينا عبد رغم أنه ميَّز صوت بيبرس على الفور . كان الأمير وتيكا يرتديان دروعهما كاملة ، واحتفظ بيبرس بقوسه في تجويف ذراعه اليمنى . التمعت حافة السهم تحت نور القمر ، مسددة رأساً إلى عين عازر اليسرى .

قال عازر «هذه مسألة خاصة» . لم يقم أصدقاؤه بأي حركة لإشهار أسلحتهم ، رغم ذلك «هذه مسألة شرف» .

قال بيبرس «ليس هناك أي مقدار من الشرف في تمزيق حلق رجل

ما في الشارع في بهيم الليل . الشرف يمنحه الله وحده ، ويقضي قانونه بأن القضايا والمسائل الخاصة يجري التعامل فيها من قبل المحاكم ، وليس بالقتل» .

«لقد قلت لك بأن تبقى خارج هذه المسألة !» اشتدت قبضة عازر على مقبض السيف ، بحيث لوى النصل أقرب إلى رقبة عبد ما أجبره على الوقوف على رؤوس أصابع قدميه ليتجنب الجرح .

توتر تيكا من جراء لهجة الرجل الحادة ، فرفع قامته في السرج ، فتراجع رفاق عازر أكثر .

«هذه الرقبة التي تهددها أيها الصبي ، تعود إلى مساعدي الشخصي» . قال بيبرس ، بمنتهى الهدوء والتحكم . «ستفعل خيراً إذا أنزلت سيفك وتراجعت خطوة» .

«إنه مجنون» قال عبد من خلال أسنانه المطبقة بقوة . «لقد تبعني من بغداد إلى هنا» .

«هل ذلك صحيح؟» تأمل بيبرس شكل عازر من رأسه إلى قدميه «يبدو لي أنك بالكاد نجوت بحياتك . هل ترغب في تجربة حظك معي؟»

قفزت عينا عازر من عيني بيبرس إلى القوس القصير وعادتا إلى عينيه . لم ترمش عينا بيبرس . سحب عازر السيف إلى الخلف والأعلى مع صرخة وتهيأ لضرب رقبة عبد ، لكن صوته اختنق وانقطع حينما سحب بيبرس الزناد وأطلق السهم عبر صدغه مباشرة . لم يقم بيبرس بأي حركة أو صوت فيما عدا حركة إصبعه . وسط الصمت الذي حل ، تهاوى عازر من السرج وانتهى على الأرض مثل كيس خضار ساقط . جلس أصدقاؤه فاغرين أفواههم ، مصدومين . تحولت

أنظارهم تدريجياً نحو بيبرس الذي قال «دمرهم» .

أشهر تيكا سيفه الطويل المعقوف بيده اليمنى وأخرج بلطة بيده اليسرى من حيث لم يره أحد . دفع بكعبيه في جنبي حصانه وهجم على الثلاثي السيء الحظ ، لم يتسنَّ لأقربهم إليه الوقت حتى ليحاول أن يهرب قبل أن يتلقى ضربة عابرة من البلطة أثناء مرور تيكا من جانبه . تمكن الاثنان الآخران من الاستدارة لكن لم يتمكن أي منهما من قطع أكثر من بضع ياردات قبل أن يطوِّح تيكا بسيفه على ظهر الأول ثم الثاني ، بحيث طرح الثلاثة على التراب وهم يتلوون من الألم .

راقب بيبرس وعبد بينما ترجل تيكا وأجهز عليهم بأسلوب نمطي هادئ ، بأن لوى رقابهم وكأنهم عصافير علقت في الفخ .

«هل أنت بخير يا عبد؟» سأل بيبرس

«نعم» قال ذلك وهو ينظر إلى ثيابه التي بقيت نظيفة . مرَّر أصابعه بخفة على رقبته . لم تكن هناك علامة ولا حتى شخط يمكنه العثور عليه . انهمك تيكا في مسح سلاحيه على معطف عازر الممزق .

قال بيبرس «لقد أحسنًا بقدومنا في الوقت المناسب . فقد بدا الأمر وكأنك على وشك أن تلقنهم درساً رهيباً» .

لم يتمكن عبد غير أن يبتسم قليلاً ، رغم أنه كان مذعوراً داخلياً من الأسلوب الهادئ الذي تخلص فيه تيكا من ثلاثة مخلوقات بدون أي علامة يمكن رؤيتها من الجهد . وضع يده على أنفه لأن جثة عازر بدأت تصدر روائح عفونة رهيبة .

قال بيبرس «سوف آمر بإرسال بعض الحراس ليقوموا بإخلاء هؤلاء . لا يصح إبقاء الجثث في الشوارع . هل عرفت هؤلاء الرجال في بغداد ، كما قالوا؟»

هزَّ عبد رأسه موافقاً «لقد عرفتهم . ظل عازر زميلي في الدراسة سنوات طويلة . لا أعرف ما الذي حصل له . لقد تم وضعه في موقف أظهر حماقته في فصلنا الدراسي ، فهاجمني في الليلة التالية بسكين . قال ابن دقيق إن ذلك هو الجنون الذي يؤثر على مدينة ما حينما تكون بانتظار عاصفة قادمة» .

هزَّ بيبرس رأسه «لقد رأيت أشياء مثل هذه . لقد راقبت رجالاً شجعاناً يلقون بأنفسهم عن أسوار القلاع أثناء حصار ما . لا يعود الله تعالى يهديهم في مثل هذه الأوقات» .

«أنا لست على ثقة من أن عازر كان حتى يعرف الله على الإطلاق» . قال عبد . شعر بالأسى .

الفصل الرابع والعشرون

أصدر بيبرس أمراً بخروج القوة من القلعة ومشيها بهيئة استعراض عبر المدينة في عرض قوة للمدينة ، قبل الخروج من بوابة الشمس والاستمرار جنوباً باتجاه القطيفة ، ومن هناك إلى الشاطئ الشرقي لبحر المينا ، الذي يسميه الفرنجة الجليل . بات بيبرس مقتنعاً بأن ذلك سيبقي قوتهم على مبعدة ذراع من عصابات الفرنجة والمغول ، بالإضافة إلى إعطائه فرصة للالتحاق بأية قوات حليفة له يحتمل وجودها في الإقليم .

«لقد مضت فترة طويلة منذ أن ارتحلت إلى هذا البعد جنوباً يا عبد» قال وهما يراقبان الحرس الشركسي يجمعون أنفسهم خلف مجموعته القيادية ، بينما وقف قلاوون وتيكا كل إلى أحد جانبيه .

«من يدري من لا يزال حياً ومن هم أصدقاء الشخص؟»

هزَّ عبد رأسه وألقى بنظرة على فرقة القيادة الموسيقية أمامه ، وهم يدوزنون آلاتهم ويقرعون صنوجهم لاختبار مدى رنينها قبل أن تنطلق الأبواق إيذاناً بالبداية .

غابت الأزياء المذهلة التي كان بيبرس وبقية مجموعته قد ارتدوها لدى ذهابهم لحضور أناشيد المساء في قصر العظم وغرف الاستقبال في القلعة . طويت الألوان الحمراء والخضراء وحمِّلت في عربات الشحن المخصصة للعفش ، وارتدى الفرسان حالياً مزيجاً من الأزياء الجلدية الداكنة ، والزرد البني ، وقمصاناً داخلية من الكتان ، تحول لونها إلى

البني بفعل الغبار والشمس وعرق أجسامهم .

كذلك جاءت خوذاتهم مغلفة بالجلد البني ، وفوق ذلك غرست فيها مسامير حديدية صغيرة ، بينما وصلت أحذية ركوبهم إلى ما فوق الركبة وأصابتها درجة من الاهتراء ، نتيجة جهود أكثر من عشر حملات قتالية .

لاحظ بيبرس أن عبد ينظر إلى الأسفل «لقد كان الفضل لحذائي في إنقاذ ساقي في مصر . هذا ما قاله لي الأطباء لاحقاً» . وأضاف «هل ترى هذه الندبة هناك . لو لم يوقف الجلد والبطانة قوة البلطة حينما جاءت ، لكانت ساقي كلها قد تفتتت ، مثل لحم البقر المسلوق حتى الاهتراء ، هذا ما قالوه . لم يساعد بقائي على ظهر الحصان ليومين بعد الإصابة ، في سرعة الشفاء» .

«يبدو أنه كان جرحاً بليغاً ، يا صاحب السعادة» . حاول عبد أن يتخيل الألم المصاحب لفتح عضو من الجسم بمثل الأسلوب الذي يحمله أثر الجرح الطويل لبيبرس ، ثم الصلابة التي اقتضاها البقاء راكباً لما بعد الإصابة .

نفض بيبرس كتفيه «لقد كان مصير مصر معلقاً في الميزان . فما قيمة ساق الفرد وسط مثل ذلك الصراع؟»

ارتخت عينا عبد إلى الأسفل ، من باب الاحترام . ستبدو مثل هذه التعابير نوعاً من الثرثرة الفارغة لو صدرت عن أي رجل آخر ، لكن بدا أن بيبرس يطلق هذه العبارات بصدق وإخلاص . لم يكن مضطراً حتى لتصديقها ، لأنها ببساطة صادقة ولذلك صرح بها . وبات من الصعب الاختلاف معه ، بينما وقف عبد يراقب طابور الفرسان يتشكل حيث تتخذ كل الرتب مواقعها وينمو الخط على مدى ساحة

القلعة الرئيسة . هبت سحابة من الغبار عليهم مع النسمة فرفع يديه لينفضها عن لحيته ومعطفه .

«لن يضرك القليل من الغبار ، يا عبد . ولا حتى بعض الصدأ في هذا المجال» . قال بيبرس .

«إذا رأيت رجلاً في الميدان بدروع فضية لامعة ، فسوف أشقه إلى نصفين مثل لعبة أي طفل . أي رجل يحمل بعض التراب على درعه قد شهد بعض الاشتباكات وهو الشخص الذي ينبغي أن تمنحه احترامك» .

نظر عبد إلى زيه الذي صرف له مؤخراً مع الزرد وشعر بشيء من الذعر . فقد بات من الصعب اكتشاف أن كل شخص سيركب معه في ذلك النهار يعرف أنه قادر على بقر بطنه مثل أي سمكة . عندما لاحظ بيبرس انزعاجه ، ضحك قائلاً «لا تقلق ، سوف نوسخك عما قريب . هذه ليست رحلة متعة» .

انتظمت الوحدات الأخيرة في موقعها أخيراً ، وانطلقت موجة من نفير الأبواق . استدار عبد إلى الأمام وشد عنان فرسه فوراً لتتحرك إلى الأمام ، الأمر الذي اعتبره بيبرس وجماعته مسلياً إلى حد ما . قال قلاوون «نحن لن نتحرك بعد يا عبد . هناك ما تزال مسأله الخطابات» .

واجه الجميع ناحية اليمين بينما نزل الأمير اليوسف الدرجات الحجرية من مبنى الحرس ، محاطاً بحاشية من النبلاء الدمشقيين ورجال الدين وقادة ميليشيا المدينة . وقف قائد الحرس الخاص للأمير على يمينه ، منتصب القامة . توقفت الجماعة على مسافة ثلاث درجات من أرض الميدان حتى تظل على مستوى الأعين مع الفرسان الراكبين وقائدهم الأشقر ، طويل القامة .

«أدعو الله سبحانه وتعالى ورسوله الخالد أن تحل بركاته عليكم ، يا بيبرس البندقداري ، وعلى قواتك ذات الصيت الباهر ، الفرسان البحريين . نحن واثقون كل الثقة بأن التحالف الأبدي بين فرعي سلالتنا التي أسسها والدي صلاح الدين ، سيبقي مملكتينا آمنتين إلى الأبد» .

أصيب عبد بالدهشة من الأسلوب السلس الذي تم به إلقاء هذه الكلمات ، وكل مقطع منها ينقط بعسل الصداقة ، رغم أنه لم يكن سراً أن اليوسف قد فرح لدى سماعه أن الفرسان البحريين الذين أخضعوا مدينته فعلياً ، سوف ينسحبون ، في الوقت نفسه الذي يمكن تفسيره للتوكيد نفسه بأن جحافل خان الشرق العظيم سوف تشن هجوماً على دمشق في وقت لن يتأخر كثيراً . حتى إنه عقد اجتماعاً خاصاً سعى فيه أبناء اليوسف ورجال بلاطه إلى إقناع أميرهم وبيبرس بأن الخضوع للخان العظيم هو الخيار الوحيد المتاح . استشاط بيبرس وقتها غضباً على هذا القدر من الانهزامية المكشوفة ، إلى درجة أنه أشهر سيفه ، لولا أن سحبه قلاوون إلى الوراء ووقف تيكا المنيع أمامه لحمايته . اتخذ قرار المغادرة الفورية أثناء الاندفاع خروجاً من بوابة القصر ، بينما أمطر بيبرس لعناته على الكلاب الذين قال إنهم سوف يخونون العقيدة .

كون سورية ومدنها مقضياً عليها ، لم يعتبر سبباً لإحناء الركب ، حسب رأي بيبرس .

استمر سماع الأخبار التي تفيد بأن كل مخبر وكل قادم جديد لاجئاً من بغداد ، أوضح أن المدينة تعاني من أوضاع مأساوية ، وأن بيبرس وقلاوون وجميع من حولهما يعتبرون مصير الخليفة محتوماً

كحاكم مستقل، أمراً مسلماً به، وأنه إذا لم تكن المدينة قد سقطت بعد، فالقضية مسألة وقت لا غير.

عاد إلى التفكير بعازر وهجوم أصدقائه عليه في الليلة الفائتة، والنهاية المفجعة التي جلبها عليهم بيبرس وتيكا. كان هناك هاجس غريب في جثة عازر الملقاة، بلا حياة، والتي كانت فيما سبق تتحلى بالوسامة والمظهر المتميز، وهي الآن دمار، أسقطت بسهم إلى الرأس. لم يتمكن من إخفاء الإدراك الذي أتاه أثناء نومه فيما بعد بأن مصير عازر هو خلاصة مصير بغداد نفسها، والتي كانت في يوم ما نبيلة ومثقفة، ثم أصبحت رجعية وغاضبة، وأخيراً مدمرة من قبل الريح التي أبت أن تنحني لها.

لكنه جلب إلى روحه بعض المرح بفكرة مفادها أن الخليفة المستعصم والوزير الأكبر ابن العلقمي قد يتمكنا من اجتراح معجزة ما، وأن بغداد قد نجت بسبب هدايتهما. يعرف عبد جيداً أن مثل هذه الأشياء قد حدث عبر التاريخ. فالواقع هو أن بيبرس نفسه قد خلَّص مصر من جيش الملك لويس الذي كان يبدو مستحيلاً على الهزيمة، حيث استخدم الملك كل ثروات بلاده للتخطيط لغزوه على مدى سنوات. الأمير اليوسف متحدر حقاً من صلاح الدين، الذي استولى على القدس ثم دافع عنها ضد موجات إثر موجات من الفرنجة على امتداد عقود طويلة. ألا تستطيع بغداد أن تقوم بالعمل نفسه؟

استمر اليوسف في مدائحه لمزايا بيبرس والرجال الذين يتولى قيادتهم. «وعلى الرغم من خسارتكم الكثير من وقتكم في تسريح الخيول السنوي للرعي، والتدريب وإرسال الدوريات في أريافنا، إلا أننا نأمل أن المنح الصغيرة التي استطاع الدمشقيون أن يقدموها، وقمحنا

ومواردنا الغذائية الأخرى ، كانت كافية لتغذية قواكم العظيمة وتحضيركم للمعارك والتجارب القادمة . بينما أنت تحمل الكفاح إلى العدو البعيد ، فإننا مضطرون لإقناع أنفسنا بالبقاء هنا وحماية الكنوز العظيمة لمدينتنا الأقدم ومقاماتها ومزاراتها ، الأقدم في كل بلاد الإسلام باستثناء مدن الرسول المقدسة نفسها» .

عند هذا القول ، انطلقت ضجة هائلة من حوالي المئة شخص من أعضاء جماعة اليوسف والرتب الأكبر عدداً بكثير التابعة للبحريين . فتح بيبرس ذراعيه على اتساعهما وترجل عن حصانه - لاحظ عبد أنه أتم ذلك بدون أي مساعدة ، خلافاً لأي قائد آخر شاهده في أي استعراض احتفالي على الإطلاق - ومشى باتجاه الأمير في المؤخرة . تبنى يوسف وقفة الأذرع المفتوحة نفسها ، ثم نزل الدرجات الأخيرة باتجاهه . التقيا في المنتصف وتعانقا لدة طويلة ، قبل أن يتراجعا ثم يتبادلا القبلات على الخدين . . ارتفع هتاف الرجال أكثر من ذي قبل ، وباشر الموسيقيون في قرع الطبول الراعد . راقب عبد الأسد الأسود فوق اللون البرتقالي على راية بيبرس الشخصية مرفوعة ، وبعدها حان الوقت لأن يعود قائدهم إلى امتطاء حصانه وإعطاء الأمر بالتحرك خروجاً . باشرت الفرقة الموسيقية عزف لحن زحفهم الأول بدقة متناهية في اللحظة التي لامس فيها حافر حصان بيبرس الأرض في خطوته الأولى ، ومن هناك بدأت بقية القوة المشية العسكرية خلفه . حافظ اليوسف على الادعاء بأنه داعم كلي لمغادرتهم طيلة الوقت ، وهو يلوح لهم مودعاً أثناء انصرافهم ، رغم أن أي شخص بنصف عقل ويراقب في هذا اليوم ، سيلاحظ أنهم يغادرون المدينة من البوابة الجنوبية - الاتجاه المعاكس تماماً لأي جيش مغولي قادم . لم يكن الأمر وكأنه

يمتلك الخيار بكل الأحوال ، فكر عبد وهو يراقبه ، فماذا يمكنه أن يفعل؟ هل يبدأ حرباً مع البحريين في وسط المدينة؟ في الوقت المناسب لوصول الخان ليجد الناس ميتين؟

وفر له المسار أن يشاهد مواقع دمشق لمرة أخيرة قبل أن يغادر ، ما بين المسجد والقصر وهو يرفع عينيه باتجاه الرف الهائل الذي يشكله الجبل ، والذي تحتمي المدينة تحته مثل طفل تحت الطاولة التي تعجن عليها الأم خبزها ، الخليط من الأبنية العربية والرومانية التي حيرت عبد عند أول وصوله ، لأنها كانت مختلفة جداً عن المظهر الشرقي النقي لبغداد ، شكل كنائس المدينة الملاصق لمآذن مساجدها ، تنامى إعجابه وتقديره لجمال العالم القديم للمدينة في الأسابيع القليلة التي سبقت قدومه ، وأدى صلاة صامتة أثناء مروره راكباً بأن يتمكن من رؤيتها مرة أخرى .

لو كانت لدى الناس أي فكرة بأن البحريين مغادرون ليركبوا جنوباً ويضيفوا قوتهم إلى قوة إخوانهم في مصر ، بما يمثل تخلياً فعلياً عن سورية ، فإنهم لم يبدو أي إشارة على ذلك . بدلاً من ذلك ، فقد خرجوا من السوق والمتاجر ، من الحانات والمدارس ولوحوا بأيديهم للموسيقيين الذين يعزفون ألحاناً مرحة ، والفرسان النشطون الذين جاؤوا في إثرهم . عندما مرت سرايا المشاة القليلة في المؤخرة ، والتي تتولى حماية مجموعة عربات الأمتعة ، قدم الناس لهم التمور وأقداح ماء الشرب المضاف إليها النعناع . إجمالاً ، كان الجو احتفالياً بدلاً من انسحاب عسكري .

وجه عبد سؤاله إلى قلاوون «هل جاء هذا متعمداً؟»

«ما الذي تقصده؟» جاءه الرد .

«هل يعرفون ما يجري في الأرياف الخارجية؟»

«هل تقصد باتجاه الشرق؟»

هزّ عبد رأسه إيجاباً .

«لا شيء . وهذا هو الوضع الذي أراده الأمير وبيبرس . ستدب الفوضى إذا عرف الناس الحقيقة» . أشار قلاوون إلى جبل قاسيون في المدى ، والذي كان عبد يستمتع لتوه بمشاهدة انحداره ، لأنه ظهر وكأنه ينمو من ضواحي المدينة . عاود عبد التفكير في هذه النقطة بينما أتم الطابور خروجه من أسوار المدينة ، والناس يهتفون لهم طيلة الطريق ، وإلى وسط الريف فيما بعد . عند إحدى النقاط ، توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف وبدأ أفرادها يحزمون آلاتهم ، لكن قارعي الطبول استمروا ، يصدرون لحناً ثابتاً يرتفع في الهواء ، ثم يتحلل في المدى الواسع للمناطق المحيطة .

انتظر بيبرس حتى تأخر آخر الدمشقيين الذين لاحقوهم ، الأولاد الصغار الذين ركضوا إلى جانبهم لمسافة أميال ، حيث توقفوا أخيراً وبدأوا يسيرون عائدين إلى المدينة ، يلوحون بأغصان ويتعاركون مازحين بعضهم مع بعض ، ثم استدار نحو عبد .

«هل تستطيع أن تكتب ما أمليه عليك وأنت راكب؟»

«أعتقد أنني أستطيع» قال عبد «ولكنني سأحتاج إلى لوح من الخشب» .

سأل قلاوون «هل قلت لوح؟»

«شيء منبسط حتى أكتب عليه» قال عبد .

هزّ بيبرس رأسه «اعمل على تنفيذ ذلك» قال لضابط صغير السن خلفه .

أنزل عبد يده إلى خرجه وسحب ملفه من مواد الكتابة وقارورة حبر ، أغلى شيء امتلكه طيلة حياته ، وحتماً أروع هدية تلقاها على الإطلاق . تم العثور على المكتب المرتجل الذي ظهر لهم في عربة الطاهي ، عبارة عن لوح تقطيع مربع مخطط ومجرَّح بعلامات مئات الوجبات ، وعندما قربه عبد من وجهه ليضعه في مكانه ، اندفعت إلى منخريه رائحة الخضروات التي يستحيل عدم ملاحظتها .

قال «هذه ستنفع» .

«جيد . نحن بحاجة إلى كتابة بعض الرسائل» . قال بيبرس .

***

في اليوم الثاني لهم خارج المدينة ، سمح بيبرس لعبد أن يشارك في تدريباتهم بالسيوف .

«ليست لدينا أعمدة لأجلك هنا حتى تقلم منها قطعاً» . قال بيبرس . وقف عبد في الوسط ، محاطاً بقلاوون وبيبرس وتيكا في دائرة ، وطلبوا من عبد أن يعدل وقفته ويصد الضربات من كل واحد منهم بدوره . ما كادوا يغطون أسلحتهم بأغمادها الجلدية (لحماية النصال) كما قال قلاوون ، وليس لحماية عبد ، كما كان يأمل . ثم بدأوا يوجهون إليه ضربات خفيفة ، مما يسهل صدها ، بتلويحات قوسية واسعة ، ويزيدون السرعة حتى أخذ تصادم السيوف يسمع مثل فناجين من الخزف الصيني المتصادمة . صدَّ عبد العدد الذي قدر عليه منها ، بينما راقب الفرسان المدربون تحركات أقدامهم وتوازنهم ، لكن سرعان ما بدأ الكاتب يتعب ويتباطأ ، حيث أخذ كتفه يؤلمه أولاً ثم ينبض بقسوة ، وفي النهاية أصبح يتمزق إلى الداخل واشتعلت فيه النار . في

نهاية المطاف، لم يعد يتمكن من التحرك بكل بساطة.

قال بيبرس «ماذا يا عبد، هذا ليس سوى مجرد مقبلات!»

انحنى عبد من وسطه وهو يلهث. «لا أستطيع... لا أستطيع أن أستمر!» سحب نفساً عميقاً من الهواء الجاف عبر أنفه، حبسه، ثم أطلقه. «حسناً». قال وهو يقف منتصباً «لنذهب» منحه بيبرس وقلاوون هتافاً تشجيعياً قصيراً وباشروا مرة أخرى، بينما حرص الفرسان على معايرة ضرباتهم لمصلحة فارسهم الجديد. بعد وقت طويل، أصبحوا جاهزين لفترة استراحة، وقدم قلاوون لعبد شراب ماء منعش هائل من قربته. سحب عبد جرعة طويلة، ثم سقط على مؤخرته، راضياً بالجلوس على الرمال. أحسَّ بالعرق يتفجر من مسامه وسط لباس الركوب الجلدي، ثم يجف على جلده مباشرة، ما يمنح ظهره شعوراً غريباً حيث حبيبات الملح الجافة على جلده وتسقط في بنطاله. تدربوا لحوالي ساعة فيما بعد، بينما انهمك الرجال حولهم في تمارينهم، أو إجراء الصيانة لمعداتهم، أو رعاية جيادهم، حتى أشار بيبرس في النهاية بالتوقف وتشاركوا في بعض حبات التمر والماء. ثم أكملوا وضوءهم بغمس أيديهم في التراب النظيف، وهي ممارسة وجدها عبد غريبة عليه خلال رحلته الأولى في البرية بعد مغادرته بغداد، ولكنه كاد يعتاد عليها في هذه الأثناء، حتى بعد الرفاهية النسبية لبيته في دمشق. تساءل عما سيحل بسعيد المتيبس، والذي برغم كونه جاسوساً لدى بيبرس حول أنشطته، استمر في تقديم سلطانيات الماء الطازج النظيف بشكل دائم.

بعد أداء الصلاة وتناول وجبة بسيطة حضرها طهاة القوة على عجل، انطلقوا مرة أخرى، جنوباً حتى القرية التالية، والتي سيعيدون

تموين أنفسهم من ينابيعها لكنهم يجب أن يتجنبوا الاختلاط بسكانها . درعا ، إزرع ، السويداء . أصدر بيبرس أمراً مضمونه ، أنه بغض النظر عن القوة التي تسيطر على البلدات ، يحظر عليهم الدخول أو الإغارة ، خشية من أن يؤدي هجوم مباغت ما إلى تقليص أعدادهم بدون أي هدف واضح . كانت دوافعه في القيام بهذه الرحلة قد تقررت منذ وقت بعيد ، وقد أخبرهم بأنه لن يحيد عن الخطة إلا إذا رأى الله سبحانه وتعالى أن من الأنسب تغيير الظروف ووضع عقبة جديدة من نوع ما في طريقه . لن يغري الشيطان بتغيير مساره لاكتساب الغنائم أو الأمجاد المحلية الطيَّارة .

«لقد سئمت من كوني أميراً للحرب يا عبد» . قال وهما يمشِّيان حصانيهما عبر ضفة نهر جافة ، وقد بدأ يزداد خجلاً من تزايد قذارة زي الركوب الجديد الذي يرتديه ، لكنه فخور بعض الشيء ؛ لأنه يحصل تدريجياً على منظر المتأثر بالطقس الذي تكلم عنه بيبرس صباح يوم مغادرتهم دمشق .

«يا صاحب السعادة أنت أكبر من مجرد أمير حرب . أنت أمير . زعيم ، أنت رجل عظيم» .

نفض بيبرس رأسه «عد إلى مخاطبتي باسم بيبرس ، وليس صاحب السعادة . ليس لدي مكان أستطيع أن أسميه ملكاً لي يا عبد . أنا لا أريد مملكة ، ولا أريد حتى مدينة عظيمة مثل دمشق ، أو حلب التي شكلت قاعدتي سابقاً . لقد كنت سعيداً في مصر . . .» .

«حلب تشكل قاعدة جيدة لقتال أعدائنا» . قال قلاوون من خلفهما .

«لكنني أريد أن يكون لفرساننا البحريين مكان يستطيعون فيه أن

يشيدوا بيوتهم ، وليس مجرد المعيشة في مهاجع ، والانصياع لإيقاع الطبول» . قال بيبرس .

استدار عبد إلى الخلف ، ونظر إلى طابور الفرسان الطويل ، وقطع المدفعية ، عربات التموين ، والمرافقين سيراً على أقدامهم ، وتساءل كم يمكن أن يصعب على بيبرس احتلال إحدى المدن العظيمة التي أشار إليها لتوه .

«يمكنك أن تشن هجمات على كل من الساحل والشمال انطلاقاً من حلب . ولا تسمح لهم بدقيقة من السلم والأمان» . قال قلاوون وهو يرد عنه ذبابة .

«لكن لن يحدث أي استقرار قبل أن نهزم أعداءنا ، هل سيحدث؟» سأل بيبرس «وأنا لن أستريح قبل أن تطهر بلاد الإسلام من وجودهم بأي حال» .

«هناك الأمل دائماً يا بيبرس ، إن شاء الله» .هو كل ما استطاع عبد أن يفكر في قوله .

«عندما تأخذ هذا الجيش إلى قطز ، فسوف يهدي إليك أي مدينة ترغب فيها» قال قلاوون «فيما يتعلق بي ، فإنني سأطلب مدينة حلب» .

سأله بيبرس «هل أتممت استعداداتك؟»

«نحن مستعدون يا سيدي» علم عبد أن قلاوون كان ينوي مغادرتهم في تلك الليلة .

«المطايا مستريحة وقد سبق وأرسلنا خبراً لكي تقوم جماعاتنا بانتظارنا في المراحل المختلفة لتبديل المطايا . سوف نصل في وقت ممتاز» .

«وماذا عن حرسك؟»

قال قلاوون «لديَّ العدد الذي سأحتاجه . إن مجموعة صغيرة تصبح أقل عرضة للاعتقال أو حتى ملاحظتها . كما تعرف أنت» .

اتضح أن بيبرس لا يحب هذا الأسلوب في التفكير . لم يتبادلا سوى كلمات قليلة لبقية ذلك النهار .

مع افتراق قلاوون عن القوة في مهمة خاصة به بعد صلاة المغرب ، استقر عبد جالساً إلى جانب إحدى نيران الطهي لينسخ خطاباً كان بيبرس قد أملاه عليه ، احتوى على العديد من التصليحات والتشطيبات ، على مدى صباحي اليومين الماضيين . قبل أن يغادر ، مال قلاوون باتجاه عبد وأسرَّ إليه للمرة الأولى . «ما يثير الحنق هو أن بيبرس سيشكل سلطاناً أفضل من أي رجل حي حتى الآن ، وما زال يحلم فقط بحماية المعتقد ، وأن يصبح حاكماً لمدينة ريفية في أقاصي البلاد» . هزَّ رأسه وربت على ظهر عبد في تحية وداع .

راقب الكاتب ، فيما تبقى من النور الطبيعي ، مساعد بيبرس يعبر الأفق مع مجموعة منتقاة من خمسة رجال راكبين خلفه ، وجهته ونواياه حين يصل إلى هناك غير معروفة إلا لشخصه ولبيبرس . راقب عبد المساحة الفارغة لوهلة بعد مضيهم ثم عاد ليستأنف واجبه .

كتب على رأس الصفحة «إلى السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز ، أخي البحري» .

شهدت لوحة تقطيع الخضار الكثير من الاستعمال منذ أن تمت مصادرتها من الطاهي نفسه الذي استعان بناره للإضاءة أيضاً . أثار إعجابه أن يده لم ترتعش أثناء تخطيطه للأحرف المزوقة . فهو لم يكتب للملوك قبل ذلك أبداً .

لقد مرت بضع سنوات منذ أن خاطب أحدنا الآخر بعبارات مهذبة ، وبضع سنوات قبلها تحادثنا فيها حديث رجل لرجل . أنا لا أستحي من القول بأنني مشتاق إليك ، وكثيرة هي المرات التي نتكلم فيها عن الأيام القديمة ، حينما كنا فرساناً صغار السن ، وننظر إلى كل يوم على أنه مغامرة جديدة ، ولا يقدر على احتواء نيران معنوياتنا غير السماء . كثيراً ما تصلنا أخبار عن حكمك لمصر ، وتخبرنا الأنباء التي تصلنا أنك تحتفظ باستقامتك وتقواك وسط تحديات عظيمة ، وأن الشعب سعيد . أنا مسرور .

صعق عبد من درجة صراحة ونزاهة بيبرس وأسلوبه المباشر غير المتكلف حينما كرر عليه هذه الكلمات ليدونها . ما كان ليجد تناقضاً أكبر بين نظام التشريفات والتخاطب في بغداد ، والأسلوب المباشر الصريح لدى الفرسان البحريين ، ومرد ذلك إلى اعتياده على اللغة الاحتفالية المواربة لبلاط الخليفة في المناسبات القليلة التي منح فيها فرصة الحضور ، والاعتماد على إعادة ابن دقيق للمناسبات الأكثر عدداً . «هذه هي الطريقة التي يكتب فيها أحدنا إلى الآخر» . قال بيبرس ، وتساءل عبد ما إذا كان قطز سيرد بالأسلوب نفسه ، خاصة بعد أن أصبح سلطاناً .

لقد عملنا أفضل ما بوسعنا للحفاظ على النظام نفسه في سورية وحماية أرض الإسلام كما كانت عندما أصبحنا مقاتلين في سبيل العقيدة ، وحتى سعينا إلى استرداد الأرض من غير المؤمنين والهراطقة في بعض الأمكنة . وقد أقمنا السلام مع أولئك الذين ارتدوا علينا .

فكر عبد في اليوسف في دمشق واستعداداته العجلى للدفاع عن

المدينة . لن يصمد أولئك الذين أقام معهم بيبرس السلام لمدة أطول بكثير .

نتمنى أن يسود السلام بيننا الآن ، وأن يصبح بيتانا واحداً مرة أخرى . فقد وصلتنا أخبار عن وجود تهديد أشد خطورة من أي شيء واجهناه من قبل يلوح في الأفق ، وأنا أعلم أننا لن نتمكن من مقاومته وحدنا ونحن منقسمون . إذا لم يستطع الخليفة المستعصم أن يقاوم جحافل الخان ، كما يبدو محتملاً ، فإن الاحتمال الأكبر هو أن سورية ستهلك أيضاً ، لقد أقسم كل من الفرنجة في الغرب والأتراك في الشمال على الولاء للخان ، على حسابنا ، وهكذا فعندما تنداح الموجة فوق سورية ، فإنها سوف تكمل اندفاعها وتغسل طريقها جنوباً نحو مصر أيضاً . لقد افترقنا في ظروف مليئة بالشكوك والعنف والتآمر . أنا أعرف أنني لعبت دوري في هذه الأحداث . لا يمكنني القول مرة أخرى سوى أن ولاءاتي لم تتبدل أبداً ، حتى في أسوأ الأوقات ، وأدعو الله أن تضع هذه النزاعات التافهة ومشاعر الغيرة جانباً ، وتسمح لنا بأن نتوحد مرة أخرى . إن مصير الإسلام معرض للخطر بدرجة لم يسبق لها مثيل .

لقد قال الخان إنه سيمحو المؤمنين عن وجه الأرض ما لم يتخلوا عن كلمة الله الحقيقية ، وإنه سيجعل موقع عرشه أمام إرادة الله جلت قدرته ورسوله عليه السلام .

أدعو الله بقلب عامر بالإيمان أن مثل هذا الأمر لن يتحقق .

أملى بيبرس المقطع التالي حرفياً ، بدون أي تغييرات أو مراجعات ؛ لأنه تكلم بصدق ومن القلب ، كما اعتقد عبد .

يا قطز ، يتحتم علينا أن نهزم جيش الموت هذا ونعيد البناء من

جديد فوق الرماد الذي خلفه في هجومه . سوف نفقد كل شخص يعز علينا إذا لم نتمكن من إيقاف المد ودحره . ربما تقول إنها مهمة مستحيلة ، لكنها مهمة لا يمكننا أن ننكمش بعيداً عنها ، فأي سماء ستقبل بنا إذا أظهرنا أنفسنا كجبناء الآن؟ ما كان هؤلاء الصبية الصغار الذين ركبوا خارجين من طباقنا وصنعوا من أنفسهم رجالاً في المعارك ، أن يتراجعوا ، بل كانوا سيرحبو بميتة مشرفة ، لأنه ، بكل صراحة ، ماذا يوجد غير ذلك؟

إن رجالي مستعدون للقتال ، وأنا أعتقد أن رجالك كذلك . سنركب الآن إلى المكان الذي يعرفه كلانا ، حيث يمكن لجيوشنا أن تنضم إلى بعضها وتستعد لمواجهة ما سيكون اختبارهم الأقسى . أنا لا أخفي نوايانا وتحركاتنا ، مع أنني أعرف بأنني لا أنوي ممارسة أي عنف في تنقلاتي . سوف تعثر عليَّ بمنتهى السهولة ، لكن عليك أن تعرف بأنه إذا تم تحدينا فسوف نستجيب بالأسلوب الذي استجبنا فيه على الدوام ، بدون أي اختلاف . فالموت هو الموت في نهاية المطاف . أنا أفضل أن أنهي هذه الرحلة إلى جانبك بدلاً من أن أنهيها على يديك ، لكن إيماني هو بالله وثقتي هي فيك .

بيبرس

أتم عبد نسخ الرسالة ثم تمهل في قراءتها للمرة الثانية . قيل له إن الوقت مهم جداً ، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن الاستمتاع باللحظة والكلمات التي كتبها بيده بين سلطان وشقيقه في السلاح الذي خاصمه . فكر : هنا ، التاريخ هنا ، حيٌّ بحوزتي للمرة الأولى على الإطلاق . نهض حاملاً الرسالة بيد وملاحظاته باليد الأخرى وحدَّق

في النار . تنهد بحدة ثم أدخل ورقة الملاحظات في جراب كتاباته وبدأ يمشي باتجاه خيمة القائد ، محتفظاً بالنسخة النظيفة الخالية من الأخطاء ملفوفة في يده اليمنى ، منتظراً فقط أن يمهرها بيبرس بختمه الشخصي ثم يرسلها مع مراسل .

في تلك الليلة ، جلس مع ريشته ولوحته وبدأ العمل على السطور الافتتاحية لكتابه المعنون «حياة بيبرس» ، مبتدئاً برحلة الركوب من دمشق وكل ما شاهده منذ ذلك الوقت فصاعداً .

الفصل الخامس والعشرون

من قلاوون الصالحي إلى أخيه بيبرس البندقداري ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

نحن الآن على بعد أقل من أسبوع بقليل عن وجهتنا والأخبار تتغير من يوم إلى الآخر ومن شخص إلى شخص ، وهناك العديد من الأشخاص ، حتى في هذا المكان ، حيث يسافر أولئك الذين لا يرغبون في أن يتم انكشاف أمرهم بالليل كما نفعل نحن . يحوم جيش الخان حولنا مثل حية ، على بعد حوالي مئة ميل إلى الشمال ، يبتلع مدن الشرق العظيمة مثل بيضات في عش طائر . ستعرف بحلول هذا الوقت أن بغداد قد سقطت وأننا فقدنا دمشق أيضاً . كذلك جرت الإغارة على بيتنا السابق في حلب . أدعو الله أن يكون أخونا قطز ، الذي هو سلطان مصر حالياً ، قد استلم رجاءك وقبل إشارتنا للسلام وعرضنا للمصالحة . تجيئنا تفاصيل عمليات النهب من الآلاف الذين يعبرون مسارنا ، هاربين من النيران والتعذيب الذي ينزله الكفار بسيئي الحظ .

لقد حافظ إخوتنا المغول الذين هم من الفرسان على التظاهر بأننا جزء من جهاز الخان الدبلوماسي ، وأنني الموفد من القاهرة ، وقد نجحت الحيلة في مناسبتين عندما تمت مواجهتنا بكشافة الجحافل العظيمة . لم يتسن لنا الوقت في المناسبتين للوصول إلى أسلحتنا ، فقد كانوا أكفاء في تعاملهم مع الرجال الذين يتحدرون

من أصولهم نفسها . إن قدرتنا على جعل الرجال القادمين من جميع أرجاء العالم إخوة لنا مثلنا تماماً هي شهادة على وحدة فرساننا ومعتقداتنا . إن أملنا الوحيد هو أن نهزم عدواً مثل هذا الذي نواجهه الآن .

في ضوء ما تقدم ، أرسل لك هذه الملاحظة لأقول لك إن هناك بصيصاً من النور الأزرق وسط السموات السوداء في الشمال والشرق . سيظل الأمر غير مؤكد إلى أن ألتقي بأولئك الذين أستثمر ثقتي في كلامهم ، بقدر ما أثق بكلامك . هذه إذاً همسة تشجيع ، بدلاً من الصرخة المرحة المدوية التي سأقدمها لك . . .

لقد توفي الخان العظيم

ذلك هو الكلام الذي وجد على شفاه تلك الجماعات الاستكشافية التي تظاهرنا لها حينما التقينا بها . ربما كانت حماستهم لمشاركتنا مثل هذا النبأ الرهيب مع أولئك الذين افترضوا أنهم من أقربائهم هو الذي جعلهم أقل احتمالاً للتعامل معنا بالارتياب . في كل الأحوال ، فقد سمعت الآن هذا النبأ منقولاً عن مجموعتين يمكن اعتبارهما موثوقتين .

إنه لأمر معيب أن أتعلق بهذا الخيط الرفيع من الأمل في الوقت الذي أتعامل فيه مع أنباء عن أن الخليفة قد تم اغتياله بتشكيك رجل نزاع إلى الشكوك ، أليس كذلك؟ يحتمل ، ولكننا سنقدر على بحث ذلك الأمر بالتفصيل عندما تصبح الأزمنة أقل توتراً واضطراباً .

إذا كان الخان العظيم قد توفي حقاً ، حيث مات على رأس جحفل آخر كان يقوده إلى جنوب الصين ، فهل مصر سوف تنجو من تدمير جيوشه التي تقوم حالياً بإحراق سورية؟ لا يبدو الوضع

كذلك . لكن الجيش الذي يشكل خطراً علينا حالياً سيكون بدون قائده الأعلى ، هولاكو ، لأنه مطلوب منه أن يرحل عائداً إلى موطن المغول ليشارك في انتخاب الخان العظيم الجديد . سوف يصطحب معه العديد ، إذا لم يكن معظم جنوده حينما يرحل ، هكذا يقولون . سيحل محله القائد الجديد كتبغا ، مع أن قواته ستبقى قوية وتظل تحتل ما يتبقى من المدن العظيمة التي ذكرها آنفاً ، فهي لن تعتبر شيئاً بالقياس إلى الكتلة التي يقودها هولاكو حالياً . كذلك يتحدث الناس عن القائد بايجو ، وأنه يقود طابوراً يزحف به باتجاه بعلبك ، الأمر الذي يجعل الفرنجة في موقع غير واقعي لمواجهتهم حتى لو أرادوا ذلك .

استخدم هذه المعلومات مع قطز ، يا أخي ، رغم أنني لا أستطيع أن أخبرك بأنها مؤكدة ، إلا أنني أعتمد على المجموعتين المنفصلتين من جيش الخان نفسه ، والذين أخبرونا بذلك بكل براءة ، وأعتمد كذلك على غريزتي وحدسي ، الذي يخبرني بأن الأمر صحيح .

سأعرف المزيد عندما أجري اتصالاً مع أولئك الذين يدعمون قضيتنا بالاستطلاع ، والذين تمكنوا من الفرار من الكارثة التي تحيط بالأمكنة التي وضعناهم فيها . حتى ذلك الحين ، كن أول من يخبر قطز أنه قد لا يسنح وقت أفضل لانتزاع النصر على قوات أحفاد الخان ، وأنه يتحتم عليكما التوجه بأقصى سرعة لمواجهتهم في ميدان المعركة .

سأقابلك هناك ، وإنني لأعد الأيام قبل أن أتمكن من تقديم سيفي إلى جانبك مرة أخرى .

أخوك

قلاوون

اعتدل بيبرس في جلسته وألقى بالملاحظة على طاولة مكتبه ثم ضرب بقبضته على الطاولة بقوة إلى درجة أنه أحدث شقاً في الخشب الأسفل. عاود قراءة الرسالة مرة ثم أخرى، حتى أودع كل كلمة إلى الذاكرة، ومخططاً الاحتمالات في عقله مثل حركات البيادق على مربع الشطرنج. عندما تأكد من أنه سيتمكن من إعادة تلاوة الرسالة غيباً، سحق ورقة الخرطوش المشفرة داخل يده ثم أسلمها لشعلة مصباحه، المصدر الوحيد للنور في خيمته. ثم تناول الرسالة الأصلية المشفرة بدورها بسلسلة من أحرف قلاوون الهيروغليفية المعكوسة والأعداد ثم أحرقها هي الأخرى. بذل أقصى جهوده حتى لا يجعل الإثارة تتوالد وتتنامى بحيث تصبح توقعات، لكن تأكيد قلاوون الشخصي بأن الأخبار أصلية صادقة، لكون آراء قلاوون في مسائل الاستخبارات هي مما يصدقه بيبرس، بما يقارب تصديقه لآرائه نفسها، فيما هو جائز إلى الحد الذي يثق فيه برأي شخص ما كما يثق برأيه الشخصي.

لم يعد يقدر على الاستمرار في الجلوس، فنهض وأرخى حزام خنجره ثم مشى حتى الزاوية البعيدة من الخيمة العسكرية. فتح قارورة، صب قليلاً من مائها في إناء ورفع أكمامه. توضأ وفرش حصيرته على الأرضية. أدى الصلاة لمدة ساعة كاملة، ينهض ثم يركع ويسجد شكراً لله سبحانه وتعالى حتى هدأ عقله وأحسّ بأن الحق العظيم أعاد أفكاره وقدراته الذهنية إلى مكان يستطيع فيه أن يتصرف كما يريد، بدون أن يصرخ إلى السموات ويخبرها أنهم قد تم إنقاذهم.

بالطبع، لم يكن الأمر على ذلك القدر من البساطة، وهو يعرف ذلك.

لأن الأخبار الواردة من المدن التي احتلها هولاكو ستكون رهيبة وحشية . حتى مع عدو منكمش إلى ذلك المقدار ، فإن الإمكانية مازالت ضعيفة في تمكنهم حتى من إحداث خرق بسيط في الزحف المنطلق للخان وقواته ، بغض النظر عمن سيكون الخان الجديد ، ناهيك عن تخليص أنفسهم من ذلك البلاء إلى الأبد . نادى على أحد الخدم .

«هل عاد الكشافة؟» سأل الرجل لدى وصوله .

«أولئك الذين اتجهوا جنوباً ، يا مولاي ، الأخبار جيدة» .

«هل هذا يعني أننا سنقابل أوغاد الموت في الغد؟»

«يقول كشافتنا إنهم سيكونون هنا في الصباح ، وإن كل شيء على ما يرام بالنسبة لهم . لديهم ما يكفي من التموين وهم جاهزون للحملة . عدة مئات من الفرسان» .

قال بيبرس «ذلك جيد . ماذا عن المجموعة التي أرسلت للعثور على البدوي؟»

«لا شيء حتى الآن . يفيد الخبر الأخير أن قبيلة عيسى بن مهنا كانت تسقي خيولها من غدير قريب من بحيرة طبريا ، ثم اختفوا في الصحراء مرة أخرى . لم يسمع أحد عنهم شيئاً منذ ذلك الحين» .

«ولن نسمع عنهم حتى يكونوا جاهزين للعثور عليهم» .

«إن شاء الله . إن رجالنا مستمرون في الانتشار يا سيدي . دعنا لا ننسى أنهم من البدو أنفسهم . إنهم لا يعرفون البلاد أفضل منا وكيفية العثور على إخوانهم» .

هزَّ بيبرس رأسه «الأمر كما تقول» ، فكر للحظة «استدع لي تيكا وليدخل . وكذلك كاتب السر» . استخدم اللقب الرسمي لعبد . «ثم

أنظر فيما إذا كان من الممكن إرسال فارس ليوصل رسالة إلى جماعة الموت هذه الليلة . قل له إنه يفترض فيه أن يتقدم بأقصى سرعة له نحو مكان لقائنا . إذا أمكن ، فإنني أرغب في رؤيته قبل الفجر . أيقظني إذا كنت نائماً ، مع أنني أشك في أنني سأغمض عينيَّ . مفهوم؟»

اتخذ الضابط الشاب وقفة التهيؤ «مفهوم يا صاحب السعادة» .

«اذهب إذاً . أطلب من هذين الاثنين القدوم إلى هنا على الفور» .

لحظة وصول تيكا وعبد ، كان بيبرس منكباً على خريطة ميدان للساحل والبلدان الواقعة بينه وبين نهر الفرات ، يدرسها بتركيز . تسلل تيكا إلى الداخل أولاً ثم دخل بعده الكاتب الجديد المؤتمن على الأسرار . رفع بيبرس رأسه حين أغلق عبد غطاء المدخل خلفه .

قال «لقد تلقيت أخباراً من قلاوون» . وهو يشير لهما بالاقتراب حتى لا يضطر إلى رفع صوته بأكثر مما هو ضروري .

«لقد سقطت بغداد يا عبد . انا آسف» .

انفتح فم عبد ، ولكن بدلاً من تنهيدة غضب عميقة ، لم يكن هناك غير صوت اختناق ، مثل رجل تم حرمانه من الماء بشكل فجائي . هبطت عيناه إلى الأرض غير المغطاة ، انقلب وجهه إلى قناع من الاضطراب والحزن ، وقال : «بهذه السرعة؟»

«بهذه السرعة» . عاود بيبرس النظر إلى خريطة . «ليست لدي أية تفاصيل أخرى فيها عدا أنه يوجد أناس كثيرون يبحثون عن الملاذ على مدى الجزيرة الفاتية ؛ والى البلاد الواقعة جنوباً حيث تقوم مجموعة قلاوون بالاستطلاع . أدعو الله أن تحصلوا على أخبار أفضل من هذه قريباً» .

استجمع عبد شيئاً من رباطة جأشه ووضع يداً على الطاولة في

محاولة لتهدئة ارتعاش ركبتيه . اعترف قائلاً «ليس في الأمر مفاجأة . ولكن ابن دقيق . . . صفية . . . كل الذين عرفتهم» .

«أستنتج مما قلته فإن سيدك كان - ما زال - صاحب نفوذ ولديه معارف جيدة . هنالك احتمال كبير في نجاته ، على الأقل لأنه قادر على أن يشتري مخرجه من المتاعب . وكذلك صديقتك صفية ، أنا واثق من ذلك» .

«ألم يطلعك قلاوون على المزيد من التفاصيل؟»

«فقط في وجود احتمال بأن يكون الخليفة قد توفي أيضاً» .

رفع عبد رأسه «هل أقدموا على قتل الخليفة؟»

نفض بيبرس كتفيه «ألا يحتمل أنه مات وهو يقاتل؟» هزَّ عبد رأسه ، مشيراً إلى استحالة مثل هذه الفكرة . «إذ سيبدو الاحتمال أنه قتل بعد اعتقاله» . استطرد بيبرس .

«كثيراً ما يموت كبار السن جراء الصدمة ، ولكن ذلك سيكون بعيد الاحتمال لدى رجل في مثل مقام الخليفة» .

قال عبد «كلا ، لقد كان في شبابه رجلاً قوياً» .

«حسناً ، إذا مات وهو يدافع عن مدينته ، فقد كان يؤدي العمل الذي يرضي الله» .

«نعم» قال عبد .

«حتى أقول الحقيقة ، فإن هذا الأمر كان يمكن أن ينتظر حتى الصباح ، لكنني أردت أن أشارككم الأخبار الأكثر أهمية مع كليكما أولاً لأعطيكم بعض الوقت للتفكير فيه» .

رفع عبد رأسه «ما الذي يمكن أن يشكل أهمية أكثر من مصير بغداد؟»

قال بيبرس «لقد توفي الخان العظيم . في مكان ما من الصين» . جلس وبدأ يخبرهم بالأجزاء المختلفة لرسالة قلاوون . تقاليد المغول التي تقضي بأن يتم اختيار الخان العظيم من قبل جميع القادة ، والأمراء من قبائلهم ، وضرورة تخلي هولاكو عن حملته والسفر عائداً إلى موطنهم ، مصطحباً القسم الأكبر من قواته . عندما أنهى كلامه ، لمعت عينا تيكا بدرجة البريق والإثارة نفسها التي أحسَّ بها بيبرس لدى قراءته رسالة قلاوون ، لكن عبد احتفظ بوجه عابس حزين .

أنهى بيبرس كلامه قائلاً «وهكذا ، هذا هو الموقف» . ضم أصابعه إلى بعضها «هذه الليلة أو صباح الغد ، ستنضم قبيلة الموت إلى قواتنا من الغرب ، وبعد ذلك سنركب باتجاه الجنوب حتى تصلنا الأخبار عن خطط قطز» .

نقر تيكا على سطح الطاولة بأصابعه ورفع قبضته .

قال بيبرس «أنا أفكر بالطريقة نفسها . سوف يقاتل . سيلتقي بنا ابن مهنا ورجاله على الطريق . يجب أن نعثر على السلطان قطز فوراً ونقابله . يقول قلاوون إن المغول متجهون إلى بعلبك ، والتي ستخدمهم كقاعدة قبل أن يشنوا حملة عبر القدس ثم عبر صحراء سيناء» .

سأل عبد ، بعد أن عاد شيء من الدماء إلى خديه «كيف يمكنك أن تعرف بأنهم سيرغبون في التحرك بهذه السرعة؟»

«لأنهم جراد . ستوفر لهم التلال اللبنانية وسواحل سورية العلف لخيولهم ولكن لفترة قصيرة . هم مضطرون للاستمرار في التحرك . لقد أتموا تدمير بلاد فارس ، ولذلك فإنهم إما أن يتجهوا شمالاً إلى الأراضي التركية ، أو أنهم سيتجهون جنوباً ، حيث الطقس دافئ . إن مصر هي البلد الأغنى في الدنيا ، والسلطان هو القائد الحقيقي للإسلام . ولذلك

فهم متجهون إلى هناك . نحن مضطرون إلى ريقافهم» .

فكر عبد أن هذه طريقة مبسطة في النظر إلى الأمور ، ولكن ، وكما سيكتشف فيما بعد بالنسبة لبيبرس ، فإن الأسلوب الأكثر بساطة ومباشرة هو تكتيك يشعر قائد الفرسان البحريين بالسعادة في تطبيقه . ظهر الموت في تلك الليلة كما قال بيبرس ، على شكل فارس كردي خشن الهيئة مدجج بالسلاح في كل أنحاء جسمه . تبادل هو وبيبرس التحيات كالإخوة اللذين افترقا لعقود بدلاً من السنوات القصيرة التي قضاها الأخير في الشمال ، لكن الموت لم يبد أي اهتمام عندما قدم بيبرس عبد على أنه كاتبه الجديد ، حيث عرَّفه باسم «عبد البغدادي» .

«بغداد؟» تأمله الموت من فوق لتحت بطريقة تخيلها عبد كما يتأمل النسر فأراً . «نعم يا صاحب السعادة» . أجابه «لقد قضيت فيها كل حياتي وحتى ما قبل بضعة أسابيع مضت» .

«والآن أنت كاتب لدى رجل عظيم مثل بيبرس؟» هزَّ الموت رأسه ، وقد زمَّ فمه .

«لقد سمعت بمصائر أسوأ ، ولكنني كنت سأفضل أن أموت وأنا أقاتل على الأسوار . ولكن أنت كاتب ، أليس كذلك؟» اقترب وحدَّق في عينيه «يجب أن تحمد الله على أنك تؤدي خربشتك لرجل عظيم مثل بيبرس البندقداري» .

«نعم ياصاحب السعادة» طأطأ عبد وأحنى رأسه .

بدا وكأن الموت على وشك أن يقول شيئاً آخر بالإضافة ، لكنه استدار بدلاً من ذلك إلى بيبرس وبدأ يروي له حكايات الصحراء وقوة المقاتلين الذين سيأتي بهم للقتال في سبيل القضية . «نحن يبلغ عددنا

قرابة الخمسمئة !» صاح هادراً .

«بالإضافة إلى قوتك ، سوف نقدم لقطز ذراعاً قوية بالقدر الذي يتمناه . قوية بما يكفي لتوجيه قبضة إلى أنف جيش الخان !» .

ضربه بيبرس على كتفه وابتعدا وقد وضع كل منهما ذراعه على كتف الآخر للبدء في التخطيط . راقب عبد ابتعادهما وقرر أن يصنف الموت كواحد آخر من مساعدي بيبرس الذين سيبذل قصارى جهده للبقاء بعيداً عنهم . افترض أن هذا الموت كان حتماً واحداً من مرشحي الفرسان في حلب حيث تلقّى بيبرس تدريبه .

تحولت الأيام التالية إلى جاروشة من الركوب والنوم ، كثيراً ما تناولوا طعامهم في السرج ، بينما تشرب الخيول من الينابيع ثم تنطلق في مسيرها مرة أخرى ، بدون الضغط على الحيوانات الرائعة أكثر مما يجب ، خوفاً من أن تنهار مستسلمة للإجهاد ، نتيجة لما هي رحلة أطول بكثير مما قام به معظم الناس في حياتهم كلها . بدأ عبد يشاهد بلاداً قرأ عنها في القرآن الكريم وهو مازال فتىً ، حتى إنه أخبره بيبرس بعد ظهر يوم شمسه ساطعة ، بأن اللمعان الأبيض والبني الذي يراه على البعد ، بين التلال المتدرجة إلى يمينه هو القدس . نظر مندهشاً إلى المنظر الذي لم يبد متميزاً للمدينة الشهيرة ، حيث بدت من البعيد في منتهى الصغر ، والتي لم تزد المسافة بينه وبين المدينة على عشرين ميلاً ، بل أقل .

سأل «هل سندخل المدينة؟» لكن بيبرس نفض رأسه نفياً وأشار إلى الجنوب قائلاً «ليس في هذه المرحلة . إن قطز في انتظارنا . لكنني سأمشي هناك ، عما قريب» . اختفت المدينة المقدسة بسرعة عندما عبروا فوق منحدر صخري آخر ، لكن عبد عاود النظر وراءه مرتين ليرى

ما إذا كانت ستعاود الظهور خارجة من الرمال مثل السراب . لم تظهر له وهكذا ركز ذهنه على الوصول إلى القاهرة ، وهي إحدى المدن الأخرى التي طالما صورها في ذهنه لكنه لم يفكر أبداً أنه سيراها .

بدأ يكتشف أن حياة الفارس بسيطة ، حتى في حالات الركوب المستعجل ، لكنها لم تتوقف عن كونها متعبة جسدياً . لا ينام الفرسان البحريون سوى سويعات قليلة من كل ليلة ، ولسبب ما ظهر أنهم مقلون في تناول الطعام ، حتى لو أنهم حافظوا بطريقة ما على القوة الضرورية لقضاء كامل أيامهم ومعظم لياليهم في السرج . كثيراً ما فكر عبد أن رحلة ركوبه من بغداد إلى دمشق قد أدت دورها كمثال مفيد على ما هو مقدر له في هذه الأيام . كان يزدرد قطعة خبز ويجرع حصته من الماء كلما أحضر الزاد إليه ، على أية حال ، بينما كان الفرسان يكتفون برشفة من مطراتهم ويمضغون طعامهم بتمهل ، على ما يبدو ولاستخراج كل قطعة من التغذية المتاحة من قشرته ، هكذا قرر عبد في نهاية المطاف . ابتدأ بعد بضعة أيام يفعل الشيء نفسه ، ولم يطل به الوقت حتى لاحظ أنه يجعل كل قطعة من الخبز ، وكل حبة تمر يخرجها من خرجه ، تدوم أكثر من معظم الوجبات التي تناولها في بغداد . اكتشف أن إطالة المضغ تساعد في عملية الهضم لديه ، وكذلك اكتشف أن الإطالة لها مزية إضافية تنحصر في الحفاظ على فمه من الجفاف أثناء الساعات الحارة من النهار .

«هل كنت تعلم أن المغول يحملون مسحوقاً يستطيعون أن يحولوه إلى حليب بمجرد سكب الماء النظيف عليه؟ لقد أخبرني ذلك بعض من فرساننا المغول الذين يركبون بصحبة قلاوون قبل أن يغادروا» . سأله بيبرس في أحد الأيام .

أجابه عبد «لم أسمع بذلك. لكنني سمعت أنهم لا يأكلون سوى اللحم النيء».

ابتسم بيبرس «إنهم يفعلون ذلك. فيما عدا أنهم يضعونه بين سروجهم وعجز الحصان في الصباح ثم يركبون عليه طيلة النهار. تطهوه الحرارة الصاعدة من مؤخرة الحصان وهناك يتناولون وجبة عشائهم. أمر مقرف».

قاوم عبد الشعور بالتقيؤ «لم أعتقد أن مثل هذه الأشياء يتم عملها خارج أكثر الأجزاء المتوحشة في الدنيا».

«سوف نقوم بمقاتلة المتوحشين يا عبد. لا تخطئ وتنسب عظمتهم إلى أي درجة من التمدن. إن ممالك المغول مبنية على الوحشية أكثر من أي مكان آخر في التاريخ». شاهد بيبرس كيف يسقط وجه عبد فأدرك غلطته على الفور. «أنا لم أقصد أن أذكرك بمدينتك. أنا واثق من أنها أعفيت من الأسوأ».

رفع عبد يده ليظهر أنه لم يتألم. رغم أن كليهما عرف أن ما قاله بيبرس هو عبارة عن كذبة؛ لأن بغداد لم تنجُ.

الفصل السادس والعشرون

على بعد خمسمئة ميل ، كان قلاوون يواجه مفاهيمه الخاصة عما يبدو عليه الجحيم أثناء المنظر الذي يتراقص أمام عينيه . الدخان يتصاعد عبر هياكل الأبنية المدمرة ، والنهر تحول إلى الأسود بطريقة ما ، ليس اللون الأحمر التقليدي الذي تجري به الممرات المائية حينما تتعرض المدن لحد السيف .

بات واثقاً من أن بغداد لم تعد موجودة ، ومع ذلك لم يستطع أن يصدق ، قابله عميله أبار ، أحد جواسيسه السريين في بغداد ، والذي نجا من التدمير والمذبحة .

امتد الدمار من حيث وقف يراقب إلى أميال وأميال . لم يكن هو غريباً على نهايات المعارك وحالات الحصار ، لكن هذا شيء مختلف تماماً . تحولت الأبنية العظيمة وسط المدينة إلى هياكل ملطخة بالسخام ، قصر الخليفة وحدائقه ، مجمع دار الحكمة الهائل . ارتجفت يد آبار وهو يشير إلى ضفة النهر خلفه .

«لقد رأيت حشوداً من الجنود هناك ، يلقون بصناديق من المخطوطات وجثث الأئمة والدارسين صغار السن» . قال متأسياً .

عندما نظر عبر الشوارع الدائرية للمدينة ، رأى قلاوون أن هناك جثثاً على أسطح الكثير من المنشآت الأكبر حجماً ، حيث كان السكان عديمو الحظ قد هربوا في محاولة أخيرة لتفادي فرق المغول المغيرة النهابة تحتهم .

كان أبار يقول «لقد ذهب كل شيء . لقد اندفعوا إلى داخل المشافي وطعنوا المرضى في فراشهم» .

مال قلاوون إلى الأمام لينظر تحته إلى حفرة الحصار والمتاريس التي بناها هولاكو ليتسلق أسوار المدينة .

قال «لابد وأن حفر كل هذه قد تطلب الآلاف» .

قال أبار «عشرات الآلاف» وغص حلقه . رفع يده ليحرر حلقه ، لأن رئتيه ما زالتا محتقنتين من الأدخنة . «انتظر الوزير يوماً بعد وصولهم ليشن هجوماً خارج الأسوار ، لكنهم كانوا متأهبين وتم تدمير الفرسان بواسطة رماة السهام من الأمام والجوانب . انتظروا حتى أتم رجالنا عبورهم قبل أن يفتحوا عليهم الصليات من على مسافة . ثم أطبقوا عليهم حينما تراجعوا أيضاً . لقد تم ذبح البغداديين بشكل مضاعف» .

«بل ثلاثة أضعاف» . قال قلاوون وهو ينظر خلفه إلى الدمار الذي أصبحته بغداد . استدار لينظر إلى مجموعته المغولية ، متسائلاً عما يدور في أذهانهم وهم يشاهدون المنظر تحتهم . هم فرسان بحريون بلا شك ، لكنهم لم يظهروا أي تأثر بهذه الفظاعة .

«خرج وفد من النبلاء إليهم مرتدين أفخر ثيابهم ليحاول أفراده أن يتوسل من أجل هدنة ، بينما كانت الحجارة التي تقذفها المجانيق تطير من فوق رؤوسهم نحو مساكن الناس أثناء ذهابهم» . قال أبار «كان هناك ثلاثة آلاف شخص منهم على الأقل . ما كانت أي مدينة على وجه الأرض قادرة على تجميع مثل ذلك الوفد ليمثلها . سمح لهم هولاكو أن يبلغوا الخطوط وحتى أن يبدأوا في مخاطبته ، قبل أن يعطي الإشارة ويتقدم رجاله ويقبضوا عليهم» . أخذ صوت أبار يرتعش مرة

أخرى . «وضعوهم على مساطب مرفوعة حتى يتمكن الرجال على الأسوار من رؤيتهم ، ثم نزعوا عنهم أثوابهم وبدأوا بتشويههم ، هناك أمام أعيننا . راقبت رجلاً منهم اسمه ناسيوس ، أعرفه لأنه كان يقطن قريباً مني . راقبته وهم ينزعون الجلد عن يده كما لو كانت قفازاً ، ثم أخذ يزعق عندما رفعوا العظم والعضلات أمام عينيه ، فقد كانت الأصابع ما تزال تتحرك . . .»

لم يعد أبار يستطيع أن يقول المزيد . عاد إلى السعال . «توقفت بعد ذلك عن المشاهدة . هزمونا في ذلك اليوم . عرفنا أنه لا أمل لنا . حتى إنني بدأت أؤمن بأن الله نفسه قد تخلى عنا وأدار ظهره لنا . عندما دخلوا المدينة ، حاول الناس أن يهربوا لكنه تم القبض عليهم ، وسيقوا إلى الحظائر مثل الماشية ، ثم ذبحوا مثل الأغنام . إن المغول -» . التفت أبار ونظر بخوف إلى مرافقي قلاوون . مال مقترباً منه ، وقد قبضت يداه بقوة على أعنة الجواد الذي أعطوه له «إنهم عفاريت ، شياطين . فقد استمروا في الضحك أثناء قيامهم بهذه الأفعال . لقد أحالوا الأمر إلى رياضة . أحياناً ، في اللحظات المظلمة ، كنا نأمل أن يتم أخذنا كعبيد ، لكن اتضح أنه لم يكن لديهم أي اهتمام بذلك . لقد قتلوا الحرفيين والمعلمين ، الأمهات وأطفالهن . الأطفال الصغار ، أيها السيد قلاوون !» .

ربَّت قلاوون على يد الرجل وسحب نفساً عميقاً قائلاً «سيعاقب الله سبحانه وتعالى أولئك الذين يدنسون العقيدة ، يا صديقي» .

«ما هي العقوبة على قتل خليفة ما؟» سأل أبار من خلال يديه .

«إذاً فالأمر صحيح؟»

«هو كذلك» . قال أبار «استطعت أن أنفذ إلى هنا وأختبئ في بعض الكهوف . أخبرني رجل آخر أنه رآهم يأخذون الخليفة في القصر

ويجبرونه على المراقبة بينما تم إعدام كل أفراد بلاطه . أصبحت الأرض زلقة من كثرة الدماء على الرخام . نهر صغير يتدفق نازلاً الدرجات إلى الحدائق الخلفية . بعد ذلك أخرجوا أبناء الخليفة ، كلهم عدا واحداً تمكن من الفرار . أنا لا أعرف اسمه . يحتمل أنه كان مختبئاً في السراديب والممرات السفلية . لا أعرف» .

سحب أبار نفساً عميقاً «أخبرني الرجل أنهم ضحكوا على دموع الخليفة ، أجبروا مترجماً ليقول إن الدموع والحزن لا يعنيان أي شيء بالنسبة لهم ، وبعد ذلك شقوا حلق كل واحد من الأبناء هناك في القاعة . سقط الخليفة على ركبتيه وتوسل إلى الله أن يأخذه أيضاً . لكنهم لم يكونوا قد فرغوا منه . حبسوه في برج مليء بالذهب والنفائس ، قالوا إنه يجب عليه أن يحصل على كفايته من الأشياء الراقية هناك . ثم تركوه هناك لأيام . في الأثناء ، كانت المذبحة ما تزال مستمرة في الشوارع . عندما أصبح الهتاف المطالب بمقتل الخليفة عظيماً بين الجنود بحيث لم يعد هولاكو قادراًعلى تجاهله ، أمر بإخراج الرجل العجوز من البرج ولفه داخل سجادة أمام جميع الرتب ، قالوا إنه كان مشرفاً على الموت بكل الأحوال . كانوا مخمورين كلهم واستمروا في الضحك . أمر هولاكو بجعل الجياد تركض فوق السجادة حتى تحولت إلى مجرد كتلة . وبهذه الطريقة ، حافظوا على تقاليدهم التي تقضي بعدم إراقة الدماء الملكية أبداً» .

قال قلاوون «في منغوليا ، يكسرون العمود الفقري على آلة خاصة» .

قال أبار «لقد كسروا أكثر من ظهر المستعصم . لقد سحقت كل عظامه . يرحمه الله» .

«ماذا عن الوزير؟»

انتفض أبار «لقد سمعت أنهم قبضوا عليه في اليوم الأول ، وهو يركض عبر البوابة الجنوبية . بعد أن جردوه من كل ملابسه ما عدا غطاء رأسه ، ربطوا يديه ورجليه إلى أربعة جياد وركب كل منهم في اتجاه منفصل . قالوا إنه سيصل إلى وجهته أسرع بتلك الطريقة» .

نظر قلاوون إلى المدينة خلفه «وهل صحيح أنهم قاموا بعد ذلك بتعليق أجزاء منه في جميع أنحاء المدينة؟»

«على البوابات الأربع ، الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية . قبل أن أهرب في الليل ، قيل لي إنهم سيرسلون سيقانه إلى السلطان قطز وقلبه إلى الفرنجة . أما البقية فسيذهبون بها إلى منغوليا ، إلى جانب سجادة الخليفة» .

قال قلاوون «حسناً ، نحن ذاهبون إلى مصر . هل تعرف أين يمكنني أن أجد الآخرين؟»

«لقد قمت بتجميعهم في مكان لا يبعد عن هنا كثيراً . لقد كانت لدى كل منهم خطة للخروج كما فعلت ، ونجحت خططهم بحمد الله» .

قال قلاوون «في هذه الحالة ، لنأخذ جماعتنا ونغادر هذا المكان» . لم يعد واثقاً من المدة التي سيصمد فيها حظهم .

***

لم يكن عبد قد دخل أبداً إلى بلاد اعتقد أنها غير مضيافة بقدر صحراء سيناء من قبل .

كيف يقدر الناس على العيش هنا؟ فكر لنفسه وهو ينظر إلى الصخور الشاهقة وتركيبات الصخر التي تبدو بلا نهاية - مؤكد أنه لا

يمكن لشيء أن ينمو في مثل هذا المكان .

قال بيبرس «ومع ذلك فقد عاش الناس هنا لآلاف السنين . لمدة قرون قبل حتى أقدم الممالك . ومصر هي المملكة الأقدم على الإطلاق» .

«أعرف ذلك» . قال عبد وهو ينقل بصره من ناحية إلى الأخرى «وقد قرأت عن جميع هذه الأمكنة ، ولكنني حين أنظر إليها الآن ، أتساءل كيف فعلوا ذلك؟ ليست هنالك أية أنهار . بغداد جالسة على دجلة والفرات . ومصر على النيل» .

«حسناً ، هم قلة قليلة واحتياجاتهم في غاية البساطة» . قال بيبرس .

«ليست هناك أرض خالية من الماء كلياً . الفن هو في العثور عليه . لكن لا تنس أبداً أن مصر ليس لديها دفاع أفضل من سيناء . ليس هناك من جيش قادر على إنهاك أي عدو كما تفعل هذا الصحراء» .

«إن الوضع أشبه بما تخيلت عليه وجه القمر حينما قرأت كتب ابن الناصر هناك في دمشق» .

تلفت بيبرس حواليه وهزَّ رأسه «نعم ، أتخيل أن الأمر كذلك . رغم أنني طالما فكرت أن القمر أبيض . هل تعلمت الكثير من أعمال الناصر؟»

«بدأت أرى خلق الله على أنه أكثر اتساعاً من أي شيء أستطيع أن أتخيله فيما مضى . هناك رجال في دار الحكمة يمتلكون معرفة شبيهة بهذه ، لكنني أخشى أن معظمه كان مقفلاً في وجهي . كثيراً ما تكون المدارس أماكن مقسمة بحدة ، ولا يحب المدرسون أن يكون لتلاميذهم أكثر من سيد» .

قال بيبرس «الوضع هو نفسه في الجيش. سوف أرغب بشدة أن تقابل ابن النفيس عندما نصل إلى القاهرة يا عبد. لديه معرفة أظن أنها ستعجبك وتقدرها. بالطريقة نفسها التي تصف فيها الناصر يشرح حركة النجوم، فقد وصف لي ابن النفيس تحركات الأخلاط في الجسم. يقول إن الدم يتحرك في الداخل من ناحية إلى الأخرى، في حركة دائمة. ذلك هو إحساس الضخ الذي نشعر به في رقابنا ومعاصمنا، وقلوبنا بشكل خاص».

«هل تصدق مثل هذه الأشياء؟»

«بالطبع. لأنه عندما تشق حلق رجل ما بسيفك. ألا يرش الدم وينبثق مثل خرطوم حديقة؟»

حاول عبد أن يتخيل استخدام ذلك الوصف في أحد صالونات ابن دقيق. لكن ذلك جعله يفكر في عازر. قال «أنا أؤمن بأن الشرايين تتصرف مثل خراطيم الحدائق. لكن تنقصني الخبرة التي يمتلكها مقاتل مثلك، أو حتى أي طبيب».

قال بيبرس «سوف تتم معالجة ذلك الوضع عما قريب».

جاء مهنا راكباً لحظتها وقاد حصانه بين بيبرس والحرس الشركسي.

قال «هناك مشكلة يا بيبرس».

وقف هو وبضع مئات من رجال قبيلته ينتظرون قدوم الفرسان البحريين عند مدخل سيناء، مصطفين بأسلوب غير متكلف وكأنهم قد وصلوا لتوهم عائدين من جولة في التلال على خليط من الإبل والأمهار.

«نحن نقدم الامتنان على وصولكم». قال مهنا عندما ركب هو

وبيبرس قدماً لتبادل التحيات رسمياً . «هل تأخرتم بسبب معركة ما أو ربما أي عائق آخر؟»

ابتسم بيبرس على المداعبة وأفرد ذراعيه على اتساعهما للعناق الاحتفالي . «إن مهارة مقاتليك معروفة من أحد أطراف المشرق إلى الآخر ، أيها الصديق مهنا» .

قال بيبرس «لا تستطيع حتى أفضل فرق الفرسان في العالم أن تأمل في أن تجاريكم في الزحف» .

وضع البدوي راحة يده اليمنى فوق اليسرى ثم وضع راحتيه على قلبه ، وأحنى رأسه على المجاملة . «وقد أحضرنا بعض الهدايا» . قال بيبرس بصوت مرتفع بما يكفي لتسمعه كل صنوف الخيالة . انطلقت هتافات عديدة وتبادل بيبرس ومهنا القبلات على الخدين كما فعل مع الموت قبل بضعة أيام .

على أية حال ، فمنذ ذلك اللقاء الدافئ ، فقد أثبت مهنا ورجاله أنهم يمتحنون صبر بيبرس ، الذي أصر على أن يكون مسيرهم خالياً من أية إلهاءات فيما عدا هدف الالتقاء مع قطز . أولاً ، وصل رجال مهنا بدون أي تموين من قبلهم وأصروا ليس فقط على أن تصرف لهم الأرزاق ، بل أيضاً على أن يتم إعطاؤهم آنيتهم الخاصة بهم من القدور والمقالي وحطب الطبخ ، حتى يقوموا بتحضير وجباتهم بنفسهم . بعد ذلك ، أصبحوا بحاجة إلى البطانيات ولاحقاً خاض بيبرس في جدال طويل مع مهنا حول ما إذا كان ينبغي شن الغارات أثناء عبورهم صحراء سيناء . لم يتمكن من إقناعهم بالعدول عن ذلك إلا عندما وعد رجال القبائل بالمال بعد وصولهم إلى مصر ، ليتوقفوا عن الانفصال عن القوة لمهاجمة القرى الواقعة على الساحل ، وهي تصرفات لو

حدثت لجعلت اللقاء مع قطز أشد صعوبة .

«إنهم رجال صالحون حين يكونون إلى جانبك» . هو كل ما قاله بيبرس عندما شعر بعدم ثقة عبد بالتطورات في داخل القوة التي كانت صلبة ومتماسكة فيما مضى . اعترف لنفسه مع ذلك بأنه ما زال يشعر بالصدمة من قوات كل من الموت وابن مهنا .

فبينما كان رجال بيبرس بوجوه صحية نشيطة وبأخلاق متمدنة ، متدربين بعد سنوات من المراس للتحرك كرجل واحد والهجوم في تشكيلات منتظمة ، فإن التعزيزات الجديدة مهلهلة ورثة وبدائية في مظهرها . تساءل عبد عما إذا كانت لدى بيبرس استراتيجية تتجاوز مجرد تجميع أكبر عدد ممكن من المقاتلين قبل مواجهة المغول في المعركة .

على أية حال ، فمع حلول وقت إتمام عبورهم صحراء سيناء ، أصبحت للإضافات الجديدة إلى قواتهم أمراً مألوفاً ، ولو ظلت خشنة نوعاً ما بالقياس إلى أخلاق عبد ، ولكن لم يعد هناك المزيد من الوقت للتفكير في المسألة ، لأنهم أصبحوا على مسافة ركوب يوم واحد عن القاهرة . استقبلتهم مجموعة من الفرسان الملكيين عند ممر الجدي وأخبرتهم بأن عليهم التوجه مباشرة إلى العاصمة حيث ينتظر السلطان قطز وصولهم . امتنعوا عن قول المزيد . كان بيبرس حريصاً على أن يدخلوا مصر سالكين دروباً تضمن أن لا يلتقوا بأي من الفرسان البحريين الذين مازالوا في خدمة قطز ، ولا حتى أي قوات ملكية بأعداد كبيرة . بدلاً من ذلك فقد عبروا قرى مغبرة حيث اكتفت الحاميات المحلية والميليشيا بمراقبتهم أثناء مرورهم ، بينما سارع الحكام المحليون ومحصلو الضرائب إلى إرسال خيالة لتنبيه الحكومة المركزية بتواجدهم .

قال بيبرس «لن أجعل من وصولي مسألة سرية . فقد كتبت إلى

قطز لأخبره بقدومي . لكن ليس هناك حاجة للمخاطرة بحدوث نزاع قبل أن نقف في حضوره» .

سأل عبد «وهل تتوقع نزاعاً؟»

«كلا ، أيها الكاتب الخاص ، لا أتوقع ذلك . لكن هذا أحد المواقف التي يكون التكتم فيها مساراً أكثر حكمة من التبجح» .

بعد ممر الجدي ، ظهرت قوة كبيرة من الخيالة على الأفق ورافقتهم لثلاثة أيام وثلاث ليالي وهم يقطعون مسافة الركوب إلى المدينة والبالغة حوالي مئة وخمسين ميلاً . فكر عبد أن القاهرة ستشكل المدينة العظيمة الثالثة في العالم التي سيدخلها ، والثانية المقامة على نهر عظيم كان المنشأ لبعض من أروع الحضارات في الدنيا . تساءل متعجباً ، كيف يمكن مقارنة نهر النيل بالشقيقين دجلة والفرات؟

لم يكن بحاجة للتساؤل لأن المدينة لاحت خارجة من الصحراء مثل سراب ، حيث بدأت الأرض تزداد خصوبة مع كل خطوة تخطوها الجياد فوقها . ظهر المزيد من خلال السديم من جماعات الخيالة وراكبي الجمال ، وسرعان ما أحيطت القوة البحرية الكاملة من الجانبين لتتخذ طريقها نحو المدينة تحت مرافقة ضاغطة وغير مرحب بها .

«تلك هي قلعة صلاح الدين التي تراها هناك يا عبد ، تعلو فوق كل شيء آخر» . قال بيبرس «لقد شيدها بعد الاضطرار إلى إحراق المدينة لحمايتها من الفرنجة . كان اسم الملك الذي ركب قادماً من القدس أماليك ، على رأس جيش هائل . أعلن صلاح الدين أن كلا مدينتي الفسطاط والقاهرة سيتم توحيدهما ويحيطهما سور . كان العمال مازالوا هناك عندما غادرت المدينة ، لكن يحتمل أنهم أنهوا عملهم الآن . كذلك أمر ببناء خزان جديد لتزويد الناس بالماء . عندما

تراني آخذ العمال لأداء واجب ما ، فذلك لأنني تعلمت من صلاح الدين أن القائد لا يكتفي بأن يكسب المعارك ويدمر أعداءه» .

قال عبد «يجب أن تبني مثلما تحرق» .

استدار بيبرس نحوه «إن شاء الله . بعد أن نهزم المغول سوف نبني امبراطورية من الإسلام سيفتخر بها حتى الخلفاء الأوائل» .

«امبراطورية مبنية على الإيمان» .

«ذلك صحيح» .

بقيت لهم بضعة أميال عن المدينة ، ولكن الصحراء ، بما لديها من عادة مزعجة ، كانت قد خبأت حشداً هائلاً من الرجال أمامهم مباشرة ولم يرهم البحريون إلا بعد أن أصبحوا أمامهم مباشرة . استمر المرافقون على جانبيهم حتى وصلوا إلى وسط الصف الأمامي من الجيش المحتشد ، وهكذا أصبح بيبرس ومعه عبد وتيكا وابن مهنا والموت على رأسهم ، وكل البحريين محصورين . انفتل عبد في سرجه ليرى ما إذا كانت الإمكانية متوفرة لان يتراجعوا بطريقة ما ، لكنه وبخ نفسه على الفور لحماقته . استدار الآن عائداً لينظر إلى الوجوه غير المتكلفة للرجال الذين ينتظرونهم ، تتزايد أعدادهم وتمتد من أحد طرفي الأفق إلى الآخر ، على امتداد قدرته على الرؤية .

«كم يبلغ عددهم؟» سأل .

جاء الجواب «أكثر من عددنا» .

«من هم هؤلاء؟»

«إنهم نحن . ألا تستطيع حتى الآن أن تتعرف على الفرسان البحريين حين تراهم يا عبد؟» قال بيبرس .

دقق عبد النظر «هل هؤلاء هم رجالك؟»

«ليسوا رجالي . لقد حضر قطز ليقابلنا» .

الفصل السابع والعشرون

صدر الأمر بتوقف البحريين من قبل رائد ، ووقفوا هناك حتى وصلت الشمس إلى ذروتها وأخذت أجسامهم تغلي تحت تحديقها الحارق . أحسَّ عبد بجسمه يذوي ولم يستطع أن يفعل أي شيء ليخفي انزعاجه . ظل بيبرس جالساً مستقيم الظهر في سرجه ، فلا هو ولا حصانه حركا أي شيء ، ولا حتى رأسيهما . انحنى تيكا فوق رقبة حصانه ، عاقداً ذراعيه ، وكأنه ينتظر مرور قافلة قبل أن يتمكنوا من استئناف المسير . عبَّر الموت وابن مهنا عن نفاد صبرهما باستمرار ، يهشان الذباب عن نفسيهما ويتشاحنان جيئة وذهاباً عما إذا كان ينبغي عليهما نصب خيمة وانتظار السلطان من داخلها .

«لا خيام» قال بيبرس بدون أن يتلفت .

جلس القائدان عابسين ، لكنهما لم يقولا أي شيء بعد ذلك . بات عبد سعيداً لكونه قد اعتاد على ارتداء قبعة عريضة الحواف مثلما أوصاه الموت الكردي ، والتي بات يستخدمها الآن لتهوية نفسه .

بدأ يغفو في اللحظة التي بدأت فيها الصفوف أمامه تنفرج وخرجت مجموعة متراصة ترتدي ألواناً فاقعة بما يكفي لجعل مرتديها يبدون مثل سراب أكثر من سرية متجسدة خارجة من وسط ضباب الحرارة . ارتدى الرجل الواقف على رأسهم أثواباً فضفاضة واسعة باللونين القرمزي والأبيض وقلنسوة بيضاء ترتفع بمقدار قدم فوق رأسه . ركب إلى يمينه ويساره حراس أفريقيون مسلحون ببلطات ذات حواف

مزدوجة ، وبدا أن هناك ثلة أخرى من الحرس خلفهم . تشكلت بقية المجموعة من العرب ، يرتدون أزياء أقل بهرجة ، بألوان حمراء وخضراء مع بقع سوداء لتجعلها أكثر بروزاً من طبيعة الأرض البيضاء الكالحة . همز بيبرس حصانه ليمشي فتبعه الآخرون ، بمن فيهم عبد . لدى اقترابهم ، أدرك عبد أن الحراس يرتدون درع زرد من الذهب الخالص فوق قمصانهم المصبوغة بالأسود الفاحم ، وبدا كأن أسلحتهم مصنوعة من المعدن نفسه .

توقفت المجموعتان على بعد حوالي خمس عشرة خطوة من بعضهما بعضاً ، وركب أحد الرجال من الصف الثاني للمجموعة الملكية إلى الأمام وخاطب البحريين بصوت أشبه بنداء مؤذن :

«انظروا إلى قطز ! سلطان مصر وسورية ، أسد الإسلام ، قاتل الكفار وحامي الأمة !»

تبع ذلك صمت مطبق ولم يظهر على أحد أنه يعرف كيف سيمضي قدماً . دفع عبد بقدميه إلى أسفل السرج حتى كاد يطأ الأرض لشدة توتره ، لكن بيبرس بقي مترفعاً وغير متأثر . عقد يديه فوق حرجه .

«لم نحضر أية هدايا جميلة» .

انتفخ جسم الرجل الصارخ لشدة توتره «سوف تخاطب صاحب الجلالة بألقابه الصحيحة !»

طأطأ قطز رأسه باتجاه الرجل الزاعق ، ولاحظ عبد بدايات ابتسامة . حرَّك جواده إلى الأمام في مواجهة بيبرس . «أريد أن أفترض أنك جائع أيضاً ، صح؟»

ابتسم بيبرس «هذا صحيح ، فقد أحضرنا شهيتنا البحرية معنا ، يا

مولاي» . هزَّ رأسه باتجاه قطز .

«لم أتوقع أقل من ذلك» . وزع قطز نظراته على بقية المجموعة ، وأحنى رأسه قليلاً باتجاه الوجوه التي تعرف إليها . «تيكا ، من المفرح رؤيتك . وأنت كذلك أيها الموت . تحياتي القلبية لك أيضاً يا ابن المهنا . أرى الآن أن بيبرس كان محقاً . فهو لم يحضر أية هدايا جميلة ، مجرد مقاتلين بشعين» .

قال الموت «يا صاحب الجلالة ، إن سيوفنا جاهزة للقيام بأكثر الأعمال بشاعة . لأجلك ولأجل العقيدة» .

قال قطز «وسوف يتم تذكر ذلك» . ثم نظر إلى عبد «هذا شخص لا أعرفه . هل تم استبدال قلاوون بكاتب؟»

«إن قلاوون يمارس ما يفعله قلاوون» قال بيبرس «سوف ينضم إلينا عما قريب . هذا هو عبد الظاهر ، الذي قدم من دور بغداد العلمية وهو الآن يقدم لنا تعليمه وريشته» .

لمس قطز جبينه «مرحباً بك ، يا عبد الظاهر . إنني متشوق إلى سماع شيء من علمك» .

ارتعش عبد تحت تحديق السلطان . . .

قال قطز «والآن دعني أقدم مجموعتي» . أشار إلى الرسول «المالك السعيد علاء الدين ، أظن أنك تعرفه ، أليس كذلك يا بيبرس؟»

هزَّ بيبرس رأسه إيجاباً «نعم أعرفه . سعيد برؤيتك ، أيها المالك ، وسعيد لمعرفتي بأن أخي قطز لديه رجال مثلك ليحملوا مصالحه» .

تصلب المالك أكثر من الإهانة . «ليس الأمر أكثر من التواجد ببساطة عند اليد اليمنى للسلطان والتعامل مع أولئك النهابين القادمين من الصحراء» .

اعتقد عبد سابقاً أن الرسول قليل الأهمية ، لكنه أدرك الآن أنه يتمتع بوضعية في سمو الآخرين نفسه في البلاط ، إن لم تكن أسمى . تفحص المالك ورأى أنه لم يكن ليختلف أكثر عن المقاتلين الصلبين ذوي الندوب الذين أحضرهم بيبرس ، وعلى الأخص تيكا والموت ؛ لأن وجه المالك بيضوي ووسيم ، بعينين في سواد الفحم وسط وجه برونزي ، يكاد يكون أنثوياً بسبب الشفتين الممتلئتين ، وبقية الأوصاف التي ظلت بلا أي تشويه ، في تناقض واضح مع وجنة بيبرس ورقبته المليئتين بالندوب ، إضافة إلى عينه الغريبة .

«هذه ليست غزوة نهب ، يا مالك» . قال قطز بصوت هادئ «لقد كان الأخ بيبرس يعمل على حماية مصالحنا في سورية ، يطرد رجال العصابات ويفرض الأمن في المدن . أليست هذه هي الحالة ، يا أخي؟»

حدج بيبرس المالك بنظرة طويلة ثم التفت إلى قطز «هي كذلك ، أيها الأخ» .

«حسن» أوحت لهجة قطز أن المسألة قد حسمت ، لكن المالك تمتم بصوت خفيض .

«سنرى عندما يتم احصاء كافة الضرائب وجمعها» .

في هذه اللحظة حدجه قطز بنظرة حادة قائلاً «يكفي هذا» فاتخذ المالك وضعية خضوع ، خفض رأسه وكتفيه . أشار قطز إلى الرجال الثلاثة خلفه «هؤلاء هم أمرائي - بدر الدين بكتوت ، أُنس وبهادر المِعزيّ» . أحنى الرجال الثلاثة رؤوسهم باتجاه بيبرس ولمسوا قلوبهم بأيديهم . أعاد إليهم البادرة .

قال بيبرس «إن رؤيتك مرة ثانية أمر سار يا أُنس . وأن أعرف بأنك ستكون معنا في المعارك العظيمة القادمة» .

«أدعُ الله أن لا تحدث أية معارك، يا بيبرس البندقداري، لأن هذه البلاد قد انهكت من قبل الجيوش الغازية ولم يعد لديها ما تعطيه».
جاء صوت بكتوت عالياً ومجهداً. تعرف عبد على السبب لدى سماعه الجملة التالية.

«ما هو أسوأ هو أنك أحضرت هذا العقاب مهنا إلى مصر، حيث سيقوم هو وأسراب جراده بنهب وتدمير كل ما في طريقهم في البلاد حيث تتحول كلها إلى أرض يباب».

أطلق مهنا صرخة غاضبة وهمَّ بالهجوم على بكتوت، لكن تم إيقافه من قبل يد بيبرس المرفوعة وذراع تيكا الممدودة، حيث قبض العملاق على البدوي وحصانه بدون أي مجهود ظاهر.

قال بيبرس «أقدم اعتذاري يا قطز. فكما ترى، فقد أحضرت معي مقاتلين ونحن جاهزون للصراع. إن أقل استفزاز كافٍ لإطلاقهم». أوضح بأن العبارة الأخيرة كانت موجهة إلى بكتوت.

قال أنس «ليست شجاعة رجالك ومهاراتهم محل تشكيك يا بيبرس، ولا حتى شجاعتك وتقواك. لكن هناك طرق أخرى لهزيمة الخان غير المعارك وسفك الدماء الذي لا يتوقف». هزَّ المعزِّي وعلاء الدين رأسيهما موافقين. تمت تهدئة مهنا بحلول هذا الوقت، فأطلقه تيكا.

وجه بيبرس سؤاله إلى قطز «وهل هذه مشاعرك أنت أيضاً، يا مولاي؟»

افتر وجه قطز عن ابتسامة غامضة إلى درجة أن عبد لم يستطع أن يميز ما إذا كان الرجل يتصرف كالعارف أم الخجول. «هناك الكثير مما ينبغي الحديث عنه، يا أخي. ويمكننا أن نقوم بذلك في راحة المدينة.

لقد أقمت ترتيبات بحيث تكون بلدة قليوب مجهزة لقواتك ، ونحن نشكرك على إحضار مثل هذه المجموعة القوية لمساندة قضيتنا . بوسعك أن تحضر مساعديك وحراسك إلى داخل القاهرة ، لكن بقية قوتك ستكون أكثر راحة في مهاجعهم . إن حاكم البلدة بانتظارهم» .

لم يكن هناك مجال للخطأ في معنى الإجراء ، ولم يكن لدى بيبرس خيار غير الانصياع . استدارت مجموعة السلطان واتخذت طريقها ، بعد إجراءات وداع حميمة ، عبر الصفوف باتجاه القصر ، بينما وافق بيبرس على اللحاق بهم بعد إتمام الترتيبات المتعلقة برحيل رجاله إلى مقر إقامتهم الجديد . وعد قطز أن يتم توفير المياه والمأكولات لهم طيلة الرحلة .

تم الاتفاق على أن يتولى الموت قيادة الوحدات البحرية النظامية ، وأن يبقى مهنًا مع رجاله بدلاً من المخاطرة بنزاع آخر مع الأمير بكتوت . بعد ذلك انطلق بيبرس بصحبة عبد وتيكا وحرسه الشخصي المرافق ، حوالي خمسين رجلاً في المجموع ، راكبين إلى داخل المدينة التي سوف تقرر مصير العالم .

***

«أقول لك بأننا يجب أن نقبل بشروط الخان ، والتي نعرف أنها ستسمح ببقاء السلطان حاكماً لكل من مصر وسورية !» هب بكتوت واقفاً على قدميه وبدأ يتجول في أرجاء الغرفة .

سلط عينيه على أنس «أنت تعرف بأن ما يقوله هو الحقيقة . لن يبقى لنا سلطان ، ولا عقيدة ولا سلام إذا قاومنا . إقبل بالشروط ، وسوف يتم السماح لنا بالاحتفاظ بأرواحنا وبكل ما لدينا» . أنهى كلامه واتجه إلى الجدار الجانبي ، إلى جانب المعزي وعلاء الدين . بقي

أنس واقفاً عاقداً ذراعيه ، على مسافة قصيرة بينهما .

وقف بيبرس وتيكا وعبد في الجهة المقابلة من الغرفة ، بينما جلس قطز على العرش ، ووقف المالك إلى جانبه على المنصة المرفوعة .

قال بيبرس «ليس السلطان بحاجة إلى أن يسمح له بأي شيء . إنه الحاكم بأمر الله وحده . تماماً كما أقدم سلطان ما على إحراق هذه المدينة بدلاً من أن يسمح باحتلالها من قبل الفرنجة ، لذلك يتحتم علينا أن نقاوم هؤلاء الغزاة الجدد» .

«إن الخان وجحافله يشكلون عدواً أشد خطورة مما كان يمثله الفرنجة على الإطلاق ، يا بيبرس» . قال أنس .

«لقد انسحبت أنت نفسك من حلب ودمشق بدلاً من أن تقاتلهم ، ألم تفعل؟» قال المعزِّي «لماذا لم تقدم نفسك للشهادة في حينها؟»

تقدم بيبرس خطوة «ما نفع مجرد شهيد آخر عندما تظل الفرصة سانحة للنصر والحياة؟ كان بمقدوري أن أقاتل وآخذ المئات بل الآلاف منهم معي ، لكنني أقدم سيفي وسيوف رجالي بدلاً من ذلك للسلطان» رفع رأسه باتجاه قطز . «سنهب حياتنا لهذه القضية ، يا مولاي . إننا نستعد منذ مدة طويلة . سيكون الوضع كما حدث عندما اقتحمنا صفوف الفرنجة في لافوربي» .

ابتسم قطز للذكرى .

قال قطز «برغم ذلك يا بيبرس . لقد احتل جيش الخان دمشق . وقد احتلوا حلب . وقد قيل لنا إنهم استولوا على بغداد وإن مصير الخليفة غير معروف . لا يستطيع الفرنجة أن يقوموا بتلك الأشياء . هل تعتقد أننا نشكل نداً لهذه الجحافل الآن؟»

قال بكتوت «سينهي الخان حيواتنا إذا لم نقبل بالشروط التي يعرضها . سيتم القضاء على الإسلام . إن ممالك الأندلس تعاني سلفاً تحت حكم الفرنجة . لقد أعاد الباسيليوس احتلال القسطنطينية ويريد الرومان أن يقنعونا بأنه تمت ولادتهم من جديد . لقد أقامت الممالك المسيحية في طول المشرق وعرضه التحالف مع الخان المغولي . لقد بقينا وحدنا» .

«وكذلك كان النبي ، سلام الله عليه ، فهل استسلم لليأس عندما تم إخراجه من مكة المكرمة واضطر إلى الارتحال إلى المدينة المنورة مثل أي مجرم هارب؟» قال بيبرس . «ألم يكن لوحده في الدنيا حينها؟»

لم يحر أحداً جواباً .

«كل ما كان لديه هو الإيمان بأنه إنما يقوم بأداء عمل الحق سبحانه وتعالى» . استطرد بيبرس . «بأن الله موجود عند كتفه ويرشد يده . ألسنا نحن ورثته؟ ألا نعرف كيف نشهر سيف الإسلام ، سيف الحق؟» استدار نحو قطز «نحن نعرف كيف هو الحال عندما نكون لوحدنا فعلاً في الدنيا . فقد كنا فيما مضى عبيداً ، وليس لدينا ما يواسينا في هذا العالم الذي لم يقدم لنا سوى القسوة وفرقنا عن عائلاتنا قسراً . لقد أنقذنا عهدنا كإخوة فرسان من ذلك المصير البائس لأننا عملنا سوية ، ومن خلال عهدنا وميثاقنا اكتشفنا الحقيقة الإلهية والوحي الإلهي . إذا لم نجدد ميثاقنا الآن ولم نقاتل ، سيصبح الوضع وكأن أياً من هذا لم يحدث . سيكون الوضع وكأن رسول الله نفسه جبن وتخلى عن رسالته على الطريق خارج مكة المكرمة» . التفت ليواجه الأمراء «فهل ستسمحون لذلك أن يحدث؟»

وقف الرجال مطأطئين رؤوسهم . نهض قطز واقفاً وقال «إن قرارنا

هو أن نستمع إلى ما لدى سفراء الخان ليقولوه ، لكن كلمات بيبرس قد أثرت فينا وحركت مشاعرنا ، ونحن ميالون إلى الإصغاء لها بآذان مفتوحة . أنت لم تتغير ، يا أخي» .

غصت قاعة العرش العظمى خارج غرفة استقبالهم بحشود من المتفرجين القادمين من أنحاء الإمبراطورية كافة ، مواطنون مصريون ، ليبيون ، حبشيون ومن جنوب إفريقية ، ممثلين عن سورية والجزيرة الفراتية ، بالإضافة إلى وفد من الفرنجة . أوقف قطز الموكب الملكي عند الباب واستدعى بيبرس ليقترب منه .

سأله بيرس «أنت لم تعد لوحدك بعد هذا أبداً ، صحيح؟»

«أبداً» قال قطز . نزلت يده إلى الردن الطويل بحيث نفضه إلى الخارج . انعكس النور على القماش الذهب من ألف شمعة مشتعلة في القاعة الكبرى ، وتلألأ ، بلون أحمر وقرمزي لاهب . كان الخياطون قد أدخلوا خيوطاً من اللون الأخضر في النسيج ، فتراقصت هذه بدورها أمام عيني بيبرس .

سأل قطز «هل سيعود قلاوون في وقت قريب؟»

«في أي يوم قريب» أجاب بيبرس .

«وهل سيعرف كيف هي الأوضاع في الشمال؟»

«نحن نعرف كيف هي الأوضاع في الشمال مسبقاً ، ولكن يحتمل أنه عثر على شيء ما يمكننا من الهجوم عليهم قبل أن يهجموا علينا» .

«وإذا انتشروا وغطوا مساحة فلسطين كلها مثل سحابة من الزنابير ، كيف سينفعنا ذلك؟»

سحب بيبرس نفساً عميقاً . «لكل جيش نقطة ضعفه . حتى

جيشهم . أنت تعرف ذلك» .

اشتعلت عينا قطز للحظة ؛ لأن عملية إخبار السلطان بأفكاره نفسها افتراض مؤلم .

قال بيبرس «أنا أعتذر يا مولاي . إن لهفتي على الاشتباك مع الأعداء تجبرني على نسيان مقامي» .

«لقد كنت الأشجع بيننا على الدوام يا بيبرس ، والأعمق إيماناً وتقوى ، أليس هذا صحيحاً؟»

«لا أعرف ، يا مولاي» .

«هذا صحيح» . قال قطز . استرخى ووضع يده على كتف بيبرس «سوف أفعل ما هو الأفضل للمملكة والعقيدة . ذلك هو كل ما يسعني عمله . آمل أن يتفق ذلك مع توقعاتك بعد أن قطعت كل المسافة إلى هنا» .

فوجئ بيبرس بهذا القول «بالطبع يا مولاي . أنا موجود هنا لأخدم» .

«إذاً قف بجانبي ودعنا نسمع ما لدى هؤلاء المغول ليقولوه» .

للحظة خاطفة ، أحسَّ عبد بأنه قد عاد إلى قصر الخليفة في بغداد ، لأن الموفد المغولي لم يكن شخصاً آخر غير مترجم القائد بايجو وثلاثة مرافقين .

الفصل الثامن والعشرون

اتخذ قطز موقعه على عرش صلاح الدين الرسمي ، وقد فاضت أثوابه الطويلة فوق المقعد ونزولاً إلى ما فوق الدرجات المفروشة بالسجاد تحته . وقف بقية أفراد البلاط تحته ، بمن فيهم المالك وبيبرس ، مع أنهم وقفوا في ما يشبه الحلقة مع بقية الأمراء يحيطون بالعرش مثل نوع من حرس الشرف . لم يكن بيبرس قد بدل زي الركوب فظهر مثل قاطع طريق إلى جانب السادة الرشيقين المتأنقين .

في هذه المرة ، استمع المترجم بينما تمت تلاوة القائمة الطويلة من ألقاب وأملاك قطز ، بالإضافة إلى أسماء وألقاب أسلافه الملكيين آيبك والصالح ، ولكن ليس توران شاه ، الذي تم شطب حكمه من السجلات القانونية . أصغى عبد وانتابه القلق حول الكمية التي سمعها ، وهل سيتمكن من تذكرها ليكتبها في السيرة التاريخية . اشتاق إلى أن يتمكن من إخراج لوحته وريشته وورقته ويبدأ في تسجيل الملاحظات ، ولكن ذلك شيء لم يكن جاهزاً لعمله في هذه الأرض الغريبة ، والتي يحيطه فيها أناس أغراب . لم يكن قد تغلب بعد على خجله وإحراجه لدى مقابلته السلطان قطز ، وكان هناك شأن معين لدى السلطان ملأه بنوع من الخوف تجاوز العصبية المعتادة التي تسببها الملكية . كان قد قابل الخليفة في مناسبات عديدة في آخر الأمر ، ولكنه لم يخرج من المقابلة بالشعور نفسه الذي انتابه هذه المرة . رفع رأسه وأجبر نفسه على التركيز على ما كان يقال ، حتى لو أنه مجرد لائحة من الأسماء التي

لم يكن قد سمعها من قبل أبداً مع أوصاف التفخيم المخصصة للمراتب . سيبدأ الكلام الحقيقي عندما يبدأ المترجم المغولي يتحدث بلغته العربية ذات اللكنة الغرائبية ويخبر البلاط ما هو متوقع من ممثل الخان .

«اسمعوا الآن كلمات هولاكو خان» . قال منادي البلاط .

خطا المترجم إلى الأمام ، يحمل لفافة عريضة لدرجة أنه اضطر إلى حملها بيديه الاثنتين مضمومة إلى صدره . وقف بقامة منتصبة بحدة ، تنحنح ، ورفع رأسه حتى يتكلم ويستطيع كل شخص حاضر أن يسمع .

«أنا ييسوداي ، ابن توقتو الذي كان كاتباً لدى جنكيز خان العظيم ، فاتح العالم» .

ملأت لهجته الواضحة بالحلق المفتوح ، القباب للسقف ، تجولت في الزينات المحفورة التي لا يمكن إحصاؤها ، وتجاوبت أصداؤها فوق رؤوس المستمعين . خلفه ، وقف رفاقه الثلاثة يحدقون بتمعن ووقاحة في قطز ، متجاهلين آداب البلاط في إهانة متعمدة محسوبة للملك .

«يجيء هذا الخطاب من أحفاد مونجكي خان ، ويرتحل إلى هنا بواسطة يدي وعليه ختم هولاكو ، والذي يمثله في هذا الجزء من العالم كتبغا ، والذي يساعده القائد بايجو بكفاءة» .

تذكر عبد بايجو ، الوجه العريض المنبسط ، العينان الباردتان الضيقتان اللتان تكادان أن تخلوا من الحياة ، واللتان أطلقهما الرجل فيما حوله ، يوزع نظراته من الخليفة إلى الوزير الأكبر ثم إلى أهل بغداد وكأنهم بالنسبة إليه حشرات سيقوم بإبادتها . مازال هناك ، في الصحارى ، يقود القوات ليدمر أي قوات مقاومة باقية خارج مصر .

فتح ييسوداي اللفافة وبدأ يقرأ ، بذل عبد جهداً لينظر إلى الأشكال العمودية الغريبة للكتابة المغولية ، والتي جعلته يفكر أنها سريانية .

«من ملك الملوك في الشرق والغرب ، الخان القوي : باسمك يا الله ، أنت الذي وضعت الأرض ورفعت السموات . إجعل الملك المظفر قطز ، الذي هو من جنس العبيد الذين هربوا أمام سيوفنا إلى هذه البلاد ، والذي استمتع بمزاياها ثم قتل حكامها ، إجعل الملك المظفر قطز يعرف ، مثله مثل أمراء دولته وشعب مملكته ، في مصر وفي البلدان المجاورة ، أننا نحن جيش الله على أرضه» .

توقف فذهبت كل عين في الغرفة إلى قطز . لم يتحرك السلطان . بل جلس بدلاً من ذلك ينظر إلى الموفد واضعاً كلتا كفتيه مفرودتين على ذراعي عرشه الذهبي وانتظر مثل البقية لسماع ما سيكتبه الخان تالياً .

استطرد ييسوداي «لقد خلقنا من غضبه ودفعنا ضد أولئك الذين أثاروا غضبه . هنالك أمثلة في كل البلدان لتوبخك وتمنعك من تحدي إرادتنا» .

فكر عبد ببغداد ودمشق ، المدينتين اللتين سيكون سكانهما كلهم يرسفون في الأغلال والنير ، في طريقهم إلى مصير مرعب كعبيد في براري آسيا . فكر في ارتيم وصفية . ما الذي حدث لهما؟

«ليكن مصير الآخرين إنذاراً لكم وسلمونا سلطتكم قبل أن يتمزق القناع وتصبحوا نادمين وترتد أخطاؤكم وبالاً عليكم ؛ لأننا لا نشفق على أولئك الذين يبكون ، ولا نحن نعطف على أولئك الذين يتذمرون . لقد سمعتم أننا احتللنا البلاد ونظفنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم الناس» .

انفتحت أفواه وسمعت شهقات عالية لشدة الصدمة من الكلام . لكن قطز احتفظ بهدوئه . رفع ييسوداي عينيه وقرأ السطر التالي في وجه السلطان مباشرة .

«دورك هو أن تهرب : دورنا هو المطاردة . وما هي البلاد التي ستؤويك ، والطريق التي ستنقذك ، والدولة التي ستحميك؟ ليس لك خلاص من سيوفنا ولا يسعك أن تتجنب الخوف منا لأن جيادنا سريعة ، وسهامنا قادرة على الاختراق ، سيوفنا أشبه بالصواعق ، قلوبنا مثل الصخر وأعدادنا في أعداد الرمال . لا قدرة للقلاع على الصمود أمامنا : لا فائدة للجيوش في قتالنا . لن يتم سماع صلواتكم ضدنا ، لأنكم أكلتم أشياء محرمة وكلامكم بذيء ، أنتم تحنثون بالأيمان والوعود ، وتسود بينكم الفرقة وانعدام الطاعة . ليكن معلوماً لديكم أن مصيركم هو الذل والهوان» .

ارتفع صوته عند نطقه بالكلمات الأخيرة ، وبدأ الغضب يستبد برجال القصر بحيث جاءت صرخات من القسم الخلفي للقاعة .

«اليوم ستفرض عليكم عقوبة الإذلال ، لأنكم كنتم متكبرين على الأرض بدون وجه حق وبسبب أعمالكم الخاطئة» . قرأ ييسوداي هذه الأسطر من لفافته ، والتي أدرك عبد وكل شخص على الفور أنها كلمات القرآن الكريم .

«وسيعلم الذين كفروا أي منقلب ينقلبون» . تلفت ييسوداي حواليه ليراقب الغضب يتراجع إلى الصدمة جراء سماع الكفر . ارتسمت بسمة ساخرة على وجهه الضيق . تساءل عما إذا كان إدخال النص المقدس هو من بنات أفكار المترجم نفسه . إنها إحدى طرائف الدارسين ؛ لأن عبد يميزها عندما يراها أو يسمعها .

«أولئك الذين يشنون الحرب علينا نادمون» فتح ييسوداي اللفافة أكثر «أولئك الذين يسعون إلى حمايتنا هم بأمان . إذا خضعتم لأوامرنا وشروطنا ، فإن حقوقكم وواجباتكم هي نفسها مثلنا . إذا قاومتم فسيتم تدميركم . فإذاً ، لاتدمروا أنفسكم بأيديكم . يتحتم على من تم إنذاره أن يحترس . أنتم مقتنعون بأننا نحن الكفار ، ونحن مقتنعون بأنكم منحلون أخلاقياً . لقد سلطنا الله ، الذي يقرر كل شيء ويحكم بكل شيء ضدكم . ما ترونه كثيراً بالنسبة لكم هو قليل عندنا ، وما هو مشرف عندكم حقير لدينا . ينبغي أن لا يتوقع ملوككم منا أي شيء سوى الإذلال . لذلك ، لا تطيلوا الانتظار بل أجيبونا بسرعة قبل أن توقد نار الحرب وتلقى الشرارة عليكم» .

انطلقت جمهرة من الأصوات والثرثرة الغاضبة حيث اعتقد الحضور أن تلك هي نهاية ما يمكن اعتباره نهاية لتصريح الشروط وأكثر منه انذاراً وحشياً ، لكن ييسوداي فاجأهم بفتح المزيد من اللفافة والاستمرار برغم الضجيج وكأنه غير موجود أصلاً .

«أنت -» عاود النظر إلى قطز «أنت لن تحصل منا على التكريم ، ولا الراحة ولا حتى الحماية ، ولا الملاذ . ستعاني على أيدينا من أسوأ أنواع الكوارث ، وستكون بلادك خالية من وجودك . لقد تعاملنا معك بالإنصاف حين كتبنا إليك ، ولقد أيقظناك حين أنذرناك . ليس لدينا الآن غاية غيرك . ليحل السلام علينا وعليك ، وعلى جميع الذين يتبعون الهداية الإلهية ، الذين يخشون عواقب الشر والذين يطيعون الملك الأسمى . لقد قدم هولاكو إلى مصر بسيوف حادة لكنها مغمدة . سيصبح الأقوى من بين شعبها متواضعاً وسيرسل أطفاله للانضمام إلى المسنين» .

بعد أن أنهى بيسوداي مهمته ، تنحنح وبدأ يعيد طي اللفافة إلى وضعها السابق . لم يتحرك رفاقه الثلاثة أو يتكلموا أثناء إلقائه كلمته . ظلوا على عدم اكتراثهم في هذه الآونة .

أخذ موظفو القصر والوزراء والجنود في البداية يتكلمون فيما بينهم وارتفعت أصواتهم أكثر فأكثر مع تنامي الغضب المشترك . التفت عبد ليرى أن بيبرس ينظر إلى قطز بتمعن ، بينما رفع السلطان يديه عن المسندين وشدهما مطبقتين إلى صدره . خفق قلب عبد بدرجة متسارعة أثناء مراقبته المشهد وإصغائه . انهمك المرافقون في حجز بعضهم بعضاً عن الانطلاق نحو المغول ومهاجمتهم .

أخيراً ، رفع قطز يداً فصاح المنادي طالباً الهدوء . حلّ الهدوء تدريجياً بعد أن كان البلاط كله على وشك التحول إلى رعاع ، حين رأوا أن الملك يأمر بالصمت .

صمتوا ، واحداً إثر الآخر ورفعوا أبصارهم إليه . في النهاية ، تنزّل هدوء مطبق على الصالة . مال قطز إلى الأمام وتركزت عيناه على بيسوداي .

قال «دمروهم» .

انفجر هتاف هائل وقدّم الناس الشكر لله تعالى . تم إلقاء القبض على المغول فوراً وأخذ الفرسان والمصريون يمزقون أثوابهم الحريرية الرائعة إلى شرائط ويسقطون طواقيهم عن رؤوسهم . في البداية ، حاولوا أن يصدوا الضربات ، لكن تلك الموجهة إلى رؤوسهم سرعان ما أضعفتهم فسقطت أيديهم المرفوعة إلى جوانبهم . راقب عبد مرتعباً بينما استولى الرعاع على أجسامهم وغمروها بحيث اختفت عن ناظريه .

وقف بيبرس أمام العرش ، منهمكاً في التشاور مع قطز .

«سيعني هذا حرباً شاملة» .

هزَّ قطز رأسه قائلاً «أعرف ، وهل هناك نوع آخر؟»

نفض بيبرس رأسه بمكر «كلا ، لا يوجد . لقد كنا نستعد لهذه النتيجة ، وقد تغيرت خططنا من الأنماط القديمة المخصصة لمواجهة الفرنجة ، والتي كنا بحاجة لتسخيرها ضد فرسانهم . بمجرد أن يصل قلاوون حاملاً تقاريره ، سنكون جاهزين للتحرك» .

قال قطز «بل نتحرك الآن» وجاء رد فعل بيبرس على شكل نظرة متفاجئة . «لن يكون هناك متسع من الوقت لهولاكو أو كائناً من سيكون الخان الأعظم التالي ، لكي يرسل التعزيزات . سنقوم بتدمير قوتهم في هذا الإقليم فوراً ، ثم نتخندق لننتظر ردة الفعل» .

بات بيبرس يهز رأسه ، وقد انقضت دهشته من سرعة وحزم قطز «ذلك هو المسار الصحيح . سيكون هؤلاء الرجال الذين تركوهم للحفاظ على أمن المشرق قد سمنوا واقتنعوا بانتصاراتهم . وتباطأوا . سنتمكن من ضربهم أثناء غفوهم النابع من الثقة الزائدة بأنفسهم» .

اندفع قطز إلى الأمام «أنا سعيد لأنك تفكر بهذه الطريقة يا بيبرس . كذلك أنا لديَّ شيء ما في الاحتياط . هي خطة لن يتوقعها كتبغا» .

ارتفع حاجبا بيبرس دهشة .

قال قطز «لكنه يمكن أن ينتظر . يجب أن أجتمع بالأمراء وأجمِّع القوات . يجب عليك أن تكمل استعداداتك للعودة إلى رجالك في قليوب . سوف نلتقي عند ممر الجدي . إذا تمكنت من إرسال خبر إلى قلاوون فافعل ذلك . إنه أفضل من جيش كامل من الكشافة» .

«حاضر يا مولاي» قال بيبرس مع انحناءة .

في هذه الأثناء ، حمل رجال البلاط المغول الغائبين عن الوعي

على أكتافهم ومشوا يستعرضون بهم باتجاه الباب . صاح المنادي مخاطباً قطز «أين تريدنا أن نضعهم يا مولاي؟»

صاح قطز مجيباً «إلى باب زويلة ! أريدهم أن يراقبوا بيما يخرج جيشنا زاحفاً نحو النصر!»

قوبل هذا الأمر بالهتافات والسيوف المشرعة عالياً . جرى حمل المغول إلى الخارج ، يتقدمهم بيسوداي ، بينما تحولت الأجواء من الغاضبة إلى الاحتفالية .

التقت عينا عبد بعيني بيبرس الذي أشار باتجاه الباب ، حيث استمرت أواخر الجمهور المحتفل في الغناء أثناء انتظارهم للحاق بالخارجين . سأل عبد «هل ترغب في المشاهدة ، يا صاحب السعادة؟»

نفض بيبرس رأسه «أحب أن أشاهد أنا الآخر يا عبد ، لكن هنالك اجتماع للمجلس . يجب أن تحضره وتسجل الملاحظات» .

لابد وأن عبد بانت عليه خيبة الأمل ، لأن بيبرس سارع بإلقاء ذراعه الضخمة حول كتفي عبد وتكلم قريباً من أذنه «سيكون هناك الكثير - **الكثير** - من المغول الميتين حتى نشاهدهم قبل أن تنتهي هذه الحملة ، وكذلك من العرب والفرسان . سوف تمل من مشاهدة الأموات يا عبد . وكما سيخبرك أي رجل تواجد على ساحة معركة ، ليس هناك من ميزة خاصة للأموات» . نظر إلى عبد ، فهز الكاتب رأسه «حسناً» قال بيبرس «والآن دعنا نرى ما إذا كان لدى هؤلاء الأمراء المصريين أعمدة فقارية أم أن أكبادهم ترتعش مثل كلب تلقى توبيخاً» .

دار بيبرس حول منصة العرش واتجه إلى المخرج الخلفي حيث ذهب قطز ، متبوعاً بوزرائه . لاحقه تيكا ، مستغلاً ضخامته لإخلاء الطريق ومنع أي من مستخدمي البلاط المفرطين في الحماسة من الاقتراب

أكثر مما ينبغي . عبر من خلال الحرس محتفظاً بذراعه على كتفي عبد ودخل إلى الملاذ الداخلي ، حيث قادهم باب آخر إلى الغرفة الخاصة .

«أسلحة ذهبية يا عبد . . .» قال أثناء دخولهم «هل سبق ورأيت أي شيء على هذا القدر من منافاة العقل؟ إن نفوذ السلطان أمر لا يضاهى ، لكنني لا أحسد قطز على منصبه ، لكونه محاطاً بطابور من الإمعات وجامعي القطع النقدية . لو كنت سلطاناً ، لأبقيت الرجال الذين أوصلوني إلى السلطنة قريبين جداً مني ، لأنهم سيكونون الوحيدين الذين يثق الشخص بهم» .

«هل تقصد حرسك الشراكسة؟»

«طبعاً . نحن إخوة في الدم والسلاح . ليست هناك صلة أوثق من ذلك» .

«لكن قطز ليس شركسياً» .

وصلا إلى الباب . أصبح يمكن سماع الأصوات خارجة من الباب الذهبي سلفاً .

تساءل عبد عن مدى قوة قبضة قطز على العرش فعلياً . دخلا فرأيا بكتوت والمعز واقفين على مقربة حميمة من السلطان ، بينما استمر بكتوت يهدر غاضباً .

«هذا الأمر سيدفننا يا قطز ! أنت لا يمكنك أن تمس السفراء ! وبشكل خاص ليس سفراء الخان» .

وافقه المعز بقوله «هذا هو الشيء الوحيد الذي يبدو أن لديهم مبادئ وقواعد بشأنه» .

أضاف أنس «أخشى أنهما على حق يا مولاي» . كان يقف إزاء الحائط بوجه حزين . «لقد تقرر مصير سمرقند عندما قام علاء الدين

محمد بتدمير القافلة المغولية والوزراء المسافرين معها» .

عاد بكتوت إلى الصراخ «أرايت؟ هل تستطيع أن ترى ما فعلته؟»

قال بيبرس «أنت تنسى نفسك ، يا صاحب السعادة» . أدرك عبد بحدة أنه لا يوجد في الغرفة سوى سبعة منهم حالياً ، وأن الحرس قد عادوا إلى الممر الذي قدما منه لتوهما ، وخلف بابين . لو وصل الأمر إلى قتال ، فإن بيبرس ليس لديه سوى تيكا ليدعمه . كان عبد الشخص الوحيد غير المسلح . أخذ يتلفت في أنحاء الغرفة باحثاً عن أي شيء يمكنه أن يستعين به في حال انفجرت المتاعب ، بعد أن اندفع دمه مثلما حدث معه أثناء مواجهاته مع عازر .

قال بكتوت «لا يا بيبرس . أنت وقطز تنسيان نفسيكما . أنتما نسيتما أن مصر هي الملاذ الأخير للإسلام أمام العالم كله . كان هناك زمن امتد فيه حكمنا من جبال كوش وباكتريا وحتى ايبيريا وسفوح فرنسا نفسها ، والآن نحن وحدنا» . أشار بإصبعه .

«وقد اخترت أنت أن تستنزل الجحيم فوق رؤوسنا . لم يعد هناك أمل في السلام الآن . ليس هناك أمل في البقاء أحياء إلا إذا هربنا . سينتهي الأمر بأئمتنا في العيش مثل الصوفيين المجانين في الكهوف فوق قمران وصحراء سيناء . سنضطر إلى استجداء الرحمة من الفرنجة أمام حلفائهم المغول» .

«وإذا استسلمنا؟» وقف بيبرس في وسط الغرفة ، واضعاً قبضتيه على خاصرتيه . «ماذا سيحدث وقتها؟ سندفع الجزية إلى ملك يبعد عنا آلاف المراحل ونشترك مع الكفار في بلادنا؟ هل ذلك هو الخيار يا بكتوت؟ يا أخي أُنس؟» نظر إلى قطز .

«بالنسبة لي ، فإن ذلك أسوأ من الموت وسوف أختاره» . اتخذ

ثلاث خطوات إلى الأمام وركع على إحدى ركبتيه أمام قطز قائلاً «اسمح لي أن أقود المقدمة ، يا صاحب الجلالة . إذا اخترت أن تعمل بمشيئة أمرائك ، اسمح لي وقتها أن أخوض المعركة منفرداً . لنقدم الدماء إلى المغول وبعدها ربما يصفحون عن مصر من أسوأ ما فعلوه في بلاد فارس وسورية» .

جاءت حركة بيبرس سريعة جداً بحيث تراجع قطز قليلاً ، لكنه عاد فاستعاد ثقته بنفسه وقال «انهض يا بيبرس . ولا تتسرع في التكهن برأي سلطانك» .

قال بيبرس «سامحني يا مولاي» .

خاطب قطز الأمراء الثلاثة بقوله «يا أصحاب السمو ، لقد عشتم لسنوات طويلة على ناتج ضرائب وأعمال مصر . وقد نعمتم بعيشة رغيدة ، لأنها بلاد غنية . والآن تخبرونني أنكم ترغبون في حفظ هذه البلاد من الغزو ، وأنكم تكرهون فكرة ما ستفعله هذه الحرب . لكن بيبرس على حق . كيف سيمكننا من النظر في أعين المؤمنين عندما نصلي في المسجد سوية إذا لم ندافع عن البلاد التي جعلتنا أقوياء وأغنياء؟ أيها السادة ، هناك أكثر من الشرف وقيمة أرواحنا في الميزان في هذه المعركة ، هنالك المزيد ليقال حول قضية الإسلام . إذا انهزمنا ، صحيح ، سنذهب في طريق بلاد فارس وسورية . ولكننا لو خضعنا لمطالب ذلك السفير الوقح وجلاوزته لانتهت حكاية الإسلام كلها أيضاً . كنا سنتعرض لمصير اليهود في بابل . كان التدمير سيستغرق وقتاً أطول من بغداد ، ولكنه سيكون كارثياً بالمقدار نفسه تماماً» .

وقف بكتوت والمعز وأنس برؤوس خفيضة . سحب قطز نفساً عميقاً .

«إذا اضطررت فسوف أزحف لوحدي ضد هذا الجيش . كل من يجب أن ينضم إلي مرحب به ، وأولئك الذين لا يرغبون منكم الانضمام إلي ، لديهم موافقتي على العودة إلى بيوتهم وانتظار مصيرهم هناك . سوف يحملون خطيئة عدم الدفاع عن وطنهم الأم» .

ساد صمت طويل في الغرفة . رفع بكتوت رأسه «سنذهب معك ، يا مولاي» .

هبط الليل وبيبرس واقف مع عبد وسط حشد صغير ينظران إلى جثث ييسوداي ورفاقه الثلاثة الممزقة . المشهد مضاء بشعلات مثبتة بالمسامير فوق الاستحكامات وتحتها ، وقد بقيت السلالم التي استعملها الجلادون لتعليقهم هناك ، ملقاة في الرمل إلى جانبهم .

لم يكن رعاع القصر قد اكتفوا بتعرية الموفدين قبل أن يقتلوهم بالضربات والحجارة من الشارع ، أو حتى بعد اختراق أجسادهم التي مازالت تتنفس بالخناجر . تم فصل أجساد المغول من عند الخصر ثم سحبت البقايا بالحبال إلى أبراج باب زويلة ، بحيث تدلت الأحشاء من الخصور والحنايا .

قال عبد «هناك في القصص القديمة دائماً نذير عن أشياء ستحدث . أنا أعتقد أن هذا أحدها» .

«نذير» كرر بيبرس الكلمة «أنا أعتقد أنه إذا كانت هذه الحرب وجبة طعام ، فإن هذه الميتات هي بمثابة فاتح الشهية قبل أن يتم تقديم الطبق الأساس» .

«هل سيكون غضب الخان شديداً جداً؟»

«بالطبع . لقد كسرنا قوانينهم المقدسة ، وهم كانوا أصلاً يؤمنون بأننا متهتكين وحتى بلا أديان . ولكن من الأفضل أحياناً أن تثير حنق

عدوك ، خاصة إذا كان كبيراً جداً ، كما هو حال جيش الخان . هناك احتمال أكبر بكثير لأن يرتكبوا خطأ ما أو توقيتاً سيئاً أو يتسرعوا في هجومهم . ربما يطرد غضبهم طاقاتهم ويمنحكم الإمكانية لإنهاء القتال بينما هم مرهقون» .

«هل تعتقد أن كتبغا من هذا النمط من الرجال؟ لقد رأيت بايجو ولم يخلق لدي الإنطباع بأنه شخص يمكن أن يغضب» .

«هل هو القائد الذي دخل قصر الخليفة وأشعل نيران البروق؟»

«إنه هو» عاد وجه صفية إلى التراءي أمام عبد مرة أخرى ، وسمح له بالبقاء قبل أن يستدير ليواجه المنظر الرهيب فوقه .

«إذاً ربما سيعطيه هذا العمل عينة من دوائه نفسه . لقد تواقح وافترض أن يجعل موفده إلى هنا يدخل إلى قصر السلطان يزرع الخوف نفسه في قلبه ، لكنه لم يعتقد أن قطز يمتلك الفولاذ الذي امتلكه فعلاً» .

ابتسم عبد «هو من الفرسان البحريين في نهاية الأمر» .

«بالضبط» رفع بيبرس حزام سيفه . كذلك التجأ عبد إلى حمل أسلحته بعد التوتر الذي ساد في الاجتماع في وقت أبكر من ذلك اليوم . «تعال لترى ما قد أحضرته لأجلك» .

استدار عبد «ما هو هذا؟»

«حسناً ، أنت لست من الفرسان يا عبد ، وأظنك ستعترف بذلك . لكنك أصبحت تركب بمستوى جيد بحلول هذا الوقت ، وتبدو عليك القدرة على الإمساك بذلك السيف بشكل جيد . لقد حصلت لك على موقع قيادي في الحملة . طبيعي أنك ستستمر في عملك كمساعد لي ، ولكنك الآن ستكون لديك مجموعة من الرجال لتدربهم يومياً . تهانينا» .

انعقد لسان عبد «لا أفهم . . هل تريد مني أن أقاتل؟»

«طبعاً . ألا تريد أن تلعب دوراً ما ضد الخان؟ بعد ما فعله بمدينتك؟»

«هذا مؤكد ، ولكن . . .»

«لن يكون موقعك على الخط الأمامي يا عبد ، طبعاً لا ، لكن هذا الدور يناسب خبراتك ، أؤكد لك . وهو ضروري لوضع بعض من الخوف الذي استعمله بايجو ضد الخليفة ورجاله . هل أنت راغب في المجيء لتلقي نظرة؟»

كرر عبد «بالطبع . . . ولكن . . .»

«ممتاز» انطلق بيبرس في مسيره «إن تيكا ينتظرنا في مستودع الأسلحة» .

«هل قلت مستودع الأسلحة؟»

عادا سيراً باتجاه القصر عبر الطرقات الملتوية ، آخذين بنصيحة حراس البوابة في الذهاب على قدميهما . أزقة القاهرة مزدحمة بالعربات والناس وبسطات المنتجات الزراعية ، حتى في هذه الساعة المتأخرة ، بحيث استطاع عبد أن يرى الحكمة في القدرة على انتقاء طريق الشخص عبر الموانع ، بدل اصدار الأوامر بإخلاء الطريق من على ظهر حصان .

حاول أن يستفهم أكثر من بيبرس عن المكان الذي يذهبان إليه والدور الذي قد يلعبه في الجيش ، لكن صاحب عمله بقي مقفلاً فمه وأجاب عن كل التساؤلات بتعليق ساخر أو مجرد ابتسامة .

في اللحظة التي اعتقد فيها أنهم على بعد شارع أو اثنين من القلعة إلى جنوب شرق البوابة ، اختفت المشاعل التي تنير الشوارع

وأحسَّ كأن الحشود تضغط عليه أكثر من ذي قبل .

انفصل عبد عن بيبرس وتلفت حوله باحثاً عنه ، وقد أخذ الشعور غير المريح من الأجساد الدافئة يضغط على صدره وظهره .

نادى «بيبرس !» . ارتفعت يد تحت وجهه ، وأخذ صاحبها يدندن وقد كوَّرها «نقود ، نقود ، نقود . . .» وظهر أمامه وجه قبيح ورأس مغطى بقلنسوة . انتفض عبد إلى الوراء وبعدها هاجموه . فوجئ الشحاذ بالحركة ؛ لأن عبد لم ير السكين الجارح في اليد الأخرى إلا عندما أخذت تلوح أمام عينيه ، وتحتك بأنفه . بدأ جمع كابوسي من أيدي وقبضات الرعاع يمطره وأيقن أنه ميت لا محالة . بذل أقصى جهوده لدفعهم بعيداً عنه وإيصال يده إلى سيفه .

عاد إلى النداء «بيبرس !»

استقيظت غرائز بيبرس الدفاعية على بعد بضع أقدام ، حينما اختفى النور من المشاعل المعلقة فذهبت يده إلى غمد سيفه وانغلقت حول المقبض . عندما أطبق الشحاذون عليه ، كان مستعداً لهم . رغم ذلك ، أحسَّ بطعنة خنجر بين أضلاعه ، لكن طبقات الزرد والجلد السميك الذي يرتديه جعلته يشعر بأنها ليست أسوأ من دفعة عصا . خرج السيف ولوَّح به من حوله ، حيث أخذ النصل الحاد والرأس المدبب يقطع ويجرح الأذرع والمعاصم والأيدي ، أي شيء أقرب مما يجب .

بعد أن فتح حوله مساحة ، سمع نداء عبد وتحرك إلى الأمام ، وأهوى بالسيف يمنة ويسرة ، غير مميز ولا محاذر ممن يتواجد في الناحية الأخرى . لم يكن هناك وقت لمثل تلك الاعتبارات ، أمسك بعبد من ياقته وسحبه قريباً منه ، ملوحاً بسيفه خلف الكاتب بحيث أجبر

المهاجمون على الإفساح هناك أيضاً أو المخاطرة بتلقي الإصابات التي كانت من نصيب أولئك الذين هاجموا بيبرس قبلاً . بدأوا الآن يفرون ، تعثر اثنان منهم وسقطا على ركبتيهما وهما يمسكان بشخوط على ظهريهما وصدريهما ، حتى اندلقت الدماء بحرية إلى الرمال تحتهما .

زأر فيهم بيبرس «جبناء !» وطوَّح مرة أخرى محنقاً ، حتى بعثر المهاجمين القلائل المتبقين فارين في الأزقة حتى ابتلعتهم العتمة .

سحب عبد من ياقته ثم تفقده ، حتى أجبر المساعد المسكين على الأنين «هل أنت مصاب ، هل آذوك؟»

«كلا ، لا أظن ذلك . هل يمكنك أن تفلتني ، رجاءً؟»

للحظة عابرة ، لم يفهم بيبرس ما يرمي إليه «آه ، طبعاً» . أرخى عبد ليوقفه على قدميه الاثنتين «هل أنت واثق من أنك لم تصب بأي أذى؟»

«كلا ، اقترب أحدهم ، أعتقد أنه نقر أنفي ، لكنك دفعت شخصاً آخر عليه وألقيته بعيداً عني . أي نوع من المدن هي القاهرة التي يهاجم فيها الشحاذون الناس الطيبين في الشارع؟» .

«لم يكن هؤلاء متسولين يا عبد . ليسوا حقيقيين على الأقل . لا تتم مهاجمة الفرسان في الشارع . حتى عندما يمشي أحدهم لوحده» .

نظر عبد اليه بإمعان .

«ولا حتى مع رفيق» . ألقى بيبرس بنظرة إلى الطريق التي جاءوا منها وراءه . «كلا ، كان ذلك أمراً آخر . شيئاً أكثر تخطيطاً» .

«أكان ذلك لقتلك؟»

«أظن ذلك . لقد حدث الأمر من قبل» غرق بيبرس في التفكير .

«تعال، يجب أن نصل إلى المهاجع، أو إلى القصر».

«حسناً، فلنذهب» عاود بيبرس رفع سيفه، لكنه لم يعد السيف إلى غمده إلا بعد أن عبرا بوابة الحرس في قصر قطز.

***

«هذه هي ألعابك الجديدة يا عبد!» فتح بيبرس ذراعيه على اتساعهما ليسمح لعبد أن يستوعب المنظر الماثل أمامه. بدت مثل أسطوانات معدنية، مستديرة مثل قواعد المشاعل، أو ربما حتى أصص نبات ضيقة. كانا واقفين في وسط غرفة مستودع، بعد أن تم اصطحابهما إلى هناك من قبل تيكا المهتم جداً، الذي صب اهتمامه على عين بيبرس المصابة مثل دجاجة ذات أفراخ. شرحا له أنه حصل هجوم وأن الخطر قد زال عنهما. قال بيبرس

«سوف أحيط قطز علماً بذلك في الصباح. إذ ما هي احتمالات مطاردة مشردين والقبض عليهم في منتصف الليل؟»

سأل عبد «ما هذه يا بيبرس؟» تناول واحداً من الأسطوانات وفوجئ بوزنه.

قال بيبرس مبتسماً «نعم، إنها ثقيلة، أليست كذلك؟ هذه سلاح سري صغير لنا. لقد تذكرت أنك أخبرتني كيف أطلق القائد بايجو البرق في بغداد، حسناً، هذه الأدوات قد حشرت البرق في قارورة».

قال عبد «لست أفهم».

قال بيبرس «هذه ستطلق البرق. مد يده إلى داخل وعاء على الطاولة وأخرج ما ظهر مثل حفنة من الفلفل. «يمكن وضع هذا المسحوق في أحد جانبي ذلك البرميل الصغير الذي تحمله، ثم نلمسه بشعلة. سوف ينطلق مثل سهم من البرق من الناحية الأخرى. أو

على الأقل هذا هو ما يخبرني به قطز» .

«وهل سيحرقهم هذا؟»

«كلا» انحنى بيبرس ومد يده إلى داخل كيس على الأرض . رفع في يده كرة معدنية مستديرة ، في حجم حبة تين . «نضع هذه بعد المسحوق أيضاً وسوف يتم إطلاقها إلى الجانب الآخر . مثل إطلاقة قذيفة من مقلاع» .

وزع عبد نظراته من البرميل الذي يحمله إلى علبة المسحوق ثم إلى الكيس على الأرض ، وقد بدأ عقله يعمل جاهداً . فكر في الضجة التي ثارت نتيجة الحريق في قصر الخليفة . «كم واحدة من هذه يمتلك السلطان؟»

«مجرد ما تراه هنا ، والقطع التي يقوم الحدادون بإتمامها حالياً في المشاغل . ربما خمسون في المجموع» .

«وهل سأقوم بإطلاق واحدة من هؤلاء؟»

«إذا أردت ذلك . لكنك أنت الذي ستقود ، لذلك سيكون من الأفضل إذا أخبرت الرجال متى وإلى أين يطلقون ، بدلاً من أن تقف في الصف بنفسك» . عندما لاحظ استمرار تردد عبد ، وضع بيبرس يديه على كتفي عبد . «ليست هذه قيادة رسمية احتفالية يا عبد ، لكن سيكون هناك نقيب ليعاونك . شخص خشن كبير السن اسمه أنصار . إنه مستمر في قيادة الرجال في المعارك . من قبل أن تولد» . لوَّح بيبرس ذراعه فوق قطع المدفعية المغرقة في الصغر فوق الطاولة . «لقد درست أنت القواعد خلف الكيفية التي تعمل بها هذه المخترعات ، ألم تفعل؟» وافقه عبد . «إذاً يحتمل أن يكون لديك بعض التبصر الذي سيساعد الرجال الذين يستخدمونها - آليات التفاعل

التي لا يمكن لرجال فرسان مثل تيكا وأنصار وأنا أن نفهمها . سوف يتسنى لك بعض الوقت لتستعرض الرجال الذين يتدربون على هذه الأسلحة . راقبها عن كثب وانظر ما إذا كانت هناك إمكانيات لتحسين أدائها . هذا هو السبب الذي عينتك من أجله» .

«وماذا عن قطز؟»

تراجع بيبرس خطوة «لقد تكلمت مع قطز . إنه يدعم هذه الخطة» .

ألقى عبد نظرة مترددة على الأسلحة ، عابساً .

لاحظ بيبرس تردده «إذاً ، هل ستؤدي المهمة؟»

عاود عبد هزَّ رأسه «إذا اعتقدت أنني سأكون ذا قيمة وفائدة . . . .»

«الحمدلله والشكر» فتح بيبرس ذراعيه «لدينا ضابط جديد ، يا تيكا !» .

تكورت زاويتا فم تيكا ، لكنه ظل غاضباً من الهجوم على بيبرس قبل لحظات ، خاصة لأن بيبرس كان متشككاً في احتمالية كون الهجوم مجرد حادثة سرقة بسيطة . زمجر عندما طلب بيبرس أن يذهب ويستدعي أنصار حتى يتمكن من شرح أساسيات عمل المدفع كما سماه . تكلم الرجلان بأصوات هادئة عن الاستعمالات الممكنة للأسلحة حتى عودة الرجلين الآخرين .

حتى وهو يرتدي مجرد الثوب ، ظهر أنصار على أنه الضابط الصلب الذي وصفه بيبرس في كل ذرة من كيانه . تكلم بجمل قصيرة خشنة ، شأنه شأن العديد من الفرسان البحريين ، بكل واقعية ، وحمل وجهه خطوط تجاربه ، عقود من صقل المجندين الصغار كثيري الحركة

ليحولهم إلى جنود منتظمين ، ومواجهة جيوش مئة دولة مختلفة بجرأة ، أشبه بخريطة يحسن أي شخص ثاقب البصيرة صنعاً إذ يحتذي حذوها . على الرغم من حقيقة أن عبد هو رئيسه الإسمي ، إلا أنه حيًّا النقيب بلهجة إحترام ، وأصغى بتركيز شديد إلى ما كان لديه ليقوله بدون أن يقاطعه . ساعد ذلك الموقف كثيراً في طمأنة أنصار من حذره الإبتدائي تجاه هذا الشاب المتقشف القادم من مكان بعيد .

«إذا كنت تأمل في قتل فرقة كاملة بهذه الأشياء ، فإن ذلك لن يتحقق . أنا أستطيع أن أخبرك منذ الآن» . انطلق أنصار شارحاً «لقد جعلت الشباب يخرجون إلى الساحة وهم يحملونها لمدة أسبوع ويركضون بها في الأنحاء ، ومازال أفضلهم يعجز عن إصابة حائط إسطبل من على بعد بضع خطوات» .

سأل بيبرس «فهل تعتقد إذاً أنها ليست مفيدة؟»

«لم أقل هذا» . قال أنصار وهو يلتقط أحد المدافع ويحمله ليعرضه للنور . «من المحتمل أن صلية عامة ستتمكن من إفشال هجمة ما ، لكنها لن تؤدي إلى إسقاط الفرسان كلياً . ولكنها حتماً ستوقع الفوضى في الصفوف . تخل بتوازنها وتسهل قيامنا بهجوم معاكس . سوف نحتاج إلى الحماية من رماة السهام ولذلك يتحتم التنسيق مع الفرسان» .

نفض بيبرس رأسه «ليس هناك وقت لذلك في هذه الحملة . نحن متجهون شمالاً ولن نتوقف حتى نتصل بالعدو . ستكون هناك ساعة لأبنائنا للتدرب على المناورات بينما تستريح الخيول ، ليس يوماً كاملاً ولا أسبوع» .

«وماذا عن خيولهم؟» وجه عبد سؤاله إلى أنصار «بدلاً من

هجمات كبيرة ، ألا نستطيع ببساطة أن نطلق من مسافة قصيرة ونجفل الخيول؟ إذا أطلقنا وسط طابور متكتل ، فإننا حتماً سنصيب شيئاً ما» .

فكر أنصار في هذا القول ، وقد انسابت على ملامحه الحجرية نظرة جدية . قال أخيراً «يحتمل أن تتوفر في هذا العمل إمكانية ما» .

قال عبد لبيبرس «لقد كانت الجياد تزعق في قصر الخليفة عندما أطلقوا بروقهم في السماء . لقد أصيبت الحيوانات بالذعر ، بقدر الناس بكل الأحوال» .

«ولكن هل يمكن أن يكونوا قد عوَّدوا جيادهم على الضوضاء العالية؟ دربوها؟» سأل بيبرس .

قال عبد «من يعلم؟ وهل يعلمون أننا نمتلك هذه الأسلحة؟»

«قطز يقول لا . سوف أسأل قلاوون» . استدار بيبرس نحو أنصار «ما رأيك بهذه الخطة إذاً ، بدلاً من نصب كمين منفصل ، نضعك في مكان ملائم لإطلاق صلية عليهم لحظة قدومهم مهاجمين . سوف أضع رماة السهام في نقاط توفر لكم فيها الحماية وتمنحكم الدقة التي تفتقر إليها هذه القطع المسببة للضجيج . سوف ترهقونهم» .

وافق أنصار «سيكون ذلك أفضل من هجوم واسع حيث يمكن لأمور كثيرة أن تخطئ» . وهو يتقاذف الأسطوانة المعدنية بين يديه وكأنها لا تزن شيئاً . «إذا لم تأتِ بنتيجة ، فربما نكتفي بإطعامهم هذه القطع» .

«أو نضربهم بها على رؤوسهم» . قال بيبرس ضاحكاً ، وأردف «حسناً . إذاً فنحن متفقون . سوف نتكلم في هذا الشأن لاحقاً . أنصار ، ضع رجالك في طابور خلف رجالي غداً ، وانضم إلى مجموعتي خلال الاجتماعات ، سنبحث في هذا الشأن» .

أفاقوا قبيل الفجر صباح اليوم التالي وانطلقوا نحو القوة الرئيسة في قليوب . رغم أن بيبرس كان الحاكم الأسمى للبلدة ، لم يحاول حتى أن يدخل أحياءها ، بل انتظر بدلاً من ذلك حتى ظهر طابور الفرسان عند بوابتها ثم انضم إليه ليقوده .

«ليس لدي اهتمام بمقابلة الحاكم وبقية **المجلس**» قال وهم يدفعون بخيولهم فوق السهول التي أخصبها الفيضان ، باتجاه شمالي غربي نحو الزقازيق وبعدها نحو الإسماعيلية .

«لقد رأيت بنفسك الثرثرة التي احتجت إليها لإبقاء كبار الدمشقيين سعداء في مثل تلك الاستقبالات . ليس هناك وقت . يعتقد قطز أننا سنتواجه مع كتبغا في مكان ما إلى الشرق من مم الجدي . يريد أن يخوض المعركة في صحراء سيناء ويأمل أن تسقط جياد المغول جراء العطش» .

فكر عبد في الاقتراح «تبدو لي خطة سليمة . ألم يدفع صلاح الدين الفرنجة إلى حافة الجنون من شدة العطش في حطين قبل أن يدمرهم ويستعيد القدس؟»

«لقد فعل ذلك حقاً» قال بيبرس «لكن ظروفه كانت مختلفة تماماً . فأولاً ، امتلك صلاح الدين قوة أكبر بكثير من قوة الفرنجة ، ولذلك كان بوسعه أن يناور ويحشرهم بالاشتباكات الصغيرة ، مثل تلك التي يقودها مهنا حالياً من أجلنا . لكننا تنقصنا مثل هذه الميزة . نحن نكاد نكون واثقين من أنهم سيتفوقون علينا عدداً في هذه الحملة ، بثلاثة أو أربعة أضعاف . وهكذا فإن المغول أكثر احتمالاً أن يسوقونا إلى جبل أجرد أكثر مما نفعل نحن . ثانياً ، أن كتبغا يحمل كل ثروات سورية وبغداد في قافلة لوازمه . سيكون رجاله حاصلين على

التموين بدرجة ممتازة بحيث إنهم سيتمكنون من التجوال في الصحراء للمدة نفسها التي تجول فيها سيدنا موسى، ويخوضون معركة في نهاية المدة. إن إجبار المغول على استهلاك مؤنهم والجوع لبضعة أيام سيجعلهم أكثر خطورة بكل الأحوال، مثل الكلب المقاتل الذي لا يطعمه صاحبه في الليلة التي تسبق القتال».

«إذاً هل تعتقد أن مقاتلتهم في أرض أكثر انفتاحاً وراء صحراء سيناء ستترك لنا مجالاً للانسحاب؟»

نظر إليه بيبرس بحدة «نحن لن ننسحب. لكنني سوف أسحب هذا الجيش الملكي إلى جانبي نحو الأرض التي أعرفها أكثر من أي واحد منهما، سواء كان قطز أو كتبغا، وسوف أقبض عليهم عندما يكونون متخمين من فتوحاتهم في سورية، سيكونون مثل رجل يحاول أن يخوض مباراة مصارعة بعد عشاء دسم كامل. سوف نحاور ونرقص ونتبعهم، وفي اللحظة التي تسقط فيها أذرعتهم، وقتها سوف نوجه لكمة إلى أنوفهم». حدَّق بيبرس في المدى البعيد للحظة، ولم تكن هناك أية أصوات سوى طرقعات أسلحة الفرسان المعدنية الخفيفة ووقع حوافر الخيل على الأرض. «إن تركهم يدخلون صحراء سيناء سيجعلهم جائعين وحذرين. نحن علينا أن ندركهم عندما يكونون واثقين ومتكاسلين، وعندما يكون أولادنا جائعين وحذرين».

«وهكذا ينبغي على قليوب أن تنتظر استقبالك؟»

«تستطيع قليوب أن تنتظر لمدة طويلة. إن اهتمامي منصب على حلب».

لم يقل بيبرس أي شيء آخر، ولم يلح عليه عبد، لكن كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها بخطط بيبرس بعد الحملة. أدرك

عبد أنه لم يكن قد فكر بعد في هذه الاحتمالية ، لأنه لم يكن قد سمح لنفسه بالتفكير بأنه قد ينجو من المعركة بحياته . أقنعته المرات القليلة التي تعرض فيها للعنف بأن الحياة يمكن أن تختفي في وقت أقل مما يحتاجه الشخص لانتعال حذائه ، وبدأ يتساءل عما إذا كان قد أصبح مؤمناً بالقضاء والقدر خلال الأشهر القليلة التي تلت مغادرته لبغداد . كثيراً ما عادت إلى مخيلته صورة عازر والسهم منغرس في صدغه ، كل ليلة تقريباً عندما يغمض عينيه ، وأخذ يستهل كل يوم بالتأكيد على أنه سيحيا كل لحظة وكأنها الأخيرة له في صلواته . أخذ يتلفت حواليه في هذه اللحظة ، وسط روعة الريف المصري المحيط به ، أشجار النخيل تتمايل مع النسائم ، بينما امتد خلفه مشهد الفرسان البحريين المدهش ، فأحسَّ بشعور غريب من الرضى والقناعة ، وكأنه لم يعد لديه شيء ليناضل من أجله ، وأنه متصالح وراضٍ عن مصيره وخطة الحق سبحانه وتعالى لأجله .

سيتذكر عبد فيما بعد الوقت الذي تلا مغادرتهم لقليوب على شكل غمامة نشوى أخرى ، حيث زاد الفرسان البحريون من سرعتهم فباعدوا بينهم وبين رفاقهم الزاحفين تحت قيادة قطز والأمراء الآخرين ، واندفعوا عبر سيناء بأسرع مما توقعه أي شخص ممكناً . وفي الأثناء ، استمرت المراسلات الغاضبة جيئة وذهاباً بين السلطان وتابعه المفترض ، حيث استمر قطز يعترض على أن بيبرس يتجاوز صلاحياته ويعرض الحملة بأكملها للخطر ، بينما استمر بيبرس يدعي البراءة ويصر على أن رجاله بحاجة إلى عبور الأرض حتى يتمكنوا من مرافقة العدو بفعالية أكثر لدى ظهوره .

«أستطيع فقط أن أتخيل نوع الأحاديث التي يتبادلها بكتوت

والآخرون معه في الخيمة الملكية أثناء استراحتهم في الأمسيات» .
قال بيبرس وهو يقرأ آخر رسالة من القوة الرئيسة .

«كان يجب أن تشاهد أثاث سفر السلطان يا عبد ، مراتب وحشيات ووسائد نوم تجرها العربات الفخمة . كنا نضحك عليها عندما خدمنا في دمياط» .

«تقصد أنت وقطز؟»

«وكذلك قلاوون ، بالإضافة إلى آيبك وأقطاي أحياناً . لكن زخرفات السلطة وصلت إليهم جميعاً في نهاية المطاف . فيما عدا قلاوون . إنه يفهم الفارق ما بين واجهة السلطة والسلطة الحقيقية» .
استدار بيبرس وأشار إلى الفرسان خلفه ، حرسه الشركسي ، ورجال أنصار بمدافعهم الموثقة إلى أكتافهم . «ذلك هو المكان الذي تنبع منه قوة السلطان يا عبد . وسأظل أكرر هذا القول لنفسي ، لمجرد التذكير : مجموعة من الرجال المقاتلين الراغبين في الاندفاع إلى المعركة . ليس المركز ولا الثراء شيئاً بالمقارنة مع ذلك . ألم يمتلك الرومان والفرس كل الأسرَّة المريحة وكل الأثاث المتعلق بالسلطة؟ لكن المؤمنين الصادقين زحفوا خارجين من الجزيرة العربية لا يحملون شيئاً غير إيمانهم وسيوفهم وأزالوا أعداءهم كما تزال البقع عن الرداء» . ابتلع ريقه ، واستدار ليواجه المقدمة مرة أخرى . «يجب أن نتذكر ذلك في حرب مثل هذه . وهكذا فبينما يتحرك قطز وبكتوت ببطء ليحموا ما لديهم من نفائس ، سوف أنطلق ولا أحمل أي شيء غير سيفي ومعطفي» .

غامر عبد بإطلاق نكتة «وقوسك القصير» قال ذلك مشيراً إلى السلاح .

«وذلك أيضاً . سوف يرى قطز ما أفعله . أكتب له ملاحظة أخرى

وأخبره بأننا سوف نسارع بالذهاب إلى غزة والى ممالك الفرنجة إذا احتاج الأمر . سوف أقوم بمهمة الكشاف بالنسبة للجيش» .

«هل ترغب أن تملي عليَّ شيئاً ما ، يا صاحب السعادة؟»

«كلا ، فقط أكتب ما قلته لك ولا تجمله . دعنا نرى ما لديه ليقوله تالياً» .

أرسل الساعي وسارع قطز إلى إرسال رده .

«يقول إنه يجب عليَّ أن أسرع وأذهب إلى غزة ، ثم أستطلع البلدة والريف هناك» . قال بيبرس ، وهو يقرأ الملاحظة لعبد وتيكا ومهنا والموت . «سيتبعنا هو والأمراء ، بصحبة الجيش الرئيس والمجانيق والقوات غير النظامية التي سيجدونها أثناء تقدمهم» .

أعاد قراءة الملاحظة وضحك . «إنه حتماً ينقذ ماء وجهه هنا» .

ألقى بالملاحظة إلى عبد ، الذي طواها بعناية ووضعها داخل كيسه . أخذ بيبرس سروع حصانه بكلتا يديه «إلى غزة إذاً ، أيها الرجال . وسنحتل البلدة حال وصولنا !»

الفصل التاسع والعشرون

أمر بيبرس القوة بكاملها أن تنتشر على شكل قوس واسع ، في صفين ، وبدأ يضغط على البلدة في طوفان بطيء . تحرك الفرسان مثل شبكة صياد ، عبر الحقول المحيطة ومن هناك إلى الشوارع والأزقة ، يعتقلون أي رجال في سن الجندية ويسوقونهم إلى مركز البلدة وكأنهم صيد ذلك اليوم . سمعت الحامية المغولية بقدومهم ونجح أفرادها بالفرار باتجاه الشمال ، ولكن كان ذلك هو هدف بيبرس منذ البداية .

فليس هناك ما يمكن اكتسابه من قتال كتيبة منفردة ؛ لأن احتمال احتلال البلدة والاحتفاظ بها سيشكلان تشجيعاً بحد ذاتهما .

«أنشروا الخبر القائل بأنهم هربوا» . قال لرفاقه بينما انهمك عبد في فتح المراسلات الأخيرة على الطاولة في الغرفة الرئيسة للبناية الوحيدة التي بقيت واقفة ، وهي كاتدرائية القديس يوحنا ، والتي كانت في الأزمنة الماضية جامع غزة الكبير . أدى المغول عملهم بشكل متقن

«ستكون هناك حاجة ملحة إلى البنائين بمجرد انتهاء الحرب» . علَّق بيبرس أثناء دخولهم البلدة .

أجاب عبد «ذلك إذا لم يمسحها البحر» . كان قد استمتع بإلقاء نظرته القريبة الأولى على بناء فرنجي حينما مروا راكبين أمام القصر المعبدي ، المبني في وقت ما من القرن الماضي ، والذي لا يزيد حالياً على بضعة جدران واقفة وأساسات هائلة تبرز من الأرض . جلس

السكان المذهولون بين الخرائب الخطرة، يستخدمونها كملاجئ بدلاً من بيوتهم المهدمة في المناطق المحيطة.

قال بيبرس «لم يتم الاستيلاء على ذلك الحصن وفي المعركة؛ لأن ذلك عمل من أعمال الهدم بعد انسحاب المدافعين».

حاول عبد أن يعثر على الإشارات التي تخبر بيبرس هذه الأمور، لكنه عاد إلى الاهتمام بالحجم الهائل للبناء وجدرانه. لاحظ أنه لم تكن فيه أي نوافذ لتسمح بدخول النور. بدلاً من ذلك، كانت هناك فتحات ضيقة محفورة في الجدران على مدى الواجهة، واسعة بما يكفي فقط لإطلاق سهم من خلالها، ولكن ليس لقذيفة يتم إطلاقها من الخارج «كيف سيعمل أي شخص على اختراق مكان كهذا؟» تساءل. «انظر إلى ارتفاع الجدران والحفرة المحيطة به. بمجرد دخولي، لن أتمكن من الخروج. ستكون أرضاً مخصصة للقتل».

هزَّ بيبرس رأسه «ذلك هو القصد. يعرف الفرنجة كيف يشيدون الأبنية، ينبغي أن نعترف لهم بذلك. لكن ليس هناك حصن يستحيل اختراقه. هذا بالذات صغير جداً بالمقارنة مع بعض الأمكنة التي لديهم إلى الشمال».

انتفض عبد من فكرة وجود قلعة أكبر حتى من هذا البناء ذي الطوابق الثلاثة الذي وقف يتفحصه. فقد كان بدائياً جداً بالمقارنة مع المنشآت في بغداد ودمشق. فليست هناك تفاصيل في خطوطه، ولا رقي في تصميمه. هو مجرد أداة حربية ولا شيء غير ذلك.

أثناء انشغاله بقراءة محتويات مراسلات بيبرس الأخيرة، أحسَّ بمن يربت على كتفه وتلفت حوله ليرى رسول قطز ينظر إليه واقفاً. تناول اللفافة بدون أي كلمة وانتظر حتى يلفت انتباه بيبرس. كان

القائد منهمكاً في بحث كيفية المحافظة على تزويد الرجال والحيوانات بالماء إلى أن تلحق بهم بقية الجيش .

«يا صاحب السعادة» قال عبد .

«وداوم على حركة الكشافة باتجاه الشمال وجعل حضورنا محسوساً . . .»

استدار بيبرس ، ورأى الختم الملكي . «لا اشتباكات بأعداد كبيرة ، ولكن اجعلوهم يعلمون بوجودنا هنا . اجعلوا أبناءنا يصعدون فوق التلال حتى يمكن رؤيتهم . ثم تحركوا عائدين عندما يتم اكتشافهم . إذا طاردكم العدو ، فذلك أفضل . نريد أن نشيع الفوضى في نظامهم ونجعلهم يتحزرون» .

تناول الرسالة من يد عبد وقلبها بين يديه . «طالما أن قطز يتحرك بسرعة أكبر من تحرك كتبغا ، فستكون الميزة في صالحنا» . مزّق الختم وبدأ يقرأ ، وعينه السليمة تطرف «يقول قطز إنه تم التوصل إلى اتفاق مع الفرنجة في عكا» . استمر في القراءة «لن يتدخلوا في الحملة القادمة وسيسمحوا لنا بالمرور شمالاً» . ارتفع حاجباه دهشة «يقول قطز إننا يجب أن ننتظره لأنه سيصل إلى هنا بحلول الصباح . بعد ذلك سيزحف الجيش بقوته الكاملة» . أنزل الرسالة وبدا عليه التفكير . «من كان يعرف أن بوسعه تحريك قوة ما بهذه السرعة؟»

نهض عبد ليمكنه من الجلوس «حسناً . هذا أمر ينفعه . وفيه مصلحة وفائدة . كان بمقدور الفرنجة أن يسببوا لنا مشاكل أكثر مما أنوي التسبب به لكتبغا» .

أشار إلى مهنا «حافظ على التعليمات نفسها التي أصدرتها لك من قبل . ابحث في البلاد عن المغول ولكن لا تشتبك معهم بقوات

كبيرة . فقط أخبر فتيانك أننا سنرحل مع حلول مساء الغد» .

«سيعثرون علينا يا بيبرس ، ويجدون الوقت للقيام بقليل من التصيد في الأثناء» .

دق بيبرس بأصابعه على الطاولة «قل لهم أن يغرزوا أسنانهم في العمل» . لفت انتباهه شكل رجل داخل من الردهة «الحمدلله والشكر! هذا مقاتل خارج من الصحراء!»

بدا على قلاوون الإرهاق والقذارة ، لكنه أيضاً بات سعيداً بانضمامه إلى إخوته الفرسان البحريين . ابتسم وفتح ذراعيه بينما قدم له الرجال الموجودين في الغرفة أحر الترحيبات .

«اجلس ، واحضروا له شيئاً ليشربه» . قدم بيبرس الكرسي الذي أخذه من عبد لتوه ، وبان على قلاوون الامتنان لوجود فرصة له حتى يزيل الثقل عن ساقيه . شعره ولحيته متلبدان من العرق ، وقد تشققت أظافره المطلية وامتلأت يداه بالندوب .

قال «الحمدلله والشكر فعلاً . لم نتوقف منذ مساء الأمس . الأمر يتحول إلى الخطورة هناك في الخارج ، حتى بوجود مجموعتي المغولية . لقد تمت مطاردتنا في مكان ما خارج الزرقاء . ولم يتركونا ويكفوا عنا إلا بعد ان أصبحنا نرى البحر . شاهدنا كشافتهم واعتقدوا أننا فرقة مغيرة . لقد أصيب عملائي بالذعر . بعضهم لم يكن قد ركب حصاناً من قبل» .

نفض بيبرس رأسه «وهل عثرت عليهم كلهم؟»

«كلا ، فقد بات ذلك مستحيلاً . لقد عثرت على الكثير منهم ، وذلك إنجاز مهم بحد ذاته . لقد كان هناك أكثر من عشرين منهم في بغداد وحدها . وذلك يذكرني» استند قلاوون في كرسيه إلى الخلف .

«يا عبد . يجب أن تذهب خارجاً ، هنالك شخص يريد أن يراك» .

وزع عبد نظرته بين الرجلين ، مضطرباً ، لكن أياً من تعابير وجهيهما لم يفصح عما كان يتكلم عنه قلاوون . انطلق خارجاً وهو ينظر خلفه بينما مال بيبرس إلى الأمام وانهمك في محادثة عميقة مع صديقه .

«هل كان الوضع سيئاً؟»

«في مثل سوء هذا الوضع» قال قلاوون ، وهو يشير حوله إلى الغرفة المنهوبة وباتجاه الباب إلى الدمار في الخارج «ولكن أكبر . أكبر بكثير جداً . لم يعد هناك شيء موجود . والشائعات كلها صحيحة . لقد أقدموا على قتل الخليفة والوزير» .

شهق كل من مهنا والموت لشدة سخطهما على العمل الكافر ، رغم كونهما رجلين صلبين .

«إن ما قاموا به هو حريق كامل ، عبر وجه الجزيرة الفراتية بالكامل وكل سورية . لقد غادر كتبغا قاعدته في بعلبك ويزحف إلى هنا» . ابتلع قلاوون وتقبل كوباً من الماء ممتناً .

«وهو ذاهب إلى مكان واحد فقط لا غير» .

ربت بيبرس على كتفه «سيصل قطز إلى هنا بحلول الصباح ، وبعدها سنزحف كلنا سوية . قرر الفرنجة أن يبقوا في أمكنتهم ، لذلك سيكون الأمر بيننا وبين قادة الخان» .

قال قلاوون «هنالك حلفاء بصحبته . ولكنك مصيب ، هم لن يقرروا ما سيحدث . هل فكرت في مسألة الأرض؟ أنت في نهاية الأمر تعرف هذه المناطق جيداً» .

قال بيبرس «جزريل . سوف نقاتل في جزريل» .

شاهد عبد خليطاً عجيباً من الناس يحومون في الشارع خارجاً، رجال كبار السن يبدون مثل تجار ساءت أحوالهم وحرفيون ضخام الأجساد، بشعور كثة وجبهات متدنية. كان هناك بضع نساء أيضاً، ولا واحدة منهن تبدو في حال جيدة مثل الرجال، بل هنَّ فتيات خادمات ونساء طباخات، من النوعية التي تحيا بين العائلات النبيلة في كل بلدة ومدينة. ثم شاهدها. كانت ترتدي نقاباً فوق شعرها والقسم الأسفل من وجهها، لكن لم يكن مجال للخطأ بالنسبة للعينين. فقد ركزتا عليه، وأخذا يسيران باتجاه بعضهما بعضاً، وكأنهما قطعتا مغنطيس.

شهق عندما اقترب منها «صفية... يا الهي...»

سقط النقاب عن وجهها واستطاع أن يراها بجلاء للمرة الأولى، تحولت ملامحها إلى الصرامة أكثر من ذي قبل، لكنها بقيت بمقدار جمالها نفسه حينما ودعها قبل بضعة أشهر.

توقفا على بعد خطوة من بعضهما وتأمل كل منهما الآخر بتمحيص، كأنما يتفقدان ما فعلته الصعوبات والاضطرابات التي تخيلاها وقد ألحقت بهما قد تسبب لهما بالأضرار.

أرادت كل خلية من كيانه أن تعانقها وتسحب جسمها قريباً إلى جسمه، لكن أعمالهما كانت قد جذبت الانتباه من بقية اللاجئين والفرسان الذين يحومون حولهما ولذلك أجبر نفسه على التكلم، مستعملاً الكلمات بدلاً من الأفعال الجسدية التي بدا وأنها أشعلت النار في وجوده.

تمكن أخيراً من القول «كيف؟»

«قلاوون» أشارت إلى باب البيت المقدس الذي قدم منه لتوه.

«لقد مرت عليه مدة وهو يركب عبر بلاد المشرق والجزيرة الفراتية ليعثر على أولئك الذين ساعدوه في الماضي ثم أحضرهم إلى بر السلامة» .

«وهل أنت تعرفين قلاوون؟» لم يبد الأمر منطقياً «كيف؟» عاود السؤال .

قالت «لم أكن خادمة بيتك على الدوام» وقد انبثقت شرارة من مزاجها القديم قبل أن يعاود وجهها اكتساب الصرامة . «لقد ساعدته بالأخبار لمدة طويلة» .

«وهل أنت جاسوسة؟»

«كنت . والآن ، فإن المكان الذي تجسست عليه لم يعد موجوداً . لقد أحرقوا كل شيء يا عبد» .

«ماذا عن ابن دقيق؟»

أرخت عينيها باتجاه الأرض قائلة «إنني آسفة» .

استدار على عقبيه وأخذ يسير مبتعداً . لم يعد قادراً على سماع المزيد .

«انتظر يا عبد !» نادت خلفه . حاولت أن تركض ، لكن الخجل سحقه حين التفت ورأى أن حذاءها مهترئ ولم يعد يوجد منه سوى قطع على قدميها . «إذا لم ترغب في التحدث معي ، خذ هذه . لقد أعطاني إياها لأسلمها إليك» . مدت يدها تحت شالها وأخرجت لفافة ورق مغرقة في الصغر .

«لقد كتبها عند اقتراب النهاية ، وأقسمت على أن أوصلها إليك» .

نظر عبد إلى الرسالة الصغيرة وهو يغالب دموعه بصعوبة ، ثم عاود النظر إلى صفية .

قالت «إذهب ، إقرأها ، ثم عد إليَّ نحن -» أشارت إلى الناس حولها «نحن تحت حماية قلاوون ، ولذلك فنحن بأمان . سوف نتحدث إليك حينما تكون جاهزاً» .

استدار وعاد ليمشي إلى داخل الكنيسة ، حيث عثر على مساحة هادئة في صحن الكنيسة وقد وفر له قوس محطم مقعداً بين الدمار .

جاء نص الرسالة *إلى صديقي وتلميذي ، عبد* .

إنهم يقتلون كبار السن والصبية ، ويتم إرسال النساء إلى الجحيم إذا لم يكنَّ قد رأين وجهه بعد . تخبرني صفية إنها قادرة على الوصول إلى بر الأمان ، وأنا أصدقها فعلاً . لقد أثارت إعجابي بدرجة كثيفة خلال الأسابيع القليلة الأخيرة بشجاعتها وصلابتها . لقد كنت على خطأ حينما طلبت منك التخلي عنها ، يا ولدي - سامحني على غروري . تزوج هذه الفتاة ، إذا قبلت بالزواج منك ، وعش حياة طويلة سعيدة مع مكان آمن .

يبدو أن لا أحد سينجو من المصائب التي ينزلها المنتصرون على هذه المدينة ، لا الفقراء ولا النبلاء ، ولا حتى رجال الدين . إنهم يكسرون الأبواب في كل حي بعد الآخر وكل شارع ، بصحبة الوحوش الذين يتبعونهم ، ثم يخلعون القضبان عن النوافذ بواسطة خيولهم . أستطيع حتى الآن أن أسمع الصرخات والصيحات تقترب . لن يطول الأمر الآن .

يا عبد ، سأخبرك هذا الأمر في الوقت المتبقي لي في الحياة . إحمد الله كل صباح عندما تصحو وكل ليلة قبل أن تخلد إلى النوم ، على نعمة الحياة نفسها والمهلة التي تمنحك الراحة من همومها ومتاعبها ومشاقها .

لا يخامرنك شك في أنها ستكون شاقة ، ولكن بدونها ستصبح الحياة غير جديرة بأن تعاش ولن تكون النجاحات الصغيرة التي تجيء في طريقنا على تلك الدرجة من الحلاوة .

باختصار ، متع نفسك ، أيها الشاب .

لدي من المعرفة ما يكفي لأعرف أنك ستصنع من نفسك شيئاً ما وأنك مستعد لأن تعمل جاهداً في سبيل تحقيق ذلك . لا تفقد الظمأ إلى المعرفة ولا الفضول الذي جعل منك أعظم تلميذ لدي ، أبداً .

عش حياة طويلة كما فعلت أنا ، بحيث يتوفر لديك الوقت للنظر إلى الوراء والاستمتاع بالأمور الجيدة التي فعلتها ، وتتساءل عن الاحتمالات التي تعرف الآن أنها طوع بنانك ولكنك مع ذلك تبقى خارج سلطة خيالك .

مهما كان الشكل الذي ستتخذه بغداد في أعقاب هذا الرعب ، فإنها سوف تحتاج إلى رجال مثلك لترميم أعضائها المكسورة وروحها المدمرة .

سوف يسعدني أن أكون قد علمتك شيئاً ما خلال سنواتنا معاً ، والذي ستجده مفيداً أو منيراً لعقلك ، لكن لا تفترض أنني أواجه مصيري بالأسى ، بل على العكس . إن خدمي الاثنين وأنا في الفئة العمرية نفسها ، ولذلك فمن المحتمل أن نعرف مصيرنا سريعاً بدلاً من وقت متأخر . لقد أخبرتك في إحدى المرات أن زاپارنا كانت امرأة رائعة . مثل فتاتك صفية ، لم تفعل أي شيء حتى تحرمني من ذلك الرأي .

أصلي بحرارة أن تتمكن من اللحاق بك في دمشق ، إذا كنت

ماتزال هناك ، وأن تعانق هذه الفتاة التي ، قد تحدث الناس الأقوى ومع ذلك الأشد تعاسة ، المغول ، بدون أي شيء سوى حبك في قلبها .

اذهب في رعاية الله ، يا ولدي . . .

أنهى عبد القراءة ثم ضغط راحة يده إلى عينيه . مشى خارجاً وأحاط صفية بذراعيه وانخرط في البكاء ، متجاهلاً التعليقات والصفير الصادر من فرسان بيبرس المختلطين من الشراكسة والمغول وحراس قلاوون القريبين منه .

لاحقاً ، وبعد أن شرح عبد الموقف لبيبرس وقلاوون المتشككين ، تم منح عبد التصريح لإدخال صفية إلى الكاتدرائية العظمى والعثور على غرفة لها خلف المذبح الكبير ، والذي تشير الدرابزينات والملاقط المغطاة بالمخمل إلى أن هذا هو المكان الذي احتفظ فيه الرهبان اللاتين بأرديتهم الطقوسية . حتى إنه تمكن من إيجاد بطانية لتجلس عليها . لم يستطع أن يوقف نفسه من النظر إليها ، رغم أنها طلبت منه أن يدير ظهره لها عدة مرات . بدت أنها لم تصب بسوء فيما عدا التعبير المرتسم على وجهها . بدا وكأنه كلما حانت لحظة يتوقف فيها الحديث ، تبدأ بالتحديق في شيء بعيد ، مغرق في البعد ، على الرغم من أن الغرفة التي جلسا فيها لم يزد طولها على بضع أقدام .

قال «لا أستطيع أن أصدق أنك جاسوسة» .

«ولماذا لا تستطيع ذلك؟»

«لأنه» تلفت حواليه ، محاولاً أن يكثف كل الأفكار في جملة واحدة . «لأنني – لا أعرف . لقد كنت فتاة خادمة» .

«وهكذا كنت غير مهمة؟»

«بالطبع أنت مهمة - كل ما أقصده هو أنني كنت دوماً أتخيل الجواسيس يعيشون في القصر ويرسلون تقارير عن أفعال السلاطين والوزراء» توقف . «هل أرسلت تقارير عن الخليفة والوزير؟ في القصر؟»

ضحكت لنفسها «كلا ياعبد . أنا لم أذهب إلى القصر مطلقاً . رغم أنني أخبرتهم بعض الأشياء التي أخبرتني إياها بعد حضورك حفلة راقصة أو حفل استقبال بصحبة ابن دقيق» .

«يا الله !» احتضن رأسه بكلتا يديه .

«هنالك طرق كثيرة تستطيع بواسطتها أي فتاة خادمة ذات مرتبة متدنية أن تكون مفيدة . نحن لا يرانا أحد ، ليس في الحقيقة . كم من الوقت عرفنا فيه بعضنا بعضاً قبل أن تسألني عن اسم والدي؟»

بدأ يشعر بوجهه وقد سخن .

«أنت وقلاوون - هل قمت -؟»

«كلا ياعبد . لم أقابل قلاوون سوى مرتين قبل أن يعود لأجلنا . لقد كان أحد مساعديه الذي فاتحني للمرة الأولى حين كنت أعمل في بيت أحد الحراس المنزليين لدى الوزير . أبار . إنه في الخارج حالياً ، أنني سأتمكن من إمتلاك المال وتوفير بعض منه على حدة ، وحتى أن أشتري بيتي الخاص . قلما كان قلاوون يأتي إلى بغداد ، وكان أبار مسؤولاً عن إيصال الرسائل إليه ، رغم أنني لم أعرف ذلك لفترة طويلة . زمن طويل قبل أن ألتقيك في الواقع . في المرة الثانية التي حضر فيها ، سماني وكيلة له لأنني كنت أهلاً للثقة» .

عاد إلى القول «لا أستطيع أن أصدق الأمر» .

قالت «ومع ذلك ها نحن هنا . وأنت الآن تعمل لدى الجانب نفسه» .

اعترف لها «لقد كان قلاوون هو الذي وجدني» .

«نعم ، لديه موهبة في العثور على الناس . لم أستطع أن أصدق عدد الناس الذين يعملون على مراقبة بغداد لأجله . ومع ذلك فقد حضر وأنقذنا كلنا . لقد سدد ثمن ثقتنا فيه» .

شعر عبد بامتنان عميق تجاه ذلك العمل ، وجاء الفرح في رؤية صفية مرة أخرى كافياً ليمحو الشعور الرهيب بالخذلان الذي حلّ عليه عندما علم بوظيفتها السابقة . السابقة ، فكر ، كيف لي أن أعرف أنها لن تلجأ إلى ذلك العمل في مدينة أخرى؟ تمرر المعلومات إلى وكلاء قلاوون وتتلقى الأموال مقابل ذلك؟

سألته «وماذا عنك؟ ما الذي يكلفك قلاوون بعمله؟»

قال عبد «أنا أخدم بيبرس . أنا مساعده الشخصي السري . إنه منصب مهم جداً في خدمة الأمير» .

قالت «أنا متأكدة» .

تنحنح «نعم ، حسناً . إنه عمل صعب ، لكنني لم أعرف أي شيء يشبهه أبداً» .

«أنت تبدو مختلفاً جداً عما كنت عليه حينما كنت دارساً في بيت الحكمة . تبدو أنحف . أقوى» .

«أنت مازلت جميلة» .

بدت للحظة وكأنها على وشك أن ترد عليه ، لكن وجهها انهار ومالت إليه . أحاطها بذراعيه وسحبها إليه ، ثم رفع يده بلطف تحت ذقنها وأوصل شفتيها إلى شفتيه .

***

«هناك الكثير من الجبال في جزريل» قال قلاوون وهو ينظر إلى

الخريطة . كان واقفاً ويداه مبسوطتان على الطاولة ، ومازال يرتدي الملابس التي كانت على جسمه لدى عودته من البرية . «ولكن أيضاً الكثير من المساحة للانتشار وشن هجوم إذا أردنا ذلك» .

قال بيبرس «لا نريد أن نشن هجوماً شاملاً . نريدهم أن يعتقدوا بأنهم يدخلون بلاداً مفتوحة وأنها ستكون معركة مقررة نتائجها سلفاً . بدلاً من ذلك ، نحشرهم ونلغي ميزتهم العددية في واحد من الممرات» .

«إنها حيلة قديمة يا بيبرس . لماذا يمكن أن يجر كتبغا هذا إلى مكان على الأرض حيث النتيجة غير محسومة؟» نظر قلاوون إلى مهنا وتيكا وبقية نقباء الحرس المتحلقين حول الطاولة .

«ما الذي يقوله قطز؟»

قال بيبرس «لا شيء حتى الآن . سيحضر إلى هنا في الصباح كما قلت» . لاحق بإصبعه خطاً على الخريطة من غزة إلى الشمال ، يلامس عكا ثم يستمر غرباً ، قريباً من نهر الأردن . «لا يعرف قطز هذه البلاد كما نعرفها نحن . أمضينا سنوات هنا كخارجين على القانون بينما كان هو يخدم الغاصبين» .

قال مهنا «احترس فيما تقوله عن السلطان يا بيبرس . إن التشكيك في السلطة الملكية ينطوي على خطورة» .

رفع بيبرس رأسه «إنه يعرف رأيي . هذا -» عاد ليشير إلى الخريطة وتلفت حواليه ليتأكد من أنهم جميعاً ينظرون . «هذا هو المكان الذي ستقع فيه المعركة . لن يصل العدو إلى سيناء أبداً ، ناهيك عن مصر نفسها . أية بقايا لجيشهم أو أي نهب يقومون به ستقع نتائجه على المسيحيين في عكا ، وليس المملكة الإسلامية الأخيرة . يجب المحافظة

على ذلك الوضع مهما بلغ الثمن . هل توافقون؟» سلَّط نظره متنقلاً من رجل إلى الآخر وطأطأ الجميع بموافقتهم . «سيوافق قطز ويرى الوضع بالطريقة نفسها» . نصب قامته «وأنت مصيب يا قلاوون . لن يحشر كتبغا جيشه في وادٍ مثلما لا يقبل أسد على الدخول في قفص . ينبغي إقناعه . إغراؤه . بمجرد أن ندخل الوحش في القفص ، بعدها سنغلق الباب بعنف ونطعنه برماحنا» .

الفصل الثلاثون

«يجب أن أرجع» قال عبد وهو يسوي وضع قميصه «لدي وقت قصير جداً من كل يوم لأدرب فيه رجالي» .

سألت صفية «وهل أنت تقود رجالاً؟»

«هو فصيل صغير . أقل من خمسين . . .» توقف . نظرت إليه للحظة ثم ابتسمت .

«لا داعي لأن تقلق من إخباري بالتفاصيل يا عبد . نحن على الجانب نفسه ، هل تذكرت؟»

«نعم ، بالطبع» أدخل سترته داخل بنطال ركوبه «أي دور أؤديه في القتال سيكون صغيراً» .

«آمل ذلك ، فأنت دارس وعالم ، ولست مقاتلاً» .

«نعم ، وهذا هو السبب في قيادتي لهؤلاء الرجال . إنهم يستعملون سلاحاً جديداً . هو إلهاء أكثر منه قوة هجومية» .

«أرجو أن لا تكون أنت الطعم» .

«كلا ، أنا –» توقف عما كان يفعله فكر لنفسه : ***هل أنا الطعم؟*** أخبره المنطق أنه بالرغم مما يعرفه عن قسوة بيبرس والفرسان الآخرين ، فهل من غير المحتمل أن يفرطوا بالأسلحة الجديدة ، المدافع التي سيحملها رجاله . قال لها «يجب أن أذهب . سوف أعود بأسرع ما يمكنني» .

«سوف أعود لأرى ما رتبه قلاوون بالنسبة لنا» .

قال عبد «أفضل لو أنك تبقين هنا» .

«وأنا أعتقد أن الأفضل هو بقائي مع صاحب عملي» قالت صفية . حاول أن يجادل أكثر ، لكنه أدرك أن ذلك عبث . «سوف أراك قريباً يا عبد . اذهب ومارس عملك . وسوف نرى بعضنا لاحقاً» .

مشى عبد في الشارع ، يحمل شعوراً بالإرهاق ونادى على أنصار ليجمع الرجال . بعد ذلك ، لحق بالنقيب وسط مراقبة جمهور فضولي من رجال الفرسان ، وهو يسير بالرجال إلى حافة شاطئ البحر ، وهناك جعلهم يقومون بمناوراتهم فوق لسان رملي .

«هل سيتمكنون من إطلاق النار من خلف ساتر؟» ، سأل عبد بينما قام رجال الصف الأول برفع مدافعهم الفارغة ومثلوا أنهم يطلقون النار على عدو متخيل .

«ساتر؟»

أشار عبد إلى الصف الثاني المتقدم ، بحيث قامت الوحدة كاملة بتشكيل مربع بعمق أربعة صفوف «أقصد أنهم لن يقفوا في مكان مكشوف ويطلقوا كما في المعركة . حتى مع تغطية من قبل رماة السهام ، فإنهم لن يقدروا على فعل الكثير أمام هجمة شاملة من خيالة المغول» .

نظر أنصار في الإتجاه الذي أشار اليه عبد وقد عقد حاجبيه .

قال عبد «أقصد أنهم - أننا - سنضطر إلى الخروج من موقع مخفي . يجب أن نصل إلى مدى كافٍ للإطلاق ، وما لم نقدر على تحطيم تصميمهم بدرجة كلية ، فإنهم سيهجمون علينا بينما نحن نقوم بإعادة تلقيم المدفع» .

سأله أنصار «إذاً ما الذي تقترحه؟»

«سوف نكون بحاجة إلى بلطات» . قال عبد .

مع حلول الوقت الذي راجع فيه خطته مع الرجال ثلاث مرات بالتفصيل ، وتأكد من أنهم فهموا ما سيكون مطلوباً منهم ، لم يعد عبد قادراً على شيء سوى العثور على زاوية والزحف إليها ، والنوم قبل أن تقرر المجموعة التحرك مرة أخرى ، لكنه كان مجبراً على البحث عن بيبرس والاستفسار منه عما إذا كان يرغب في خدماته قبل هبوط الليل . عثر على القائد في المكان الذي تركه فيه ، داخل المسجد القديم الذي تم تحويله إلى كنيسة ثم جرى تدميره مؤخراً ، وهناك جلس بيبرس بين ضباطه ومساعديه يصغي بينما يخبرونه بتفاصيل تفقد الأفراد ومخزونات مدير المستودعات .

أذهله أن يكون الرجل الجالس في وسط حشد صغير لا يزيد عدد أفراده على ثلاثين مساعداً يحمل مسؤولية الدفاع عن مستقبل أمة بكاملها . كان بيبرس يتولى قيادة آلاف الرجال بينما كان أولئك الجالسون ضمن دائرته يقودون آلافاً أخرى بدورهم . بسبب درعه الخشنة ولحيته المغبرة ، فقد بدا مثل زعيم محلي أكثر منه قائداً عاماً ، فقد ذهبت الملابس الراقية والعمائم المخصصة للصالونات منذ وقت طويل . سأله «هل التقيت بفتاتك يا عبد؟»

«نعم يا صاحب السعادة» . أخرج لوحة كتابته من كيسه .

«وهل هي بصحة جيدة؟»

جلس مهنا والموت وتيكا خلف بيبرس ، يتشاركون في طبق من الفواكه ويتفقدون أسلحتهم .

«إنها بخير» تلفت عبد حواليه فلمح قلاوون يخوض نقاشاً خاصاً مع مجموعة من مقاتلي الموت .

«إنني ممتن لقلاوون لكونه أخرجها إلى السلامة ، والآخرين كذلك» .

«ليس هنا أحد آمن بعد يا عبد . وربما سيأخذ الله سبحانه وتعالى أي واحد منا أو جميعنا من هذه الحياة خلال الأيام القادمة . أنا سعيد لأنك قضيت معها بعض الوقت» .

فكر عبد في إخبار بيبرس عن مصير ابن دقيق ، لكن لم يبد الوقت مواتياً . لاحظ مهنا يحدجه بنظرة جانبية . أشار بيبرس إلى لوحة الكتابة «لن تحتاج تلك في هذه الليلة ، ولا حتى يتم حسم المسألة بيننا وبين كتبغا . أحضر لنفسك بعض الطعام واسترح . كيف هي المدافع؟»

«حادة» كان بوسع عبد أن يلقي بذراعيه في الهواء ليسمع أنه لم يعد مطلوباً منه أن يخدم هذه الليلة . «ستكون المدافع جاهزة عندما يحين الوقت» .

قال بيبرس «إنني سعيد لسماع ذلك . اذهب الآن لتؤدي الصلاة وتستريح . سوف تحتاج إلى القوة والإيمان في الغد» .

اختار عبد بقعة في الزاوية وأفرد بطانية عليها بينما ذهبت أفكاره إلى صفية . بدأ معظم الرجال يفعلون الشيء نفسه . فكر أنه ينبغي عليه أن يذهب ليعثر عليها ، لكنه تذكر أنها أخبرته بأنه لا حاجة إليه .

أثناء جلوسه هناك ، شاهد قلاوون ينسحب ويتجه خارجاً ، فتوترت أحاسيسه على الفور .

فهل هو ذاهب لرؤيتها الآن؟ أدرك أن ذلك الإحساس خطير . عوضاً عن تغذية شعوره بالحسد ، أغمض عينيه وامتنع عن الإصغاء إلى الأصوات المتبقية ، وأخذ أفكاره إلى مكان آخر بعيد جداً ، حيث

كانت توترات وشكوك حاضره بعيدة كل البعد .

أيقظه صوت خيول جديدة قادمة إلى الشوارع في الخارج ، ومع استناده لينهض واقفاً ، وهو يتمطى ليزيل التيبس عن أطرافه ، جاءت صيحة من الخارج «افسحوا الطريق للسلطان !»

وقف بيبرس والآخرون مسبقاً على نور الشمعات القليلة الهزيلة ، ينتظرون . تقدم حملة المصابيح أمام قطز ، والذين أضاءت مصابيحهم الزوايا المظلمة في الغرفة التي وقف فيها عبد وبقية صغار الضباط يراقبون . مشى قطز وراءهم مباشرة ، وقد استبدل راياته وملابسه الملكية بالزي الذي ارتداه أثناء الحملات ضد الفرنجة في دمياط . دهش عبد من مقدار الشبه بينه وبين بيبرس لدى وقوفهما . يواجه أحدهما الآخر .

انحنى بيبرس «مرحباً بك يا مولاي» . قلَّده الآخرون . عاد قلاوون .

«لقد وصلنا» رفع قطز ذراعيه باتجاههم «ما هي الأخبار؟»

خطا قلاوون إلى الأمام «لقد خرجوا من بعلبك خلال الأيام الفائتة يتوجهون جنوباً . إنها قوة مختصرة جداً من تلك التي استخدمها هولاكو في الحملة السابقة ، لكنها ما تزال قوية» .

سأل قطز «هل هي مساوية لأعدادنا؟»

«على الأقل» . قال قلاوون .

هزَّ السلطان رأسه «أنا سعيد لرؤيتك يا أخي» . قال لقلاوون .

«وأنا كذلك يا مولاي» . رد قلاوون «لقد مضى وقت طويل قبل أن نضم أسلحتنا إلى بعضها» .

قال قطز «والآن وقد فعلنا ، فسوف نزلزل العدو» .

سأل بيبرس «ما هو أسرع وقت يمكنكم التحرك فيه؟»

«الآن» قال قطز «استعدوا للحركة . يمكنك أن تخبرني عن الأرض التي اخترتها والخطط العملياتية أثناء الطريق» . عبر على وجهه شبح ابتسامة «نحن على صواب ، إذ نفترض أن هذه المواقع قد تم اختيارها منذ وقت طويل ، وإلا فلماذا أجد نفسي في غزة بينما كنت أنوي التوقف في سيناء؟»

«أنت على حق بالطبع ، يا مولاي» . قال مهنا بلهجة مرحة «فقد اختار بيبرس موقعه من قبل أن يغادر دمشق» .

هزَّ قطز رأسه ، وقد ارتسم على وجهه تعبير غامض «ذلك هو ما افترضته» .

حوَّم عبد ثم اندفع باتجاه قلاوون خلال الدقائق التي تلت ، بينما تحرك الرجال مسرعين لتجميع كل حوائجهم قبيل المغادرة شمالاً .

«إنها مع البغداديين الآخرين في بناية خارجية عند المؤخرة ، يا عبد» . قال قلاوون قبل أن تتوفر له الفرصة ليقول أي شيء . «اذهب وأخبرها بعبارات وداعك ثم ارجع قبل أن يلاحظ بيبرس ذهابك» . انتظر قلاوون لحظة ليسمع جواب عبد ، ثم قال «ستتم العناية بها . وستكون بأمان أكثر حتى منك ، بكثير» . حدَّق فيه قلاوون ليرى إن كان لكلامه تأثير مهدئ . «إذهب الآن ، بسرعة» . أطلق عبد عبارة شكر عاجلة ثم انفتل ليركض خارجاً . راقبه قلاوون ثم عبس «عبد ! عد إلى هنا!» عاد الشاب ومضطرباً . مدَّ إليه قلاوون قرصاً معدنياً من الفضة ، عليه نقوش وتصاميم وأبيات شعر على وجهيه ، مربوط بسلسلة سميكة لتسمح بوضعه حول الرقبة أثناء السفر . «هذا ختمي . أبرزه للحراس . ستكون صفية والآخرين بأمان لحين عودتنا . لقد أتممت

الترتيبات لإعادتهم إلى القاهرة» .

تناول عبد الختم وعاود الخروج .

كانت قد سمعت الضوضاء لدى وصول قطز فوقفت مع المنفيين الآخرين في الباب ، محاولين النظر إلى الخارج نحو الغرفة الرئيسة . رغم أن الشعاعات الأولى لذلك الصباح قد بدأت بالدخول عبر النوافذ الفرنجية المكسورة ، وجدت نفسها في الصف الأول ، متقدمة على معظمهم . رفع عبد الختم في وجه الفارسين ثم سحبها من يدها ومشى بها بضع خطوات إلى ناحية خالية من الناس .

قال لها «أنا مغادر»

«وكذلك أنا» قالت «لقد قال قلاوون إننا يجب -»

«أنتم ذاهبون إلى القاهرة ، لقد أخبرني ، لتوه» .

سألته «هل سأراك هناك؟»

«نعم . سوف أجدك عندما أعود . إذا لم -»

«كلا» قالت «سوف تعود . لا تفكر بأي طريقة أخرى . سوف أصلي لأجلك» .

«وأنا سأقاتل من أجلك» . توقع أن تجد ذلك مضحكاً ، لكنها بدت حزينة بدلاً من ذلك .

«لا يمكنك أن تتجنب الخطر ، ولكن لا تتحامق» .

«سأتحلى بالشجاعة» . أخذ يديها بيديه وسمحت له .

«الشجعان هم الأكثر حماقة من الجميع يا عبد . ليحمك الله» . أدارت كفتيها وشدت على يديه ثم مشت عائدة إلى الغرفة . سحب عبد نفساً عميقاً ثم عاد إلى منطقة الضباط ليعثر على حوائجه ويتعرف على مكان حصانه .

الفصل الحادي والثلاثون
وادي جزريل

نحن الآن عند سفوح جزريل ، أرض خضراء وخصيبة بقدر أي بلاد مررت بها من قبل ، ورغم ورود تقارير بوجود اشتباكات قد حدثت بين العدو والحراسات المتقدمة ، إلا أنني لم أر شيئاً منها . .

رفع عبد رأسه عن لوحة كتابته إلى حيث وقف حراس قلاوون المغول حول نار موقدة . كانوا يضحكون ويتبادلون القفشات في خليطهم من اللغة العربية ولسانهم الأصلي ، تلك الأصوات الممطوطة التي تبدو وكأنها خارجة من أعماق حلوقهم ، والتي لم تكن لدى عبد أي فكرة كيف يمكن لشخص أن يحاول ويكتبها على صفحة ما .

عاد إلى الكتابة بسرعة - العدو مخيف ، ليس هناك من شك حول ذلك ، لكن رجالنا مطمئنون إلى معرفتهم بأن الله معهم ، وأن الانتقام والمعاقبة على الوحشية التي تسبب بها الخان على بلاد الإسلام سيكون سريعاً .

نقر بالريشة على معصمه الأيسر قبل أن يدون للصفحة التالية :

إذا لم يتوج الاشتباك القادم بالنجاح ، وتم دحر جيشنا من الميدان . فقد اتفق الأمير بيبرس والسلطان على موعد التقاء عند مدخل صحراء سيناء ، حيث سيقومان بنصب جدار من السيوف ضد الغزاة ، وبعد ذلك عند السويس إذا اقتضى الأمر . لن يكون هناك أي استسلام للكفار .

«أيها الكاتب عبد ! ما الذي تفعله هنا؟ أين هي وحدتك؟»

كان بيبرس خارجاً من خيمته باتجاهه ، ويمشي تيكا عند ذراعه اليمنى ، وخلفه قلاوون والموت ومهنا ، كما هي عادتهم حالياً . تمت إحاطتهم برجال الحرس الشركسي ، والذين كانوا واقفين بهيئة استعداد أمام المدخل ، تم تشكيل الفرسان المغول في طابور وانتظروا مرورهم قبل أن يحيطوا المجموعة بصف آخر من الحماية .

لاحظ عبد مؤخراً أن الحراسة حول بيبرس تتزايد يوماً بعد الآخر . أصبحت قريبة جداً ، ولو ليست مساوية تماماً ، للحراسة الموجودة على قطز . أحيطت حلقة الخيام التي تؤدي مهمة مقرات نومهم وغرف اجتماعاتهم بسياج خشبي واستحكامات ، مع وجود مجرد مدخل واحد وجسر يسمح للجياد بالمرور عن كثب وخندق خلف كل ذلك ، يحيط بكل المعسكر ، احتياطاً لوقوع أي هجوم . ظلوا بهذه الطريقة منفصلين أيضاً عن الجسم الأكبر للجيش الملكي المعسكر في بقعة قريبة .

هب الكاتب واقفاً على قدميه مع اقتراب القائد العام . «لديهم مبيت مؤقت هناك يا صاحب السعادة» . قال مشيراً بيده .

لاحق بيبرس اتجاه اليد التي تحمل الريشة «حسن جداً . تأكد من حصولهم على الكثير من الطعام» .

انزل عبد يده وسط نظرات ضاحكة «نعم ، سيدي»

«ما هو شعورك تجاه رحلة متعة؟»

«سيدي؟» أخذ عبد يستخدم الألقاب الرسمية مع بيبرس في محاولة منه ليبدو أكثر على هيئة رجل عسكري ، لكن ذلك لم يؤد حتى الآن سوى إلى إعطاء الحلقة الداخلية للقائد العام مسألة مرح هادئ» .

«نحن ذاهبون في رحلة ركوب لنرى ما إذا كنا سنتمكن من الحصول على فكرة حول تواجد العدو وتضاريس الأرض ، يجب أن ترافقنا وتدون سجلاتك» .

قال قلاوون «لا تسمح لهم بأن يأسروك» .

نظر بيبرس إلى الوراء نحوه ثم عاد لينظر إلى عبد «نعم ، لا تقع في الأسر . هذه نصيحة جيدة يا قلاوون . أنت تعرف ما يفعله المغول بالأسرى ، أليس كذلك؟»

ابتلع عبد ريقه «كلا» .

«سوف نخبرك في طريقنا . هيا اركب !»

امتطى الجمع ظهور جيادهم بدون أي إبطاء وانطلقوا في الأرض الواطئة نحو بقعة قال بيبرس إِنها ستجعل كل ما يتبع سهلاً على الفهم .

قال قلاوون «أبقِ عينك يقظة يا عبد» . بلهجة أكثر جدية الآن ؛ لأنهم أصبحوا في أرض مكشوفة «هنالك جماعات مغيرة في جميع أنحاء المزارع هنا» . أشار إلى أمكنة في المدى ، حيث نظر عبد ليرى الأدخنة تتصاعد من أمكنة مختلفة تبعد عن بعضها قرابة ميل أو اثنين . «نأمل أن نصادف أولئك الغزاة . سوف يدفعون ثمناً غالياً مقابل منهوباتهم الثمينة في هذه الأنحاء» .

ركبوا في وسط الأراضي المنخفضة مباشرة ، وأوقفهم بيبرس فيما ظهر أنه مركز وقلب قعر الوادي المستدير . «انظروا حولكم» قال مخاطباً الجمع «يقع البحر خلفنا من حيث أتينا وتلك هي الطريق» . أشار إلى أمامه ، غرباً . «التي سيسلكها كتبغا ، بمحاذاة نهر الأردن . إنهم بحاجة إلى الماء لخيولهم . الآن ، انظروا إلى حيث نقف . انظروا كيف توفر

الجبال فتحة هناك . هل ترونها؟» هز الجميع رؤوسهم موافقين . ارتفعت التلال المحيطة بجزريل ودارت حولهم مثل مسرح دائري طبيعي ، أو بمعنى أدق ، مثل قصعة حساء ، بحيث بقي المدخل الوحيد هو النقطة الواقعة بين منحدرات جبل تابور وشمال جبل موريه الذي كان بيبرس يشير إليه . «النهر هناك» . تحركت يده إلى اليمين .

«وتمتد جبال الكرمل إلى تلك البقعة التي قدمنا منها لتونا . تقع بيسان خلفهم والناصرة هناك» . أدى دورة كاملة في سرجه وأشار إلى القرية ، التي بانت لهم على شكل مجرد نقطة إلى جهة الشمال . «هذه» قال مشيراً إلى الأرض «هي المكان الذي سنقاتلهم فيه . هذا هو القفص الذي سأحشرهم فيه . مهنا؟» رفع البدوي رأسه «سوف تقدم لهم الدعوة عبر تلك الفتحة» .

«سيكون ذلك شرفاً لي يا بيبرس» .

هزَّ القائد رأسه «أحضرهم عبر ذلك الممر كما تحضر الغنم إلى الحظيرة ، وبمجرد دخولهم ، فهم لن يخرجوا . إن ظهورنا موجهة نحو الشاطئ ولن يكون هناك مكان ليتفرقوا فيه وسط هذا السياج» .

نظر إلى كل واحد منهم بدوره «لا تشتبكوا مع العدو حتى يصدر لكم الأمر . هل هذا مفهوم؟ سنخوض هذه المعركة حسب شروطنا وليس حسب شروط هذا القائد كتبغا - هو الذي يتنازل ويفكر أن بوسعه أن يركب من فوقنا بدون مقاومة . هذه أرضنا ، ونحن الذين نختار كيف سنقاتل دفاعاً عنها» .

صدرت عنهم همهمات موافقة ، لكن لم يكن هذا وقت إطلاق الشعارات وصرخات التشجيع . استطرد بيبرس «لا تكسروا النظام . إلا بالنسبة لك أنت يا مهنا . إفعل كل ما بوسعك لتجعل كتبغا يبتلع الطُعم» .

سأل الموت «وأين سيكون موقع قطز؟»

قال بيبرس «سيكون السلطان أيضاً في موقع من اختياره . لديَّ اجتماع معه هذه الليلة ، وسيمنحنا مباركته هناك ، أو أنه سيختار سلوك سبيل آخر» .

تساءل عبد متعجباً من درجة احتمال أن يختار قطز الانحراف عن خطة بيبرس . فقد بان على القائد المعرفة الوثيقة بهذه الأرض وتصوره للحرب القادمة بحيث تخيل عبد أنه يستحيل مقاومته . راقبه الآن وهو يمسح حوض جزريل بعينه ، حيث يومض بياض عينه المصابة وهو يطأطئ برضى واقتناع بالموقع الذي اختاره ليخوض المعركة فوقه .

ركبوا عائدين إلى المعسكر ، وأصيب عبد بالخيبة عندما ذهب بيبرس إلى الخيمة الملكية ولم يصطحب معه سوى تيكا كحارس له . سمع لاحقاً أنه والسلطان خاضا في حديث خاص ، وعندما عاد بيبرس كانت معنوياته أعلى حتى من قبيل ذهابه . أعلن «سنركب!» فأطلق كل من تجمع في المساحة المكتظة لخيمته هتافاً عالياً .

قال مهنا «سوف أغادر على الفور . لا نوم حتى النصر» .

«إن شاء الله» قال بيبرس وعانق زعيم القبائل . «تذكر أنك تركب بصحبة الله والإسلام» .

قال مهنا «رجالي لا يعرفون الخوف . نحن نتطلع قدماً إلى مشاهدة سهامكم في الغد» .

غادر مهنا ، وانكب الفرسان النظاميون على خريطة ، ليست أكثر من رسم أولي للوادي ، يوضح مكان تموضع كل واحدة من فرق الجيش .

«هذا أنت يا عبد» قال بيبرس ، واضعاً إصبعه على خط يحدد سفوح التلال . «مكان لطيف وآمن . لن يعرفوا ما الذي أصابهم» .

«سوف أخبر أنصار والرجال» . قال الكاتب .

«حسن . أريدك أن تعود بعد ذلك . قل لأنصار إنك ستتأخر بسبب مهماتك هنا ، حتى يلتحق بالفصيل الثاني وسوف تلحق به في مكان التموضع» .

تركهم عبد ليكملوا تخطيطهم ، حيث أخذوا يراجعون خطط الطوارئ في حال فشلت خدعة مهنا . كان الظلام مخيماً في هذه الآونة ، وسوف يقوم بيبرس بتحريك الوحدات الأولية خارج المعسكر وباتجاه الميدان خلال أقل من ساعتين . شحنت الخطة كيان عبد بالطاقة المتوترة ، بحيث أصبحت يداه تنملان وعقله يتسارع . لم يشعر بمثل هذه الحيوية من قبل مطلقاً ، بحيث عادت ذكرى لقائه لقوات الخان في قصر الخليفة المستعصم بالله تتراءى لذهنه وكأنها تحدث للمرة الثانية أمام عينيه . فكر أن القائد العام بايجو سيكون هناك في مكان ما حالياً ، ونظر باتجاه نهر الأردن وكأنه يتوقع أن يرى أمير الحرب المغولي يمثل كالشبح من خلال الوهج البرتقالي للمزارع المحترقة . مازال موفده بيسوداي الذي تجرأ على إهانة السلطان معلقاً على شكل قطع فوق رؤوس المارة في القاهرة . . .

هل يعرف بايجو ذلك؟ إنني لأتساءل .

أصغى أنصار إلى ما قاله عبد له حينما زار سرية المدفع وسأل عن التفاصيل التي لم يكن واثقاً منها . عندما أنهى عبد كلامه ، أراد أن يخبره بأنه يتمنى لو أمكنه أن يزحف معهم إلى خط المعركة . لكن الكلمات وئدت في فمه .

شعر النقيب بإحراجه غير الملائم فسأله «هل ستكون بصحبة بيبرس؟»

«أعتقد ذلك. لقد طلب مني العودة إلى مقر القيادة بعد أن أبلغك أوامره».

«في هذه الحالة، ستكون أنت أقرب منا إلى خط القتال، لذلك لا تقلق على احتياجاتنا. سوف نشملك في صلواتنا، ونراك تحضر إلينا عندما ينقلب التيار».

تأثر عبد بتفهم الجندي القديم، فودعه واتخذ طريقه عائداً إلى مقر قيادة بيبرس. عاد هناك إلى إخراج لوحته وبدأ يدون أحداث ذلك النهار.

وهكذا فقد حدث أنه جاء مراسل طارداً مطيته ودخل وسط مجمع بيبرس ثم طلب رؤية القائد، في ساعات الصباح الأولى. رغم عدم ارتدائه سوى ألبسته الداخلية، كان بيبرس في أتم وعيه، وعينه الصالحة تلمع، وهو يستمع إلى تقرير الرجل القائل إن مهنا قد التقى بالحرس المتقدم لما اعتقدوا أنها قوة كتبغا الرئيسة. قام القائد المغولي بمصادرة القوارب النهرية، من الفرنجة كأقوى احتمال، لكن معظم أفراد قوته تمتطي ظهور الخيل وهي موجودة على الضفة الغربية من النهر.

«هل أظهر مهنا نفسه لهم؟»

«لقد اتبعوا أوامرك القاضية بأن لا يجعلوا الأمر يبدو وكأنهم يقومون بغارة إلهاء. بل تراجعوا فور رؤيتهم العدو وكأنهم فوجئوا، ورفضوا أن يصمدوا في مكانهم. أمر مهنا بإشعال عشرات الحرائق في التلال المحيطة بجبل الطور، ويبدو أن هذه النيران قد اجتذبتهم مثل العث. أمر بإطفائها قبل أن يصل كتبغا بحيث تبقى الجمرات دافئة ويبدو الأمر وكأن القوة التي اشعلتها قد غادرت على عجل، بغض النظر عن جحمها.

هزَّ بيبرس رأسه بينما استمرت أصابعه بالجري وسط لحيته . «ذكي» . فكر وهو يرى النتائج المحتملة تتراقص أمام عينيه . «نعم ، جيد . ماذا يفعل الفرنجة المقيمون على قمة جبل الطور؟»

«لا شيء يا صاحب السعادة . إنهم قابعون خلف أسوارهم ولا يظهرون أي علامات حيوية . حتى أجراسهم لا تقرع» .

«وهكذا سيستمر الوضع بالنسبة لهم . أيها الموت؟»

خطا القائد الكردي إلى الأمام «في خدمتك» .

«هل يمكنك أن تركب وتريح المهنا؟ قم بمقاومة رمزية . إجعلهم يعتقدون أنهم أثاروا عش دبابير هنا ، ولكن لا تصمد في وجههم مهما بلغ الثمن» .

«وماذا عن المجانيق؟»

نفض بيبرس رأسه «كلا ، لا نريدهم أن يتوقفوا ويعيدوا تنظيم صفوفهم بعد» . نزع اليد التي كانت تمشط لحيته وحكها بكسل ثم نظر إليها قائلاً «إشعطوا لحاهم ، إجعلوهم يشعروا بلسعة الدبور» .

انطلق الموت وقد رفع الكلام معنوياته إلى القسم المعتم من المعسكر ، يطلق الأوامر ويشير إلى مستودع اللوازم في المدى . خلال دقيقتين ، كان الرجال قد بدأوا يحملون الصناديق من إحدى العربات الثقيلة التي تجرها الثيران إلى عربات أخف وزناً ، تسحبها خيول الجر .

سأل عبد «ما هو ذلك؟»

قال بيبرس «ذلك هو النفط» وهو يستدير عائداً إلى مقره ليرتدي ملابسه . أثناء استعداد القائد العام ، راقب عبد مجموعة الموت وهي خارجة من المعسكر إلى حضن الظلام . حضر تيكا وقلاوون ، وقد ارتديا عدة القتال كاملة ، وبتعبيرين من الجدية لم يرها عبد عليهما من

قبل . ظهرت نقاط من الضياء إلى جهة الغرب على البعد ، وكأنها نجمات ساقطة ، ولكن بالاتجاه المعاكس ، تنير ما حولها صاعدة من الأرض لتعاود الاختفاء في السماء .

سأل قلاوون «هل شاهد أحد الموت ذاهباً لتعزيز قوات مهنا؟»

«ذلك صحيح» قال عبد «لقد أخرج براميل من النفط من المستودعات» .

«وهذا ما رأيته» قال قلاوون ، وهو يهز رأسه إعجاباً باتجاه زخات النار فوق الوادي .

ظهر بيبرس خارجاً من مدخل الخيمة ، حاملاً رمحاً في إحدى يديه وقوسه القصيرة بالأخرى . تراجع عبد لدى رؤيته القوس مدخرة وجاهزة للرماية ، رغم أن بيبرس أبقى السلاح موجهاً نحو الأرض . سأل «ماذا عن الجياد؟»

أجابه قلاوون «جاهزة» .

«لن يستغرق هذا الأمر وقتاً طويلاً . تعال يا عبد وسجل ما يمكنك تذكره» .

ركب أربعتهم عبر المعسكر إلى محيط قطز الملوكي ووجدوا السلطان مستيقظاً ومستعداً وهو يتشاور مع مستشاريه . رحب بهم الأمير أنس بحرارة ، ولكن بكتوت والمعزي بقيا عابسين كعادتهما . ركع بيبرس على ركبة واحدة أمام قطز ، بعد أن ترك سلاحيه لدى أحد المساعدين .

«لقد تمت مشاهدة العدو يا مولاي ، وقد أرسلت الدورية الأولى لاستدراجهم إلى الداخل» .

قال قطز «جيد جداً . انهض وكلمني» . لم يتمكن عبد حتى

لحظتها من تعويد نفسه على فكرة مدى التشابه بين السلطان وبيبرس ، خاصة الآن بعد أن خلع قطز الأثواب الملكية التي ارتداها حينما استقبلهم في المرة الأولى ، ولم يرتدِ الآن سوى زي الفرسان البحريين العادي . حتى السيف الذي تسلح به بدا بسيطاً بجانب سيف بكتوت .

«نحن نعرف إلى أين يفترض بنا أن نذهب . هل طرأت هناك أية عوائق منذ آخر مرة تشاورنا فيها؟»

«لا شيء يا مولاي» قال بيبرس ، واقفاً «لقد أتممنا مسحاً للأرض هذا اليوم ووجدنا الشروط والأوضاع كافة كما توقعنا هنا . يخبرنا أصدقاء قلاوون في المنطقة أن المسلمين المحليين قد فروا ، وأن الفرنجة الباقين متحصنون خلف أسوارهم . لقد أكد أحد الكشافة هذه الحقيقة منذ أقل من ساعة» .

قال قطز «إذاً نحن نسلم أمرنا إلى يدي الله مرة أخرى . نحن يا بيبرس نعرف أنك ستقاتل لإعلاء مجده وشأننا كما فعلت على الدوام» .

عاود بيبرس الانحناء «وهو شرف لي أن أقوم بهذا» .

«عند انتهاء هذا العمل سيتفوق تشريفك على أي رجل حي» . قال قطز . نهض بيبرس وانحنى إلى الخصر قبل أن ينسحب من الخيمة ، بينما فتح رفاقه الطريق لمروره .

حضر حشد من رجال البلاط وأعضاء الجيش الملكي وبدأوا يحومون في المكان بعد ورود أخبار عن وصول بيبرس ، لكن القائد رفض أن يفصح عن أية تفاصيل حول آخر التطورات واكتفى بتحية بعض القدامى من البحريين الذين استمروا في خدمة آيبك ثم قطز بعد أن ذهب هو وقلاوون إلى المنفى .

مع حلول وقت وصولهم عائدين إلى مقر قيادة بيبرس ، أصبح من الممكن سماع أصوات تصادم الأسلحة والأصوات العالية آتية من ناحية عاصفة الموت النفطية .

قال بيبرس «سنركب مع شروق الشمس» . سمح لهم بدخول خيمته بينما أحضر هو سجادة صلاته من متاعه ثم أشار قلاوون إلى عبد وتيكا أن وقت المغادرة قد حان .

تجولت المجموعة في أرجاء المجمع على مدى الساعة التالية ، منتظرين لحظة الانطلاق .

لم يعد بوسع عبد أن ينظر إلى السماء المتساقطة أنوارها مثل الشلالات ، فحاول أن يغلق أذنيه عن أصوات الحوافر المهاجمة ويباشر الكتابة ، لكن أصبح الأمر عبثاً .

فقد استحال توارد الأفكار . أقنع نفسه بالاكتفاء بتسجيل نقاط عامة عن أحداث تلك الليلة وما دار بين السلطان وبيبرس ، ثم بدأ هو بدوره يتجول على الأرض البكر خارج خيمة بيبرس .

عندما ظهر أول خيط من شعاع الشمس فوق الأفق ، اندفع غطاء الخيمة إلى الجانب وخرج بيبرس إلى ضياء نصف الفجر . حيًّا تيكا أولاً ، مصافحاً يده ومربتاً على كتفه ، ثم حيًّا قلاوون ، وتبودلت بين الرفاق الثلاثة كلمات لم يتمكن أي شخص آخر من استراقها . كان يبتسم . ألقى بالتحية على الحرس الشركسي وصاح محيياً الفرسان المغول . رأى عبد واقفاً خلف المجموعة الرئيسة فاتجه إليه .

«أنت اليوم تحمل سيفاً وليس ريشة يا عبد ، لذلك لا تفكر أن الرجال الذين ستحاول قتلهم هم جمل بليدة . هاجمهم . أسقطهم بالجراح . لديك قليل من المهارة ولذلك يجب أن تكون بلا رحمة ، هل

تفهم؟» أمسك بمؤخرة رأس عبد بقوة وسط كتفه . ازدرد عبد ريقه وقال «نعم يا سيدي» . عانقه بيبرس بعد أن اطمأن عليه ثم استدار ليخاطب المجموعة الكاملة .

«واليوم سنشهر أسلحة أقوى من ريشة عبد أو حتى السيوف التي بين أيدينا ، ألست مصيباً أيها الشباب؟» صدر هتاف . «لن تكون هناك امرأة آمنة من البحريين من هنا وحتى الخليل!» هتفوا له بصوت أعلى . «هناك مرة أولى لكل شيء ، أليس كذلك يا عبد؟» قال ذلك وقد ارتسمت في عينيه نظرة ماكرة شريرة .

انتظر حتى هدأ الجمع ثم تكلم بلهجة جادة .

«تذكروا ، جميعكم ، ما قلته مراراً وتكراراً عن القتال هذا اليوم . سوف نشتبك مع هذا العدو حسب شروطنا وعلى أرضنا . نحن لا نخوض معركتهم بالطريقة التي فعلها الكثير من الرجال الذين ماتوا قبلنا . إنهم يخوضون قتالنا!» انطلقت صرخة مدوية أخرى من القطعات الأخرى كافة ، يقودها قلاوون رافعاً قبضته اليمنى عالياً . «أطيعوا الأوامر ! أول رجل أراه يخل بالصفوف سوف يتم قتله إما من قبلي أو من قبل الرجل الواقف إلى جانبه . يفترض فيكم أن تقاتلوا من أجل ذلك الرجل الواقف إلى جانبكم . إنه أخوكم وهو موجود هنا لينقذ الإسلام مثلكم . قاتلوا اليوم من أجل بعضكم بعضاً ! قاتلوا معي!» أخذوا يدقون على التروس الآن ويدقون برؤوس رماحهم على أغماد سيوفهم .

أحضر حصان بيبرس إلى داخل الاستحكام فامتطاه بقفزة واحدة وانفتل وسط طوابير الفرسان المستمرين في الهتاف . أضطر بقية أفراد المجموعة ، قلاوون وتيكا وبمن فيهم عبد أن يركضوا إلى الساحة

الخارجية للعثور على مطاياهم ومحاولة اللحاق بالقائد، الذي سبق وعبر المحيط الخارجي للمعسكر، وأخذ يقفز بحصانه نازلاً المرتفع الذي أقيم فوقه معسكر الفرسان البحريين.

بذل عبد مجهوداً للبقاء إلى جانب قلاوون أثناء لحاقهما.

سأل «كم تعتقد أنهم يبعدون عنا؟»

«من تقصد؟ المغول؟» كان قلاوون هادئاً بارد الأعصاب مثل صباح في جبال لبنان، هيئته وملامحه وصوته مرتاحة حتى بدا وكأنه خارج إلى جولة صباحية بدلاً من صراع مميت ضد عدو دموي بلا قلب. نظر إلى المدى أمامه. كان تيكا يضرب حصانه بالسوط ليجري خلف بيبرس. «حوالي مرحلتين، ربما أقل... إذا كانوا قد ابتلعوا الطعم الذي وضعه لهم كل من مهنا والموت».

«متى ستبدأ المعركة؟» لم تعد توجد قذائف أخرى تتطاير على الأفق الذي يزداد بريقاً.

ابتسم قلاوون «لقد ابتدأت فعلاً يا عبد».

أدرك الجميع بيبرس خلال دقائق قليلة، اتخذوا مواقعهم حوله بينما أحاطهم الحراس جميعاً. خلفهم، حضرت القوة البحرية المؤلفة من أربعة آلاف رجل واحتشدت في طوابير وصفوف متكاملة، كلهم يحدقون بشكل مستقيم أمامهم من تحت خوذاتهم المستديرة، وقد استغنوا عن الرماح في غالبيتهم لصالح الأقواس والكنانات المليئة بالسهام. لم يكن هناك قرع طبول ولا غناء، بل سمع بدلاً من ذلك الدبك الثابت للحوافر والذي وفر لهم إيقاع المسيرة. فكر عبد في أن هذه هي موسيقى الفرسان الحقيقية، وتمنى لو كانت يده حرة ليسجل هذه الخاطرة.

وصلوا إلى نقاط مراقبة أمامهم وقد تم التعرف على فرسانها الذين يحتلون النقاط من أربطة الذراع الخضراء التي يرتديها رجال الموت . رأى عبد بعضاً من رجال مهنا غير النظاميين يحومون في الأرجاء . وصلوا مرة أخرى إلى مركز الوادي ، بحيث أصبح الممر إلى النهر مرئياً على مسافة أمامهم ، مع مرتفع صغير أمام ذلك المنظر ، يحجب رؤيتهم لأرضية الوادي الرئيسة .

سأل بيبرس «أين هو أميركم؟»

«إنه في المقدمة يا سيدي» . قال الضابط القائد . «فوق تلك التلة . إننا نتراجع طيلة الليل» .

«متى كانت آخر مرة رأيته فيها؟»

«لقد تم وضعنا هنا قبل ساعة . قالوا لنا إنه إذا اتخذ أي من شبابنا اتجاهاً خاطئاً أنه يفترض فينا أن نرسلهم إلى الشمال ولا نسمح لهم بالابتعاد كثيراً» .

«هل لديك أية أخبار عن البدو؟»

«ما زال البعض منهم في الجوار» أشار النقيب إلى حلقات المتراجعين على مسافة قريبة ، يراقبون «لكن معظمهم اختفى في التلال بمجرد وصولنا . لا نعتقد أنهم سيعودون» .

هزَّ بيبرس رأسه «لن يعودوا فعلاً . حسناً -» انفتل في سرجه «لنلق نظرتنا الأولى على العدو يا قلاوون - خذ وحدتك وامضِ في دائرة إلى اليسار» .

هزَّ قلاوون رأسه وهمز حصانه منطلقاً ، متبوعاً بحرسه وتشكيلة من الوحدات المنوعة من البحريين المنضوين تحت قيادته . ركبوا في قوس واسع واختفوا عن الرؤية بعد بضع مئات من الخطوات من حيث

توقفت قوة بيبرس الرئيسة .

تلفت بيبرس «تيكا ، ابقَ هنا مع الاحتياط . انتظر الإشارة حتى تلحق بنا» . وقعت عينه على عبد «الأفضل هو أن تنتظر أنت هنا أيضاً . نحن لا نعرف ما يوجد فوق ذلك المنحدر» .

قال النقيب وهو يرفع رأسه «هنالك بضعة من قواتنا يحتلون النقطة . لقد رأيناهم يتجولون في الأنحاء قبل لحظات» .

«حسناً ، دعونا نعثر عليهم ونرى ما الذي كان الموت يفعله» قال بيبرس «الى الأمام» .

تحرك قدماً ، والتف الشراكسة حوله ، بينما تبعتهم بقية القوات البحرية في منظر رائع . لاقى عبد صعوبة في كبح وتهدئة حصانه ، الذي أجفل وبدأ يرفس أثناء مرورهم من جانبه .

أطلق دعاءً هامساً وهو يراقبهم يصعدون المرتفع الصغير ثم يختفون تحت قمته المعشبة .

الفصل الثاني والثلاثون

تفتح وجه بيبرس بالبشر على المنظر الذي قابله وحيَّاه . فقد انفتح الوادي بأكمله أمامهم ، وقد امتلأت تضاريسه المتباينة بين الارتفاع والهبوط على التوالي بمجموعات من الفرسان المتقدمين والمتراجعين . أصيب بالدهشة لأنه ، خلافاً لمقاتلة الفرنجة الذين جاءت خيلهم الثقيلة وجريدهم المصنوع من خشب البلوط ، وفوق ذلك بدروع أثقل ، فإن كلا الفرسان البحريين والمغول بدا أخف حمولة وأسرع حركة ، وقد تكثف الهواء بينهما بكثرة السهام التي تطلق من موقع السرج . دأب رجال الموت على الهجوم والتقدم بكتل متراصة ، يطلقون وابلاً ثم يتراجعون قبل أن يتسنى للمغول الخروج من خلف تروسهم والرد على الهجمة . شاهد في المرتفع الكائن على يساره ، على الأرض العلوية حركة أدرك أنها قوة مهنا والتي تدور مثل الثعالب عائدة إلى الممر . استدار نحو مناديه راضياً «أرسل إشارة إلى تيكا ليتقدم» أصدر الأمر وبمجرد تأكيده لبيبرس بأن مجموعة المؤخرة ستحتل موقعها لتأمين التلة ، رفع سيفه وأطلق صرخة الحرب الخاصة به «اهجموا عليهم! اهجموا عليهم!» التقطت الجموع صرخته على طول الطابور ، واندفعت الجياد إلى الأمام لتتبع القائد البحري أثناء اندفاعه السريع وسط المعمعة . هتفوا باسمه «بيبرس ! بيبرس ! بيبرس!» بأعلى أصواتهم ، وهم يتنشقون موجات الهواء البارد أثناء انقضاضهم .

التفت مقاتلو الموت المرهقون وشاهدوا الجيش ينزل من خلفهم فتراجعوا ليفسحوا المجال لهم ليتقدموا وهم يهتفون لهم مشجعين

ويصرخون بالشتائم على العدو ، كانت القوة المغولية على تلك الدرجة من الإرهاق بعد ساعات الاشتباك ، وعند هذه المرحلة كانوا معتادين على المطاردة والدفاع بحيث أنهم لم يكونوا مستعدين لاندفاع مباشر يحاصر تقدمهم . أغلق البحريون الأرض بينهم بأسرع ما ظهر ممكناً ووصلوا إلى وسطهم بدون أي انذار مسبق وهم يطلقون السهام ويطوحون حولهم بأسلحتهم المتنوعة : المطارق والهراوات الشوكية والرماح القصيرة التي كانت مثبتة في سروجهم مسبقاً . أطلق بيبرس سهمه على شاب ذي لحية وشارب يتدليان أسفل صدره ، ثم طوَّح بالقوس الفارغ في وجه شخص آخر . حاول الكشافة المغول أن يظهروا قدراً من المقاومة ، لكن صفوفهم انهارت بسرعة ، وبعدها نفذ البحريون إلى الأرض المفتوحة وراءهم .

أصيب أولئك المغول الذين لم تطالهم الموجة الأولى من الهجوم بالصدمة بعد شعورهم الأولي بالارتياح ، حينما رأوا قوة قلاوون تلتف عليهم من الجناح الأيمن ، بحيث سحقت المتأخرين منهم للمرة الثانية قبل أن تركب مبتعدة نحو قوة بيبرس الرئيسة . في المدى ، كان الجيش المغولي الرئيس قد دخل في الممر ، ولدى رؤيتهم القتال وآلاف الفرسان المتقدمين ، بدأوا ينتظمون في صفوف وكتائب . ظهرت البيارق من أحد طرفي الطابور إلى الآخر ، على مسافة قرابة ميل بينهما ، بيارق مربعة مصبوغة بمزيج من الألوان المختلفة ، أحمر على أصفر ، قرمزي فوق الأبيض والأزرق . راقبوا اندفاع الفرسان نحو مراكزهم الأمامية ثم انتظروا حتى يصل الفرسان المندفعون إلى مسافة يمكنهم منها إطلاق السهام عليهم . أحضرت المجانيق لترمي قذائفها من فوق رؤوس جيش الخان وعلى أعدائهم في المقدمة .

ولكن بمجرد إطلاق المقاتلين المتسرعين بضعة سهام طائشة مع اقتراب الفرسان إلى مدى الألف ياردة الأولى ، قام المهاجمون باستدارة مفاجئة وركبوا عائدين إلى الموقع الذي قدموا منه .

تعمدوا هناك وبوجود بيبرس على رأسهم التوقف للقضاء على المغول المعزولين والجرحى الذين تم دفعهم إلى الجوانب من خلال الهجوم الابتدائي . صعدت صرخات الغضب من الصفوف المغولية الرئيسة وهم يراقبون أقاربهم يوقفون على أقدامهم ثم يتم اختراقهم برماح الفرسان ، بينما جرى تمزيق حلوق آخرين بالسكاكين الجارحة .

صاح بيبرس «اقتلوهم كلهم . اجعلوهم يروا أننا لا نأخذ أي أسرى» .

أوقف قلاوون حصانه بجانب بيبرس ، واتخذا طريقهما صعوداً إلى المرتفع حيث وقف تيكا وعبد ينتظران . هتف رجال الموت مهنئين ولكن لم تكن هناك أي بادرة على وجود قائدهم حتى اللحظة . لم يحاول المغول أن يطاردوهم متسرعين ، بأوامر من ضباطهم . بل استمروا بدلاً من ذلك في التحرك بسرعة سير ثابتة ، يراقبون الجوانب والمرتفعات أمامهم تحسباً للمزيد من المفاجآت .

«حسناً يا عبد ، ما رأيك في ذلك؟ فقد تمتعت بأفضل مقعد في البيت في نهاية المطاف» .

بدا على بيبرس الحماسة الطاغية وأكثر حيوية من أي وقت آخر رآه فيه عبد وقد تغطى هو وحصانه بالدماء نتيجة هجمتهم على العدو .

«رائع يا صاحب السعادة» قالها بصدق وهو يعني كل كلمة ، فقد استطاع بيبرس أن يسفك دماء العدو الذي لا يقهر ونجا بحياته ليبتسم لهم من فوق قمة التلة .

«انهم يتقدمون» قال قلاوون .

«لن يسمحوا لنا أن نفلت بعد مثل تلك الإهانة» . قال بيبرس . تجمع البحريون على السهل تحتهم وانهمك الضباط في إعادة تنظيم صفوفهم إلى وحداتهم «هل رأيت الموت؟»

«لا إشارة عنه» قال قلاوون . بدأت البيارق المرفرفة فوق الكتلة المغولية بالاقتراب ، المنظر يكاد يكون فخماً ، بدون أي إشارة إلى أن كتبغا ينوي أن يندفع ويخاطر بتلقي ضربة من الجوانب .

قال بيبرس «إنه يبقي عينيه مفتوحتين على التلال المحيطة . هو لا يحب الجبال» .

«لقد سمعت بأنه لا توجد سوى هضاب منبسطة حيث يوجد موطنهم الأصلي» قال قلاوون .

«ذلك صحيح» قال عبد «وهذه ليست مناطقهم الطبيعية» .

«وهذا أفضل لنا كلياً» قال بيبرس ، سحب سروع حصانه . «سأتقدم منهم مرة أخرى . «ابقوا هنا» قال هذا لثلاثتهم ثم انطلق ، لوى تيكا سروع حصانه لشدة شعوره بالكبت .

لاحظ عبد وهو يراقب انصرافه ، أن أقرب مرافقيه هم مجموعة غريبة . قلاوون ذو اللياقة البدنية العالية والراقي ، تيكا العملاق المتأهب ، وهو ، الكاتب الدارس .

طرد الفرسان البحريون جيادهم بسرعة خبب بطيئة ، فقد استنفدوا طاقتهم المتوترة الأولية ، ولاحقوا بيبرس بدرجة أقل من الحماسة ، لكن انتظامهم وحدة انتباههم لم يتناقصا . وصلوا إلى مدى فعال من المغول وأطلقوا سهامهم ثم عاودوا الانسحاب وهم يهزون أقواسهم في الهواء لإغاظة العدو الذي أصبح خلفهم . ثم أعادوا تجميع

صفوفهم عند سفح المرتفع ودعاهم بيبرس إلى معاودة التقدم . جاء هذا الهجوم أقصر من الأخير ، لأن المغول كانوا قد تقدموا وأغلقوا المسافة بينهم ولكن النتيجة جاءت مشابهة . بدا الفرسان وكأنهم على وشك أن يهاجموا بقوات كبيرة ولكنهم اكتفوا بدلاً من ذلك بإطلاق السهام على الصفوف الأمامية ، حيث أسقطوا بعضاً من الفرسان سيئي الحظ إلى درجة أن وقعوا ضحية ، ثم تراجعوا خارج مدى الإصابة مرة أخرى . أصبحت الصرخات مسموعة الآن من الصفوف المقابلة لهم ، ولأن عنصر المفاجأة قد انتهى دوره ، فقد أخذت الإصابات تتزايد بين صفوف الجانب البحري . في كل مرة يعودون فيها إلى الهجوم كانوا يتركون خلفهم عدداً من الجثث ، ضحية للرماة القناصين في الطابور المغولي ، الذين كانوا قادرين على اغتنام لحظاتهم ومسافاتهم المتوالية بمهارة احترافية .

بات جلياً أن المحاورة والتهرب في الهجمات الثلاث المنفصلة خلال مهلة مجرد بضع دقائق قد أثبتت فعاليتها ، فقد أخذت أصوات النشيد بين صفوف المغول تتعالى وهي التي بدأت بنوع من الغناء الخفيض وأصبح واضحاً أن الخيالة أخذوا يضغطون بتشوق إلى الاشتباك أكثر من ذي قبل .

قال بيبرس «لقد تهيجت دماؤهم» وقد تسارع تنفسه قليلاً بعد الجهود . نظر إلى قلاوون «هجمة أخرى ستحقق الغاية» . رفع سيفه عالياً فجاءت الصيحة على طول الخط حيث تجمع الرجال حوله . انتظر حتى أصبحوا كلهم بمواجهة العدو مرة أخرى ، وهجموا مباشرة على الخط العريض لقوات المغول أمامهم . بدا الوضع من حيث وقف عبد أن الفرسان البحريين على وشك أن يتم ابتلاعهم بواسطة مدقة جيش

كتبغا المنتشرة فيما يبدو على مدى كامل مساحة الوادي ، فقد ركبوا مباشرة إلى داخل فم الوحش وانغلقت أجنحة العدو عليهم مثل فكين ، وفي اللحظة التي انكمش فيها كيان عبد كله ليتحول إلى عقدة مشدودة من الخوف والتوتر ، عاودوا الخروج وهم يضحكون ويطلقون سهامهم إلى الخلف من فوق رؤوسهم . انحرف فرسان المقدمة إلى اليمين وهكذا تجنبوا عاصفة السهام التي لاحقتهم .

فاق الأمر كل التوقعات ، إنهار تنظيم الجيش المغولي ، ومع اندفاع الوحدات الأمامية التي سقط أفراد رفاقها ضحية لهجوم الفرسان ، فقد اندفع القسم الأكبر من الوحدات الموجودة خلفها ، وفجأة أصبح الجسم الكامل لجيش كتبغا يهاجم في كتلة واحدة ، يطارد الفرسان المسرعين مثل كلب يطارد قطة . راقب عبد وتيكا ابتعادهم إلى جهة التلال في الجنوب وهو مسار أطول مما لو اكتفى بيبرس بسحبهم إلى الأرض المرتفعة التي يحتلونها حالياً .

سأل عبد «هل وقع خطأ ما؟ ألا يحتمل أن يقبضوا عليهم هناك؟» نظر إلى تيكا ولكن أقرب حماة بيبرس إلى ثقته اكتفى بهز رأسه نفياً . وزع عبد نظرته على الضباط البحريين الآخرين القريبين منه ولكن لم تظهر على أحد منهم الرغبة في الإجابة .

عبر الجيشان أرضية الوادي بكاملها وقد تحول المغول من القوة المنظمة المقسمة إلى وحدات بعمق خمسة أو ستة صفوف ، تغطي أرضية الوادي ولكن أشبه بكتلة أفعوانية موزعة ، تجري فوق الميدان وراء ظهور الفرسان الذين بدأوا في الاختفاء .

تذكر عبد للحظة مجنونة الطريقة التي كان رفاقه الصبية الصغار في الماضي يمسكون بالفتيات الراقصات ، أثناء عبثهم خارج أسوار

الأكاديمية . أصبح واضحاً أن بيبرس يسحبهم نحو المنطقة الحرجية على سفوح جبال الكرمل ، وقد رجح عبد في ذهنه أن يتمكن هكذا من إضاعتهم بين الأشجار ، وهكذا يسد الفارق في التفوق العددي الذي يتمتع به كتبغا . فكر في نفسه أن بيبرس خطط لهذا الوضع من الأساس حتماً .

وصل البحريون إلى قمة المرتفع في هذه اللحظة ، ومازال بيبرس ظاهراً في مقدمتهم وقد تقلصت المسافة بين آخر الفرسان وأوائل المغول لتبدو أقل من مئة خطوة .

فوجئ عبد الذي أذهله المنظر حينما رفع تيكا ذراعه وأشار إلى الأمام ، حيث قام المئتا رجل تحت قيادته بتجميع أعنة جيادهم بانتظار صدور أمر النقيب لشن الهجوم . لم يتمكن للحظة من فهم نوايا تيكا الصامتة ونظر إلى الأسفل ، حيث رأى الهدف ، فقد ساعد تراجع بيبرس الخاطف من الميدان ، بعد أن الهب عواطف الجيش المغولي ، على سحب كامل قوة العدو خارج مواقعهم ليزجها في مباراة سرعة لرؤية من سيتمكن من صرع الفرسان ، الوقحين أسرع من غيره . جاءت النتيجة أن وحدات الفرسان ، الذين احتلوا المقدمة وعملوا كنوع من الدروع لأجهزة المجانيق المغولية ، قد تخلوا الآن عن مواقعهم وانكشفت المجانيق التي تتحرك بسرعة البزاق في العراء .

صاح منفعلاً «إنهم بعيدون جداً . لن يتمكنوا من العودة في الوقت الملائم» .

شاهد عبد ابتسامة تيكا للمرة الأولى . مال السيف المرفوع إلى الأمام وزأر رجاله بصيحتهم الحربية واندفعوا نازلين المرتفع نحو أرضية الوادي ، يطردون خيلهم نحو المجانيق والأسلحة الثقيلة الأخرى للعدو المغولي .

لو كان الخيالة الذين يطردون خلف بيبرس قد لاحظوا حتى أن مؤخرتهم تتعرض للهجوم ، فهم لم يصدر عنهم أي إشارة على ذلك . لم يستطع عبد أن يتعرف على موقع قائدهم رغم بقائه على قمة التلة . تبعثرت البيارق والأعلام في هذه الآونة إلى درجة يائسة .

فكر عبد أن إحدى المجموعات المزينة بدرجات خاصة هي المخصصة لكتبغا . فالدروع البراقة والبيارق لا يمكن إلا أن تخص قائداً ذا مكانة عالية حتى في يوم بائس مثل هذا .

اعتقد عبد للحظة خاطفة أنه قد شاهد القائد بايجو بين الفرسان ، ولكنه عاد إلى التفكير بأن خياله المتلهف يمارس عليه الألاعيب .

«يا صاحب السعادة البغدادي» قال له فارس شاب بملامح ارستقراطية . استدار عبد . «أرجوك أن تصاحبني» .

أشار حين رأى تردد عبد إلى التلال التي كان بيبرس والفرسان يفرون إليها «لقد تم وضع رجالك في ذلك القسم من الميدان . سوف آخذك إليهم» .

عاود عبد النظر وأدرك أن الضابط هو أحد الضباط الأربعة الذين يخدمون تحت إمرة أنصار فيما يفترض أنها سرية عبد .

قال «نعم ، بالطبع ، أشكرك» . ونظر إلى حيث اختفى بيبرس لتوه بين الأشجار وخلف المنحدرات ثم عاد لينظر إلى حيث اشتبك خيالة تيكا في قتال عنيف مع طواقم مجانيق المغول .

«سيكونون على ما يرام ، أليس كذلك؟»

منحه ضابط المدفع ابتسامة صغيرة «إن المعركة بين يدي الله سبحانه وتعالى يا سيدي . نحن نتبع الأوامر ونضع ثقتنا فيه» . سحب الأعنة «والآن ، أرجوك أن تجيء معي من هنا . ليست هذه المنطقة

محمية بشكل جيد وأنا مسؤول عن سلامتك» .

ركبنا نازلين المرتفع ورأى عبد أن نقاط المراقبة التي أمر بيبرس بانشائها قبل الانطلاق إلى المعركة ما زالت في أماكنها نفسها . اصطحبه مرافقه باتجاه اليسار تحت غطاء المنحدر ودار فيه بسرعة الطراد ليوصله إلى حيث قال الرجل إن أنصار والآخرين جالسون في انتظاره . قدَّم عبد امتنانه الصامت لكون المعركة تحدث فوق أرض عشبية ثابتة عوضاً عن صخور ورمال مصر التي أصر قطز عليها . بات ممتناً للسيطرة الإضافية التي وفرتها التربة العشبية الصلبة لحوافر وجواده ؛ لأنه ما زال مستجداً في مهارات فروسيته بالمقارنة مع الفرسان بشكل خاص .

دار حول التلال حتى أشار الضابط إلى دروب بين الأشجار وقال «هناك فوق» .

فوجئ عبد بمقدار الحركة على الممر الذي سلكاه حتى هذه النقطة ، والآن أيضاً على الممر الضيق حتى وسط الأشجار . شاهد حملة المياه وجنود التموين الآخرين يجيئون ويذهبون في حركة متواصلة ، بالإضافة إلى وحدات الاحتياط . أحسَّ بالإثارة تتصاعد بداخله تجاه ما يمكن أن يعثرا عليه في الجانب الآخر ، بينما كان الحصانان يبذلان مجهوداً لتحصيل مواطئ لحوافرهما على الدرب .

باتت الرؤية صعبة في البداية نتيجة غطاء الأشجار الذي قلَّص الضياء لدى تجاوزهما القمة ، ولكن عبد أدرك بسرعة أنه ينظر الآن إلى الوادي من الجانب الجنوبي ، وهو الاتجاه الذي اندفع إليه بيبرس بعد أن سحب المغول في مطاردته قبل أقل من ساعة مضت . سيتواجد الخط المغولي الأصلي في مكان ما على الجهة الشرقية .

امتلأ جانب التل بأكمله فيما ظهر أنه أكبر الفرق من الجيش الملكي وقد وقف رجاله في حالة تهيؤ يواجهون ميدان المعركة تحتهم .

تلاحقت أنفاس عبد بعد الطراد «هذا قطز» قال لمرافقه بين شهقاته . «لقد تمكن بيبرس من الاحتيال على كتبغا ليدلي رأسه مثل ثور ، ولكنه لن يتمكن من نطح شيء سوى جدار من الطوب» .

قال الضابط «ليس هناك قائد آخر قادر على مهاجمة العدو لكل هذه المرات بدون أن يضطر إلى قتال متقارب أو يعلق في هجوم معاكس . وحدهم الفرسان البحريون لديهم المقدرة على التحرك بتلك الطريقة» . جاء صوته مثقلاً بالإعجاب «من هنا يا سيدي» .

اختارا طريقهما نزولاً بين صف يتلوه صف آخر من كتائب الخيالة ، حيث وقف الفرسان الآن ينتظرون صدور الأمر إما بالتقدم سيراً على الأقدام أو الركوب للهجوم .

خرج من مسافة بضع مئات من الأذرع تحتهما وخارج مرمى البصر في الزوايا السفلى صوت ارتطام الأسلحة وصرخات الغضب الممتزجة بصرخات الألم . لم يجرؤ عبد على النظر إلى الأعلى ليشاهد مدى التحركات في هذه الأمكنة ، بسبب حرصه على إبقاء حصانه واقفاً وتحت السيطرة ، ولا حتى رؤية ما يدور حوله . لكن الهواء كان محملاً بالشحنة نفسها من الإثارة والتوتر الذي أحسَّ به يتجول في جسمه منذ اندلاع المعركة . تعالت الأصوات الآن ولكن مساعده بات يطمئنه «من هذه الطريق يا سيدي . عبر الأشجار والى فوق قليلاً» .

انفصلا عن مجموعة الجيش الرئيسة ودخلا في أرضية الحرش المليء بالشجيرات والأعشاب .

لم تكن الأرض شديدة الميلان هنا بل تكاد تكون منبسطة

مستوية وترتفع قليلاً عن فسحة الوادي إلى الأمام . نظر عبد خلفه ورأى صفوف الرجال المكتظة الذين غادراهم لتوهما وهم بانتظار حلول لحظتهم ، وهناك في الأرض المكشوفة أعداد متزايدة من كلا القوات البحرية والمغولية مشتبكة في معارك متحركة على حافة الوادي .

توفر لعبد الوقت ليستنتج أن أولئك هم جنود الصف الأول من قوة بيبرس والوحدات المغولية الأسرع الذين طاردوهم عبر الميدان وهم يقاتلون لما اعتقدوا أنه المتراس الأخير فوق الميدان قبل أن يتم إخراج الفرسان ويتم للمغول النصر لذلك اليوم ، قبل أن يأتيه صوت مألوف قائلاً «مرحباً بك يا صاحب السعادة» .

التفت بسرعة «أنصار! أهذا هو المكان الذي وضعونا فيه؟»

بان على نائبه قدر قليل من تشعث الشعر وتغضن الملابس ولكنه كان يتمتع بالحماس نفسها مثل أي رجل آخر .

«الشباب فوق هناك» . أشار أنصار إلى ما بدا مثل صف من الشجيرات والنباتات التي لم تبرز للعيان إلا بعد أن ينظر الشخص إليها مباشرة .

«نحن نبقيها مخفية عن الأنظار حتى يتم بيبرس تحضيرهم لنا . تماماً مثلما أشرت علينا» .

قفز عبد عن حصانه مسروراً وبدأ يقوده من سروعه صعوداً إلى حيث تواجدت سريته . «أنا سعيد لأنني استطعت أن أقدم المساعدة . هل احتفظتم بالبلطات؟»

لحقه أنصار قائلاً «يحتمل أن يكون لها استعمال آخر بعد» .

الفصل الثالث والثلاثون
الفخ

أوقف بيبرس حصانه قبل الحافة بقليل ، حيث وقف الجيش الملكي ينتظر وجمع رجاله على آخر امتداد للأرض المكشوفة ، ثم تهيأ لهجوم آخر على العدو . سيكون هذا هو الأخطر على الإطلاق لأن المغولي وصل في هذه اللحظات إلى ذروته ، لذلك سيكون من الصعوبة بمكان الوصول إلى مدى مؤثر والارتداد بدون تكبد خسائر تتمثل في إسقاط بعض البحريين أو أن يحشروا وسط الموجه القادمة . أثناء التفاته نظر إلى الجحفل المنقض وتقلصت حماسته وتصميمه للحظة . فقد ظهر العدو وهو يكاد يملأ الميدان بأكمله أمامه وأخذت الحوافر تهز الأرض بينما يملأ الزعيق الذي لا ينقطع الهواء فوقه .

إن مثل هذه القوة قادرة على شق السموات وإنزال محتواها على رؤوس المؤمنين .

لحظتها همس له الصوت الذي يأتيه دائماً في لحظات الخطر الداهم وعاد من حافة الهاوية التي كانت قدماه قد تدلت عند طرفها .

قال له الصوت «ستكون أنت والد النصر ، وكما أحضرتك من أراضي آبائك فوق البحار وعبر الصحاري ، سوف أعيدك من هذا المكان وقد أحيط عنقك بأكاليل غار النصر» .

همس بيبرس «الله أكبر» ثم كررها بصوت راعد رافعاً سيفه عالياً ، فردد الفرسان صدى ندائه برنين تجاوب عن التلال والصخور من حوله .

ثم نادى على الرجال المحتشدين حوله «اتبعوني وأرسلوا سهامكم إلى قلوبهم ! أسقطوهم واحموا سلطاننا !»

تمكن الرجال برغم إرهاقهم من الاستجابة لصرخته مرة أخرى بالتكبير . ارتفعت معنوياته وغمرته الكبرياء والفخر بهولاء الرجال . «مرة أخرى ثم نرتد إلى التلال ! اذهبوا يا أبنائي ! هيًا بنا!»

همز حصانه منطلقاً نحو المغول المقتربين وقد تطايرت السهام من مؤخرة صفوف العدو من فوق رأسه ؛ ليستقر بعضها عند حوافر حصانه وعلى التراب من حوله .

ألهب حراسه والفرسان البحريون جيادهم بالسياط للحاق به وقد ضغطوا بسيقانهم على خواصر جيادهم للسيطرة عليها بينما يذخرون أقواسهم . توقف بيبرس على بعد بضع أذرع من طابور المغول المتقدم ليقدِّر مسافته ثم رفع قوسه القصير ليطلق .

سحب الزناد وراقب طيران أحد الفرسان على الجانب الآخر عن سرجه لتدوسه حوافر الخيول القادمة من ورائه ، وبعدها أكمل رجوعه وهو يصفق بالسروج جانبي مطيته وهو يجري نحو الاحتماء بالأشجار التي هجم خارجاً منها لتوه . تبعته بقية قوة البحريين يندفعون إلى الأمام ثم ينفذون تلك الاستدارة المذهلة أمام خط العدو ، يستمتعون بالغضب الذي تثيره أفعالهم في الجانب المغولي وهم يراقبون معذبيهم يفرون منهم المرة تلو الأخرى .

لم يتسنَّ الوقت للتفكير بالموتى الذين تسحقهم حوافر خيل آلاف رماة السهام الفرسان . بدلاً من ذلك ، سحب كل رجل نجا بوصوله إلى حماية الأشجار نفساً يعبر فيه عن الارتياح ، وأطلق صلاة شكر لخلاصه . مع استمرار المغول في القدوم فقد انتهى دورهم على الخط

الأمامي ولفترة راحة قصيرة على الأقل .

طرد بيبرس حصانه صاعداً بين القوات الملكية وعثر على مكان للمراقبة في نقطة معزولة مشرفة . استمرت بقية الفرسان البحريين في القدوم . رأى أعمدة من الدخان ترتفع في المدى بينما اتجه قلاوون وبقية مجموعته إلى المؤخرة بدورهم . رفع بيبرس سيفه تحية لصديقه الذي رد عليه بمثلها .

استمر المغول برغم إرهاق خيولهم في الاندفاع الطويل خلف، الفرسان الوقحين وسط الصراخ ضباطهم بالشتائم والوعيد بالانتقام . فقد اعتبروا أن هذا هو المكان الذي سيتصيدون فيه أعداءهم ويقطعونهم إرباً ، حتى لو كان ذلك يعني تخليهم عن ساحتهم المفضلة المتمثلة في الأرض المكشوفة ليندفعوا وسط الأشجار مثل الحيوانات .

تباطأوا لدى بلوغهم خط الأشجار ، ولكن قلة من الخيالة الأكثر شجاعة اندفعت وركب أفرادها خلف الفرسان الذين اختفوا بحلول هذا الوقت .

التفت عبد نحو أنصار من مكانه على الجانب قائلاً «الآن» .

اندفع أفراد السرية خارجين من بين الشجيرات راجلين ثم أشعلوا فتائل مدافعهم . أجبر الانفجار الناري الأول كل رأس في الصف المغولي الأول على التلفت وبعد ذلك احترقت بقية الفتائل وانطلقت المدافع الخمسون المحمولة باليد في صلية مسيطر عليها واحداً بعد الآخر . أجفلت الخيول في الجانب المغولي ووقفت على قوائمها الخلفية وحاولت أن تهرب ، مما أجبر فرسانها على سحب الأعنة بشدة ومحاولة السيطرة على الحيوانات . سقط خيالة آخرون عن سروجهم بعد إصابتهم بالقذائف الكروية التي أطلقتها الأسلحة ، وحتى إنه سقطت

بضعة جياد وانهارت وهي تصرخ متألمة من إصابتها بالقذائف في جوانبها . شكلت سرية عبد المؤلفة من خمسين رجلاً قوة مغرقة في الصغر بالمقارنة مع آلاف الجياد على الجانب المغولي ، ولكن المفاجأة والضجة غير المتوقعين أرسلا موجات من الذعر على طول الخط المغولي المتوتر والغاضب ، بحيث وقع الهجوم بكامله في المزيد من الاضطراب .

في هذه اللحظة من الإلهاء رفع قطز الجالس مستقيماً على صهوة فحل عربي كميت يده وتم إطلاق الأمر بالهجوم . اندفعت وحدات الجيش الملكي النشطة وسرايا قطز الخاصة من الفرسان البحريين خارجة من مكامنها تحت حماية رماة السهام ، الذين يطلقون من مواقع غير مرئية بعيداً وسط الأشجار . في الأثناء ، كان عبد وسريته يتراجعون تحت حماية رماة سهامهم .

تسبب تأثير الألوية النشطة في انهيار ما تبقى من كتائب المقدمة المغولية وتساقطها بعضها فوق بعض - استخدم المصريون والفرسان أسلحة القتال القريب مثل الرماح والسيوف لدفع الموجة إلى الوراء وفتح ثغرة في الصفوف . استمر رماة السهام على الجانبين في إطلاق معدل قاتل من صليات السهام ، بحيث يتركون السهام تنطلق بدون حتى الحاجة إلى التسديد على أي هدف محدد ؛ لأن السهام أخذت تتساقط ببساطة على رؤوس الفرسان المحتشدين في المؤخرة .

«هذا هو المكان الذي سيتخذ فيه القرار» قال أنصار لعبد بينما هما يحتميان عند حافة القتال . «لقد استطاع بيبرس أن يرهق العدو ويذهله ، لكن السلطان هو الذين يجب عليه أن يوجه الضربة القاتلة» .

لم يستطع عبد أن يضيف أي شيء وهو يراقب الزخم يتأرجح إلى الأمام والوراء ، ويقوم رجال الجيشين بذبح أحدهما للآخر في الأرض

الوسطى ، حيث ظهر المغول في البداية وكأنهم يمتلكون اليد العليا وعلى وشك أن يشنوا اختراقاً ، وبعد ذلك يقوم الجيش الملكي باستعادة الثقة بنفسه وإبعادهم .

وقع بعد مجرد دقائق من هذا الحدث عدد من الأشياء في الوقت نفسه .

دارت قوة من المؤخرة المغولية من جهة عبد وحاولت أن تحاصر الجناح المصري الأيسر . صعق عبد لدى رؤيته أنهم يرتدون دروعاً معدنية أثقل بكثير من معظم المتقاتلين على أرض الميدان . غطت خوذهم كامل وجوههم مع وجود شقوق صغيرة في الجزء العلوي لتسمح للابسها أن يرى ما يوجد أمامه .

قال أنصار «لاتين ، فرنجة» . أشار إلى البيرق الذي يحمله الفرسان وهو عبارة عن صليب أحمر فوق خلفية بيضاء . «لقد تحالفوا مع الخان على أمل هزيمة المسلمين مرة واحدة وإلى الأبد» .

زاد اللاتين من سرعتهم تحت الحماية التي وفرها لهم رماة السهام المغول .

استداروا فجأة ومباشرة ليهاجموا الجناح الأيسر للجيش الملكي ، فسحقوا الجنود المنهمكين هناك وبدأوا يسوقون الناجين إلى جانب رجالهم ، بحيث تسببوا بالارتباك للفرسان الموجودين في الوسط .

قال عبد «إن دروعهم ثقيلة» .

أجابه أنصار «لكنها عديمة الفائدة في حالة محاصرتهم . يجب حجزهم وإيقافهم» .

ما لم يعرفه أولئك الموجودون وسط الميدان في تلك اللحظة ، انفصلت قوة ثانية من الجهة البعيدة للمؤخرة المغولية وحاولت أن

تتحرك صاعدة الأرض المرتفعة حيث الغطاء الشجري أقل كثافة ، ينوون على ما يبدو أن يهاجموا موقع السلطان نفسه . عاود بيبرس الركوب على الفور ونادى حرسه الشركسي ليلحقوه . هدر الفرسان وقد استراحوا لوهلة من هجماتهم ونزلوا عن التلة ، بحيث جعلوا أنفسهم مرئيين للمهاجمين بالصرخات والسهام المنطلقة من أقواسهم .

«لأجل السلطان!» صاح بيبرس ورد الرجال على هتافه بصرخات خاصة بهم .

استدار لينادي عليهم مرة أخرى مشهراً سيفه وفجأة انقطع صوت بيبرس في منتصف جملته ، وبعد ذلك أخذ يتدحرج رأساً على عقب فوق المنحدر الطيني . ضربت حوافر جياد حرسه الشخصي الأرض حوله . طارت يداه إلى فوق ليحمي رأسه وقد انفتلت خوذته وطارت عن رأسه من شدة السقطة . عندما عاود الوقوف كان حصانه يتعثر على مسافة بعيدة خلفه ، هناك سهم بارز من رقبته . التقط بيبرس سيفه من الوحل المثار نتيجة الهجمة ونادى مرة أخرى «لأجل السلطان! في سبيل الإسلام!»

جاءت سرعة هجومهم عنيفة إلى درجة أن أقرب الفرسان إلى بيبرس هم الذين رأوا حصانه يسقط من تحته وجاء زخم الطابور وضغط الرجال من الخلف شديداً ؛ لدرجة أنهم لم يتمكنوا من التوقف في الوقت المناسب ليساعدوا قائدهم الأعلى . أخذ بيبرس يجري خلف السرية الآن بمحاذاة الحافة الصخرية الكائنة فوق ساحة القتال الرئيسة .

أمسك أنصار بكتف عبد وهزَّه أثناء وقوفهما في الجناح الأيسر وأشار له «انظر ! انظر!»

نجح البحريون في إيقاف الاندفاع الرئيس لمجموعة الإغارة المغولية .

تولى قلاوون القيادة ولكن عدداً من فرسانهم اخترق الصفوف واستمر في التقدم باتجاه مؤخرة الجيش الملكي . وقف بيبرس في وجه أحد هؤلاء المهاجمين مباعداً بين ساقيه ومشهراً سيفه . استمر المغولي في التقدم بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين وجلسته البارزة في سرجه . انتظر بيبرس حلول لحظته المناسبة للهجوم بينما وقف عبد وكل سرية المدفع يراقبون . سحب المغولي سهماً من كنانته وألقمه للقوس بحركة واحدة ثم رفع القوس تمهيداً لإطلاقه . انتظر بيبرس حتى الثانية الأخيرة ولحظة أن أطلق الرجل السهم ارتمى على الأرض وتدحرج إلى الأمام تحت السهم ؛ ليصبح عند الفارس الذي أصبح بلا حول . قام المغولي بمحاولة ليهمز حصانه متجاوزاً بيبرس الذي نهض بسرعة فائقة وطوَّح بسيفه عبر الهدف العريض المتمثل في بطن الفرس ليرتطم السيف بساق الرجل ويطرحه عن السرج .

زمجر أثناء سقوطه وحاول أن ينهض ، لكن بيبرس أصبح واقفاً فوقه فأجهز عليه منهياً النزال بطعنة واحدة اخترقت عظمة الترقوة .

هتف أفراد سرية المدفع كما فعلت مجموعة قطز التي كانت تراقب المشهد من موقعها عند أعلى نقطة في الخط الملكي . تحول احتفالهم إلى قلق حينما رفع بيبرس رأسه ليرى خيالاً آخر تائهاً يغير عليه رافعاً رمحه . طوَّح بيبرس بالسيف بدون أن يفكر في دورة من تحت مستوى الكتف إلى دورة في الهواء ليستقر بين أضلاع المهاجم وكتفه .

ارتد السيف عن درع المغولي الجلدي وسقط على الأرض ، لكن الحركة وردة فعل الرجل المشبعة بالخوف منحت بيبرس ما يكفي من الوقت ليركض إلى الأمام ويمسك بمقدمة الرمح قبل أن يتمكن من

الوقوف مستقيماً . سحب بيبرس العصا الغليظة إلى الأسفل بقوة فسقط المغولي عن سرجه لأنه لم يشأ أن يتخلى عن سلاحه . دوَّر بيبرس الرمح بين يديه ووجَّهه نحو المقاتل الساقط الذي كان قد نهض واقفاً ومشهراً سيفه ذا النصل الملتوي الشبيه بحسام الفرسان . تجنب الطعنتين اللتين وجههما بيبرس إليه بالرمح وأخذ الرجلان يدوران أحدهما حول الآخر . بحلول هذا الوقت ، بدأ بعض حراس بيبرس يتراجعون ورآهم المغولي من فوق كتف بيبرس . حين أدرك أنه لم تعد لديه فرصة في البقاء حياً ، وجه ضربة أخرى إلى الرمح بسيفه ، وحاول أن يهاجم بيبرس . تجاوز رأس الرمح وأكمل هجومه رافعاً سيفه حين انحنى بيبرس بحدة من عند ركبتيه ورفع الرمح بكلتا يديه ليصد الضربة . دفع السيف جانباً ووجه لكمة بيمناه إلى أنف المغولي أدت إلى تدفق الدم على وجهه وطرحته على ظهره . سمحت المسافة لأحد الحراس الشراكسة بتوجيه إطلاقة حرة فاغتنم فرصته وأطلق السهم في رقبة الرجل غير المحمية ليقتله على الفور .

عاد رجال سرية المدفع إلى الهتاف ولكن انتباههم وانتباه قطز الواقف على القمة العالية تحولا إلى اللاتين المتسللين على الجناح الأيسر للمصريين .

تم إرسال طابور آخر وهو حتماً الأخير في الاحتياط من مؤخرة الجيش المغولي لتدعيم هذه النقطة الوحيدة التي تحرز النجاح على أرض المعركة . تبعت المسار نفسه الذي قطعته سرية اللاتين وألقت بكل ثقلها في الهجوم ، بحيث أجبرت الخط المصري على التراجع وأجبرت الوسط المحدد في تحركاته إلى المزيد من التكتل .

أصبحت الألوية مزدحمة على بعضها ، إلى درجة أنها أصبحت

تقدم لرماة السهام المغول كتلة واحدة متراصة ليطلقوا عليها ، حتى أصبح كل سهم يعثر على هدف له .

بدأ المركز يتداعى قليلاً بعد قليل . وصار الجناح الأيسر مضغوطاً عليه بالكامل وبدأت تشكيلاته الأخيرة تستدير وتحاول أن تهرب تحت طوفان السهام والسيوف الملتمعة على ظهورهم .

كان بيبرس قد امتطى حصان المغولي الميت ووقف يحدق في جميع التطورات الجارية على الميدان الرئيس .

«هل خسرنا يا صاحب السعادة؟»

وجه الحارس الشاب شاحب وينزف . رأى بيبرس القوة اللاتينية والمغولية المشتركة وهي تدفع بالمدافعين ذراعاً آخر إلى الخلف . نظر إلى جهة الشرق البعيدة . عصابة كبيرة تعد بالمئات إذا لم تصل إلى ألف رجل .

كان تيكا ومهنا قد اتصلا وأخذا يجريان لمهاجمة الجيش المغولي من المؤخرة .

«وقعوا في المصيدة» . ابتسم بيبرس .

«إن الله معنا» قال وكأنه يخاطب نفسه «هذا هو يوم النصر لنا!»

تقدم قلاوون على رأس مطاردي الوحدات التي حاولت أن تحاصر الجناح الأيمن ، رجوعاً إلى الطريق والسلامة المتخيلة لخطهم . استدار بيبرس إلى الرجال القلائل المحيطين به وهم قرابة عشرين من الحراس الذين عادوا لضمان سلامته عندما اعتقدوا أنه سقط .

قال لهم «أنتم أيها الرجال ، هلموا معي! لم نخسر أي شيء . دعونا نهاجم هؤلاء الكلاب ونريهم ما تعنيه الشجاعة بالنسبة للرجال الذين يسمونهم عبيداً !»

دفع بالحصان نزولاً عن الحافة وإلى مركز القتال مسرعاً ليتخذ طريقه نحو اليسار المأزوم .

في الوقت نفسه لم يستطع قطز أن يرى فرسان تيكا ومهنا القادمين ، فرفع سيفه ونادى على سريته لتلحق به «أيها الإسلام!» وهو يطرد حصانه نزولاً ليضيف فولاذ سيفه إلى سيوف جنوده المرهقين .

في أقصى اليسار شاهد عبد وأنصار من موقع احتمائهما تحت درع من أغصان الشجر الحليفين المغولي واللاتيني يكملان عودة قصوى ، بحيث أصبحوا الآن يواجهون قلب الجيش المصري وقد أداروا ظهورهم لسرية المدفع التي لم يلاحظوها .

صاح عبد «يجب أن نتحرك ! هاجموا ، هاجموا !»

وقف أنصار «لقد سمعتموه ، تحركوا خارجاً» .

خرج أفراد سرية المدفع من حفرة اختبائهم وركضوا باتجاه المهاجمين ثم توقفوا في خط متعرج على مسافة ثلاثين ذراعاً خلفهم وأشعلوا فتائل مدافعهم المحمولة باليد مرة أخرى . اخترقت الصلية الثانية مؤخرات الحيوانات والرجال أمامهم بحيث أصبح الدرع اللاتيني الثقيل بلا جدوى ضد القذائف التي ألقتها المدافع بهذه السرعة الهائلة .

لم تؤد الصلية إلى تحطيم التشكيل المهاجم فقط بل أصابت المجموعة كلها بالصدمة ، بحيث حطمت الهجوم في اللحظة التي بدا فيها وكأن الهجوم على حافة النجاح .

لم يتسن لهم الوقت لإعادة التجمع لأن هجوم قطز المضاد خرج من بين الأشجار وانقض نزولاً عليهم ، ما أدى إلى إيقاف تركيز المهاجمين على التشكيلات المركزية ومحاولة تشكيل دفاع من قبلهم

ضد هذه القوة الجديدة .

اصطدم السلطان وسريته بالخط المهاجم ودحروهم مثل الماء المندفع خلال ورقة مبتلة وشردوهم بكل اتجاه ، ثم تجاهلوا البقايا وهم يندفعون قدماً ليهاجموا قلب الجيش المغولي نفسه .

ظهر بيبرس خلف الوسط المصري المفرج عنه وبدأ مع حرسه يهاجمون المتخلفين وراء سرية قطز وهو يصرخ بعبارات التشجيع لرجاله ويدفعهم إلى الأمام كلما ترددوا . ركض أفراد سرية المدفع ومعهم عبد وسط البقايا المبعثرة للاتين والمغول ، مشهرين البلطات الطويلة التي استعملوها لتقطيع الأغصان التي موهوا بها مكان اختبائهم ، وبدأوا يقطعونهم ولا يتركوا لأحد منهم إمكانية هروب . تمايل اللاتين بجنون وسط المعمعة باحثين عن مهرب من المذبحة القائمة في حقول القتل بلا جدوى .

أعمل بيبرس سيفه في الأعداء وهو محاط بأمرائه في مقدمة الصف الأول ، يرفع السيف ويهوي به على أجساد الأعداء حتى التوى المعدن الصقيل واهترأ النصل الحاد وفقد مضاءه . في اللحظة التي بدا فيها أن النصر قد اكتمل ، اندفعت وحدات المغول المتبقية إلى الأمام بحيث دفعت الفرسان إلى الخلف للحظات قبل أن يعودوا إلى استعادة الثقة ومعاودة الهجوم . لم يكن السبب كما خشي بيبرس هو محاولة أخيرة لهجوم معاكس ، بل كانت بدلاً من ذلك نتيجة دفع قوات تيكا ومهنا في ظهور أفراد الخط المغولي المضغوط عليه وإجباره على التقدم نحو سيوف رفاقهم في المقدمة . مع اكتمال المحاصرة وصلت المعركة إلى نهايتها المحتومة . رقد قتلى المغول بالآلاف المؤلفة على أرض المعركة .

آثار الكارثة

بعد أن سدت في وجوههم كل سبل الفرار ، اختار العديد من المغول الموت بدلاً من الخزي فألقوا بأنفسهم على سيوف البحريين حتى يتمكنوا من دخول الآخرة كمقاتلين وليس التعساء والأذلاء الذين يبغضونهم ، حتى إن العديد منهم نزعوا دروعهم لتسريع العملية وضمان عدم وجود أي فرصة للنجاة .

توجه البحريون إلى مهمتهم في الذبح باستمتاع عابس وهم يحملون في أذهانهم فظاعات مذابح كتبغا عبر بلاد الإسلام حية قريبة . طلبت قلة من وحدات العدو العفو عنها ، وبعد أن تم إرسال الطلب إلى السلطان والقائد العام بيبرس ، تم منح هذا العفو .

تم تقييد الأسرى إلى بعضهم بالسلاسل والحبال ثم سيقوا من الوادي إلى البلدات المجاورة ، حيث سقطت على ظهورهم سيول من البصاق والشتائم والسياط طيلة الطريق من أولئك الذين سعوا إلى احتلالهم قبل أقل من يوم مضى .

عندما يتراءى لي الآن ، وبعد العديد من السنين ذلك الطابور البائس من الأسرى ، فإن كل ما أذكره هو أن أرجلهم كانت حافية لأن المنتصرين قرروا أن يؤخذ كل شيء له قيمة من المعتقلين الذين حولوا مدن الإسلام العظيمة إلى صحراء . أذكر ذلك وأذكر أنصار المسن وقد أمسكت ذراعاه القويتان بسترتي وهو يسحبني نحوه أثناء مراقبته لمرورهم قائلاً «ياعبد ، يا عبد ، نحن منتصرون !»

عثر بيبرس وقطز على بعضهما بعضاً بعد أن تم إخلاء الميدان في النهاية بوجود جثث الموتى المختلطة حول قدميهما وهناك ، بوجود جميع الفرسان البحريين والجيش المصري يراقبون ، رفع كل منهما ذراع الآخر ، وقدما الشكر لله تعالى على الخلاص الذي وهبهما إياه في ذلك اليوم .

بحثا عن قائدي ذلك الجيش كتبغا وبايجو ولكن لم يمكن العثور على أي منهما .

فقد أصرت عصابات المغول الناجين الذين يتجولون عبر دماء الميدان وهم ينتقون طريقهم فوق آلاف رؤوس السهام الحادة ، على أن كلاهما قد قتل في اللحظات الأخيرة من المعركة ، ولكن الجثث التي قدموها كدليل كانت مشوهة مسبقاً إلى درجة أنها يمكن أن تعود لأي جندي مغولي عادي . لم يستطع أقاربهم الذين يعملون في صفوفنا أن يقدموا أي مساعدة إضافية .

ما هو معروف هو أنه لم يسمع أي شيء بعد ذلك عن أي من الرجلين . قدمت شكري لله تعالى بعد أن وضح أنهما قد وليا ، على أنني حصلت على انتقامي من أولئك الذين دمروا موطني وقتلوا قرابة كل الناس الذين أحببتهم . كان ذلك شعوراً رائعاً لأن هذه هي طبيعة الأمور .

أقول قرابة الكل لأن صفية كانت بانتظاري عندما عدت من المعركة ، وظلت بصحبتي عندما ذهبت إلى الجامع لأقدم صلواتي بعد موت أعدائنا . طبعاً وبحلول ذلك الوقت كنا - بيبرس ، صفية ، قلاوون وأنا - قد عدنا إلى مصر بعيداً عن معارك فلسطين وأوديتها المليئة بالأشباح .

لكن تلك حكاية أخرى .

التالي في الثلاثية

السلطان

الكتاب الثالث من ملحمة بيبرس

يصدر قريباً

عن المؤلف

محي الدين قندور ، مخرج / منتج الأفلام والمؤلف / كاتب السيناريو هو صانع أفلام متمرس بخبرة تتجاوز ثلاثين عاماً في هوليوود وفي أوروبا . لديه حوالي ٢٥ رواية منشورة في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ومترجمة إلى اللغات العربية والروسية والتركية والفرنسية والإسبانية . بدأ عمله في صناعة الأفلام بإنتاج أفلام دعائية ووثائقية في ستوديوهات MPO في نيويورك .

ثم انتقل إلى هوليوود أوائل السبعينات واشتهر بعمله الهوليوودي التلفزيوني على مسلسلات كلاسيكية مثل مانيكس وبونانزا . أواخر أفلامه هي «الشراكسة» (٢٠١٠) ، «السجين» (٢٠١٢) و«قصة حب على الفيسبوك» (٢٠١٣) .

منح قندور ميدالية وجائزة الصليب الذهبي في موسكو يوم ٣١ أيار سنة ٢٠٠٥ لمساهمته في «ثقافة الوطن الأب» . كذلك منح لقب «مؤلف الشعب» (نارودني بيساتل) في الفدرالية الروسية يوم الخامس من نيسان عام ٢٠٠٨ .

قندور مواطن أردني يتحدر من أصول شركسية ويعيش مع زوجته وطفليه في بيركشاير بإنجلترا ، لكنه يسافر كثيراً لإجراء البحوث لرواياته التاريخية .



W A R L O R D

telegram @soramnqraa

رواية
NOVEL

محي الدين قندور



الكتاب الثاني من ثلاثية بيبرس

قصة تاريخية

الكتاب الثاني من ثلاثية الظاهر بيبرس

الحملة الصليبية الفرنسية تحت قيادة الملك لويس التاسع تهدد مصر والإسلام لأن القدس كانت تحت حمايتها. ينهزم المقاتلون الأيوبيون تحت قيادة فخر الدين، أحد أكثر المقاتلين تميزاً بين المسلمين، ويُقتل فخر الدين. الطريق الى القاهرة مفتوحة على اتساعها للصليبيين. لا يقف في طريقهم غير بيبرس، بدهائه وشجاعته، في بلدة المنصورة. ستقرر نتيجة هذه المعركة مصير مصر، والقدس. هي لحظة مصيرية في تاريخ الشرق الأوسط.

سيخاطر بيبرس، البطل المقاتل لدى الفرسان البحريين بكل شيء ليهزم الفرنجة ويطالب بمسيرته المستحقة له نحو السلطة ضمن التسلسل المملوكي. لكن الغيرة والمؤامرات تلاحق مسيرته، مهددة سمعته وحياته بوتيرة متواصلة.

يروي الكتاب الثاني من ملحمة بيبرس صعوده الحافل نحو السلطة في التسلسل الهرمي والذي سيعرف فيما بعد بالمماليك البحرية في مصر. يصف كذلك لقاءه المصيري مع مؤرخه ورفيقه، محيي الدين بن عبد الظاهر (عبد) الذي يوثق التاريخ في نهاية المطاف في كتابه الشهير "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"
هل يتمكن بيبرس من النجاة من جميع المؤامرات السياسية ويتغلب على أعدائه ضمن التسلسل الهرمي ليستولي على السلطة المطلقة؟

تصل سيرة بيبرس كمقاتل الى ذروتها في معركة عين جالوت التاريخية ضد جحافل المغول، والتي وقعت في الوادي القريب من بيسان، في فلسطين الحالية... يعترف المؤرخون أن هذه المعركة قد غيرت مسار التاريخ في الشرق الأدنى والعالم. فقد شكل هذا الصراع العظيم انقاذ الإسلام ومصر من خطر المغول.
هذه قصة مبنية على الحقائق والشخصيات التاريخية الحقيقية، حافلة بأعمال وأحداث ومغامرات مذهلة.
















ISBN 978-614-419-754-7
9 786144 197547